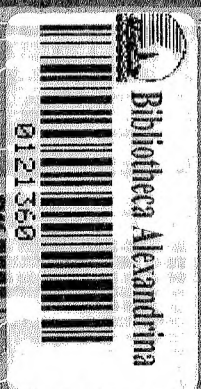
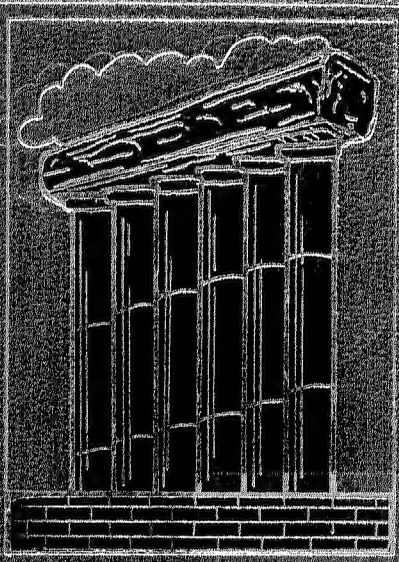
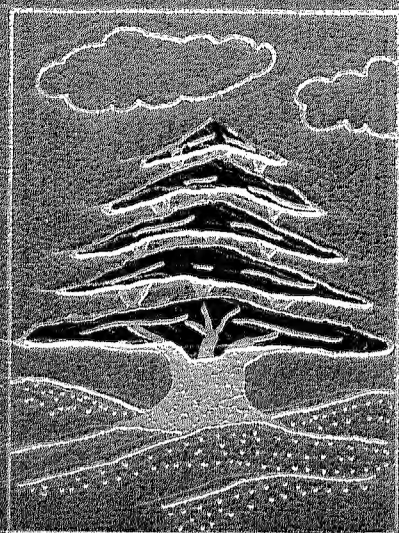


تَسْرِجُ الْأَبْصَارَ
فِي مَا حَتَّى لَبَنَانِ
مِنَ الْأَشَارِ

تَأليف
الأب هوني لافنس ليشوع

٢٠١

دار النشر





General O

General O

تَسْرِجُ الْإِبْصَارَ
فِي مَا يَجْتَوِي لِبْنَانُ مِنَ الْأَشَارِ

تأليف
الأب هنري لاميريس اليسوعي

الجزء الأول
في قسم لبنان الشمالي

نقلًا عن مجلة المشرق

دار الرائد اللبناني

الحازمية - لبنان
ص.ب. ٩٣

تمهيد

لبنان غني بآثاره التي تشتمل عليها مدنه وقراه ، ولكن معظم هذه الآثار مجهول من الكثرة الكاثرة من أبناء شعبنا ، وهو ما حدا بالمؤلف الأب هنري لانس اليسوعي الى وضع مجموعة مقالات وأبحاث نشرها في مجلة « المشرق » بعنوان « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » ضمنها من الاخبار التاريخية والادوصاف الجغرافية ما يساعد على الكشف عن آثار لبنان وإلقاء الاضواء الساطعة عليها .

وقد رأت دار الرائد اللبناني انطلاقة من مبدأ الاهتمام بتاريخ البلاد ومآثر الاجداد أن تقدم الى الأجيال الجديدة هذه المقالات مرة ثانية منشورة في كتاب يحمل العنوان نفسه الذي نشرت المقالات في مجلة « المشرق » به ، ليطلعوا من خلالها على ما مر على مسقط رأسهم من أمم وشعوب مختلفة تركت بصماتها الحضارية في كل مكان منه ، ولتزودهم بقسط من المعرفة يندر أن يقعوا على مثله ، لا سيما وأن المؤلف الى جانب حديثه عن الرسوم والآثار فهو يهتم بالكلام على الأنهار والسواحل والوديان والاعوار والاحوال الجوية والحيوانات المفقودة والمعادن والسكان ومدى انتشارهم فيه واللغات التي كانوا يتكلمون بها .

من البديهي أن لا تشمل هذه البحوث والدراسات ، وقد وضعت مطلع هذا القرن ، ما اكتشف من آثار بعدها ، الا انها والحق يقال قامت بدور مهم وبارز هو أنها حفظت كثيرا من الرسوم والآثار التي درست بعد نشرها ، وكان لها فضل الابقاء على أخبار هذه الآثار وتعريفنا بها وانقاذها من النسيان والغياب في بطون التاريخ والازمنة ، ومن هنا ميزتها . وهذا هو الذي دفع بنا الى أن نبادر الى نشرها لتكون اسهاماً في المكتبة التاريخية اللبنانية وتعريفاً للأجيال اللاحقة بما فعلته الأجيال السابقة .

الناشر

الفصل الأول

قسم لبنان الواقع في شمالي بيروت

إذا ما خرج المسافر من بيروت سائراً نحو الشرق أوّل ما يلقاه في طريقه نهر بيروت . وهو مجرى ماء ربا اضحى في الشتاء سيلاً جارفاً . واكثر الكتاب المحدثين يرتأون انه هو النهر الذي نراه بلينيوس الطبيعي نهر ماغوراس وانه كان من انهار الفينيقيين المقدسة دعوه بذلك اشتقاقاً من اسم الاله ماقار وهو اسم زحل بلقيتهم (١) وقد عارض هؤلاء الكتبة غيرهم فانكروا ان نهر بيروت هو نهر ماغوراس المذكور (٢) واحتجوا لذلك بحجج لا يسمعونها بسطها

واذا اجترت النهر وجدت في طريقك اوعلى مقربة من الطريق قرى ومزارع نظمتها حديثه العهد اللهم الأسن الفيل التي ورد ذكرها في تأليف الصليبيين مصفحة بسنسفيل (Senesfil (٣) . ثم تقطع سهلاً مستطيلاً على سيف البحر يؤدي بك الى نهر انطلياس الذي مجواره موقع القرية المدعوة به

واسم انطلياس كما لا يخفى معرب وقد تضاربت في اصله الآراء فن العلماء من زعم انه نُسب الى النبي الياس واهل القرية يعظمون هذا القديس ويكرمونه اي اكرام ويقدمون لكنيسة المشيدة في قريتهم النذور ويأنفون ان يحلفوا باسمه واذا حلفوا كهوا الحث بايمانهم فليل ان الضيعة دُعيت لذلك باسم هذا النبي . الا ان في هذا التفسير شبهة لانه لا يبين معنى أوّل لفظة « انطلياس » ولم يحاول بعد احد شرحها . وجاء في تقليد اهل لبنان ان انطلياس دُعيت باسم بعض المشاهير او المعبودات ولم يمكننا تحقيق ذلك

ولعل انطلياس مشتقة من الكلمة اليونانية (ἀνθράκω) اي مواز للشمس لان انطلياس تقابل الغرب بينما تواجه بيروت جهة الشمال . وهذا الشرح لا يتجاوز حد

(١) راجع تاريخ الفينيقيين Movers : *Phoenizien*, I, 262 et 666,

(٢) راجع مجلة العاديات , 1878, I, 13, Note ١, Revue Archéologique,

(٣) راجع Rey : *Colonies franques* p. 524,



جوار عطفة انطلياس - المارة والبع

آثار لبنان - صربا وجونية

الحُدُس والرَّجْحَان . وعلى كل حال إنَّ انطلياس قرية قديمة العهد يشهد بقدمها ما وجده علماء العاديات من الآثار الجليلة كهواميس ذوات حجر واحد من الرُّخام المحبَّب ونواويس وبقايا بنايات قديمة . فلا شكَّ أن العمد يدلُّ أن ثبَّت كان هيكَل للعبادة كما أن النواويس المكتشفة تشهد بوجود مدفن قديم وبقايا الابنية تبين وجود القرية القديمة سواء تدعى بانطلياس او باسم آخر منقود وموقع انطلياس حسنٌ جداً لا بدَّ أنه استلقت منذ قديم الزمان انظار الاهلين فسكنوه وعمرّوه ولا نظنَّ أنَّ قراءنا نسوا ما كتبه في اعداد المشرق (١٠٤:١) حضرة الاب زموغن بخصوص محطَّة انطلياس القديمة وما وُجد فيها من الآثار التي تقدّمت عهد التاريخ . والذي حمل الاقدمين على ايثار انطلياس وتفضيلها على ما سواها انما هو نهرها ذو الماء العذب الزلال الذي يولي البقعة المجاورة للضيعة نضارة وخصباً

وكانت السكَّة الرومانية الواصلة بين نهر الكلب وبيروت تجدي سكَّان انطلياس منافع جنة فتسهل لهم نقل كل خيرات المدينة ولا غرو أن الرومان اقاموا هناك نضباً للدلالة على المسافة بين بيروت والقرية التي نحن بصدددها وهي مسافة خمسة اميال اي نحو سبعة كيلومترات ونصف

فهذا جلُّ ما نعرفه الآن عن انطلياس . وقد زعم البعض ان هذه الضيعة هي مدينة لاونتوبوليس القديمة (١) وهو رأي واهن لا يمكن اثباته ببرهان صحيح . والصواب أن لاونتوبوليس كانت في جنوبي بيروت على طريق صيدا .

٢ صربا وجونية

ثم تعبر نهر الكلب الذي كان يدعوه الاقدمون ليكوس ومعناه الذئب وتسير مدّةً فتصل الى ضيعةٍ موقعها شماليّ النهر تدعى صربا وهي منتصبة فوق الصخور المشرفة على خور جونية . وهو شرم في البحر يُعدّ من احسن خليجان سوربة ولو اراد احدٌ أن يحوّله الى مرسىٍ لتهيأ له ذلك دون مشقة . وليس في كل ساحل الشام من غزّة الى الاسكندرونه ميناء طبيعيّ سواء . وهو في جهته الشمالية

عميق النور فلا بأس على السفن اذا ألتقت هناك مراسيها لان هذه الجهة الشمالية آمن من الجهة الجنوبية التي قعرها رملٌ . وخور جونية بمعدل عن الرياح الخطرة الشديدة المهبوب كريح الشمال ورياح الجنوب والصباء . ومع كل هذه الخصائص بقيت جونية قرية لا يُعبأ بها مدة اجيال طويلة ولا علة لذلك سوى صعوبة الوصول اليها وانحصار اطرافها بين جبال عالية تُطلّ عليها شرقاً ومضيق نهر الكلب والمعاملتين شمالاً وجنوباً . وعليه لم يمكنها ان تنبسط في السهول المجاورة وتوسع نطاق ارباضها كغيرها من المدن مثل بيروت وطرابلس وصور وصيدا.

ورغمًا عن هذه العوائق قد اخذت جونية منذ أمدٍ قريب تحفل بالسكان وتزيد اتساعاً . وقد نالت نصيباً كبيراً من الحظ منذ أنشئت السكة الحديدية على ساحل البحر الا أنها تقتقر لترقى في معارج النجاح الى شيئين اعني الى مياه عذبة يجلبها اليها اهلبا من احد الينابيع القريبة والى بعض تحسين سهل في مرفأها بأن يجعل له رصيف لنقل البضائع الى البرّ ونزول الركاب وتعميق بعض اطراف الخليج . فلو اخرج اهل جونية هذه المشروعات الى حيّز العمل اضحت بلدتهم من ابهج البلاد واشبه شي . مع صغرها بمرفأ نابولي الممدود من ابدع منازده الدنيا

هذا ما يختصّ بنجور جونية اما البلدة نفسها فقد اشتق اسمها من خليجها فدُعيت به جونية جونا أو خورا . ولها ذكر في تواريخ القرون المتوسطة . وكانت في ايام ياقوت الرومي من اعمال طرابلس (١) . وقال الادريسي (٢) وهو من كتبة القرن الثالث عشر : « ان جونية حصن على البحر واهله نصارى يعاقبة » . وذكر لها في محل آخر كورة (٣) وذلك مما يشير بنوع جلي الى اهميتها . وقد ورد ايضاً اسم جونية في تأليف الصليبيين وهم يدعونها جوينة (Juine) . اما قدماء الجغرافيين من اليونان والرومان فلم يروا شيئاً عنها ولا عن صربا التي كانت تُعدّ من ارباضها متعلّقة بها . ولذلك لم نرَ نحن ايضاً ان نفصلها عن بعضها

قال پلينيوس الطبيعي : « ان بين نهر ليكوس (نهر الكلب) ونهر ادونيس

(١) معجم البلدان (٢ : ١٦٠)

(٢) راجع طبعة غلامبستر ص ١٧



مدخل مقارئة انطلس

(نهر ابرهيم) مكاناً يُدعى باليبيلوس (Palæbyblos) . وزاد عليه ايضا حاً
اسطرابون الجغرافي قال: « اذا سرت من بيلوس (جبل) جنوباً تلقى في طريقك
اولاً نهر ادونيس ثم جبل كليمكس (ὄρος Κλημῆς) ثم بعدها باليبيلوس واخيراً
نهر ليكوس » . فاذا اعتبرنا كلام اسطرابون لا نجد بين نهري الكلب و ابرهيم سوى
محلين احزا لهما في الزمان القديم شهرةً بعدد سكّانها وهما « برجا » و « جونية
صربا » . وما من موقع الاهما يحسن ان يكون مربوطاً للسفن . وتعيين المرافي
كما لا يُخفى من شأنه ان يبين موقع المدن الفينيقية القديمة لحذق الفينيقيين بفن
الملاحة وتفرغهم للتجارة (١)

واول ما يفيدنا اسطرابون انّ باليبيلوس هذه في جنوبي جبل كليمكس فاذا
تحققنا موقع هذا الجبل استدللنا ايضاً على مكان باليبيلوس . ونظن ان الجبل
المذكور هو الجبل المشرف على البحر في شمالي جونية بقرب المعاملتين وهو عبارة عن
صخور مرتفعة يَرّ في وسطها طريق الساحل . وتسمية اسطرابون لها بكليمكس موافق
جداً لان كليمكس (Κλημῆς) باليونانية معناه المرتقى والدّرج . وقد أثر بعض
العلماء (٢) رأياً آخر في تعيين جبل كليمكس فقال انه هو الجبل المشرف على جونية
الذي تعلوه قريتا حريصة وغسطا . وما فيه من المرافي الصعبة اشبه شيء بدرج
السلم فدعى لذلك كليمكس . وكلا الرأيين محتمل فندع لقرائنا ان يرجحوا الواحد
على الآخر . وبناء على هذين الرأيين لا بدّ من القول انّ باليبيلوس هي صربا لوقوعها
في جنوبي جبل كليمكس

ولا غرو ان يكون موقع جونية و صربا استلقت منذ القدم انظار الفينيقيين
وهم في حاجة الى نقل بضائعهم بحراً . وعلاوة على ذلك اننا نعلم ان اكثر المدن
الفينيقية كانت مبنية في سالف الزمان على نُشوز او على رؤوس تشرف على البحر
كما ترى في جبل وصيداء وبيروت وصور وهلمّ جراً . فلا ريب اذن ان صربا

(١) راجع مجلّة المباحث (Études, 1861, p. 524) وفيها مقالة ذات شأن في آثار
سورية للاب بوركنو اليسوعي . الا اننا لانوافق كاتبها في رأيه عن باليبيلوس . وسأأتي ذكر
هذا المبحث في معرض كلامنا عن برجا

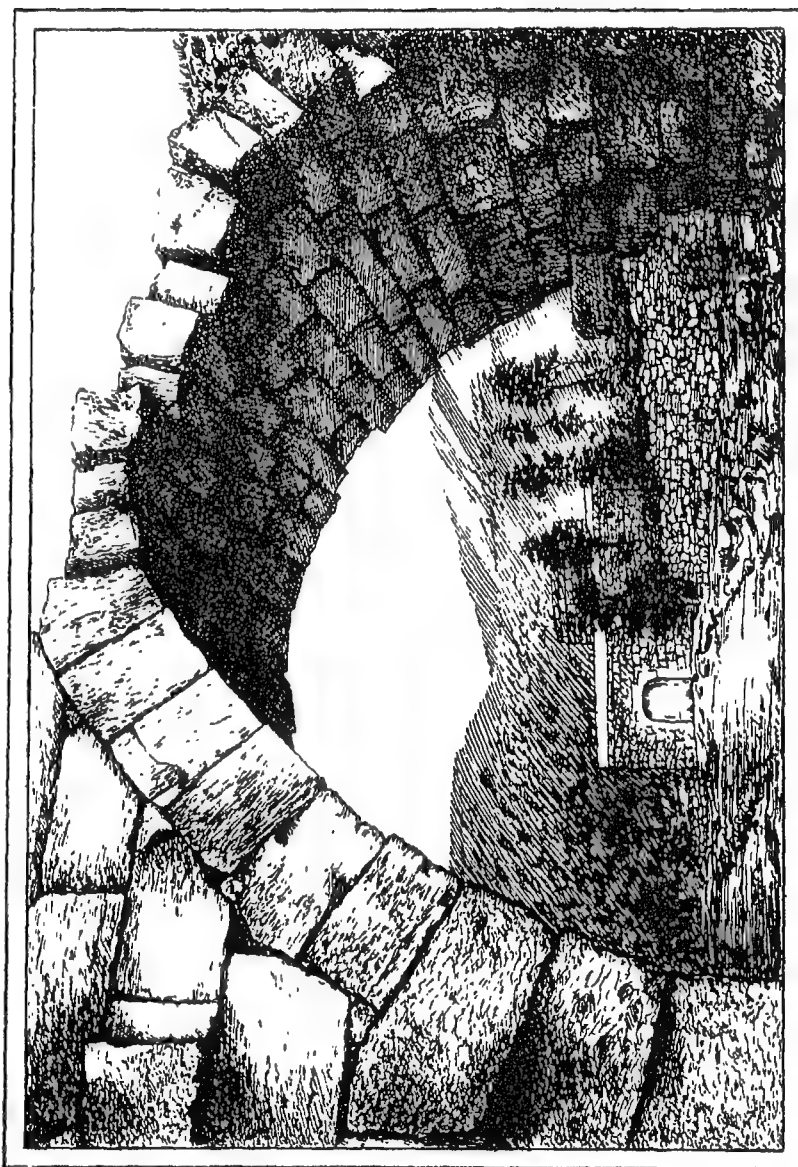
(٢) راجع مجلّة العاديات 1878, I, 3 et 15 Revue Archéolog.,

وجونية اضمحتا قديماً مقاماً للفينيقيين ومرفأ لسفنتهم
وما وُجد في هذه السنين الاخيرة من الآثار القديمة بصربا يؤيد رأينا . إلا انّ
البنائات الحديثة قد أفتت كثيراً من تلك البقايا الجليلة التي وصفها السيّاح منذ بضع
عشر سنين . ومن هذه الآثار مغارة يكرّم فيها اليوم القديس جرجس ويظهر انها
كانت سابقاً هيكلًا لعبدة الاصنام . ومنها القبر المعروف بقبر بنت الملك وهو
مدفن قديم . ومنها ايضاً قبور ومعاصر قديمة الى غير ذلك من الاخبار الدارسة
ولكن اعظم هذه الآثار قلعة صربا التي لم يبقَ منها غير قسمها الاسفل وهو
عبارة عن حجارة ضخمة تشبه حجارة دير القلعة . وكان سابقاً بجوار تلك العارة
اعمدة ورؤوس اعمدة وبقايا آخر من هيكل قديم (١) لانّ هذه القلعة كانت مبعداً
للوثنيين ولعلها كانت مخصصةً لعبادة سيراپيس . وقد اشتق الكاتب كولنا سكّليدي
(Ceccaldi) اسم صربا من اسم سيراپيس اله هذا الهيكل . وقد اكتُشف ايضاً
في صربا وجونية على مسكوكات فينيقية وتماثيل وكتابات من جملتها كتابة يونانية
في ركن بعض التماثيل كتب فيها (Ζεύς ἐπουράνιος) اي « المشتري السماوي »
فيظهر اذن مما تقدّم انّ جونية وصربا شيدتا في موضع مدينة قديمة يرجح انها
پاليپلوس وكان معظمها فوق الصخور في محلّ صربا وكانت جونية كمرفأ لها منذ
ايّام الفينيقيين

٣ نهر الكلب

ان طريق جونية كما ذكرنا في مقالتنا السابقة يقطع نهراً طاماً ورد ذكره في تاريخ
سواحل فينيقية وهو نهر الكلب . وليست خطارة هذا النهر بعمق غور مياهه او
طول مسافة سيله لانّ اصله كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جبعيتا تبعد عن
البحر ستة اميال فقط وتختلط مياهه عند خروجه بالمياه المنحدرة من اعالي لبنان من
نبعي اللبن والعسل فيجري من ثمّ مرغياً مزبداً حتى ينتهي الى البحر فيصب فيه .

(١) وقد نقل البناؤون كثيراً من هذه الحجارة فامتدوها للبنائات المستحدثة كما فعلوا
في دير القلعة . وهذا امر لا شك يؤسف عليه فاذا داوم الاهلون على خرقهم في تحطيم هذه
الرسوم لم يبقوا عملاً قليل في لبنان شيئاً من الآثار القديمة



جسر المامتين الروماني

وانما انهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لأن عند مصبه مضيقاً لا بد من قطعه لمن حاول المرور في سواحل سورية ولذلك اضحى هذا المكان في كل الأزمنة كأزق به اصطلت نيران الحروب بين الملوكة الفاتحين وسكان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدمنا ان اسمه باليونانية « Λύκος » اي ذئب فعرب بنهر الكلب . ولكن أتى له هذه التسمية وما سبب هذا اللقب ؟ نحب ان الاقاصيص الشائعة بين العامة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها ان كلباً هائلاً كالغول كان يحرس هذا الممر الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحل له لغزاً يعرضه عليه . وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطيع الى فك احاجيه سبيلاً . ومنهم من زعم ان النهر دُعي كلباً لأن الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلب . يعبدونه ويدعون أنه اذا وافهم العدو ينبح الكلب فيحذره من هجائه . ويقولون ان بعض الصخور المجاورة للنهر تتجمل جسم هذا الصنم بيد ان رأسه قطع فألقي في البحر . ولا نظن ان في هذه الاحاديث شيئاً من الصحة لأن العلماء لم يلقوا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلاً عن ان الكتب الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امره . والرأي الصواب عندنا ان النهر يُسمى ذئباً او كلباً لصخابة صوته عند انصبابه في البحر حيث تصطدم مياهه بالامواج المتلاطمة فيسمع له دوي عظيم (١) ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاه القدماء نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) فعرب بالليطاني وهو الذي يصب في البحر بين صور وصيدا ويسمى عند مصبه نهر القاسمية

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانية التي نُحِتَتْ في وسط الصخور المطلّة على النهر جنوباً وقيل ان مرقس اوريليوس انطونينوس الملك (٢) بين سنتي ١٧٧ و ١٨٠

(١) راجع Ritter : *Erkunde*, XVII, 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة لذكره هنا

(٢) قد وهم الشيخ طئوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ١٦) اذ نسب هذا المشروع الى انطونيانس قيصر في سنة ١٦٧ والصواب كما ذكرنا . والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكر في الاولى تمجده للطريق

وتم هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمه « Via Antoniniana »
 أما الجسر فكان سبقة الى بنائه انطيوخوس الاول المعروف بسوتير ملك
 سورية في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثم هُدم وأصلح مراراً (١) . والمعبر الذي يُعرف
 اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامه السلطان سليم خان الاول فاتح الشام كما
 يُستدل على ذلك بكتابة عربية رُقمت في عهده ثم جدّد بناءه امير لبنان الشهيد
 بشير الشهابي الكبير . وقيل ان الجسر الباقي هو جسر ثانٍ نصبه الابر بشر
 بقرب الجسر الاول بعد هبوطه (٢)

ومن الاخرة القديمة ما تراه على الضفة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناة عظيمة
 كان الرومان بنوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد
 اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا جلب الماء الى طواحينهم
 هذا على ان في جوار نهر الكلب آثاراً غير المذكورة آنفاً لها في تاريخ فينيقية
 اعظم شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر
 انكروا وجود هذه العاديات (٣) مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السيل .
 وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهميتها للمرسل الشهيد الاب مكسيميليان
 ريلو اليسوعي (٤) . فنقل رسومها بكل دقة وبعثها لعلباء اوربة ليجدوا في شرحها
 وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارة عن خمسة عشر اثراً اربعة منها خطوط
 اشورية بالقلم المسماري وُجدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني
 عشر متراً على مقربة الجسر الجديد بميلّة قليلة الى الشرق . لكن هذه الكتابات
 مطبوسة لم يُستخلص بعد منها فائدة تُذكر

(١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارقطاي المنصوري سنة ١٢٩٢

(٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٧

(٣) لو جمعنا كل ما كُتب في هذا الخصوص للدفاع عن وجود كتابات نهر الكلب
 او انكار ذلك لحصل من هذا المجموع كتاب ضخّم الحجم (راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٦١
 ص ٦٩) وما يزيدنا عجباً ان العلامة دي سوسي الكاتب الشهير لم يقتنع بوجودها مدة سنين .
 كثيرة مع انه اجتاز بقرها في غضون سفره الى الشرق

(٤) Ritter, XVII, 534



مدخل مغارة حمينا ومنع خمر الكلب

أما بقية الآثار فوقها على ضفة النهر الجنوبية وهي إحدى عشرة كتابة ما خلا الكتابتين اللاتينيتين المذكورتين سابقاً

١ فأول هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفي تتضمن مقدمة للاله «فتاح» المصري . وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخط الفرنسي مع حداثة عهده كاد ان يُطمس رسمه مع بقاء كتابة مرقس اوريليوس بعد ستة عشر قرناً

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماري موقعها بجانب الطريق كالاولى وهي تمثل صورة ملك اشوري رافعاً يده

٣ وبقرب هذه صورة أخرى اشورية تواري معظم رسمها فلا يُعَيَّر منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين متراً فوق الطريق القديمة المشرفة على السكة الرومانية تجد صورة أخرى اشورية طامسة الاثر

٥ و٦ ثم هناك أيضاً كتابتان يونانيتان ذهب الدهر بحروفهما فلا يرى منهما الا اليسير . وقد زعم دليل بيديكير (١) ان احدهما لاتينية والصواب كما قلنا

٧ وتليهما صورة أخرى اشورية

٨ ثم نُصب مصري يمثل احد الفراعنة منتصباً يقرب قربانه لاله الشمس «راع»

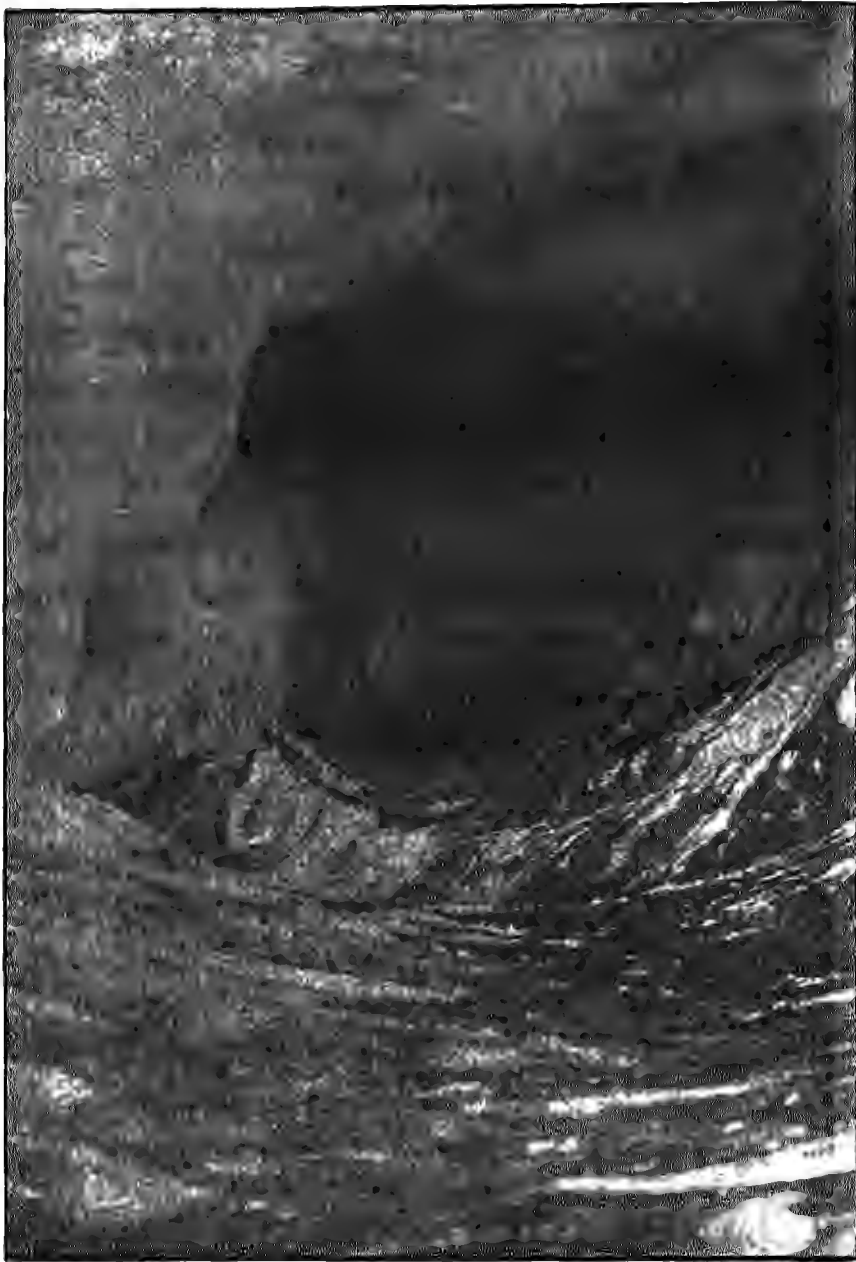
٩ وفي تلك الجهات أيضاً كتابة اشورية مع صورة مالك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

١٠ ثم رقيم مصري فيه صورة بعض الفراعنة والاله غمون

١١ واخيراً صفيحة متقنة الرسم تمثل ملكاً اشورياً ذا حية طويلة مجمدة لابساً رداء سابغ الذيل وعلى رأسه تاج ملوك اشور وفي يده اليمنى مقصرة يسندها الى صدره

فاقدم هذه الكتابات هي الخطوط المصرية التي امر برقمها رعمسيس الثاني
فرعون موسى المعروف عند اليونان بـسيوسستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر
قبل المسيح يصف فيها غاراته وفتوحاته العديدة (راجع المشرق ١: ٨٨٨ و ٨٨٩)
أما الكتابات والصور الآشورية فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل ان احداها
تمثل سنحاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوته وسوء منقلبه نحو سنة ٧٠١
قبل المسيح . والمظنون ان بقية الصفائح تتضمن صور الملوك الآشوريين تغلات
فلاسر الاول وسلمنصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثا في
بابل قد بالغوا في وصف غزواتهم لا سيما فتوحهم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية .
فتكون اذا هذه الصفائح دليلا على مرورهم في هذا المضيق وتذكارا لغلباتهم
وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتى كثيرة الى ان اجتازهُ انطيوخوس الكبير
والجأ جيوش البطالسة ان يفرّوا امامه هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرّر أيضاً
ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنج مناص من عبوره في سيرهم على ساحل
البحر . ومما يُخبر ان بلدوين الاول لما سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاه
غدريد في الملك كاد يذوق في هذا الممر كاس المنيّة لولا حذقه وشجاعة فرسانه
وجاء في معجم البلدان لياقوت (١٧: ٤) انه كانت قلعة فوق رأس نهر
الكلب (١) ولا غرو ان ملوك الشام حصّنوا هذا المركز المنيع لدفع هجمات المعتدين
ومن غريب ما ذكره الجغرافي اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر
الكلب بسفنهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلّه شئ الامر على اسطرابون لان
هذا النهر كثير الصخور لا يخلو من العقبات سوى عند مصبه . وليت شعري ما الفائدة
من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيه ضيعة مأهولة (٢) . ومن المحتمل
ان هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبه فكانت السفن ترسو عنده كما في ميناء

(١) ويقول ياقوت أيضاً ان هذا الحصن يبعد ستة اميال عن المرداسية على مسافة ثمانية
اميال من بيروت . وكذا ورد في تركة المشتاق للدريسي (ص ١٧ ed. Gildemeister)
فيتضح من قولهما ان المرداسية بين بيروت ونهر الكلب بيد انا نجل موقع المرداسية هذه .
ويرى : المرداسية



باطن مغارة جيتنا وشع نمر الكلب

فتصونها من الرياح الصغور المتصبة في جهتها الجنوبية . ولا يبعد أيضاً القول ان سفن البحارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعه في قسم الجبال ودفعه على وجه المياه الى هذا المكان (١)

ويعرف على نهر الكلب من جانيه قرية بلونة ودير طاميش والظاهر ان في مركزيهما كان هيكل للاصنام فتكون بلونة تصحيف اسم الاله ابلون (Ἀπὸλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة ارطاميس (Ἀρτεμις) وهي المعروفة ايضاً باسم ديانة . وقد وجدت ايضاً مدافن قديمة قريباً من عين طورة

٤ دير القلعة

ان آثار الاقدمين في مشارف لبنان ليست باقل شأناً منها في سيف البحر فهياً بنا ايها القارئ اللبيب قبل تقصي البحث عن عاديّات الساحل نرقي الاعالي لاستقراء بعض هذه الآثار

وليس في جوار بيروت من هذا القبيل مكان اخطار شأناً واحسن مقاماً من الابنية المعروفة اليوم بدير القلعة . وهذه الرسوم القديمة موقعها بقرب قرية مشهورة اسمها بيت مري تعلو فوق سطح البحر نحو ٧٣٠ متراً في شرقي بيروت على مسافة ١٨ كيلومتراً منها واليها يتقاطر اهل المدينة في وقت اشتداد القيظ عند الساحل وليست مري اليوم طريق يوصلها ببيروت تجري عليه العربات غير ان من يركبها يكابد عناء عظيماً ويلتحف بثوب من الغبرة تثيرها قوائم الخيل ودواليب العربات . وما ذلك الا لقلّة الاعتناء بتوفير الطريق ورصّها بالحجارة . ففراراً من آفتها آثرنا مراراً الصعود الى بيت مري مشياً مع علمنا ان في المشي نفعاً للصحة ونزهةً للابصار فانّ العين تقرّ هذه المناظر الجميلة والاذن ترتاح لصدح الطيور ويتنسّم المنشق الرياح الطيبة في وسط غابات الصنوبر والشربين

وكان آخر مرة توقّفنا الجبل للبحث عن آثار دير القلعة في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٩ صباح يوم هبّ نسيمه وصفا اديمه فما بلغ بنا المسير الى غاييتنا حتى اخذنا نسرح الطرف في بقايا هذه العاديّات الخطيرة

والحق يُقال انّ من يسير بين تلك الرسوم الدائرة والطول الدارسة لا يلبث ان يدرك ما كانت عليه ابنيته القديمة من العظمة والبهاء قبل خوابها ولكن ترى ماذا كانت هذه العمارة القديمة التي تُنبئ بها هذه الآثار الطامسة المنبئة على مسافة كبيرة . ذلك سوّال لا تُحيره كتب القدماء وتآليف المحدثين وانما تحيينا عليه الحجارة نفسها فانّ لها لساناً ناطقاً فصيح المقال . وإن نطقها الآ بالكتابات العديدة التي حُفرت فيها . فاذا أعملنا فيها نظر الفكر وقابلنا بين الافادات المستخلصة من مضمونها وهندسة هذه الآثار القديمة ثمّ عرضنا ذلك على ما نعرفه من تعبدات الفينيقيين فلا جرم اننا نحصل على معرفة اصل هذه الابنية وغايتها ومجمل احوالها

ليس من اثر يفيدنا اسم دير القلعة القديم ولعلنا لا نتصل الى معرفته في المستقبل امّا اسمه الحالي فقد اطلقه العرب على آثار أخرى في انحاء سورية فانهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الارعاء واثق الاركان محكم البنيان . وقد اخبرنا احد فضلاء الرهبان الذين يسكنون الدير المجاور لهذه الاخوبة ان اسم هذا المقام «بيروت العتيقة» وجده في صك لمبيع ملكه كُتب في القرن الثامن عشر . فان ثبت على دير القلعة هذا الاسم صحّ عن بيروت ما اخبره بطليموس الجغرافي عن جبيل اذ قال انه كان لها مقام يُدعى «جبيل العتيقة» (Palæbyblos) وانّ موقعه بعيد عن الساحل (μεσόγειος) . وهذا قولٌ اوردها هنا على علّاته ولا نجعل ان آراء العلماء متضاربة في تعيين مكان بيروت العتيقة بل في وجوده لكنّ تقليد العامة ربّما كان دليلاً يهتدي به العلماء لمعرفة الآثار القديمة

وعلى كل حال لا يسوغ ان ننسب هذه الابنية لعهد سبق زمن ظهور النصرانية فانّ اقدم كتابة وُجدت في هذه الاخوبة نشرها الرحالة سِترين (١) ذكر فيها الملك «اغريبا» ترتقي الى نحو القرن الاول بعد المسيح

وقد وقفنا الله الى اكتشاف كتابة نُقشت في حجارة هذه المباني ورد فيها اسم القيصر اديان في بدء القرن الثاني للمسيح . وليس مرادنا بذلك ان هذا المقام

كان قبل ذلك خالياً من الآثار . كلاً . فأننا على يقين ان الفينيقيين شيدوا فوق هذه المشارف معبداً كانوا يحجّون اليه او على الاقل مذبحاً او نصباً في غابة كانوا يقضرون عنده مناسكهم على مثال المشارف والانصاب التي ذكرها الكتاب الكريم (١) فن ثم نطن ان دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل افقا لجبل ومقام هيكل بيتوكيكي (٢) (Bætocece) (حصن سليمان) لجزيرة ارواد . وكما ان هذين المعبدين سبقا النصرانية فكذلك تقدّمها معبد دير القلعة . وما يؤيد رأينا اسم الاله الذي عبده الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونه بعل مرقد Baal (Marcod) وهو بلا شك اسم فينيقي

اما بقايا الهيكل الماثلة الى يومنا هذا فليس فيها ما يدل على مثل هذا القدم كما ان الكتابات لا تنبئ بذلك . واذا قابلنا هيئة هذه البنايات والمواد المتخذة لها وطريقة بنائها وجدنا انها تدخل في حيز الابنية المعروفة بالجدارية (cyclopéens) لضخمتها وكبرها . ولا يخلو هذا الهيكل من آثار عجيبة كاعمدة وحجارة عظيمة تضاهي بعض حجارة بعلبك وسواريتها . لكن اصحاب العاديّات يتفقون اليوم على أن قدم الابنية لا يناسب دائماً عظمتها وكبرها بل ربّ بناء قديم صبر على ممر الزمان بخلاف عمارة اخرى احدث منها ضخمة الحجارة اخني عليها الدهر فطس محاسنها

واذا اعتبرت هندسة ابنية دير القلعة لا ترى فيها شيئاً اختص به الفينيقيون دون غيرهم . والاخرى نسبتها الى الرومان لان منها تلوح طريقتهم في البناء ويمكن تعدادها بين الآثار الجليلية التي خلّفوها لنا في القرن الثاني والثالث للمسيح ونرجح كونها سبقت عهد هيكل بعلبك الكبير واذا تفقّدنا المباني المشيدة في قبة هذه الربوة وقفنا على غايتها الدينية فان

(١) راجع مثلاً سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٠) حيث ورد عن بني اسرائيل قوله : « واقاموا لهم انصاباً وغازيات على كل اكمة عالية وقحت كل شجرة خضراء »
(٢) قد تفقّدنا آثار هذا الهيكل الذي وصفه العلامة راي ودوسو :

Rey: *Archives des Miss. scient.* III, 336 ; Dussaud: *Voyage en Syrie*, p. 15,
Extrait de la Revue Arch. 1897.

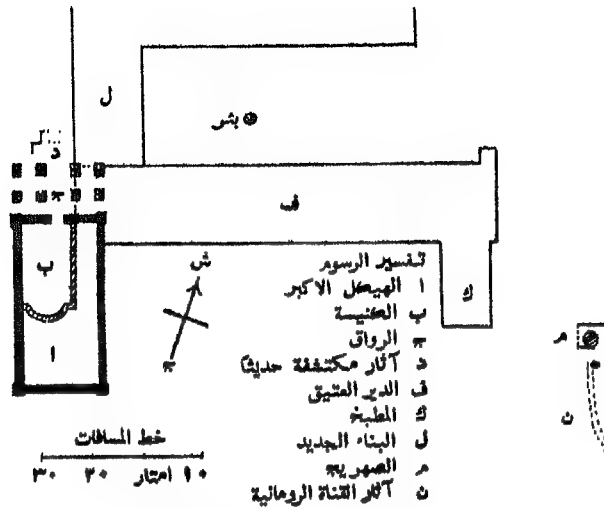
هناك خطوطاً صريحة في هذا المعنى يُستفاد منها انه بُني ثَمَّت هيكل على اسم بعل مرقد (١) اله تلك الناحية . وربما دُعي هذا الاله باسم يوناني (Μηνυρις) لم يستدل احد بعد الى معناه . والعلامة الخطير كرمون غاثو يظن ان هذه الكلمة تدل على اسم الاله الشخصي وان « بعل مرقد » لقبٌ عُرف به في هذا المكان . وألقابه كلها تنبئ بعظم شأنه عند الفينيقيين وسموه بين مصاف الالهة الفينيقيّة . ويؤخذ من احدى الكتابات المكتشفة هناك ان الهاً مجهولاً يدعى أرْمِثِنُوس (Ἀρμήθινος) يحث المتعبدين له أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد

ومعنى اسم هذا الاله وسبب تسميته بمرقد يُستخلص من اصل اسمه باللغة العبرانية وهي فرع من الفينيقيّة فان « مرقد » مصدر يشتق من فعل 767 اي رقص وعليه يكون بعل مرقد اله الرقص والبسط . ولا يبعد ان هذا الاله هو نفس اله الرقص المعروف عند المصريين باسم « بيس » (Bès) وان المصريين اتخذوه من الفينيقيين . ومن القابه التي دُعي بها في الكتابات انه ملك المآدب والولائم (٢) (Κοίρανε Κώμων) ولعل هذا الوصف دليل على ان قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل للقصف وتوفير اسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي بعض اصحاب الملاهي يحذون بذلك دون ان يشعروا حذو اجدادهم

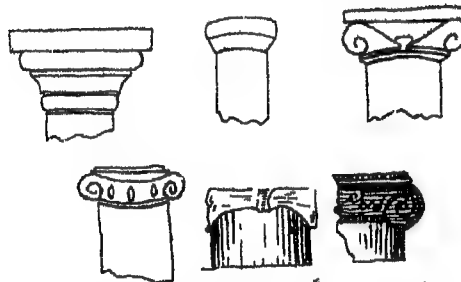
بيناً في ما سبق ان الاله المعبود في دير القلعة كان اسمه بعل مرقد . فلما استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقي في مصف الهتهم بل اعتبروه كأنه هو معبودهم الكبير « المشتري » لا يفرقه عنه إلا اسمه فشيّدوا له ذلك الهيكل العظيم الذي حجّه السورّيون والرومان معاً . والكتابات اللاتينيّة التي فيها ذكر « المشتري بعل مرقد » كثيرة . وكان اهل بيروت المدعوّة في ذلك العصر

(١) والكتابات منها يونانيّة على صورة تقدمة (Κυρίῳ γενναίῳ Βαλμαρκώδῃ) او (Θεῷ Βαλμαρκώδῃ) ومنها لاتينيّة يدعى فيها هذا الاله « المشتري بعل مرقد » (Jovi Balmarcodi) او بالاختصار (J(ovi) O(ptimo) M(aximo) Balmarcodi) . راجع : C. l. L., 155 و Waddington : *Inscrip. gr. et lat. de la Syrie*, nos 1856-1857 وكتاب كرمون غاثو في العاديّات الشرقيّة الجزء الاول ص ٩٥

(٢) راجع Waddington, n° 1855

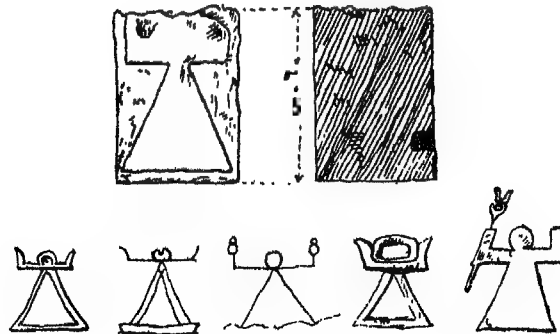


رسم هيكل البعل في دير القلعة



راجع مجلة الماديات سنة ١٨٤٦ (ص ٦٢١ و ٦٢٣)

بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة



صور المخروطات رمز عشتاروت

« المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة » يقيمون فيه انصافاً للملك رومية من جملة ذلك نصب للقيصر ادريانس استُخرج محطماً من تحت الردم سنة ١٨٩٧ اسعدنا الحظ على قراءة مضمونها كما يأتي ١ :

| | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| [Imp.] CAESARI DIVI | [اللامبراطور] القيصر الالهي |
| [Tr] AIANI PARTHICI FIL(io) | وابن [طر] ايانس الفرطبي الالهي |
| DIVI NERV(æ nepoti) | وحفيد نرقا الالهي |
| TRAIANO HADRIANO AV(gusto) | لطر ايانس ادريانس اوغستس |
| PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia) | الحبر الاعظم بسلطة مثلي الشعب |
| POT(estate) COS III P(atri) P(atriæ) | قنصل للمرة الثالثة اب الوطن |
| COL(onia) IVL(ia) AVG(usta) FEL(ix) | المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة |
| B(erytus) | بيروت |

ولمّا عدنا الى بيروت فرحين لاكتشافنا هذا وجدنا في مجموع كتابات وادْنِغتون (عدد ١٨٤١) في جملة آثار بيروت كتابة تشبه كتابتنا المذكورة كل الشبه كأنها هي الآ في تشبه الالفاظ المقتصرة . فاخذنا من ذلك العجب كيف اتصل وادْنِغتون وبعده دوناتي واوركي الى هذه الكتابة مع انها حديثة الاكتشاف كما قلنا . ولعل اهل بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد

وكانت المرتبة الاولى في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للالهة « جونون الملكة » (٢) وكانت تُعد زوجة لاله وشريكته في جلال عزته . ورتج كون جونون هذه هي الالهة السامية بعلة عشتروت وحدها الرومان بالهتهم جونون . وكان عبدتها يأتون هيكل دير القلعة ليستشفوا بحجابتها ويستقنوا كهنتها كما يستدل على ذلك من بعض الكتابات التي نشرها كلرمون غانو (في كتابه العاديئات الشرعية

(١) وقد وضما بين مكّفين ما يُقتضى زيادته

(٢) هذه ترجمة اللفظة اللاتينية (regina) ويوز ترجمتها بالبعلة وقد ورد ذكر هذه الالهة في اسفار الانبياء باسم « ملكة السماء » (ارميا ١٨:٢ الخ) . وكان للرومان في جبل ترّيبّوس هيكل باسم هذه « إلهة السماء العذراء » شاعت عبادتها بعد حرب رومية مع قرطجنة وكان اهل قرطجنة يمتدّونها كإلهتهم العظمى . والرومان جعلوا عشتروت هذه وجونون إلهة واحدة فبدوا الاولى بصورة الثانية (راجع مجلة Acad. des Inscript., Comptes - rendus, 1898, p. 475)

ص ١٠٧). وفي دير القلعة كتابات عديدة لاتينية تتضمّن تقادم ونذوراً من قبل الالهين لهذه الالهة . من ذلك ثلاث كتابات نقشها جندي روماني يُدعى « غايوس يوليوس مكسيموس » نشر منها العلامة كلرمون غانواثنتين (ص ١٠٧ و ١١٠) ووجدنا الثالثة في جنيّة المرحوم الفنس نقاش في بيت مري . وهي مكتوبة على حجر كُسرت قطعتين فجواها : « انّ الجندي المذكور يُبرز نذره للالهة جونون بطيب قلب »

ومن عادة القدماء انهم كانوا يكرمون في الهيكل الواحد عدّة آلهة . مثال ذلك انّ دير القلعة كان إلهها وسيدها الاعظم (١) بعل مرقد ثمّ الإلهة جونون كما مرّ . وترى معها ذكر آلهة آخرين ومما وجدنا في جنيّة المرحوم الفنس نقاش قطعتين من كتابة طبع كلرمون غانوا قسمها الاخير (٢) امّا القسم الاول فاستخرج حديثاً من الاطلال لم يُنشر بعد بالطبع وهذه الكتابة عبارة عن مقدمة قدّمها شخص يدعى مرقس ستّيس للمشتري الّه بعلبك (I. O. M. Heliopolitanus)

ومما نحبّ إلقات النظر اليه ان اخربة دير القلعة كثيرة الكتابات اللاتينية . وهي كما لا يخفى على من له ادنى إلمام بالعنائق نادرة جداً في ما سواها من الامكنة الشامية . والسبب لذلك على ما نظنّ ان من استعمر بيروت من الجنود الرومانيين (وكان منهم في بيروت فنتان الخامسة والثامنة) اتخذوا هذا المكان كصيف يقضون فيه فصل القيظ كالمثّرين من اهل زماننا فتركوا ثمت آثاراً جمّة تنبئ بسكناهم وتعبدهم لبعل مرقد . ولو حاولنا سرد هذه الآثار لطالت بنا المقالة طويلاً مفراطاً واكثرها عبارة عن أعلام ليس في ذكرها كبير امر لقرائنا . وترى بين هذه الاسماء أعلام قوم من اهل الحرف والصناعات فضلاً عن الجند ولا يخلو منها اسماء بعض الاشراف من اعيان الرومان في ذلك العصر

وغاية ما يمكننا قوله انه كان في جوار هيكل البعل عدّة منازل لسدنة هذا المبدع وكهنته ثمّ للجند الرومان واهل الثروة وبعض العمّة . ولا زانا نتجاوز الحقيقة لو

(١) ونظنّ ان اسم القرية اشتقّ من عبادة هذا الاله فدُعيت لذلك « بيت مري » من السريانية حمة هنما اي بيت السيد (البعل)

(٢) في كتاب عاديّاته (الشرقية السابق ذكره)

قلنا انه كان حول دير القلعة قرية . يستبدل على ذلك بوجود معاصر قديمة ونواويس ضخمة منحوتة في الصخر . وكل ذلك يشهد بان الناس جعلوا سكناهم في تلك الهضاب . امّا بيت مري فلم نسمع انّ احداً وجد فيها شيئاً من الآثار القديمة مع ان البناء فيها متواصل والحفر في الارض كثير

فمّا تقدّم يسوع لنا ان نستعيد بالفكر ونُحيي بنظر الفهم حالة دير القلعة في القرن الثاني والثالث للمسيح فنقول انّ تلك الرُّبى كانت تكّل هامها غابات وارفة الظلّ وكانت على منعطف ذلك الجبل اشجار باسقة الاغصان تحجب اشعة الشمس المتقدّة وترطب بفينها ذلك المقام النزه وكان الصنوبر يغلب عليها وقد بقي منه بعض البقايا

وكان لا بُدّ لهذه الغابات مياه غزيرة تروي تربتها وتُسمي جذورها كما انّ المياه كانت ضرورية لخدمة الهيكل واهل القرية وللمئين من الحجاج والزوّار ولغسل الذبائح . فسداً لهذه الحاجة الماسّة استجلب القدماء المياه من العيون المجاورة لاسيما من عين عرعر وراء بعبدات وكانوا اصطنعوا لذلك قناة محكمة لا تزال بقاياها ظاهرة الى يومنا هذا . وكان في ساحة الهيكل احواض واسعة تجري فيها المياه وتقوم الفوارات على هياكل بديعة تروق النظر . ويشهد على ذلك كتابة يونانية ورد فيها وصف انبوب قدّم للهيكل مُصطنع في جزيرة رودس ليُجعل فوّارة للماء ١)

ففي وسط هذه البقعة الجميلة المنظر كان هيكلان عظيمان احدهما للبعل والاخر لليونون او عشتروت . وكان للاول رواق رحب الفناء يسنده ثمانية اعمدة ضخمة من الرخام البلدي ٢) وكان يُصعد الى هذا الرواق بدرج يوازيه حسناً وسعة كما اعتاد ذلك الرومان في ابنتهم . امّا هيكل يونون فقد عبثت به يد الحدثان

(١) راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٩٦ ص ٨٠ . وكان اهل رودس يرسلون الى بيروت طُرُفاً من صناعتهم لتباع فيها (Comptes - rendus de l'Acad. Inscript, 1898, 522 راجع)
(٢) وقد زعم رينان (Mission de Phénicie, p. 353) ان هذا الرخام هو الرخام المصري المحبّب والصواب ما قلنا . وللمسيو رينان في وصف دير القلعة اغلاط شق لا يسمنا تفنيدها

حتى يصعب على علماء العاديات بيان رسمه وصورته بل وموقعه أيضاً
وكان هيكل البعل في داخله مزيناً بتمثال الإله نُصب في كوةٍ على جانبيها
العمد من الرُخام تشبه المظلة . وقد ورد في كتابات دير القلعة ذكر تماثيل أُخرودمي
لا نعلم أكانت في داخل البناء او في الرواق (١)

امّا طريقة هندسة الهيكل فان بيان صورتها ليس بسهل فانك ترى بين البقايا
والاخرية ما يُشعر بالهندسة الكورنثية والايونية معاً كما ترى في الاشكال
المختلفة المائلة لبعض أعمدة قد رسم نقوش اكلتها حضرة الاب رزقال وكان
رافقي في هذه الرحلة ودقق البحث عن آثار دير القلعة الا انه بقي مرتباً في
بيان صورة هندام الهيكل القديم . ولنا قدرٌ بعد فحص الاخرية الباقية الى يومنا
هذا ان علو البناء كان يبلغ ٢٥ متراً . وذلك بلا مرء دليل على عظم هذا المعبد
وجليل قدره

وكانت الاشجار تقيس بافتانها حول هذه البنايات بينما كانت الوف من الطيور
تصيح فوق رؤوسها وتغرد طربةً ومن جملتها الحمام البيض رمز الإلهة عشتاروت
كانت تحلق في الهواء ثم تحط في اوكارها ساجدة . وفي وسط الاشجار كانت
تماثيل عديدة منتصبة على دكك مرتفعة وهي تتل اصناماً وأبطالاً وبينها مذابح
للضحايا والمحروقات ثم اهرام صغار ومنها حجارة مخروطة الشكل يعلوها شبه رأس
ويتصل بها شبه ذراعين قد اختلف العلماء في شرح معناها

والمرجح انها صورة « تانيت » معبودة اهل قرطجنة وهي عشتروت نفسها
وقد يراد بها صورة بعل حثون او اله الشمس وكلها من آلهة القرطاجيين . وقد
بقي من هذه المخروطات آثار في دير القلعة الى يومنا هذا والواحد منها منصوب
امام كنيسة مار ساسين بين دير القلعة وبيت مري والذي صورناه على وجهيه في
اعلى الشكل السابق

تلك كانت هيئة هذا المقام الخطير في القرن الثاني والثالث بعد المسيح فاذا
زدت على ذلك حركة الزوار المتقاطرين الى هذه المعابد ترى ما كان لدير القلعة من

الخطارة وعظم الشأن

ولا بدّ لنا قبل الختام ان نذكر شيئاً عن المدافن التي كانت بقرب دير النلعة لما وُجد هناك من القبور العديدة ففي شرقيّ الدير الحالي على بعد ٥٠٠ متر منه ترى خمسة نواويس غليظة العمل واذا التحدّرت قليلاً وجدت عشرين ناووساً بقي منها اغطيتها على شكل جَمَلُون فوقه قواعد تُدعى (acrotères) . واذا نزلت الى الجهة الجنوبية بميلٍ الى الشرق بلغت الى مغارة يدعوها الفلّاحون « مغارة الحبس » وهو غور طبيعيّ في الصخر عند حضيضه ليس بمَنسَع الاّ انه كافٍ لدفن ثمانية اشخاص

امّا العبادة الجارية في هذا الهيكل فلانعلم من امرها شيئاً ولا نخالها كانت تختلف عن عبادة الفينيقيين المكروهة يغلب عليها الخلاعة والدعارة . وليس بمستبعد أنّه قدّمت هناك الضحايا البشرية من الاطفال للبلع كما جرى ذلك في غيره من المعابد الشرقية وشهدت عن صحّته التواريخ الراهنة . ولعلّ هذه العوائد المنبئة بسوء دين اهل ذلك العصر هي التي حملت مآلوك الروم المتصرّين على هدم هذا الهيكل كما فعل قسطنطين بهيكل أفقة لما تقرّر عن كهنته الوثنيين من الاعمال الفاحشة فلم يجد سبيلاً الى قطع دابر هذه المنكرات الاّ بهدم المعبد المذكور

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الأوّل (٨: ١-١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم : « انهم ذوو اقتدار عظيم ويُعزّون كلّ من ضوى اليهم وكلّ من جاءهم آثروه بمودّتهم ولهم شوكة شديدة . . وكلّ من سمع باسمهم خافهم . . ومع ذلك كلّ لم يلبس احدٌ منهم التاج ولا تودّى الارجوان مباحاة به . . وهم يفوضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجملتها كل سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونه وليس فيهم حسد ولا منافسة »

لعمرى انّ هذا مديحٌ نعمًا فاه به الله على لسان الكاتب الشريف وصدق في وصف امة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعلوّ كعبها . ولم يُحرّم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم . ولو لم يُخلّفوا لنا سوى آثار دير القلعة

الذي مرَّ وصفه في الفصل السابق لكفني به شاهداً على صدق مقالنا اذ بيّنا انه معبد روماني شيدته مستعمرة بيروت الرومانية . بيد ان الرومان مآثر حجة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجمهور ليطلعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمه مرادفاً للفخر والعظمة

ولا بدّ هنا من مقدمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سورية في وقت تغلب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح . لما قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سورية (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغران ملك الارمن فرحف اليها بجياله ورجله واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان ينتشلها من محالبه . فبقيت تحت حوزته الى ان دارت عليه الدوائر في سنة ٦٩ لما غلبه القائد الروماني لوكاوس في واقعة دغرانوكرت . فانتهاز انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة لينتوي على عرش آبائه الا ان ملكه لم يدُم سوى اربع سنوات . وكانت سورية في تلك الاثناء قد تضععت قواها وتقهقرت امورها وانتقض حبلها . وكان يُحدق بها شعوب قاموا لها بالارصاد يتطاولون اليها طامعين في ملكها . تحدها جنوباً مملكة اليهود من بني حششاي وهم لا يزالون في قلق متداوم . وكان النبطيون يملكون على حدودها الشرقية ويمكمن على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ . امّا قبائل البادية فكانت على ثغورها جماء تراحها وتشنّ عليها الغارات . ولا صار الامر الى دغران صرف همته الى عقد العهد مع زعماء هذه القبائل فجعلهم كرواد تجارته مع البلاد المتاخمة واشتهر من جملة هؤلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حمص اسمه سميغرام او سميبيكرامس (١) . امّا الثاني فيُدعى عزيزاً وكانت دولته على بادية شمالي سورية

ومن الدول العربية التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية . وكان هذا الشعب محكاً في آداب الحرب يُحسن الرمي بالنبال . وكان اصله من الجبال الصخرية التي موقعا في شرقي دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجأ . فلم يزل امره يعلو ويقوى حتى تعدى

حدود وطنه فاستولى على جبل الشيخ وبقاع الغريز ف ضرب ثَمَّت خيامه واقام له دولةً صغرى جعل عين جرة (Chalcis) كعاصمتها . وما عَثَم ان تسور قم لبنان وحصنها بالقللاع ثم هبط الى سواحل الشام فاتخذ له دولةً ايتوريةً ثانية اضحت طرابلس مركزها . وكان هولاء الغزاة يهبطون كسيل جفاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون دون ان يقوم في وجههم حاجز . واكثر من كانوا ياذونهم بكروهم اهل جبيل وبيروت فلا يقوون على الذود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفنهم . ولا غرو ان الاسماء العربية المحضة الواردة في كتابات يونانية وجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هولاء (١)

فتلك كانت حالة سورية لما ارسل بيبس قواده ليحتلها وما لبث ان سار اليها هو بنفسه سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانية وجعلها اقليماً قائماً بذاته . ثم قلّم اظفار الفتن وفتح معاقل العصاة ورد قبايل البادية الى مساكنها الاولى واعاد السلم والنظام الى مجاريها . ولما سعى اليه اهل طرابلس متظلمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر به فقتل بعد ان تثبت ظلمه ثم واصل بيبس سيره في سواحل سورية ظافراً وتوغل لبنان واخذ عنوة قلعة جيجرتا (Γίγερτα) الاقي ذكرها فأخربها كما انه هدم قلعة وجه الحجر (θεοπερὶσωπον) وقوّض ابنية بترون لخلول اصحاب الجنايات في ضواحيها . ولما قدم جبيل مثل ملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفس كربة اهلها وجعل مدينتهم مستقلة تحت حمى الرومان

ثم تخوّف بيبس وشك الشتاء فيتم سهول البقاع ورياض دمشق ليحل جنده في بسائطها الرائعة لينالوا هناك نصيباً من الراحة بعد الاتعاب التي تجشموها . فقطع جبل لبنان (٢) وافتتح في طريقه قلعتي برومة (Borroma) وسنان (Sinnan) الوارد ذكرهما . فما دخلت السنة ٦٣ ق م حتى اتم الرومان فتح البلاد السورية واستقر لهم الامر في النحاء لبنان

(١) راجع Mission de Phénicie, 199, 200

(٢) لعل بيبس تسلق بينوده لبنان من جهة جبيل ماراً بالاقورة فاليسونة الى بعلبك

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيون مع اهل الشام ان يُلْزَم سكان البلاد شرائعهم وسننهم ويحجروا على نظامهم القديم ولا يُفَصَّبُون في لسانهم ودينهم وعاداتهم . اما المدن الساحلية فجعل الرومان امرها سُورى يدبرشؤونها نُجبةً من اشراف البلد وابطلوا بذلك ما كان لملوكها من السلطة المطلقة . ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤديها لهم الذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٥ من عمرهم جميعاً (١) وفرضوا عليهم خراجاً جيوهً من الاملاك يبلغ في المئة واحداً . ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخف على عاتق السوريين من المغارم والشُحْر التي حملهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا

فما مرَّ على سرورية الزمن اليسير حتى التأم صدعها وانجبر كسرهما وانتظم شمل السَّكَن فرتعوا في مجبوحة الأمان . وكان الرومان قد احيوا معالم العدل واما تواسن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشطون الجميع على الاعمال الشريفة والمشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالمنافع العظيمة لاسيما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

اماً لبنان فأصاب من هذه الاصلاحات نصيبه الحسن . وكان هذا الجبل الشهير لمَّا فتحة الرومان قليل السكَّان فزاد اهله بعد مدة وخصبت تربته (٢) وعاش اللبنانيون في الرغد والهناء في حمة رومة يشكرون لسياسة ولائهم وينعمون في ظلهم الوارف وهم مع ذلك يحجرون على سُننهم ويتصرفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومن ذاك الحين اخذت العوائد الرومانية تتغلَّب على البلاد الشامية وانتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نسي كثير من اللغة الفينيقية واللغة الآرامية لاسيما بين الاشراف واصحاب الثروة . اما اللغة اللاتينية فبقيت محصورة في الدوائر

(١) راجع Ulpiani Digesta, Lib. I, leg. 2, n. 3

(٢) وكذلك جرى في حوران . راجع المجلة الفلسطينية 21, XXI, ZDPV

الحكيميّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسية وامور الحرب كهذه : البريد والسجل والرحل والدينار والاقويّة والبرج والاطربون والبوق والقومس والفسطاط والشرطي وما شاكلها . ولعلّ كثيراً منها وصل الى العرب مجتزأً على ألسنة المتكلمين باليونانية . وفي بعضها مسحة من اللغة الآرامية (١) . ومما بلغنا من آثار اللغة اللاتينية كتابات قلائل سُطّرت على بعض القبور بيدان المستعمرات الرومانيّة في سورّيّة داومت على التكلّم باللاتينية ومن حملتها مستعمرة بيروت . امّا العامّة فلم يزالوا محافظين على لغتهم الفينيقية او السريانيّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآرامية الواردة في الكتابات القديمة

ولما كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكّة مع جنوده ثمّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليه الشعب واستقبله استقبالا شائفاً عمل في قلبه وحمله على افاضة نعمه على الاهلين فضخّف من عبّ الضرائب ومنح المدن التي طاف فيها مواهب وأطافاً عديدة وألّف القلوب النافرة واعطى مدينة بترون الاستقلال

وسار نسيبهُ وخلفهُ اوغسطس قيصر على منباجهِ واختصّ لبنان بنعم سابغة ووهب جُبل أفضالاً اعيمّة . فقام اهل بترون وجبيل بمفروض الشكر لولي نعمتهما وأرخوا نقودهما بتاريخ اكسيوم (٢) ذكر الانتصار اوغسطس على خصمه انطونيوس (٣١ ق م)

ومن اجل آثار الرومانيين في فينيقية اتخذهم بيروت كمستعمرة رومانية . فلما كانت السنة ١٦ ق م قدم الشام اغريبا صهر اوغسطس قيصر وهو مقلّد بالسلطان

(١) راجع ما قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق . اطلب ايضاً المقالة التي حرّرها في المشرق (١ : ٤٤٠ - ٤٤٨) . ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشرطي » اننا وجدناها في كتابة يونانيّة مكتوبة بصورة (Χώρη) منقولة اليها من اللاتينيّة (cohors) . وهي قريبة من لفظة « الشرطي »

(٢) ورد هذا التاريخ في كتابة جُبيليّة تُعرف بكتابة البلاط (Mission de Phénicie, 224) . وقد وجد الدكتور جول روفيه نقوداً أخرى تثبت هذا الامر لجبيل والبترون ممّا

المطلق على كل النحاء سورّية . فكان أوّل ما صرف إليه نظره ان يقيم مستعمرة يُجِلُّ فيها الجنود المتقاعدين ممّن امتازوا في خدمة الوطن . فلم يجد موقعاً اصلح شأنًا والنسب مقاماً من بيروت فجعلها سكنى لفتّين (١) من الجند وهما الخامسة والثامنة المعروفتين بالفئة المقدونية والفئة الاوغسطيّة . وكانت كلتاها أبلت بلاء حسناً في واقعة اكسيوم فأثابها القيصر باقطاعها مدينة بيروت

ولعلّ الكتابة التي وجدها سيتزين (راجع ص ١٤) بين اطلال دير القلعة والوارد فيها اسم اغريبا تشير الى هذا القائد منشيّ مستعمرة بيروت . ويُحتمل ايضاً نسبتها الى الملك هيرودس اغريبا الاول الذي زيّن بيروت بعد ذلك بدعةً بالابنية الفاخرة فتكون هذه الكتابة اثراً يشهد لاهل المدينة بمعرفة الجميل والشكر

وما لا يُخْتَف في صحّته ان صهر اوغسطس اعاد لبيروت زهاءها القديم بعد ان عبث بها ايدي الزمان واخرها الطاغية تريفون . فاعز الى جنده بان يشيدوا فيها المباني الحسنة ويوقروا فيها اسباب الهناء . فباشروا بذلك في السنة ١٥ ق م وواصلوا شغلهم بهتةً ألقها الرومانيون في كل اعمالهم . وما عثمت بيروت ان صارت مركزاً خطيراً لادارة شؤون رومة في البحر المتوسط الذي كان غلب عليه سابقاً النفوذ اليوناني واصبحت مرقباً يرصدون منه كل من يعادي فتوحاتهم الجديدة فيقطعون للحال دابر اصحاب الفتن (٢)

وكان الفضل في رفع قدر بيروت لاغريبا المذكور ولعلّه هو الذي تولّى بنفسه هذا العمل الاثير وانجزه بوقت قريب (٣) ودُعيت بيروت منذ ذاك الوقت « المستعمرة يوليا اوغسطا السعيدة » خصّها الملك اوغسطس بهذه الاسماء المشعرة باسم يوليوس قيصر وابنته يوليه واسم الشخصي واذاف الى ذلك لقب « السعيدة » مؤذناً بحسن موقع بيروت وصفاء جوّها وكثرة خيراتها . وضربت في بيروت نقود المستعمرات تمثّل جندياً يفلح الارض

(١) وأرسلت فرقة منها الى بعلبك لتستعمرها فاحتلت هذه المدينة الشهيرة

(٢) راجع تاريخ الرومانيين للعلامة مُمسين Mommsen : *Röm. Geschichte*, V, 459

(٣) راجع ماكتبه في ولاية اغريبا في الشام المؤرخ جِراخ H. Gerlach : *Die röm. Statthalter in Syrien u. Judaea* p. 16

فلم يمس على بيروت إلا زمن قليل حتى امتزج سكّانها الاقدمون بالمستعمرين الرومان امتزاج الماء بالراح فكان من يحتلّ البلدة يحبسها مدينة رومانية لتغلب عوائد الرومان ولسانهم واسماؤهم عليها . والشاهد على ذلك الكتابات اللاتينية العديدة المكتشفة في بيروت . ولا ترى من المخطوطات اليونانية إلا اليسير وهي احدث عهداً من الكتابات اللاتينية (١) . بل ظهر ايضاً في بيروت نفوذ آلهة رومة فاخذ الفينيقيون شيئاً من شعائرهم الدينية كما اثبتنا ذلك في اثناء كلامنا عن دير القلعة

ولم تكن الاقطاعات الموقوفة على المستعمرة البيروتية منحصرة في ضواحي البلدة والبساتين المجاورة بل كانت تشمل الجبال المشرفة على المدينة وتمتد من ثم الى ان تبلغ قسماً من البقاع الى جهات منبع نهر العاصي

ونالت بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانية امتيازات عديدة منها ان اهلها لم يدفعوا الجزية ومنها استقلالها عن حكم والي الولاية . فاضحت كأنها دولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانية في الشرق تتصرف باحكامها كالعاصمة نفسها . وكان لها على مثال رومة حاكمان (duumviri) يرجع اليهما في التدبير إعلان ويعقدان ويأمران وينهيان كقناصل رومية السنويين ولها دار ندوة يجلس فيه للبحث عن صوالح المدينة مئة من رؤساء الاعشار (decurions) . وبما ازدانت به المدينة من البناءات على شبه رومية ساحة كبرى (forum) يجتمع فيها الجمهور وملعب للملاهي العمومية ولعلها ايضاً خُصّت بهيكل كهيكل المشتري في رومة (Capitole) . وكان الاهلون يجتازون بنفوسهم ولاتهم وحكامهم دون ان تتداخل العاصمة في شؤنهم ما لم يضطروا الى ذلك الشعب وافتراق الكلمة بين السكّان

فكل هذه الامتيازات التي ظفرت بها بيروت اثارت في اهل المدن المجاورة لها الرغبة في نوال رتبة الاستعمار

(١) وقد عثرنا بعد ذلك على كتابتين جديدتين على مقربة من البلد نشرناهما بالطبع

وقد زعم بعض الكتبة أن مدرسة الفقه الروماني التي اشتهرت بها بيروت بعدئذٍ (١) كان انشاؤها في هذا الزمان . الا أننا نرجح قول الذين ذهبوا الى ان هذه المدرسة اقرب عهداً فأُنشئت في اواسط القرن الثالث للمسيح . وانما كانت بيروت منذ حلول المستعمرين فيها محطاً للطلبة الدارسين وصار منذ ذلك الحين لمدارسها شهرة عظيمة . ومن جملة الفنون التي كان يعكف الاحداث على اتقانها العلوم الادبية بفروعها . وقد اصاب احد اساتذة بيروت اسمه مرقس قاليريوس يرويس قصة سبق بين علماء زمانه في المعارف وفنون الادب (٢) حتى ان بيروت عُدَّت بسببه كحاضرة العلوم في المشرق (٣)

وكان الرومان يتقاطرون الى بيروت لترويح النفس يوثرونها على ما سواها من المدن الساحلية . وفيها كان ولادة الشام يقيمون الحفلات والمحاكم القضائية كما فعلوا في قضية سيلاي (Scilla) وهيرودس الكبير فقصوا على سيلاي وهو وزير ملك النبط عبوداس ان يدفع لهيرودس خمسين وزنة فضة (٤) وان يكبح جماح قبائل البدو من العرب . وفي بيروت ايضاً قضى هيرودس المذكور ظلماً على اسكندر وارسطابولس ابنيه من مريثة المكابية

ومن المدن التي نالت من سجال فضل الرومانيين مدينة جبيل وان كانت حصتها دون حصّة بيروت بكثير وآثار الرومانيين في المدينة العادية بيّنة من جملة اخطوط لاتينية وجدت بين اطلالها الدارسة (٥)

وكذلك ترى في قرية جونبة مع ما يحيط بجورها من الضياع دلائل تنبئ بمرور الرومانيين بها فمن ذلك الانصاب التي كانت تقام في جوانب الطرق للدلالة على المسافات ومنها جسر المعاملتين الذي سيأتي ذكره . وفي اسامي القرى دلائل اخرى على الآثار الرومانية واليونانية في لبنان مثل غسطة (Augusta) ودفنة (Δάφνη)

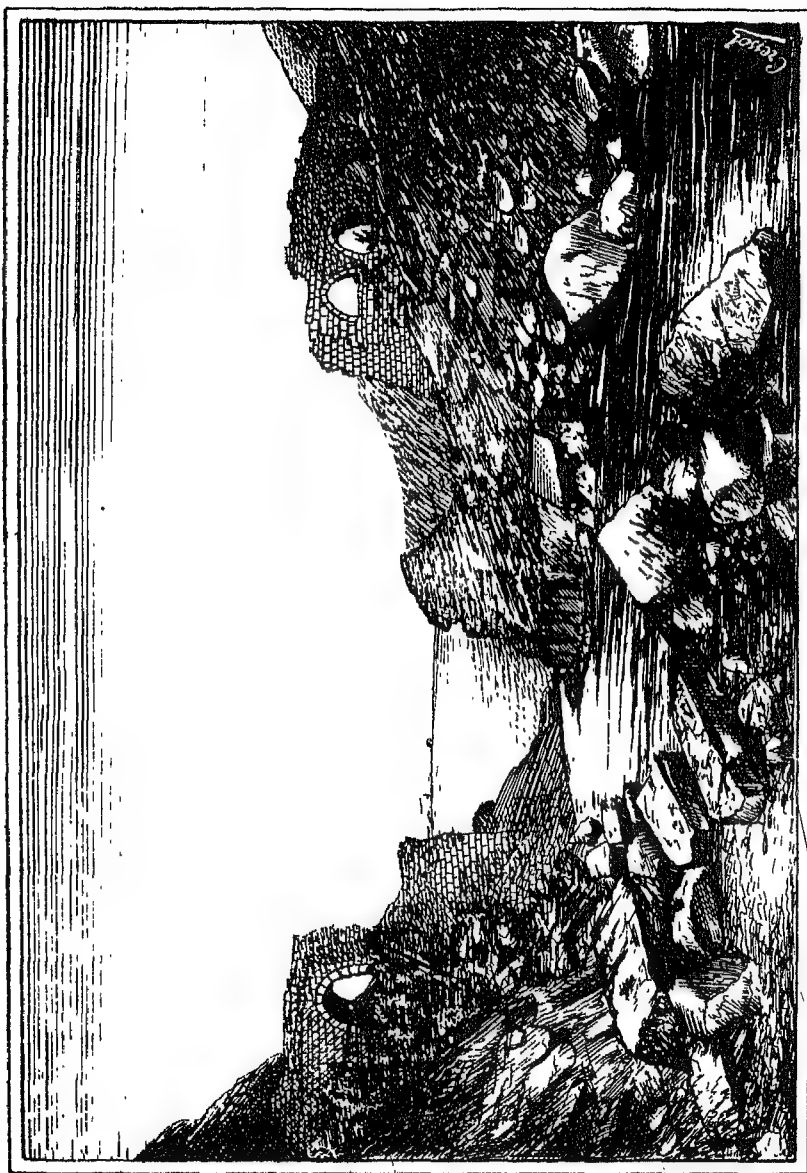
(١) راجع Nonnus : *Dionysiakes*, 391-398

(٢) راجع تاريخ سويتون *Suetonius : De illustr. Grammaticis*, XXIV

(٣) راجع المؤرخ مسين *Mommsen, l. c.* 459

(٤) كانت وزنة الفضة تساوي في ذلك العهد ٦٧٢٠ فرنكاً

(٥) راجع Mission de Phénicie, pp. 164, 192, 280



قناة نهر بيروت (قناطر زبدية)

وبلونة . ومن ذلك أيضاً نواويس عليها كتابات لاتينية تُرى في لبنان . وفي دير بيت خشبو واحد منها (١)

الأ ان الرومانيين لم يكتفوا بتدوين الكتابات الدالة على ملكهم . فلما كان الله جبلهم على السياسة والعمل لم يحتلوا بلداً دون ان يباشروا فيه اشغالاً خطيرة واعمالاً اثيرة تؤول كلها لمنفعة رعاياهم كالقني تجلب بها المياه الى اهل المدن من منابها البعيدة . وقد سبق لنا ذكر قناة دير القلعة (ص ١٠)

وفي لبنان قني غير هذه المذكورة بل هي اعظم منها شأناً وامتن بنياناً . فن ذلك القناة الضخمة التي كانت تجري بها مياه نهر بيروت وتُعرف اليوم بقناطر زبيدة وهي بلا شك من آثار الرومانيين

وقد بُنيت هذه القناة بنحيت الحجارة الكبرى وكانت تمرّ بوادي النهر فوق جسر عظيم ذي ثلاثة صفوف قناطر راکبة بعضها فوق بعض لا يزال منه الى يومنا بقايا حسنة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن بيروت في شماليها بيد ان الصف الثالث من القناطر قد تهدّم وهبط ايضاً وسط الجسر فلا سبيل الى ان تجري فيه المياه . وكان علو هذا الجسر يبلغ عند تمامه خمسين متراً وطوله ٢٤٠

اما زمان بنائه فليس من دليل عليه فانه لم يُكتشف حتى يومنا شيء من الكتابات المترجمة عن احواله . الا ان متانة شغله وهيأة بنائه المحكم تنطق بلسان حالهما عن اصله الروماني ومما يبين ان هذه القناة بقيت قروناً طويلة تجرّ المياه الى بيروت ان في مستودعها وجدرانها الداخلية راسباً سميكاً من المواد الكلسية التي ابتنتها المياه في ممرها . ولعلها خربت في الزلزلة التي حدثت في ايام يستين الملك لما صارت بيروت ردماً تنعق عليها الغربان

وكانت المياه بعد ان اجتازت الجسر المذكور تلج في نفق (سرب) ينفذ في الجبل مسافة طويلة وينتهي الى السهل حيث صبرت منه بقايا على الزمان وكانت تجري المياه في منعطف الاشرافية فوق مسير السكة الحديدية الحالية . وكانت القناة تفضي

(١) Ibid., p. 328. راجع ايضاً في تاريخ مسيت (ص ٤٤٧) الفصل الذي يربّين ما كان لاقليم سورية عند الرومانيين من الاعتبار والخطارة

الى المدينة مارةً تحت مدرسة الحكمة للموارنة . وقد حسب حضرة الاب جوليان اليسوعي ان هذه القناة كانت تغني البلدة في كل ثانية بمتر مكعب من الماء اعني خمس عشرة مرةً أزيد من ادوات الشركة الانكليزية حالاً ١)

وكان الرومان قد ابتنوا في سورية قناةً رابعة كانت غايتها اجتلاب المياه من نهر ابراهيم الى جبيل الا ان آثارها ليست كآثار قناة بيروت

وما يحسن بنا قواه ان الرومان لم يكونوا ليرضوا بالمياه المجلوبة في قنيتهم الا ان تكون صافيةً نقيّةً من كل الاقدار ولذلك كانوا يباشرون بعملها عند رؤوس الينابيع وينقرونها بالصخر الاصم او يبنونها بحيث لا يدنسها شيء من الاوساخ فيغطونها بصفيح الحجارة . وفي عملهم هذا عبرة للشركات الحالية لتصون المدن من جراثيم الامراض التي تسببها الاقدار الداخلة في القناة لاسيما بعد امطار الخريف حين تجرف السيول الى القناة اجساماً غريبة تثبتُ بانحلالها في المياه كل انواع الجراثيم الفاسدة

فيظهر ممّا تقدّم ظهور الشمس في رابعة النهار ان الرومان مجلبهم المياه من الينابيع النازحة اخصبوا البلاد التي مدّوا فوق رواقها حمايتهم . ولعلهم لم يكتفوا بذلك بل اقتسوا المياه في المدن فجعلوا لكل دار قسطاً كما تفعل في زماننا شركات المياه . ولنا شاهد على صحّة ذلك بكتابة وجدت في مستعمرة رومانية من اعمال افريقية كانت اصغر شأنًا من بيروت وقد ذكر فيها صريحاً هذا تقسيم المياه على بيوت الاهلين ٢) . فلا ننظر ان بيروت حُمت ما لم تحرمه غيرها من المستعمرات وهي اعظم منهنّ قدرًا

ومن افضال الرومانيين التي لا تُنكر السكك والطرق . فانهم ما نشبوا ان احتلوا ربوع الشام حتى سعوا باصطناع السكك فيها . وكانت غايتهم الاولى ذلك ان يهدوا الطرق لجيوشهم ثم ينشطوا بين رعاياهم التجارة والمعاملات . ولم يثّر غزهم ما لقوه في لبنان من المسالك الوعرة والصخور المرتفعة فان همتهم

(١) راجع مجلّة الرسالات الكاثوليكية ١٨٩٤، p. 420-430 Missions Cath. وفيها

لهُ مقالة حسنة عن قناة بيروت الرومانية

(٢) راجع مجموع الكتابات اللاتينية (C. I. L., VIII, ٥١)

لم تعرف السكك فوَّروا الطرق ومهَّدوا السبل في جميع أنحاء البلاد التي فتحوها . وكانت السكَّة المارَّة على سواحل فينيقية من عهد قدماء المصريين في القرن الخامس عشر قبل المسيح كما تشهد عليه المكتابات المكتشفة حديثاً في تلّ العمارنة (١) وقد جاء فيها ذكر العجلات الحربية التي لا يمكن ان تسير دون سكك منظّمة . بيد ان هذه السكة القديمة لم يبقَ لها أثر بخلاف سكَّة الرومان فانّ بقاياها لا تزال الى يومنا ظاهرةً على الساحل . وكذا قلّ عن جميع السكك التي تولّوا صنعها في لبنان

أما الذين كانوا يقومون بهذه المشروعات الجليلة فهمُ جند الرومانيين . ومصدق ذلك في كتابة لاتينية نُقشت عند معبر نهر الكلب . على ان التاريخ ينشأ بأن لهولاء الجنود في كل البلاد التي فتحها رومة اعمالاً تُعدّ من اعمال الجباية . فكم من قصور وقلاع شيّدوا وجسور عظيمة عمّروا وخنادق حفروها واسوار ضخمة ابتنوها . وكان يسير في عداد الجنود قومٌ من المهندسين والصُّناع يقومون بهذه الاعمال

ومما امتازت به السكك الرومانية الوثاقة والمتانة مع توفير اسباب الراحة لبني السابلة . فكانوا يجعلون وسط السكَّة مرتفعاً عن الحضيض يفرشونه بصفائح كبرى من الحجارة البركانيّة او ما شاكلها صلبة . وثلاً تنخسف بها الارض كانوا يضعون لسندها ثلاث طبقات متوالية أسفلها من الحصباء والرمل ووسطها من دقيق الحجارة المعجونة بالكلس . اما الطبقة العليا فكان سبكها ١٥ سنتيمتراً تتركَّب من كِمَرَات الخُرْف والآجُر بينها الملاط الشديد . وكان على جانبي الطريق مسلك للسابلة (Trottoirs) برفعة قليلة عنها وعلى طرفيه حجارة ضخمة

وكان الرومان يضمنون الامان لسككهم بان يقيموا من مسافة الى اخرى مراكز لجندهم وخانات للسفر ومرابط للجَيل ومحطّات للبريد

(١) راجع كتاب الاب ديلاتر (Delaître) اليسوعي المُعنون : Le Pays de Chanaan, province de l'empire égyptien, p. 39.

وكانوا ينصبون من ميل الى آخر انصاباً من الحجارة فيها ارقام تدلّ على مسافات الطريق وُبعد المكان عن حواضر المدن . وربما كانوا ينقشون في هذه الانصاب اسم القيصر الذي امر بنهج الطريق او اصلاحها . وهذه الانصاب مكنت اهل البحث والتنقيب من تتبّع آثار سكك الرومانيين . وتراها ملقاةً على ساحل البحر غائصةً في الرمل او مطمورة بين الردم وهي تدلّ على السكّة الساحليّة التي مرّ ذكرها . والحقّ يقال ان هذه السكّة كانت طرفة من عجائب البنايات وتراها الى اليوم منقورة في الصخر بقرب نهر الكلب وجونية . وعند ممرّ السيول والانهار ترى آثار الجسور العظمى التي كانوا اصطنعوها . نخصّ منها بالذكر جسر المعاملتين الذي لم يزل صابراً على آفات الدهر

ومن سككهم الناطقة بفضلهم الطريق التي اصطنعوها من جيل الى بعلبك وهي تمرّ في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك شعب بين جبلين تحرقه الطريق فتفضي الى بركة اليثونة ثمّ تتسع وتمتدّ فتصبح من احسن السكك الجليليّة والتقنها لكن آثارها في منعطف لبنان الشرقيّ دارة . ولعلّ هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مشاحة فيه انّ الرومان تولّوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابة لدوميطيانس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح وُجدت عند المكان المسّى بدرّاجة مار سيمان

هذا ومهما توغلّت في لبنان وجدتَ للرومانيين مآثر وكتابات ونقوشاً . مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين الصنّين وغابة الارز لاسيما في مقاطعات العاقورة وتثورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خُطت فيها مراراً اسم ادريانس الملك وحروف هذه الكتابات تبلغ نصف ذراع طولاً وقد اعتبرها بعض اهل تلك النواحي كآرصاد تحتها كنوز دفيئة بجشوا عنها بعد نقر الحجارة وتخطيط الكتابات . امّا سبب تكرار اسم هذا القيصر الرومانيّ فلكونه قضى في بلاد الشام سنين طويلة وكان يصحبه في اسفاره عددٌ غفير من الدقّاشين وارباب الصنّاعة والحرف . ومن المرجّح انّه مرّ بمدينة جبيل وزار معابد الزهرة في لبنان .

ومما يعود فضله الى الرومان فيستوجبون له الشكر العيم عنايتهم بنصب

الاشجار في لبنان . وقد مرّ لنا في المشرق (١: ٧٢٨) كلام في ذلك وبيناً هناك ان لبنان كان في القرون الحالية مجتلاً بالغابات تعلو قممهُ ضروبٌ من الاشجار . واثبتنا ايضاً ان الحكومة الرومانية كانت احتكرت لها اربعة اصناف منها وهي العرعر والارز والسرو والصنوبر (١) وكلها من اشجار الجبال المتينة الخشب الوارفة الظل اختصّها الرومان بانفسهم لئلا يتصرف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمة . وكان الرومان يتخذون منها الخشب لتجهيز سفنهم وابتناء مساكنهم في سورية ومما يُنجز عن پمپيوس القائد الروماني فاتح الشام انه اصطنع له اسطولاً من خشب لبنان فقطع دابر القرصان الذين كانوا يتجولون في بحر الروم متلصّصين . ولما انتشبت الحرب بين پمپيوس المذكور ويوليوس قيصر تولى كاسيوس من اصحاب پمپيوس قيادة اسطول الشام وأجر بها الى صقلية لمحاربة سفن قيصر واحرقها (٢) وكل ذلك دليل على اهتمام الرومانيين بزراعة لبنان وتوفير غاباتها ومن كل ما سبق يفهم القارئ ما للرومان من المشروعات الطيبة والاعمال الجليلة التي لم نذكر منها سوى برزٍ من عدّ . وفي تلمّة مقالتنا عن آثار لبنان سيأتي ذكرهم غير مرّة . وفي ما سبق كفاية لتقدير اعمالهم وخلاصة قولنا عن الرومان انهم في ولايتهم كانوا يهتمون بصوالح رعاياهم ويوفرون لهم اسباب النجاح ويوسعونهم اماناً وراحة ونال اهل سورية بهجتهم

(١) وقد ارتأى الملامّة الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان ان الكتابة التي تدلّ على احتكار الرومان لهذه الاشجار والتي شرحناها في المشرق (١: ٧٢٧) انما كان لها معنى آخر . فظنّ الاب المذكور ان الرومان كانوا خصّصوا هذه الاشجار للالهة عشتروت او الزهرة . قال : « ومما يؤيد رأبي ان احتكار هذه الاشجار لم نجد له أثراً سوى في بلاد جبيل حيث كانت عبادة الزهرة متغلّبة شائعة . ثم كثيراً ما ترى على الحجارة التي وردت فيها الكتابة المذكورة حروفاً ثلاثة غيرها باللاتينية وهي D F S معناها على ظنّهِ D(eæ) F(ecit) S(acrum) « خصّصها بالالهة » . اي ان ادریان الملك خصّص بعبادة الزهرة الاربعة الاصناف من الشجر المذكور . (قلنا) وهذا شرح غير ثابت كما بيّنه حضرة الاب جلابرت (Mélanges de la Fac. Orientale. IV. 209 seqq) ومعنى هذه الحروف Definitio sylvarum اي تحديد الغابات (المحتكرة)

(٢) راجع تاريخ يوليوس قيصر (Caesar, Bell. Civil. III)

قسماً وافياً من ذلك السلام الذي نُسب الى رومة (pax romana) متّعنا الله بمثلِه
في ظلّ دولتنا العليّة آمين

٦ الصّين

قد سبق ان القائد الروماني پمپيُوس اخرب في اثناء محاربة لبنان قلعةً تُدعى
بورومة . ولكن لم تتعرّض للبحث عن موقع هذا الموضع . فانّ من اصحاب
العاديّات من ظنّ انها سمار جيل وقيل قلعة الحصن في نواحي دوما وقيل غير ذلك .
وقد فات هؤلاء الكتبة انّ الجغرافيّ اسطرابون في كلامه عن بورومة جمع بينها
وبين قلعة اخرى دعاها « سنّان » وسنّان على الرّأي الارجح قلعة قريبة من جبل
صّين فينتج عن ذلك ان قلعة بورومة ليست بعيدة منه ايضاً . واذا طلبنا في جوار
الصّين موضعاً في اسمه شبه بقلعة بورومة لا نجد غير بومّانا . ومن المحتمل ان
الاقدمين لحسن موقع هذا المكان كانوا سيّدوا هناك حصناً حريزاً يشرف على
الوديان المجاورة وعلى سواحل بيروت . على اننا لم نجد في بومّانا اثرّاً لهذه القلعة
ولعلّ پمپيُوس قوّض اساسها او اقت على بقاياها مصائب الدهر فابادتها
امّا قلعة « سنّان » فع كونها على مقربة من جبل صّين لم تكن في مشارفِ
العليا لانّ البرد هناك قارس والسكنى في الشتاء شاقّة وانما كانت على منعطف
رُباه . والارجح انّ هذه القلعة كانت مبنية فوق احدى السكك في الوديان
الفاصلة الصّين عن جبل الكنيسة او الحاجزة بين جبل الباروك وجبل الكنيسة
اعني بقرب سكّة الشام الحاليّة . وهذه المواقع خطيرة لانّها كمضيّق يُفضي الى بطاح
سوريّة المجوّفة

واما اسم قلعة سنّان (Σιννών) المذكورة في كتاب اسطرابون فانه اسم الصّين
بعينه لكنّه على صورة لفظه القديمة

وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين نقلاً عن تقليد شائع في لبنان انّ جبل
صّين هو الجبل المدعو « سنير » المذكور في الكتاب الكريم . وقد وهوام بمشابهة
الاسماء مع انّ سفر تثنية الاشتراع (١٠: ٣) ينفي صريحاً هذا الرّأي ويدعو حرمون
سنير عند قوله : « وحرمون يستيه الصيدونيون سريون والاموريون سنير » .

والما نُشِبَ الامر على البعض لوجودهم في سفر نشيد الاناشيد اسم سنير مقروناً باسم لبنان حيث يقول العروس لعروسته السرية (نش ٤: ٨) « هَلَيْي معي من لبنان من رأس امانة من رأس سنير » (١) . وزعم هؤلاء ان امانة اسم الجبل المشرف على حمّانا . وكل هذه الاقاويل مزاعم لا سند لها وان لم تكن محالاً . واسم لبنان في التوراة لا يُطلق فقط على الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم بل يدل أيضاً على جبل الشيخ الذي بازائه إذا زاد الكتاب صفة ما تبين نية الكاتب الكريم كقوله مثلاً (يوشع ١٣: ٥) : « لبنان جهة مشرق الشمس »

واماً اسم « سنير » فتجده في كثير من كتبة العرب كالسعودي فإنه يقول (في كتاب التنبيه ص ١٥٣) في اثناء كلامه عن الموارنة : « ان ارهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم في جبل لبنان وسنير وحمص واعمالها » . وفي كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ص ١١٤) مدلول سنير على جبل الشيخ او على الجبال الواقعة في شمالي غربي دمشق . وجاء في الصبح الاعشى للقلقشندي (ص ١١٣١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) : ثم يتد (لبنان) الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سني جبل سنير . وكذا في مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني وغيرهم . لكنه يؤخذ من قول ياقوت في معجم البلدان (٣ : ١٧٥) ان سنير تدل أيضاً على قسم من لبنان او على الجبال الواقعة « بين حمص وبلبك » . اما لفظة « صين » فيظهر انها حديثة العهد لم نجد لها ذكراً في تأليف العرب القديمة

ومن يتسلق قم صين العليا يجد ثمت آثاراً من بناء مربع مشيد بنحيت الحجارة . وعلى مشارف جبل الكنيسة بناء آخر مثله . ولا يمكننا ان نحكم على اصل هذه الابنية حكماً قطعياً ولعلها من مآثر الفينيقيين بنوها لمباشرة مناسكهم الدينية . والله اعلم

٧ ساحل علما

فلنواصل الآن سيرنا الى جهات الشمال بعد ان استطردنا الى ذكر اعالي لبنان واعمال الرومانيين في المنحائه . وفي كسروان آثار قديمة وصفنا منها قسماً في الفصول السابقة وهالك ما بقي علينا وصفه

ومما يستلفت الانظار في اسفل كسروان متحجرات على شبه السمك تجد منها شيئاً كثيراً في ساحل علما . وهذه الآثار قد ورد ذكرها في اسفار قدماء الرحّالين وقد ذكرها المسافر الشهير منكونيس (Monconys) في رحلته المكتوبة في القرن السابع عشر (ج ٢ ص ٧١) وكرّر بعده اصحاب الاسفار وصفها . وجاء في ترجمة القديس لويس التاسع ملك فرنسا للسيردي جوائيل عن اسمك متحجرة جمعها قوم من لبنان ما تعريبه (١): « ولما كان الملك في صيداء اتى اليه قومٌ بحجر غريب ذي قشر وفلوس . وكان اذا نزع عنها قشرة وجد بين كل حجرين شبه سمكة بحرية متحجرة لا ينقصها شيء من هيئة الاسماك وتركيبها وزعانفها وحسكاتها والوانها كأنها اسماك حية . وقد اعطاني الملك منها حجراً فوجدت فيه سمكة من نوع الشبوط تأمة البنية ذات لون اسمر » . وفي متحف عاديّات مدرستنا الكلية عدد كبير من هذه المتحجرات التي يرتقي عهدها الى الازمنة السابقة التاريخ

هذا وفي ما مرّ (راجع الصفحة ٥) قد اتينا بذكر قرى كسروان المجاورة لخور جونية . فلنذكر الان القرى العليا من هذه المقاطعة . واوّلها غزير يوجد في اسفلها مدافن ومعاصر قديمة . اما قصبة كسروان فلم نر لها اثرًا ينبي بوجودها قبل القرون المتوسطة . الا ان اسمها سرياني (ܟܣܪܘܐ) كاسماء اغلب قرى لبنان ومعناه « القطيع » او « المقتوع » (٢)

وقد وجد بعض الرحّالة في « فتقا » على بعد ساعة من غزير شمالاً كتابات عديدة

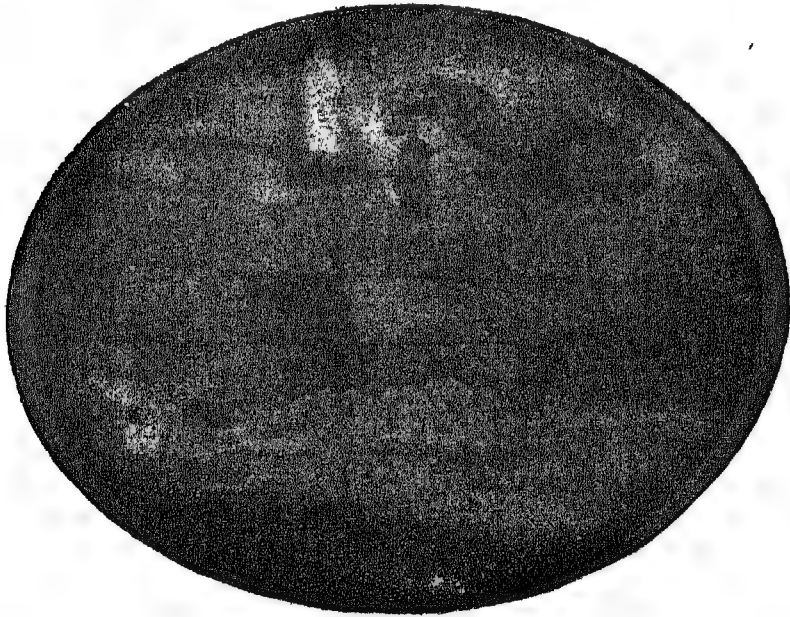
(١) راجع Joinville, ch. 118, ed. Wailly, p. 330

(٢) لا « قطع النعم » كما زعم ف . ابي حلقة في جغرافيته (راجع المشرق ٢ : ٤٧٥)

يونانية احداها من سنة ١١١ للمسيح يُستفاد منها انه كان هناك هيكل . وهذا دليل على ان فتقا كانت موضعاً معتبراً

٨ معرب

معرب مزرعة على عطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقها بجهة ريفون . فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معرب او يدعونها بمطلق اسم القلعة . والارجح ان هذه الاخوة احد المعابد العديدة التي اقامها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزاً لديانتهم . وهو نعم الموقع يتد منه البصر جنوباً الى بيروت وبحرها اللازوردي وشمالاً الى جبيل وبطائحها الخضراء . والآثار الباقية عبارة عن جدران ضخمة الحجارة طولها ٢٥ متراً في ١٠ امتار عرضاً و ٦ امتار علواً . وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها



آثار قلعة معرب

آثار لبنان

١٠ امتار بنيت في عرض مترين . وفي البناية حجارة مئسعة محفورة في
ت حافة ينفذ فيها سقاية لعلها جعلت قديماً لتجري فيها دماء الذبائح
التقادم . وهذه غاية ما نعلمه عن هذه البناية التي أعلن أولاً امرها
في غزير فأرشدوا اليها رينان ايام سياحته في لبنان فذكرها في كتابه «بعثة
١١) ولم يصفها (راجع تاريخ الموارنة للدويهي ١٦ و ١٢٦)

٩ غينة

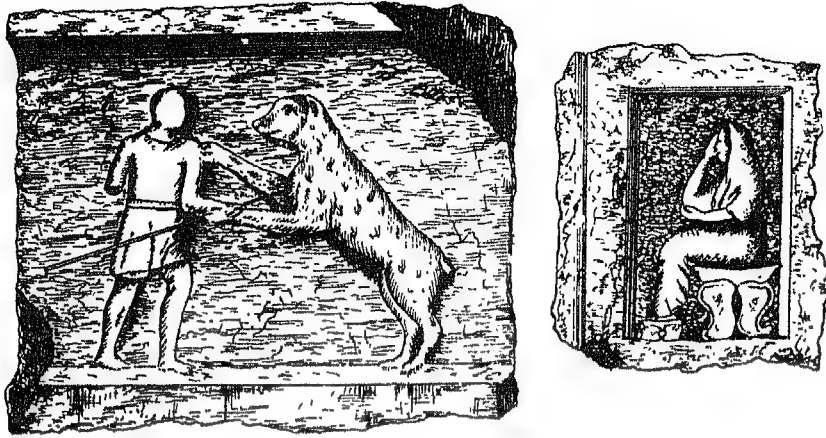
١١ انحدرا الآن من مزرعة معراب وعبرنا وادي غزير ثم اتجهنا الى ناحية
٢ حيث تنتصب قمة مستديرة الشكل تُعرف برأس الكنيسة وجدنا على
تو كياو مترين منها بجوار قرية غينة صخرة منفردة يبلغ علوها بضعة امتار
صخرة المذكورة وجهاً الشمالي والشرقي قد نحتها القدماء فنقشوا في
هما ثلاث تصاوير نائنة طمس الدهر قسماً منها وحطّم منها قسم عمداً .
من وقف من العلماء على هذه النقوش الغريبة الابوان اليسوعيان بوركو
(Bourquer) وروز (Roze) في سنة ١٨٥٢ ورسموا صورها في مجلة
(٣)

لجهة الشرقية وهي الكبرى تتّكئ بطلاً على الذراعين شديد الجسم في يده
مشرع كأنه متحفّز للقتال وقد صوّب بسانه الى صدر حيوان ضارٍ هجم
منه احدى قوائمه الى كتفه كأنه يحاول اقتراسه . والشخص المنوّء به لابس
يفاً وهو شعار يكاد يبلغ ركبته تضئّه حُبكة عند وسطه . اما هيئة
(فهي اقرب الى الدب منها الى الاسد . وقياس القسم المنحوت من الصخر
تراً و ٩٦ سنتيمتراً علواً ومترين و ٨٨ س . عرضاً
بقرب الصورة الموصوفة أنفاً نقش آخر اصغر منه يتّكئ امرأة رشيقة القدّ جالسة

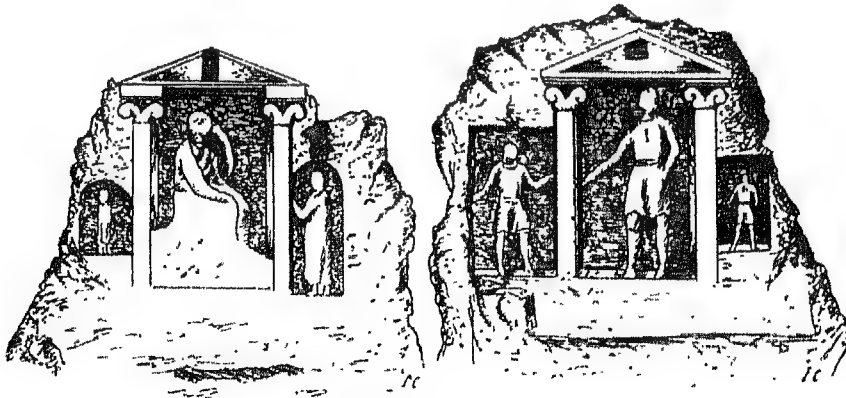
راجع Mission de Phénicie, p. 328

١١ راجع ما ورد عن كفور في الكتاب السابق ذكره (ص ٣٢٧)

١٢ راجع Etudes Religieuses, 1861



آثار غينة



آثار المشقة

على مقعد تراها كسيفة البال كئيبة رافعة يمينها الى وجهها وبصرها مائل الى صورة
البطل المقاتل . وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاه الى وسطها . اما رجلها فتسندهما
الى مسند نقوشه على مثال المقعد التي هي جالسة عليه

وفي الجهة الثانية من الصخر على شمال هذه التصوير رسوم اخرى بيد أنها
دائرة مطبوسة . ومما يظهر منها جلياً صورة شخص منتصب يتكى الى شبه سهم
او صولجان تلوح على وجه امارات السكينة والوقار . امّا بقية التصوير فلا سبيل
الى وصفها او اثبات رسومها لاندثارها وما لا شك فيه ان ثم صورة حيوان ولعلها
وحشان . وللآب العلامة بورككو (١) مزاعم في شرح تصاوير هذا النصب الثاني
لا يوافق عليها العلماء

وما من شأنه ان يكشف عن سر معنى هذه النقوش ان تحت رسوم الجهة
الشرقية مغارة نُحِتَتْ في الصخر

ولا ريب ان هذه البقايا تنبئ بآثار تعبد اهل فينيقية لادونيس او تموز (٢) .
ولعل الاحاديث الشائعة بين القوم كانت تشير الى قرية غينة وتروي عن موت هذا
الاله انه قُتل في هذا المكان فناحت عليه امه الزهرة او عشتاروت . اما المدفن
فالمرجح انه نُحِتَ تخليداً لهذه القصة لا لتمثيل قبر حقيقي

وما يحسن ذكره هنا ما ورد عن ماتم تموز في سفر حزقيال اذ رأى هذا النبي
رجساً في الهيكل فوصفه بقوله (حز ٨: ١٤) : « واتي بي الى مدخل بيت الرب . . .
فاذا هناك نساء جالسات يبكين على تموز »

على ان هذه الرسوم الدينية لا يتضح معناها تماماً الا بمقابلتها بآثار اخرى صبرت
على الايام عند قرية المشنقة

١٠ المشنقة

موقع مآثرها الجليّة في وادي نهر ابراهيم على ربوة ذات قطع عمودي مشرقة

(١) راجع مجلّة الابحاث Etudes, 1861, p. 945

(٢) ومدلول كلا الاسمين واحد

على النهر وتلك الضواحي منظر يجمع بين الحسن والغرابة . اما الآثار التي تستلفت الحاطر في المشقة فاربعة :

(الاولى) عبارة عن سور او حىّ مربع مستطيل تكسیره ٩٥ متراً طولاً في ٥٠ عرضاً . وباب البناء من جهة الشرق . والظاهر ان هذا التربع كان يحدّ سابقاً المعبد والابنية اللاحقة به كما ترى في قلعة فقرا وفي حصن سليمان في بلاد النصيرية وغيرهما . وحائط السور قليل السمك بسيط البناء يستند في جهته الشماليّة الى صخر . وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب بقايا اساس مربع بُنيت فوقه عواميد لم يبقَ منها غير حجارتها السفليّة . وقد اتخذ جانب من أخربة هذا البناء لمهارة حديثة

واذا احفينا في البحث عن اصل هذه الاطلال وجدنا انها كانت هيكلًا يتوسّط السور الذي ذكرناه . وكان لهذا الهيكل اعمدة من الطراز الهندسي القورنثي يعلوه شبه هرم مخروط الشكل بقي منه حجران منقوشان نقشاً بديعاً والآثار (الثانية) على شمال السور الموصوف تبعد عنه ١٢٠ متراً . فهناك مجاز قد نُحت في الصخر ونُقش على جانبيه رسوم قديمة . وفوق هذا الصخر نواويس ضخمة منقورة في الحجر على شكل أجران مستطيلة لها اغطية مخروطة الجوانب . اما النقوش فهي باثرة وهي سبعة عدداً ففي مدخل المجاز المذكور صورتان عظيمتان متقابلتان من كل جانب وهما منقوشتان في ضمن إطار او كوى من صنف الهندسة الايونية ويلصق هاتين الصورتين من جانبيهما صورتان اخريان اصغر منهما ولكل منها اطار متقوس كما ترى في الصور التي رسمناها . والصورة السابعة وهي متوسطة في الكبر نُقشت في الصخر منفردة عن بقية التصوير من جهة الشرق

واحدى الصورتين الكبيرتين التي عن يمين العابر في الصخر تمثّل بطلاً لبسه كالشخص الذي وصفناه في نصب غينة . ولعلّ الصورة الموازية والدارسة لقدمها تمثّل امرأة تنوح . واما اشخاص الصور الصغرى التي على طرفي الصورتين الكبيرتين فن تبعه الشخصين المتوسطين تراهم يحدجونها بالنظر ويتأثرون بحركاتها ومعنى هذه التصوير اذا قبلت بتصاوير غينة يتّضح جلياً وانما تمثّل نبذة



تمثال الزهرة المصودة في لبنان

من ترجمة تموز اعني موته ومناحة الزهرة عليه . قال مكروب المؤرخ اللاتيني (١) :
« والزهرة مصورة في لبنان مقنعة الرأس كشبة الوجه تسند رأسها الى شمالها المحتجة
برداثها » (٢)

والاثر (الثالث) من آثار المشقة على مسافة عشر دقائق شرقاً من باب السور
فهناك ساحة بُني فيها في القرون الغابرة معبد صغير اُخرجه بعض طلاب الكنوز منذ
سنين قليلة . وبين الرّدم نُصب أُقيم ذكراً للبل وفي رأس النصب اكليل وعلى
طرفيه نقوش تمثل الصاعقة (٣)

أما الاثر (الرابع) فهو في شمالي غربي السور الاعظم فهناك ابنية من ضيعة
سكنها قديماً النصارى والدليل على ذلك ان من جملة الاخرية كنيسة على هيئة
الكنائس البوزنطية . ولعل النصارى احتلّوها الى ايام الفتح الاسلامي
هذا وقد مجئنا عن اسم المشقة القديم فلم نجدّه وكذا قل عن اسمي غينة
ودير القلعة فان التواريخ القديمة لم تُفدنا من امرها شيئاً . وما لا شبهة فيه ان هذه
المعابد التي وصفناها اُقيمت لآرام تموز إله الجليليين وكان ذكره شائعاً في تلك
الانحاء وكثرت الهياكل على اسمه . يُستدل على ذلك من اسم نهر ابراهيم عند القدماء
وكانوا يدعونه ادونيس (Adonis) وهو تموز . أما عهد هذه الابنية فمجهول
ايضاً لكنّه على الاصح لا يسبق زمن تملك الرومان على سورية ولبنان

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم
المشيقة في مشارف الجبل كدير القلعة وغينة والمشقة . وعددنا اسماء آلهتهم كالبل
وعشتاروت وتموز . الا اننا احببنا ان نفرد هنا فصلاً خصوصياً لهذا البحث الهام
ونلخص كل ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فان هذا النظر العام من شأنه ان

(١) راجع كتابه Saturnales I, 21

(٢) وقد رسمنا صورها الموصوفة هنا

(٣) راجع بشة فينيقية Pl. XXXII Mission de Phénicie

يوضح كثيراً من احوال لبنان ويكشف ما استغلط فهمه من امور اهل الاقدمين وقد شاء الله ان يكون الفينيقيون قوماً وسطاً بين الشعوب الشرقية القديمة والامم الغربية التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقق أنها تُشبه في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وان آلهة الفينيقيين هي الهة ممالك النيل والفرات استعارها منهم بعدئذ اليونان فكساها شعراؤهم بضروب من المحسنات الخيالية وزوّقوها بمسحة من الرونق والجلال

ومن خواص ديانة الفينيقيين أنهم كانوا يتعبدون لآوثانهم دون ان يُجهدوا فكرهم في تنظيم آلتهم وبيان العلاقات التي تربط الهأ بأخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فإن بين الهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيين فإن في معبوداتهم تشويشاً ما ولعل هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسية واستقلال مدنهم . وربما وجدت المعبود الواحد متصفاً في مدينة بصفات لم يُعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحة فيه ان عبادة البعل كانت تعم كل انحاء فينيقية . ومعنى اسمه في اللغات السامية الرب والسيد وإن ذلك الا صفة عامة لجميع آلهة الفينيقيّة كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصة في كل مدينة فيقولون « بعل صيدون وبعل بريث وبعل طرسوس وبعل لبنان وبعل حرمون » وهلمّ جرّاً . واسم الجمع بعليم وردت غير مرة في اسفار العهد القديم . غير ان مدلول هذه المستيمات في الغالب اله واحد كانوا يحتضون في كل مدينة بعبادة محلية تبين بعض صفاته . ثم خدع القوم بهذه الصفات الخاصة فجعلوها آلهة ثانوية قائمة بذاتها دعواها البعليم وكلها منبتق من الاله الاعظم الاصلي تشترك بقسم من كمالاته وقواه . وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهة متعددة

الا ان تقسيم الذات الالهية كثيراً ما كان يتبع تخطيط البلدان فيني مثلاً اهل مدينة هيكلاً للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كسكن لبعض قوى الاله ثم يتخذونه كمبود مستقل . وعلى هذه الصورة تعددت البعليم في صور وصيدا ولبنان وحرمون وصارت لاحقة بالمبدل الاول والبعل الاعظم

أما إذا استقصينا البحث عن هذا البعل الأوّل المذكور فيظهر جلياً أنّ المعنى به أنّما هي الطبيعة الهيوّليّة بكلّ قواها تُبدع وتُفني . وتخلق وتلاشي . وتحيي وتميت . وكانوا يعرفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كلّ حالة من حالاته فأدّت بهم اسماؤه الى ان اعتبروه كآلهة شتّى

وكانوا اذا حسبه كعلة الموجودات ومولد الكائنات يدعونه بعل تمّوز او أدون ومنه اشتقّ اليونان اسم ادونيس (Adonis) . ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضاً باسم بعل لبنان . اما تكتيته ببعل سمائم او بعل السماوات فكان يراد به اله النور وجرم الشمس . وكان لكل البعل علاقة مع بعض النجوم السّيارة ألا ان الاله « تمّوز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقتها مع الاجرام الفلكيّة اعظم من غيره . وكان الفينيقيّون في زمن الدولة اليونانيّة يزعمون ان ادونيس المشار اليه أنّما كان شاباً يتصيد في الشام وانه كان ابناً اشتهرت ففي بعض الايام خرج سائحاً الى جبال لبنان ليتصيد في غاباتها المشرفة على جبيل اذ وثب عليه خنزير برّي فقتله

الآن هذه الحرافقة على زعمهم كانت رمزاً عن الشمس وتقلّباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة . فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن الى نهر ابراهيم المخصّص لذكر ادونيس فيجلسن على ضفتيه باقيات معلولات يرثين موت الاله ومحاسن الطبيعة التي يعبر عنها (٢) . وكان البعض منهم يُسبغن ذيوهن ويسدن شعورهن ويسرن في شوارع جبيل مغبرات شعثاً يلطن وجوههن ويولولن على تمّوز ويفتّين الاغاني الشجيّة المبكية

اما اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدوم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبي بفرط سرورهم وعظم افراحهم

(١) ولعلّ هذه الصيغة هي صيغة المنادى بدلاً من « ادوني » اي سيدي . وكانوا اذا اتّهلوا شفاعته البعل يدعونه بهذا الاسم

(٢) راجع آية حزقيال النبي وما ذكرناه في الفصلين السابقين عن نقوش غينة والمنشقة (ص ٣٨ - ٤١)

ومن تعبدتهم للأجرام الفلكية المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيون يعظمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدمون لها الذبائح فيحرقونها وربما اتخذوا لمحرقاتهم اطفالاً صغاراً لا يرثون حالهم
ومما يشعر بتعبدتهم للافلاك عبادتهم للبعل حامون اي المحرق وكان اسمه شائعاً عند القرطبيين وللبعل رصف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء . وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكوت المهيم الاعظم على صورة حجر منيرة . ومن ذلك ايضاً تعبدتهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء .

وزد على ما سبق ان عبادة الحجارة كانت من خواص دين الفينيقيين فكانوا يقيمون انصافاً ينحتونها ويدعونها بيت ايل (١) اي بيت الله يزعمون ان الذات الالهية تحل فيها وتسكنها . واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب نارية فيعدونها لذلك هبة سماوية . واذ كانت هذه الرجوم مركبة من مواد بركانية ذات لون اسود وتوفر عدها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في انحاء . ومما كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل مخروط لا يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينية كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة (٢)

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرا عند الفينيقيين كذي مبدأين ممتازين احدهما مبدأ الخليفة الفاعل والاخر مبدأها المفعول . ومن المبدأ المفعول نتجت الالهات الاناث وليست الأنثى عندهم سوى إعلان لقوة الاله الذكر. تظهر خواصه وتقابله . وكما ان البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الالهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل فترى لكل بعل خاص يعبد في بعض المدن بعل من جنسه . وحيثما كان البعل ممثلاً الشمس كانت البعلة تمثل القمر . ولبعل السمائم الهة توازيه يدعونها ملكة هالسمائم . ومن الازواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل

(١) ومنها اشتق اليونان لفظتهم Βασιλεύς . راجع قاموس التوراة لفيفور

(٢) راجع المشرق (١٢٧ : ٢) ومقالتنا السابقة في دير القلعة

صيدون وعشتاروت في صيدا وتْمُوْزُ وْبَعْلَةُ جَبَل (١) في جُبَيْل . وكثيراً ما يُطلق على بَعْلَة جبل اسم البعلة بلا اضافة وكان هيكلها من اشهر الهياكل تحجّ اليه الزوّار من كل صوب

وكانت عشتاروت والبعل وملكرت كصنف من التثليث الالهى في صور . وكان لهذا الثلاث مرتبة عليا بين الآلهة يدعن لهُ بقية المعبودات الثانوية . واتخذت صيدون لها ثلوثاً آخر يتركب من عشتاروت والبعل واسمون . امّا الجبيليون فكان ثلوثهم ايل وتْمُوْزُ وْبَعْلَة . وبعلة هذه هي التي يدعوها المورخون في زمن الدولتين اليونانية والرومانية زهرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي وكان للفنيين ما خلا هذه الاصنام آلهة أخرى من الطبقة الثانية وردت اسماؤهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام ان دين الفنيين كان مرجعه الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيزها . امّا مناسكهم الدينية الظاهرة فتعلّبت عليها الفطائع والارجاس حتى انهم كانوا يعدّون اعمال العهارة والفجور كافعال تقوية يتقرّبون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفحش فانهم كانوا يتخذون لكل هيكل نساء من المومسات يدعونهنّ عالمات (عوامل) او قدسات يعرضون بهنّ لكل ضرب الفحشاء

ومن قبائحهم ان كهنة البعل وعشتاروت في بعض المواقع كانوا يتخشّون فيلبسون لباس النساء ويطلون وجوههم بالغمرة ويعرّون اعضاءهم ويسرون في المدينة جموعاً فمنهم من يشهر السيف والفاأس ومنهم من يضرب الصنوج والطبول ويذمر بالزمارة وكلهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايامنا فتارةً يخلفون بين ارجلهم وتارةً يحنّون صدورهم وحيناً يقفزون قفزاً وطوراً يزحفون على الخضيض وهم يسحبون على الارض شعورهم المتشعّبة . ثم كانوا يعمدون الى المدى والسكاكين والحرايب والسيوف فيخدشون وجوههم ويشرحون ابدانهم ويقطعون

(١) ولبعلة جبل هذه ذكره في مراسلات تلّ العبارة المكتشفة حديثاً التي يرتقي عهدها الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

قطعاً من لحومهم ويطعنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدّموا ذلك ضحيةً لطواغيتهم . وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦-٣٠) ذكر كثير من هذه الامور وفيه وصف ضحية كهنة البس على جبل الكرمل في عهد الياس النبي الحيّ

ومن فظائهم التي ألعنّا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشرية التي كانوا يضخّونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعاً عند الهتهم يأنسون اليها ويتنسّون منها رائحة الرضى . وكانوا يوثرون لهذه المذابح الفظيعة الاولاد الابكار لاسيا الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل سائدة معززةً رغماً عن اقوال الانبياء . وغيره اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاعت انوار النصرانية في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدممة وخذلت عبادة الاصنام واخربت هياكل الشرك على يد ملوكها العظمين كقسطنطين وثاودوسيوس

١٢ اليمونة

اليثونة قريةٌ على عطف جبل منيطرة من جهته المشرفة على سهل البقاع بينها وبين افقة بعض الشبه . واسم اليثونة مشتق من السريانية (مُثَعْنُ) معناها البحيرة دُعيت بذلك لأن بقرها حوضاً تجتمع فيه مياه تلك النواحي يدعوها الاهلون بركة اليثونة . امّا قول المسيرينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٠٧) انّ البحيرة استنقت اسمها من اسم القرية فهو خلاف الواقع كما ترى

والبحيرة المذكورة في غور عميق تكثفه الجبال العالية من كل صوب ما خلا الجهة الشماليّة الشرقيّة . فانّ في هذه الجهة ربوة صغيرة تقوم في وجه المياه وتصدّها عن السيلان . اما وطأ الارض الذي تمتد فيه البحيرة فتربته مرصوفة من الحواريّ الشديدة البياض فاذا دخل فصل الصيف نضبت مياه البركة ويبس غورها البالغ طوله نيّفاً وكيلومترين في عرض نحو الف متر . فيسير السائر في تلك البطحاء على

هونه لا تزل به الرجل ولا تغوص في وحل وكل ذلك دليل على ان المياه وقت اجتماعها لا تتصفي في ذلك الوطأ وانما تغور في الارض كما سندكر وفي شمال البحيرة عند سفح الجبل المنتصب عليها ترى نبوعاً عديدة تنفجر في الارض ماؤها زلال عذب اصفى من الدمة . يتجمع في مسيل عرضه بين مائتين وثلاثة امتار فيجري عند طرف البركة الشرقي ثم يجتاز البحيرة في عرضها الى ان يبلغ حوضاً قليل السعة كانه بركة في بركة كبرى . وهذا الحوض الصغير غير منتظم الجوانب لا يتجاوز ٤٠ متراً في اوسع امكنته . اما عمقه فيبلغ في شهر ايلول خمسة امتار ثم يأخذ بالنقصان الا ان هبوطه لا تكاد العين تلاحظه لكثرة ما يجري اليه من المياه

وما لا ريب فيه ان المياه المتجمعة في الحوض الصغير تسيل من منفذ خفي يدعوه الاهلون بالوعاء وهو محبوب عن العيان تحنيه الحجارة وركام من الحصى والرمل . فتسيل المياه من هذه الشقوق الى سرب تحت الارض واول من عرف الاوربيين بهذه البحيرة السائح الفرنسي بولس لوقاس (Paul Lucas) زارها في اثناء القرن السابع عشر وهو يزعم في رحلته ان هذه البحيرة حديثة العهد . وهو زعم مردود يشهد على بطلانه اسم اليثونة السرياني وهو اقدم من ذلك العصر بكثير

ثم تردّد كثيرون من السياح الى لبنان وزاروا البحيرة المذكورة وبعضهم صَفَحُوا اسمها ببحيرة ليمون (Laimoun) (١)

ومما يجدر بالذكر ان سطح مياه بركة اليثونة مع صعوده وهبوطه سنوياً لم يبلغ الى نضوب البحيرة تماماً حتى سنة ١٨٧٠ . فلما دخلت السنة المذكورة ساخت الارض بطبقة الوحل والرمل التي كانت في قعر البالوع فالتسعت فوهة المنفذ الداخلي وانحطت مياه البحيرة على حين غفلة وجرت من هذه النافذة . وكانت سابقاً تنض في الارض نضياً

هذا ثم تعود مياه البحيرة عند الاعتدال الربيعي فيرتفع سطحها وتندفق جوانبها

(١) راجع كتاب ريتّر (Ritter : Erdkunde, XVII, 301)

الى ان تبلغ معظم ارتفاعها بعد شهر من الزمن وذلك ان المياه تتبجّس من مغارة قريبة في منعطف الجبل فتسيل الى البحيرة وتغمرها . وهي لا تزال تجري من تلك المغارة بقوة شديدة الى انقلاب الشمس الصيفي وهو منتهى ذوبان الثلوج على رؤوس الجبال فتقطع المياه اذ ذاك بفتة وتأخذ البحيرة بالنضوب شيئاً فشيئاً للسبب السابق ذكره حتى لا يظهر من البحيرة الا قعرها . على ان هذه اليوسه الناجمة اليوم عن نفوذ المياه في قعر البالوع كانت سنة ١٨٧٠ جزئية لان الارض المنخفضة في ذلك العام مع كونها نخرة كانت من ذي قبل تمسك قسماً من المياه حتى في اوان حمارة القيظ

واعل القاري يسأل وماذا يحدث بالمياه المتوارية من بحيرة اليثونة والى اين مجراها ؟ اجبتا ان هذه المياه تنفذ في قلب الجبل فتجري الى جهة الغرب وتخرج من مغارة أفقة وعند قرية العاقورة منحدره نحو ١٥٠ متراً عن سطح بحيرة اليثونة ومن هذه المياه يتكوّن نهر ادونيس المعروف اليوم بنهر ابراهيم . وهذا الامر قد ثبت الآن عند العلماء لا يرتابون في صحته لان مياه اليثونة لا اثر لها في منعطف الجبل الشرقي من جهة البقاع وزد على ذلك ان الجبل الفاصل بين وادي نهر ابراهيم وبطحاء اليثونة قليل الاتساع في باطنه مغاور عديدة يسهل نفوذ المياه اليها

وان سرت بضعة اميال الى جنوبي بحيرة اليثونة على منعطف الجبل الشرقي وجدت وادياً كثير الاشجار في وسطه بحيرة صغرى جميلة المنظر تدعى بركة الزينية طولها نحو كياومتري عرض ٥٠٠ متر مياهها صافية كالزلال وليس في هذه البركة من السمك شيء وانما تسبح في مياهها الضفادع والحيات المائية بخلاف بركة اليثونة التي يتوفر فيها السمك

وبحيرة الزينية تحف بها التلال المرتفعة وتسيل اليها المياه المتجمعة من الثلوج الذائبة وتنصب فيها جداول عديدة تجري في تلك الاصقاع . وقعر المياه من المواد الكلسية النخرة الكثيرة التفشت الشائعة في اعالي لبنان فتنفذ منه المياه وتغور كما تنضب مياه بركة اليثونة فتقفل الارض وتيبس بالتأم وعلو هذه البحيرة الصغيرة عن سطح البحر نحو ١٨٠٠ متر كأنها في حشنها احدى مجيرات جبل الالب (راجع المشرق ١ : ٤٢٦)

ومن الآثار القديمة التي تُرى في اليثونة دكةٌ مربعةٌ من الحجارة المنحوتة بُنيت على طرف البحيرة في وسط النبع المتفجرة التي تُحْدَقُ بها . وهناك بقايا من أسوار وأعمدة وأفاريز وصفائح ضخمة من الحجارة تدلُّ على أنَّه كان هيكلاً رومانيًّا أباده الدهر . ولا أثر هناك لكتابات قديمة

وقد حاول بعض المحدثين أن يثبتوا أنَّ هيكلاً أفقا الذي ذكره القدماء كان في جوار بحيرة اليثونة . إلَّا أنَّ هذا الزعم لا سند له كما بين الأمرين في بعثة فينيقية (١) والصواب أن القدماء اتخذوا لهم هيكلين أحدهما على مقربة من بحيرة اليثونة والآخر عند نبع مغارة افقة وكان بين الهيكلين تناسب يعدُّهما القوم كعبدَي إله واحد لما بينهما من الشبه في خروجهما من حوض واحد . ولعلَّ هذا الوفاق بين الهيكلين حمل المؤرخ اليوناني زوزيس (٢) على ذكر بحيرة بقرب هيكلاً الزهرة عند افقة . وأنما قال ذلك توسعاً لا يريد بلفظة « *πλησόν* » اليونانية « المجاور القريب » بل مطلق الاقتراب فقط . ومن الممكن أيضاً أنَّ هذا المؤرخ لم يثبت الأمر بنفسه بل اورده عن سمع (٣)

هذا ثمَّ أنَّ الطريق المؤدية إلى بركة اليثونة إلى بعلبك كثيرة الآثار فيها كتابات عديدة إلَّا أنَّ أكثر هذه الخطوط دراسة مطموسة لا حاجة إلى ذكرها في هذه الخلاصة

١٣ أفقا

كرّرنا مراراً اسم افقة (ويقال أفقا) في فصولنا السابقة على أننا لم نخصّها بعد بالذكر . فأينما ان نفرد لها باباً خاصاً لنفيد قراءتنا ما بلغنا من أمرها قلنا أن وادي نهر إبراهيم كان يُعدُّ في القرون الخالية كارض مقدّسة تعبد فيها الفينيقيون لشموز (ادونيس) فاقاموا له المزارات والابنية الدينية يحجّون إليها ويتبركون بها . وقد امتاز بين هذه المعابد هيكلاً أفقا الشهيد جعلوه عند رأس نهر إبراهيم في موقع يفوق مجسده جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنه الفتان هكذا

(١) Renan : *Mission de Phénicie*, 308

(٢) Zozime : *Hist.* 309 seqq.

(٣) راجع في هذا الصدد مقالة حسنة نشرها مسيو شرل غليردو بك في مجلة مصر ومولفها العلامة المسيو بلنش هذا عنوانها (Les eaux d'Adonis au mont Liban, p. 12, seqq.)

وصفه رينان في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية وبيّناته في مقاتلتنا عن جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢٢)

يشتق العلماء اسم أفقا من السريانية أهقا اصلها أيعقا أو أيعقا معناها « المخرج » يريدون بذلك « مخرج المياه » او ينبوع . فنه دُعي المعبد الذي نحن في صدره وكان مبنياً لأكرام « زهرة أفقا » يتقاطر اليه الحجاج من كل نواحي الشام . وكان اهل تدمر يقصدونه في كل سنة لمناسكهم . لكنه لم يبق من هذا الهيكل القديم غير بقايا ضخمة تنبئ بعظم شأنه . وهذه الاخرة منتشرة فوق سطح بُني على ركائز متدرجة بازاء العين بيمية الى الجنوب ومن يتأمل هذا البناء يجد بينه وبين هيكل فقرا تشابهاً في بعض اقسامه . ومن جملة الآثار الباقية الى يومنا هذا من الصوان وكثير من الحجارة الكبرى المنحوتة

وقد خرب هذا الهيكل مرتين . هُدم مرةً اولى بابعاز قسطنطين الكبير بعد تنصّره لاسباب ذكرها اوسابيوس القيصري في تاريخ هذا الملك حيث قال (١) : « لما استولى قسطنطين على منصّة الملك رقب من سموّ عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحديق به غيضة . وكان المعبد المذكور أُقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة . يتوارد اليه البغايا واهل الفجور فاضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ومع ما كان يجري في ذلك المكان من الآثام الفظيعة والارجاس الشنيعة كان الامر باقياً محجوباً عن عيان ارباب السلطة لانه لم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل المعبد ليتحقّق صحّة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فأمر من أخصّ واجباته ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فتقدّم الى عمّاله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامهم ويتلفوا ما مُهل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى أفقا فئة من الجند وتمّموا اوامر الملك فلم يُبقوا ولم يذروا » . وكان ذلك سنة ٣٢٥ للمسيح امّا سكان افقا فأمرؤا بان يبارحوا سكناهم فتوطّنوا بعلبك

(١) راجع الجزء الثالث من ترجمة قسطنطين لاوسابيوس الفصل ٥٥ وتاريخ سوزومان في مجموع الالباء اليونان (مين ٦٢ ص ٩٤٨)

ولكن بعد وفاة قسطنطين عاد سدنة هيكل الزهرة وحاولوا بناء الهيكل ثانية . ولعلهم حققوا امانهم على عهد يليانوس المعروف بالجاحد فبقيت عبادة الزهرة مدّة من الزمان الى عهد ثاودوسيوس الكبير . ونظنّ أنّ هذا الملك شدّد الاوامر فردّ الفينيقيين عن هذه العبادة النجسة كما أبطل عبادة الاوثان في انحاء كثيرة من مملكته . والارجح ان الاخربة الباقية الى يومنا هي بقايا الهيكل الثاني المنوّه بذكره وخوابه بسبب احدى الزلازل التي دهمت سواحل الشام كما وصفنا ذلك في المشرق (١: ٣٠٣، ٣٤٧ و ٢: ٩٧٠) . وما يؤيد ظننا ان بعض الجدران سقطت دفعة واحدة مع بقائها على نظامها الاول . وقد وجدت الزلازل مساعداً لفعل الخراب بما كان يجري من المياه تحت الهيكل . فأنهيار البناء لذلك عند حدوث الزلزال والله اعلم

١٤. مجري المياه في لبنان

لا يتمّ وصفنا السابق ليناابيع أفقة ولبحيرة اليثونة إلّا لم يُحطْ قراءتنا علماً بحالة لبنان من حيث مسایل المياه في جهاته المختلفة وذلك فنّ يلحق بفنّ الجغرافية يدعوه الفرنج المهدورغرافية اي رسم المياه وفي تعريف مجري المياه في لبنان فواتد مرتبطة بتاريخه ارتباطاً لا تنفصم اواريه . وقد ادرك الاقدمون ما في هذا الامر من الشأن الخطير حتى انهم اعتبروا بعض عيون لبنان ومياهه المتفجرة كآلهة حيّة اكرموا اكرامهم لعبوداتهم المختلفة . وقد أثينا بشواهد على ذلك في ذكر عين أفقة ونهر ابراهيم المخصّصين لآكام الزهرة وقمّوز

ومن المعلوم ان لا خصب للتربة في الشرق اذا ما انقطعت عنها المياه او قلّت كميّتها بحيث لا تفي بحاجة الزراعة . وما بلغ لبنان من العمران ما بلغ الألفزارة مياهه وكثرة مسايله

ومن لطف الخالق ان طبقات لبنان العليا تتربّب من عناصر كلسيّة كثيرة التفتّت نخرة ينساب الماء فيها دون عائق ويتسلسل في منافذ ضيّقة ثمّ يتجمّع في مغاور تحت الجبال كأنها خزانات للماء يفيض منها الى اسافل البلاد . ومن السواعد التي تمّد الى تلك الاحواض الطبيعيّة المياه المتكوّنة من الثلوج الذائبة في قم

لبنان ومادتها لا تكاد تنقطع عنها ابداً فانّ جبل صَبْن مثلاً ووادي الارز والثَّقر المحيطة بهما عبارة عن احواض من الثلوج يبلغ عمقها من ٣٠ الى ٧٠ متراً وطولها من ٧٠ الى ٣٠٠ متر عرضاً فلا يزال مددها متواصلاً يجري الى المغاور والاوшал التي منها تحصل الجداول والانهار والبحيرات الموجودة في باطن الجبل

وقد اخبر المهندسون الانكليزيون الذين عُهد اليهم سنة ١٨٧٣ فحص مياه نهر الكلب انهم ركبوا قارباً وتتبَّعوا مجاري هذا النهر في اعماق الارض . فلَمَّا قطعوا ١٢٠٠ متر وصلوا الى بحيرة واسعة غزيرة المياه يبلغ عمقها بضع مئات من الامتار وكان ماؤها زلالاً شديد الصفاء والبرودة . وكان يتدبَّع من سقف المغارة عُمد لطيفة من الماء المتحجّر (stalactites) وكانت عُمد أخرى (stalagmites) تعلو عن حضيض الارض وجوانب البحيرة فتتنصب مرتفعة كشُعب . فحاولوا ان يقطعوا تلك البحيرة ويتقدّموا في اسراب الجبل فلم يقووا على ذلك فانفتلوا راجعين

واجتهد غير هؤلاء الانكليز من ارباب الهندسة ان يزوروا مغاور أفقة فتقدّموا في منافذها المتعددة ووجدوا جداول واحواضاً من الماء لكنّهم لم يبلغوا الى نهايتها وهذا ممّا يؤيد رأي من قال ان بين افقة وبركة اليمونة وصلة تجمع بينها وهذه المياه الوفرة المخزونة في اعالي الجبال واوشالها الباطنة تنصب شيئاً فشيئاً الى الأهوية والبطاح على حسب اعطاف الجبل واسرابه المختلفة . وربما وصلت المياه الى سفح الجبال بشدّة غريبة فتنفجر وتنفور صاعدة في الجو ثم تجري من نبعها كالمياه النهر في كثرة مياهه . ترى ذلك في نبع نهر بيروت وانطلياس وجعيتا وخصوصاً في نبع نهر العاصي عند خروجه من مغارة مار مارون بقرب الهرمل . وليس في الشام كهذا النبع يتفجّر بقوة عجيبة من بين الصخور كأنه مدفوع بمضخة (طلبا) قويّة ثم يمتد في مسيل عرضه ١٥ متراً الى ١٧ م

ومن خواص عيون لبنان انقطاعها في بعض فصول السنة . وقد ذكرنا هذا في غضون كلامنا عن بحيرة اليمونة . وقد لحظ الاهلون مثل ذلك في نبع نهر بيروت المعروف بالديشونيّة كما ورد في المشرق (١: ٢٣٧) حيث علّل اسباب هذا الانقطاع حضرة الاب صالحاني . ولعلّه يوجد سبب آخر لوقوف مياه هذا النهر وذلك اذا

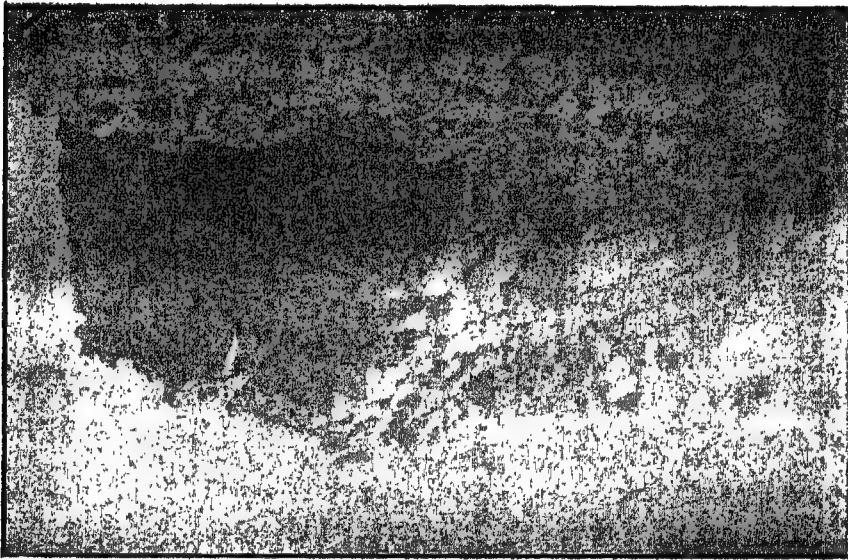
انهار شي . من الردم والصخور فحال مدة دون مجرى المياه . ففي غرة سنة ١٨٣٧ لما اصاب مدينة صفد زلزال هائل نقض ابنيها وهدم بيوتها انقطعت بغة مياه نهر بيروت ولم تعد الى مسيرها الا بعد مدة وكان لونها ضارباً الى الحمرة ففهم الناس ان قسماً من الجبل تهوّر في المياه الداخلية وحجز دونها . وقد ذكرنا في البشير (في تاريخ ٢٣ ت ١ سنة ١٨٩٩) ان بعض التراب والصخور انهارت من سقف المغارة التي يخرج منها نهر الكلب فتناقصت المياه من جراء ذلك مدة ساعتين الى ان دفعت المياه الحاجز من طريقها وعادت كما لو ف عادت . هذا وفي تقسّم المياه على جوانب لبنان فائدة كبرى تجدي نفعاً كل بلاد الشام فضلاً عن الجبل وحده . فكما ان النيل يحيي البلاد المصرية كلها كذلك لولا لبنان لأصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيها كصحارى جزيرة العرب . فان لبنان يمتص فوق رباه نداوة البحر ويجذب الانجزة المتصاعدة الى الجوف فتكاثف وتنزل على قمم امطاراً وثلوجاً تتوزع من ثم على جميع انحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول ومجيرات . فلو توارى لبنان من اكون لنضب نهر العاصي والليطاني بل ليبتست كل مسايل سواحل فينيقية . وما كنت لتجد شيئاً من حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيدا وبطاح البقاع المخصصة بل كنت ترى مغازات مقفرة تمتد مدى البصر وهي جرداء صلاء ليس في أرمالها ديار ولا نافخ نار . فحيا الله لبنان وبيّاه ونفعنا بفضلله وجدواه

١٥ قلعة فقرا

ان سرت صاعداً من مزرعة كفر ديبان ميسماً شمالها الشرقي على مسافة ساعة ونصف منها وجدت في منتصف الطريق المؤدية الى ميروبا على جنوبها ربوة قرية من جسر الحجر ورأس نبع اللبن يبلغ علوها فوق سطح البحر ١٦٠٠ متر . وعلى هذه الربوة اخربة تفوق بسعتها كل آثار لبنان لا يماثلها بامتدادها الا اخربة عين عقرم المعروفة بالناووس في مقاطعة الكورة على ان عين عقرم مع سعتها دون قلعة فقرا . هذا واننا لا نرى حاجة الى تعداد ردوم هذه القلعة كلها وانما نكتفي بأهمها وهي اربعة :

١ المكيل . هو من المآثر الجليلة . ومن خواصه ان بُناته نحتوا بادى بدء

في نفس الصخر مساحةً كبرى جعلوها كاساس الهيكل واتخذوا الحجارة المنحوتة في الصخر كمواد لبنائهم فاقصدوا بذلك في نفقة نقل الحجارة ولعلهم قصدوا غير ذلك . وما لا ريب فيه ان الفينيقيين اتخذوا هذه الطريقة ديدناً وجروا عليها في ابنتهم المختلفة . وقد بلغ الفينيقيون في نحت الحجارة مبلغاً بعيد الشأو حتى يحال للمعتبر ان صلاب الصخر صارت طوع ايديهم يقطعونها كما ارادوا



قلعة فقرا

هذا ولم يتخذوا كجدار الهيكل ما مثل من الصخر لان الجدران لا تلاصق الصخر لأن بينها وبينه دهليزاً يفصلهما . والهيكل طوله ٣٤ متراً في عرض ١٤ متراً . وحجارة البناء متوسطة الكبر غير ان افريز الهيكل والمراقي التي بها كان يصعد الزوار والسواري الماثلة في مدخل المبد كانت فاحمة عظيمة الشان يعمل منظرها في عين الجمهور . وبقايا هذه الاخوة تنبئ بضخامتها فان هناك اركاناً وقطعاً من العبد منحوتة في قلب الصخر لكنّها متراكمة فوق بعضها بغير نظام وعلى اسوأ حال

وأمام الهيكل ساحة رجة الجوانب طولها ٣٨ مترًا في عرض ٣٠ يُحْدَق بقسم منها الصخر المنتصب فوقها عمودياً . وكان سابقاً في مقدّمة هذه الساحة رواق يستند الى عمد والشاهد على ذلك ما ترى هناك من الاعمدة المحطّمة . وكانت عادة الفينيقيين ان يبنوا هياكلهم في وسط باحة رجة كما يظهر الامر في هيكل بعلبك وهيكل حصن سلايان في بلاد النصيرية . غير ان موقع فقرا لم يسمح بذلك لما يحيط بالمكان من الصخور العالية فجعلوا باحثهم بازاء الهيكل وما يقضي بالعجب عند مرأى هذا الهيكل العظيم انه بُني على قمّة الجبال حيث لا ترى اثرًا للقرى فان اقرب الضياع المسكونة اليوم هي اسفل من هذا المكان بنيف وثلثمائة متر

٢ البرج . وفي شمالي الهيكل برجٌ عظيم مَرَبَّع الشكل والمرجح انه كان ينتهي سابقاً ببناء مخروط على هيئة الاهرام . ومن جال في داخله وجد عدّة دهاليز واسراب ودرجاً يُصعد منه الى اعلى البرج المذكور (١) . وعلى جرانبيه كتابتان يونانيتان يأتي ذكرهما . امّا الغاية من تشييد هذا البناء فمبهمة ولا نعلم أهو مرقب لرصد الاعداء في وقت الحرب وبمجرد فُخص البناء لا يُستدلّ على شيء من ذلك . ولعائهُ قبرٌ لبعض الملوك لانّ الخاصّة لم يتأتّقوا عادةً هذا التأتّق في بناء قبورهم . على انّ الكتابتين اللتين أُلْعِنَا اليهما تنفيان هذا الافتراض لان الواحدة تذكر القيصر الروماني كلاوديوس وتعلمنا الثانية ان مشيد هذا الاثر هو احد سدنة الهيكل ابتناه « على نفقة خزانة الاله العظيم » وعلى ظنّنا انه مشهدٌ اقيم كقبر لتموز الاله الفينيقيين ولا يعنّص علينا في تقرير هذا الامر غير الدهاليز المجاورة له . ولكن من المحتمل ان هذه الاسراب احتُفرت لغاية دينيّة او بالاحرى ليتسأّر فيها ارباب تلك الديانة في بعض حفلاتهم الدنسة كما مرّ بك في ذكر هيكل أقفّة . وكانت هذه الفواحش تجري غالباً بجوار المعابد الدينيّة المخصّصة لذكر تموز

(١) وقد وصف هذا البرج وصفاً مطوّلاً هنري غويس (Guys) في كتابه الفرنساوي المعلنون (Relation d'un séjour à Beyrouth et dans le Liban, II, 8) والسائح سيتزن (Seetzen) في كتاب اسفاره المكتوب في بدء عصرنا هذا (Reisen I, 248)

٣ البناء المربعة . وبازاء الهيكل الموصوف بقايا حسنة من بناية مربعة يظهر من شكلها أنها كانت مشهداً او قبراً وهذه البناية محكمة العمل وحجارتها ضخمة

٤ البناء المستطيل . وعلى مسافة نحو مائة قدم من الهيكل من جهة الجنوب اثر آخر لا نعلم من غاية بنائه شيئاً وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية وتراه منقسماً الى قسمين كبيرين او ردهتين لهما باب يصل بينهما من داخلهما ايكون هذا البناء هيكلًا او كنيسة كما زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٣٧) ذلك امر لا يمكن الجزم به فان هندسة هذا الاثر تخالف هيئة الهياكل القديمة والكنائس المسيحية . وزد على ذلك ان باب الكنائس كان يوجه في القرون الماضية الى الغرب بخلاف باب هذا البناء . وقد استولى الخراب على آثاره فطمس محاسنه وذهب برونقه فتراه في حال اسوأ من بقية الاخرة المجاورة له هذا وقد سبق القول ان على مشارف فقرا غير هذه الاثار . فمن ذلك اطلال بيوت دارة ومعاصر وقبور منحوتة في الصخر وهلم جرا . وكل هذه المباني تشهد على ان هذا الموضع كان عامراً في الاعصار الحالية وان قوماً من السكان كانوا يقطنون بجوار الهيكل محدقين به

ولسائل ان يسأل الى اي عهد يرتقي تاريخ هذا الهيكل . جوابنا : ان الامر مبهم اذ لم يجد احد من العلماء كتابة قنبي بقديم هذا البناء . الا ان البرج الذي مر وصفه مزدان بكتابتين الاولى على جلف الباب والثانية على احدى زوايا البرج . والكتابة الاولى مطموسة لا يكاد يقرأ منها سوى سطرها الاول يستفاد منها ان البرج شيد اجلالاً للقيصر كلاوديوس الذي جلس على منصة الملك من سنة ٤١ الى ٤٥ بعد المسيح . اما الثانية فيؤخذ منها ان تاريخ البناء وقع سنة ٣٥٥ لليونان (١ اعني سنة بعد المسيح وانه بُني « على نفقة الاله العظيم »

(١) ان هذا التاريخ مكتوب بالحروف الالمانية ENT وقد رسم فوقها خطب دالة على انها اسفار عديدة لا حروف عادية . وكان السائح سيترن لاحظ ذلك في غضون زيارته لهذا الاثر وقد تحققنا نحن ايضاً الامر بنفسنا في خريف سنة ١٨٩٨ لما تفقدنا هذه الآثار . يد لنا وجدنا اللون اللاتينية (N) هيئة غريبة تقرّبها الى الميم M

(ἐκ τῶν τοῦ μεγίστου Θεοῦ) فُتِى من هو الاله المذكور ؟ على رأينا انه تموز بنفسه وقد ورد اسمه في كتابات جبيل مصحوباً بلقب العظيم (μέγιστος) ولقب الاكبر (ὀψιστος) ومن ثمَّ يجوز القول انَّ هيكل فقرا كان احد المعابد المشيئة لآكرامه . ويستنتج من لقبه بالكبير او الاكبر ان الفينيقيين كانوا يعظمون في جملة آلهتهم إلهاً سما عزراً وفاق فضلاً على سواه ولعله كان في اول الامر معبودهم الوحيد ففسدت ديانتهم بعدئذٍ وتعددت آلهتهم

فما تقدم يظهر ان بناء البرج حدث في السنة ٤٣ للمسيح . امّا تاريخ الهيكل فاننا لا نعلم شيئاً من امره . نعم ان رينان جزم بان هندسته تشبه هندسة البرج فاستنتج من ذلك انها بُنيت في زمن واحد . لكننا نحن لا نرى في قول رينان برهاناً كافياً لتقرير هذا الامر كما اننا لم نجد في هندستها شيئاً ظاهراً . امّا الآثار الباقية الموجودة في فقرا فعلى رأينا انها من اجيال متباينة والله اعلم

١٦ الساحل بين جونية وجبيل

(برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)

قد حان لنا بعد ذكر الآثار القديمة الموجودة في مشارف كسروان ان نعود الى الساحل فنواصل سيرنا من جسر المعاملتين شمالي خور جونية الى جبيل . ومن سلك هذه الطريق وجد عدة ابراج ينسبها العامة الى القديسة هيلانة الملكة . وهي في الحقيقة اقرب منا عهداً قد ابتناها اصحابها بعد عهد الفرنج المعروفين بالصليبيين لمراقبة الساحل

ومما يستلفت انظار ابناء السبيل مرسى صغير يُدعى برجا او بالاحرى طبرجا مشتق من لفظة يونانية (τοπαρχία) يُراد بها قصبة المُعاملة او المديرية . وكان لبرجا في سابق الزمان اسم آخر فينيقيّ نَمَت كانت تنسب اليه القصبة فيقال « طبرجا المحل القلاني » (τοπαρχία X) كما نقول مديرية كذا . فلم يبق اليوم سوى الاسم الدال على رتبة البلدة ومقامها . وهذا الامر يصحّ ايضاً عن قرية أخرى تُدعى باسم برجا (او طبرجا) موقعها جنوبي بيروت عند خان النبي يونس

وُيُستدلّ من اسم برج المذكور على انها كانت على عهد ملوك القسطنطينية .
بل لنا دلائل على انها وجدت قبلهم بزمان . ألا وهي المغاور والاسراب والمدافن
العديدة التي يشاهدها القوم على مقربة من مرساها الصغير فوق الرُّبى المحدقة بالقرية
على جانبيها . وهذه المدافن القديمة تشغل مكاناً منسجاً قلماً تجد مثله سعة في غيرها .
ولا شطط ان وكّدنا في القول انه كان ثَمّت للفينيقيين مدينةً صغرى
ومرسى برجا خرج قليل الاتساع وهو شبه جونٍ تراه في الغالب بأمن من سورة
الرياح . ولا بدع في ان السفن الفينيقيّة كانت تأوي اليه في الانواء
ومما ينبئ بشأن برجا في السنين الغابرة بقايا قناتها التي بها كانت تجري المياه
منحدرةً اليها من الاودية المشرقة على غزير

وان سرت من برجا بعيداً عنها وجدت بثراً او عيناً يدعوها اهل تلك النواحي
عين ماحوز . وقد ذُكرت في التواريخ الصليبيّة مصفحةً بـمَوس (Maus) (١) .
ولعلّ اصلها يرتقي الى ايام الفينيقيين . وهذه العين من الاعمال القديمة الخطيرة
يُنزل اليها بدرج محكم الاتقان نُقر في الصخر . وكان بقرب هذه البئر في القرون
المتوسطة حصن كما يشهد على ذلك الشريف الادريسي (٢)

وفي شمالي عين ماحوز بقرب قريّتي بوار وصفرة مدافن متسعة منقورة في الصخر .
لها مداخل عديدة في جوانب تلك الوديان . وهذه القبور تدلّ على وجود قرية
قديمة هناك ما لم يُقلّ انّ بلدة برجا كانت تمتدّ الى تلك النواحي وتتّصل بها
وان تابعت المسير بلغت نهر ابراهيم . وهنا مُشكل في تعريف اصل هذا
الاسم الذي ورد ذكره أولاً في جغرافيتي الادريسي والدمشقي (٣) . والتقاليد
المحليّة تزعم ان ابراهيم الذي نُسب اليه النهر كان اميراً على المردة . وما لا شبهة
فيه ان الاسم القديم كان ادونيس (تموز) . وقد مرّ لنا في الصفحة ٤٣ انه اسم

(١) راجع غيليموس الصوري ك ٧ ف ٢٢

(٢) وصف الشام (ص ١٧ ed. Gildmeister) . واعلم انّ الادريسي يذكر بين
جونية وماحوز مكاناً يدعوّه « عطفة سلام » يقول عنه انه « جون كبير يبعد عن جونية
عشرة ايمال »

(٣) طبعة بطرسبرج (ص ١٠٧)

احد آلهة الفينيقيين يقيم لذكور اهل جبيل عيداً سنوياً يدعونه ادوني (Adonies)
ومصوب هذا النهر جميل المنظر يُدرك من رآه كلف الفينيقيين باختلاق الحرافات
المتعلقة به . وفي فصل الشتاء بعد الامطار كانت المياه تطمو فيضحي لونها
كمداً ضارباً الى الحمرة فكان الاهلون يزعمون ان ذاك هو دم قموز المسفوك
فينوحون عليه



صورة برجا

١٧ جَبِيل

ليس من شأننا ان نسردهنا اخبار هذه المدينة الشهيرة او نلخص تاريخ احوالها فان ذلك يقتضي كلاماً مطولاً يخرج بنا عن الحدود التي افترضناها على نفسنا في مقالتنا (١) وانما نكتفي بان نذكر فقط آثارها الجليلة التي صبرت على عمر الزمان

كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدسة يحجّون اليها كما يحجّ الى المزارات الشهيرة. اما موقع المدينة القديمة فان جمهور العلماء لا يرونه مختلفاً عن مكان البلدة الحديثة. وقد ورد ذكر جبيل منذ القرن السادس عشر قبل المسيح في الرسائل التي اكتشفت حديثاً في تل العمارنة. ومما جاء هناك من الافادات التاريخية أنها كانت على سيف البحر ولها عمارة بحرية وان أهلها كانوا من حذاق الملاحين. وفي نبوءة حزقيال (ف ٢٧) وتواريخ الاقدمين ما يؤيد تقرير هذه الكتابات الجليلة الشأن كما اوضحه الدكتور جول روفيه (٢). وكل هذه الشواهد تنطبق على موقع المدينة الحديثة

بيد ان جبيل القديمة كانت رجة الجوانب واسعة الارعاء تمتد اكثر من المدينة الحالية امتداداً بالغاً. ولنا على ذلك البينات الواضحة منها قطع عديدة من العواميد وبقايا ابنية فخيمة تراها في خارج سور جبيل الحديثة. ثم ان السور الحالي ليس بقديم ولا يتجاوز عهد الصليبيين بل هو من اعمالهم. فوجود الآثار القديمة في خارجها لا يدل على انها في الاعصار السالفة لم تكن متصلة بالبلدة. ولما استولى الفرنج على المدن الساحلية في القرون المتوسطة وجدوا جبيل في حالة من الخراب يروى لها. فاخذوا في ترميمها واستعانوا لتشييد المدينة وتحصينها بمواد أخربة

(١) ومن اراد الوقوف على تاريخ جبيل فعليه بالمُحلاصة التي صنفها الدكتور جول روفيه فقرأها على مسامع نخبة من اهالي بيروت في حفلة عقدت في مرسح كليتنا ثم نشرها بالطبع في المجلّة الكتائية (Revue biblique, VIII, 553) هذا العنوان :

Gébal-Byblos, son histoire dans l'antiquité et sa nécropole phénicienne.

(٢) راجع المقالة المذكورة (ص ٢)

البنائات القديمة التي وجدوها قريبة دانية . ولعل ندره وجود الآثار القديمة في جبل مسيية من اتخاذها للابنية المستحدثة . وفي عصرنا هذا تلف كثير منها في ابنية قرية عشتيت فكان اهلها ينقلون من جبل كل ما يصلح لبناء مساكنهم . وهذا لعمرى مما يوجب الاسف لان بقايا ترقى الاقدمين وتمدّنهم يلاشيها التمدّن الحديث فيصبح لها بمثابة نواذب الحدّثان ومصائب الزمان بل اوخم عاقبة منها كما بيّن ذلك الدكتور جول روفيه

واذا زدنا على هذه عوامل الحراب الزلازل التي تلاعبت بكثير من آثار جبل (١) فهمنا كيف ان هذه المدينة امّ المستعمرات الفينيقيّة لم تُبقِ لاجلّ من مآثرها السابقة الاّ النذر القليل

واول ما يستلفت النظر من آثار جبل بُرجها فانّ بقايا الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان . وهو لا يزال منتصباً ينيّ بعظم شأن بُنائته وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقيّ المدينة له منظر خطير يأخذ بمجامع لبّ ناظره . وهو مبنيّ بحجارة كبيرة ولعلّ ذلك الذي حمل أغلب الكتبة على ان ينسبوه الى الفينيقيين زعمهم الباطل انّ قدم الابنية يُعرف بعظم حجارتها ووضخّ موادّها . وكانوا يزيّدون على هذا تأييداً لرأيهم انّ على البرج المذكور مسحة من العتاقة تشهد بقدّمه

بيد انّ ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديّات أبطلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقّق وبيّنوا ببراھين مقنعة ان هذا البرج من عمل الصليبيين في القرون المتوسطة . وسندّهم في ذلك الى ما يحدّق بالبرج الكبير من الابنية الثانويّة وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيين لما يدخل في تركيبها من الموادّ المأخوذة عن ابنية اقدم عهداً شادها اليونان والرومان كاعدة من الصوّان أدرجت في جدران هذه البروج . وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيين بخلاف الامم السابقة لعهدهم . اعني أنّهم كانوا اذا دخلوا بلداً انتفخوا بخواب آثاره القديمة كالمياكل والقصور فيتخذون موادّها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن

نقلها من المقاطع . فاذا ثبت ان هذه البروج الصغرى هي للصليبيين يصح القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينه وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة التّحت فان حجارة كليهما نتواً متشابهاً ولهيئتها عتاقة واحدة (١) مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر . وهناك ايضاً عدة تفاصيل هندسيّة عُرف بها الصليبيون دون غيرهم منها شعار البتّانين وعلاماتهم وقطع كتابيّة يونانيّة ورومانيّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لا ننكر ان الحجارة الكبيرة التي ترى في البرج الكبير هي من تحت الاقدمين وقد بيّنا غير مرّة لاسيا في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يحبون اتّخاذ مواد ضخمة لبنانياتهم . لكن الصليبيين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتخذوها لشؤونهم الخاصّة

امّا آثار قدماء الجبيليين فقليلة جداً . منها عدد كبير من العواميد تراها في كل انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو مدينة جبيل مدينة العواميد . وقعر مينائها الصغير مفروش كلّ بهذه العواميد . وهي من الصوان الصلب قد نُقلت من بلاد مصر بجرّاً . ولا نشك في انها كانت داخلة في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لأنّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيّة يحج اليها اهل البلاد ليتبنّوا بزارها . وكان للبلد ايضاً اروقة واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيّة في ذلك العهد

ومّا يستحق الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التماثيل . ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربة . وقد اسعدنا الحظ على وجود بعض منها كتبت باليونانيّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

(١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانما هي لاحقة بصنف الحجارة الرملية التي تستعمل في (الساحل . فان البخرة البحر والرطوبة تعملان فيها عملاً سيئاً فيظن من يراها انها عريقة في القدم مع انها حديثة . وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٢٠٠ سنة

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سيلاً عن عاديّات جيبيل الباقية في ضمن سورها . وهي لعبري نزة بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها . ولا غرو ان تحت ردمها آثاراً جليلة وكنوزاً علميّة سوف يطلعون عليها المستقبل اذا ما تيسّر للعلماء ان يحفروا حيث شاوروا . وما يزيدنا ثقة بهذه الاكتشافات ان اهل جيبيل كثيراً ما يجدون في املاكهم امتعة شتّى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المعدنية الى غير ذلك ممّا لا يمكن ضبطه وتدوينه في كتب آثار بلادنا ومن ابنية الفرنج في جيبيل كنيسة مار يوحنا المارونيّة . وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم ولعلّها كانت مزينة برواق في صدرها . وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلاثة اقسام مقببة تنتهي بخنايا . ونقوش اكلّة عمدها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزين الهندسيين الفوتي والكورنتي .

وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقة وهو عبارة عن قبة كئصف كرة تستند الى اربع اقواس على شكل بيضيّ وترى فوق ثلاث اقواس منها اشغالا هندسيّة وزينا حسنة . اما القوس الرابعة فلا ترى لانها مستندة الى جدار الكنيسة ١١

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كمية وافرة من عواميد صوّان متكسرة . ومما اكتشف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فخيم اشبه بهيكل . والاساس المذكور بالغ العمق يدخل منه الى اسراب غريبة الشكل لا تعرف غايتها . وفي المكان عينه وجدت قطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

مدافن جيبيل

ومن آثار جيبيل الغريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيداً عن اسوارها . الا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانما هي احدث عهداً كما ارتأى ذلك الدكتور روثيه في بحثه السابق الذكر ولعلنا نسمع

عمّا قليل بشرى اكتشاف نواويس جيل الفينيقيّة فيتنفع بها العلماء كما انتفعوا
بأكتشاف نواويس صيدا.

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جيبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة
من التقلّبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها . والارجح ان مكانها
المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآبار التي كان الفينيقيّون
يؤثرونها لقبر موتاهم كما ترى في صيدا وغيرها من المدن الساحليّة . على انّ عدم
اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسيو ريتان (بعثة
فينيقية ص ٢٠٦) . واننا نرجح مع المسير روّثيه وجود مثل هذه الآبار ولو لم
يتوصّل احدٌ بعد الى اكتشافها . لكنّ جيبيل لا تخلو من المغاور المخصوصة
بدفن الموتى الاقدمين . وقد وجدوا ايضاً حفراً منقورة في الصخر ونواويس لهذه
الغاية نفسها

اما المغاور فعلى ضريّين منها طبيعيّة وجدها الانسان فاستخدمها لدفن امواته .
ومنها صناعيّة حفرها بيده لهذه الغاية . وبين المغاور الطبيعيّة ما كان عهده قديماً
جداً . يشبه الكهوف السابقة لزمان التاريخ التي وصفها حضرة الاب زموفن في
المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على مسيل ماء في لحف ضيعة
قصبوبة على مسافة نصف ساعة من شرقي جيبيل . وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس
(المشرق ١ : ١٠٢) المرتقية الى طور الطرّان . وقد نُقر في جوانبها الداخليّة
مخادع كانت تجعل فيها الموتى . وفوق احداها نقش يمثّل محاراً من الصدف المتلوي
لعلّه من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تنفتح عمودياً او ببعض انحراف في وجه الصخور . ومنها
كثير في الوديان المجاورة لجيبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر . وفي بعض
الآونة ترى لهذه المدافن نقشاً قليلاً ويدخل اليها على سواء الرجل وربّما وجدت لها
حجرة او أكثر كانت تشتمل سابقاً على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الحبابا
وبائعى العاديّات لم يبقوا منها الا قطعاً محطّمة . وفي الغالب لا تجد في هذه المدافن
الا حفراً كالافران منقورة في الصخر

وتاريخ هذه المدافن لا يمكن تعيينه بالضبط لاسيما بعد ان نُزعت منها اجهزة الدفن وُسلبت امتعته كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلوا بها على عهدها . اما الكتابات فلا يرى منها الا التذر القليل وهي كلها يونانية ورومانية . وعليه فلا يتفق علماء الآثار العادية على تعريف عهد هذه المدافن . ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام . وقد ارتأى رينان ان بعضها يرتقي الى ايام الكنعانيين

امّا الدكتور روثيه فانّ رأيه ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان . وقد دعم قوله بحجج حسنة ترجح رأيه دون ان تزيل كل الشبهات . ومن براهينه انّ ما وُجد من العاديات في هذه المدافن منذ ٥٠ سنة لا تصح نسبتها الى غير الرومان فيستنتج من ذلك انّ المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضاً رومانية . (نقول) ان هذا الدليل لا يخلو من القوة لكنّه ليس بجازم لان كثيراً من هذه العاديات لا تزال مخفية لدى فاتحي هذه المقابر . وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بينّ الدكتور ان الثواويس والنقود التي وجدت في هذه الكهوف كلّها من عهد ملوك الرومان . فأننا نسلّم لجنايه بقوة هذه البيّنة لكننا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكماً فصلاً ريثما يتمّ البحث المدقّق في مستودعات هذه الكهوف . كما انه لا يجوز ان نبني على هذه الاكتشافات الجزئية احكاماً عمومية عن عادات الجبيليين في دفن موتاهم

هذا واننا نوافق المسير روثيه الموافقة التامة في نسبته بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي : ١ المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي تُرى جنوبي الطريق المؤدية من جبل الى بيروت . ولكل قبور هذه المدافن منافذ على شكل أقواس . ٢ المغارة الواقعة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتخذها ايضاً القدماء كمقبرة وحضيضها مبلّط بالفسيفساء . ٣ بعض كهوف اخرى طليت بالملاط ومنها ما هو مزّين بالتصاوير . فهذه بلا شك ليست من اعمال الفينيقيين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرن واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وجدت في صيدا قبل سنين قليلة وقد نشرنا كتاباتها في محلة

العاديّات (١) . ٤ بعض مدافن مقيّة . ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبر

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيّة . لكنهم لم يجدوا حتى الان فيها الا نواوساً واحداً يمثّل هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوفر . والنواويس الخشبيّة لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليّة . اما النواويس من الرصاص والآجر والحجارة والرخام البلدي مع اطباقها المعدّبة فهي اشبه شيء بنواويس بلاد فينيقيّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بدّ ان نثبت هنا قولاً لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفه الشكل وفي الغالب مستديرة تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض . فظنّ المسيورينان انّ العملة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفره ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقّة وقد ردّ الدكتور روقيه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فبيّن انّ هذه الاثقاب ليست بصناعيّة وانما هي صدوع طبيعيّة كثيراً ما تحدث في الحجارة الرملية كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاعت هذه الحجارة وقد رأينا كمثل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجاً عن المدافن

فهذا نظرٌ عموميٌّ لخصنا فيه ما يُعرف عن جبيل وآثارها . فعاديّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للعلماء ان ييأسوا من وجود آثار غيرها . ولقد اساء رينان لما قال عن جبيل انّه لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها . وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون توقّف كافٍ عن العاديّات ولما لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظره جزم بان هذه المدينة خلوة من المآثر القديمة

اما نحن فنؤثر رأي الدكتور روقيه حيث قال في خاتمة مقالته عن جبيل :

« اننا نعتبر جيبيل ومدافنها الفينيقية كأنها مجهولة تماماً . ونظن ان آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدت أفواهاها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فالتحذت تلك التلال كجنان وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض . ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصل عمّا قليل اصحاب الهمة الى هذه القبور المكنونة في اعماق الارض . ولنا ضمين لتحقيق آمالنا في ما شاهدناه في مدافن صيداء التي فيها وُجد قبر الملك تبنيث وعدّة من نفاس الآثر تحلب عقول الزوّار في متحف الاستانة العليّة . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس ولاية بيروت السابق بشارة افندي

» ولعلّ سعة حدود هذه المدافن البالغة في العمق كسعة المدافن التي اتُخذت بعدئذٍ بدلاً منها . اأ مركزها فالارجح انه على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منعطف الرّبي المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سبيل نهجه لمن يأتي بعدنا باحثاً في عاديّات جيبيل (١)

١٨ بلاد جيبيل

لبلاد جيبيل شأن خطير في التاريخ وعلم العاديّات . وذلك لانّ قاعدة تلك الانحاء كانت اوضحت في عهد الرومان مركزاً لعبادة قموز فصارت الضواحي التابعة لها كحرم لا يجوز انتهاكه . وكانت الجاهير تحجّ الى هذا القطر لتكرم الاماكن التي تحيلتها كموقع لآثر قموز واعماله المختلفة . ولذلك لم تكدرية من الرّبي التي تجاور مدينة جيبيل تخلو من معبد تنبّي آثاره الباقية بعظم شأنه

ومما كان يزيد هذه النواحي حسناً وبهجة انّ لبنان كان في ذلك العهد مجللاً بابهي حلل الطبيعة ترينه الغابات الكثيفة وتظلل الاشجار الباسقة فكان اشبه بجبال الالب التي هي اليوم فخر سويسرة ومصدر ثروتها (راجع مقالنا في جبال الالب ولبنان . المشرق ١: ٧٢١) . فكنت ترى لكل معبد غيضة تحقد به وقد

(١) وفي الواقع قد وُجدت في جيبيل بعد كتابتنا لهذه الفصول آثار أخرى قد وُصفت في

المشرق ١٩٠٣ (٦ : ١٩٣) و ١٩٠٤ (٧ : ٢٢٨)

فوقه افنانها الوارفة كما ترى اليوم في بلاد النصيرية المزارات والمقامات على آكام
تكتنفها ضروب الاشجار كأنها قلائد الزمرد
اما الاثار الباقية فمنها ما هو مطبور في الارض ومنها ما اتخذ الخلق لبنايات
مستحدثة كالكنائس والبيع يدل عليها كتابات قديمة طمس بعضها او نقوش
متقنة الصنع تراها في الجدران او صفائح محطمة ألقي حطامها في زوايا الكنيسة
او انصاب مخروطة وعتبات مستطيلة الى غير ذلك بل وجدنا مذابح بعض
الكنائس مبنية بحجارة المذبح القديم نفسه . واذا طُفت حول هذه الكنائس
رأيت آباراً او صهاريج او احواضاً او قبوراً منقورة في الصخر كلها شاهد على
الازمنة الحالية

بَلَاط

موقع هذه القرية على مقربة من قصوبة في جنوبها . كنيستها على اسم النبي
العظيم مار الياس وهي مبنية بحجارة هيكل قديم كان هنالك . وفي جدرانها بعض
قطع من تماثيل رومانية متحطمة وفي داخلها اربع كتابات يونانية يستفاد منها ان
الهيكل القديم الذي قامت الكنيسة مقامه كان على اسم الاله العظيم (Δὴ μὲγ(στην)
وهو البعل كبير آلهة الفينيقيين او تموز قرينه ونائبه في بعض الامكنة (راجع المشرق
٢ : ٦٢) ولهذه الكتابات تاريخ يقضي باعتبارها كاقدم الكتابات اليونانية في
لبنان فانها ترتقي الى السنة ١٩ قبل المسيح

ولبلات مدافن قديمة وقبور منقورة في الصخر أحكمها صنعا ما يرى غربي
المدينة . وهي عبارة عن ستة اجران متلاصقة متجانسة الشكل غاية في الاحكام
نُقرت في الصخر بعد قطعه وتسويته واهل بلاط يجدون عدداً وافراً من
العاديات في قريتهم وضواحيها . ولو باشر العلماء ثم حفريات منظمة لوجدوا فيها
ما يسرهم ١)

اده

هي في شمالي حبوب وشرقي شمالي جيل . من آثارها القديمة مواد كنيستها

(١) راجع كتاب بشة فينيقية لربان ص ٢٢٣ ورحلة دوسو الى سورية سنة ١٨٩٥ ص ٥

المقامة على ذكر القديس جاورجيوس . فانّ هذه المواد قد استخرجت كلها من ابنية عادية . ومن اعتبر جدرانها وجد في خلالها قطعاً شتى من العمد والحجارة المطلقة . وقد انتزع المسيو رينان عتبة الكنيسة وارسلها الى متحف اللوفر في باريس . وعليها يُرى نقش من الرموز الشائعة في الدين الفينيقي وهو يُمثل كوة ملتفة حولها حياّت تجتمع اذناها من فوق . والكرة المذكورة بين جناحين منششرين على جانبيها . وكان بيت العماد الذي قرب كنيسة جبيل حجر فيه مثل هذه النقوش الا انه احدث عهداً من العتبة السابق ذكرها (راجع ص ٦٣) . وهذا الحجر نقله ايضاً رينان الى باريس

وفي نواحي اده معابد كثيرة كانت في سابق الدهر هياكل للاصنام ومنها ما هو مزدوج . وسنعود ان شاء الله الى ذكرها عند كلامنا عن كنائس لبنان المارونية القديمة

عمشيت

عمشيت قرية جديدة بالنسبة الى غيرها من القرى المجاورة . وليس فيها من اثر ثابت يوذي بالقول الى وجودها في الطور اليوناني الروماني وهي اليوم بلدة معتبرة اخذت في النمو منذ اوائل القرن الحالي . اما الكتابات العديدة التي يجدها الناس في عمشيت فكلها منقولة اليها من جبيل او ضواحيها (١)

عبادات

فاذا رقبنا الان الى مشارف لبنان وجدنا في طريقنا كنيسة شامات المزدوجة التي فيها آثار هيكل من الطرز الايوني (ionique) ترى عمدتها من داخل الكنيسة . وفوق شامات على . سافة نصف ساعة منها عبادات او عبيدات ترى في جدران كنيستها عند بابها الخارجي كتابة يونانية كتبت في ايام انطونيوس (٢)

(١) راجع بثة فينيقية ص ٢٣١ ورحلة دوسو ص ٦

(٢) هذا الاسم مشترك بين انطونيوس المروفي بالبسار ومارس اورليوس انطونيوس

قيصر وهي ذات شأن لتاريخ الديانات في لبنان . والكتابة على اسم « المشتري السماوي الاعظم السارناني » (Σαρναῖος) المشفع ، وقد اختلف في شرح الصفة « سارناني » والارجح انه نسبة لاسم هذه الضيعة القديم فدُعي به البعل المعبود فيها وفي تراكم هذه النوعات والصفات اشارة الى معبود اعظم متفرد بالجلال هو الرب سبحانه وتعالى الذي لا إله غيره كان القدماء اشركوا به معبودات ثانوية فتأهوا في بيداء الشرك

بجديدات

في بجديدات ايضاً آثار قديمة متعددة . سيأتي الكلام عن كنيستها ونقوش جدرانها . اما مذهبها الحالي فهو المذبح القديم نفسه الذي كان الوثنيون يقدمون عليه تقادهم . ومثل هذا المذبح في كنيسة مار اما بجوار اده . ولا تخلو بجديدات من الكتابات القديمة اليونانية لكن اكثرها مطموس لا يسعنا هنا ان نذكر ما ورد في شرحها من الآراء المتباينة بلا فائدة للقراء

جربتا

في جربتا وهي قرية قريبة من بجديدات اجمل نقش حفره القدماء في لبنان على وجه الصخر . وهذا النقش عبارة عن نُقْرة مستديرة ترى في اعلاها شلو بعض الآلهة وتحت التمثال المذكور مذبح وعلى الجانبين شخصان رجل وامرأة واقفين في هيئة السجود وترى شخصين آخرين يسوقان الضحية ويحملان كل لوازم الذبيحة . وهذه الصورة قد صبرت على ممر الدهر الا ان رأس الاله قد حُطِم فيها عمداً . ورسمها حسن يشهد لمصوّرها بالحذق ودقّة الصناعة فانه اجاد كل الاجادة بتثيل حركات الاشخاص ولبسهم وهيئاتهم المختلفة . ومن فوائد هذا الاثر انه يدلُّنا على لبس قدماء الفينيقيين فضلاً عن تعريفه لديانتهم . وعلى مسافة قريبة من هذه الصورة كهوف ومدافن منها اشتقت جربتا على الاصح اسمها اليوناني (Κρύπτη) اي مغارة

فيجوز ان تنسب الكتابة لكل منها فيكون تاريخها اما سنة ١٥٤ - ١٥٥ او ١٧٧ - ١٧٨ بعد المسيح

معاد

لا ريب أنَّ معاد كانت في سالف الاعصار ضيعةً مِهبةً ومركزاً خطيراً . وفي القرون المتوسطة بُني لها قلعةٌ . وكنيستها نعدُّها طرفةً من طرف الايام نذكرها في جملة الكنائس القديمة المعتبرة . وممَّا اكْتُشِف فيها كتابة يونانية للاله سَتراپ تاريخها السنة الثامنة قبل المسيح ارسلها رينان الى باريس . ومن خواصها كثرة اغلاطها . مما يدلُّ على ان حافر الكتابة كان يرسم الرسم دون ان يفهم مضمونه . وهذا كثير في الخطوط اليونانية القديمة المكتشفة في لبنان كما ترى مثلاً في كتابة دوما . وهو من البراهين التي تنبئ بان الفينيقيين لم يتقنوا التكلم باللغة اليونانية

وان سأل سائل تُرى مَنْ هو هذا الاله سَتراپ . اجبنا ان السَتراپ عند اليونان كالمرزبان عند العرب وكلاهما يدلُّ على رئيس الفرس وسيدهم المتولي امورهم بالنيابة عن الملك . فيكون الاله المذكور في كتابة معاد دُعي بذلك ايام دولة الفرس في فينيقية . فسَمَّوه سَتراپاً اي سيِّداً كما سَمَّوا غيره من الالهة « بعلًا وملوخًا » وكلاهما بمعناه يراد بهما السيد والملك . وان اعترض المعتز بقوله ان المرزبان دون الملك مقاماً فكيف دعي به الاله العظيم . قلنا ان المرزبان كان في عين الشعب كالوالي والحاكم الاكبر الذي يعودون اليه في كل امورهم لبعده الملك الاعظم عنهم . فاعتادوا اكرام الوالي المذكور حتى صار لديهم بمنزلة الملك عينه . ثم نسبوا اليه قسماً من الصفات الالهية كما كانوا ينسبونها للملوك . وكذلك ترى كثيراً من الصفات الالهية كانت في بادئ الامر تدلُّ على رتبة مقصودة ثم نقلها العامة شيئاً فشيئاً للدلالة على السلطان المطلق والاله الاعظم كما ترى في غير ذلك من اسماء اللاهوت كالبعل وأدون وملوخ وكلها انتقلت عند الفينيقيين بالمجاز من معناها الاصلي الى معنى الاله الكبير المتعالي

مهما كان من امر هذا اللقب فانه من المقرر ان اسم الاله سَتراپ لم يُرَ ذكره في غير هذه الكتابة الحجرية . على ان پوزانياس المؤرخ كان ذكره في كتابه

السادس (ف ٢٥ و ٢٦) جَاءَ اكْتِشَافُ هَذِهِ الْكِتَابَةِ مُوَيِّدًا لِقَوْلِهِ (١) وَتَرَى مِنْ شَيْءٍ مَا فِي دَرَسِ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ لِمَعْرِفَةِ التَّارِيخِ . وَلَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ زَهِيدَةٌ لَيْسَ تَحْتَهَا كَبِيرُ أَمْرٍ . أَجَبْنَا أَنَّ الْعِلْمَ فِي الْغَالِبِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى مِثَالِ هَذِهِ الدَّقَائِقِ فَإِذَا جُمِعَ شَتَاتُهَا نَجْمٌ عَنْهَا فَوَائِدٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْحِسَابِ فَكَأَنَّهَا اشْعَّةُ النُّورِ تَبِيدُ إِذَا ضُمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ سُلْطَانُ الظَّلَامِ وَتَقَرَّرَ اسْمُ الْحَقَائِقِ وَأَجْلَاهَا



١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقاً لما ورد في مراسلات تلّ العارنة

كثيراً ما اشرنا في سياق كلامنا عن آثار لبنان الى مراسلات تلّ العارنة . فأجبنا ان نستطرد الى وصفها لما ينبجم عن معرفتها من الفوائد الجمة المربعة عن احوال بلادنا قبل تاريخ الميلاد باربعة عشر قرناً . فان هذا العُمري عهد قديم ما كنا لندرجو قبل عشرين سنة ان نقف على شيء من اخباره . فأقْبَى هذا الاكْتِشَافُ فِي حِينٍ لَمْ تَهْجَسْ فِيهِ الضَّمائر وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالٍ . أَمَّا الْفَوَائِدُ الَّتِي تُسْتَخْلَصُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ فَقَدْ أَحَقَّهَا بِآثَارِ بِلَادِ جُبَيْلِ لِكثْرَةِ وَرُودِ اسْمِ هَذِهِ النّاحِيَةِ فِيهَا فَنَقُولُ :

ان تلّ العارنة مزرعة صغيرة مجاورة لواء موقعه جنوبي مدينة النيا في الصعيد على مسافة ٨٠ كيلومتراً منها عند ضفة النيل الشرقية . والوادي المذكور تحيط به الصخور وهو يُدعى باسم المزرعة المَنوّه عنها . وفي هذا الوادي بُقعة واسعة تمتد مباشرة من قرية « شيخ قنديل » وكان على وجهها أطلال وأخربة قديمة . اما الصخور المجاورة فكانت قد نُقِرَتْ فِيهَا مَدَافِنُ تَرِينِهَا النُقُوشُ وَالْمَكَاتِبَاتُ الْهَيروغليفية استنتج منها العلماء انّ ثَمَّتْ ازهرت مدينة « خوت اتن » او « خوت

(١) راجع مبحثاً مهماً ورد في المجلة الاسيوية (الفرنسية عن الاله ستراب المذكور)
(J. A., 1877² p. 157)

ناتن (١) « كرسى ملك فرعون مصر المدعوّ امينوفيس الرابع وكان هذا الملك بنى تلك المدينة نحو سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وبقيت مدّة الى ان خربت بعد وفاته . ولما كانت بعض شهور سنة ١٨٨٨ بينا كان قومٌ من الفلاحين يحفرون بجوار هذه الاخرة اذ عثروا على صناديق خشب مملوءة من قطع الاجر كلها مكتوبة على وجهها باسطر متلاصقة ناعمة . فسُـرّ الفلاحون بهذا الاكتشاف واملوا من بيعه رجحاً طائلاً . وحملهم طمعهم الى ان كسروا اكبر هذه اللواح فجعلوها قطعاً ليزيد بذلك عددها ورجحهم معاً . ولعلّ جهلهم كان اودى بهذه الكنوز الدفينة لولا ان الخبر بلغ مسامع اولى الامر فبادروا حالاً الى تلافي الضرر وضبطوا ما وجدوه من الاجر ومنعوا كسره وتشتيت قطعه . وقد نال المتحف البريطاني النصيب الاوفر من هذه الكتابات فانّ منها هنالك ٨٠ آجرة كبرى حسنة . اما المتحف المصري فاصاب منها نيفاً وستين قطعة . وفي دار عاديّات برلين منها ١٨٠ قطعة دون القطع السابقة كبراً وكذلك تمكّن بعض الخواصّ لخصلوا على قطع صغرى ابتاعوها لنفوسهم

وما عتّم العلماء ان عرفوا ان الكتابات المرقومة على الاجر هي الكتابات المسمارية البابليّة وانها تشتمل على سجلّات الدولة في ايام امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث فكان لهذا الاكتشاف احسن وقع لدى المستشرقين وان سأل سائل كيف دخلت اللغة البابليّة في سجلّات ملوك مصر ؟ أجبنا ان الامر لا يخلو من بعض الشبهة . وقد ذهب قومٌ من العلماء الى ان اللغة البابليّة كانت في ذلك العهد اللغة الرسميّة بين الدول الشرقية كما ترى اللغة الفرنسية في ايامنا . وذهب غيرهم كالاب ديلاتر اليسوعي الشهير (٢) الى ان اهل الولايات الشامية في زمن مكتابات تلّ العمارنة كانوا يتكلّمون باللغة البابلية وهو عندنا الرأي الارجح . على اننا بقولنا هذا لا ننفي وجود لسان غير اللسان الاشوريّ اخذ منذ ذلك الحين

(١) لم يتفق العلماء على كتابة الاعلام الواردة في رسائل تلّ العمارنة فاتبعنا ما رأيناه اقرب الى الصواب

(٢) راجع كتابه في بلاد كنعان على عهد الدولة المصريّة :

Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien, (p.26 - 30)

يترج بلغة بابل نريد بذلك اللغة الكنعانية التي يظهر منها بعض الآثار في رسائل تل العمارنة . وهذه اللغة الكنعانية هي التي تغلبت بعدئذ في أنحاء الشام وطمست (بفرعيها العبرانية والفينيقية) آثار لغة اشور . وهذا يطابق ما نعرفه من احوال بلادنا فان اهلها كانوا قبل عهد المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل سامية من البابليين ثم لم يزل يهاجر الى سورية جيل من الناس نسبوا الى الكنعانيين حتى غلب هذا العنصر الكنعاني العنصر البابلي وقام مقامه (١)

وعليه ان اول فائدة نستفاد من مكاتبات تل العمارنة انما هي شيوع اللغة البابلية في لبنان مع ابتداء انتشار الفينيقية . وترى التراكيب الفينيقية في رسائل اهل الساحل لاسيا جيل وبيروت اكثر منها في غيرها . فيؤخذ من ذلك ان سورية كانت وقتئذ كضمار تجارى فيه شعبان كبيران : البابلي وهو المتولي على الارض المالك عليها تحت سيطرة فراعنة مصر . والكنعاني الذي ينمو ويزداد يوماً فيوماً الى ان ثبتت دعائمه وامتدت اطنابه واستولى على السيادة بدلاً من خصمه المدحور وغلب اغت على لغته

*

ومن بعد هذه المقدمة يترتب علينا ان نبحث عن مضمون مكاتبات تل العمارنة فنقول ان هذه المراسلات تقسم الى قسمين : الاول يشتمل على الرسائل التي بعث بها الى فراعنة مصر أقبال أسية وملوكها غير الخاضعين لدولة المصريين كالحثيين وملوك العراق وبابل واشور . اما القسم الثاني فانه يتضمن رسالات انفذها الى ملوك مصر او وزرائها ولاة وامراء عديدون من سورية وفلسطين . وكانت بلادنا في ذلك العهد تحت حكم مصر فيستشف من مطاوي كلام الكتبة التذلل والتواضع كما يكتب العمال الى سادتهم بل العبيد الى اولياء امرهم وفي مقدمة هذه الرسائل اسم الكاتب على هذه الطريقة : « عبدك فلان » او « فلان عبدك من مدينة كذا » او ايضاً « فلان كلب الملك » . ولا ترى احدًا من هؤلاء الكتبة يلقب نفسه بملك او امير بل يكتفي باسم « خزانو » وهو

الحاكم أو الوالي . وقد ورد في رسالة حاكم جبيل « ريب أدّي » أو « ريب أدّي » قوله للفرعون : « لاي سبب جعلني الملك خزانو » فاستدلّ المستشرقون من هذا الكلام ومن غيره أنّ رتبة « الخزانو » كان ملك مصر يقلدها بنفسه الولاة فيخلفهم فيها اولادهم من بعدهم . ويستدلّ من هذه المكاتبات ان النساء كنّ يتلنّ رتبة الخزانو كالرجال وهو امر غريب لم نجد له شيئاً في تاريخ الشام سوى ما ورد عن زينب في تاريخ تدمر (١)

وتحتوي الفاتحة ما عدا اسم الكاتب ذكر الفرعون والقابض على هذا المتوال : « الى الملك سيدي والهي ونوري وشمس السماء فلان . . . عبدك وتراب قدميك وسائس خيلك . اني اخر على اقدام سيدي سبع دفعات وأنطرح سبعا على صدري وظهري » وفي بعض الرسائل يبلغ الكاتب في التذللّ والخنوع الى ان يحصل نفسه « كلباً اهلاً بان يطأه سيده تحت اقدامه » ثم يلي هذه المقدمة فحوى الكتاب

أما رسائل الملوك فقدّماتها تُشعر بمرتبة اصحابها مثال ذلك ما كتبه « دوسرتا ملك ميتاني » اي بلاد ما بين النهرين وكانت اخته زوجة لأمينوفيس الثالث وابنته لابنه امينوفيس الرابع :

« الى الملك العظيم ملك بلاد مصر اخي وصهري (وفي الاشورية ختي) الذي يحبني وانا احبه كتبت هذا لافيدك . انا دوسرتا الملك العظيم صهرك الذي يحبك ملك ميتاني اخوك اني على احسن حال . واقرأ عليك السلام وعلى آل بيتك وعلى اخيتك وحرملك وعلى اولادك وعلى عجلاتك وخيلك ووزرائك وبلادك وكل مالك . سلام للجميع يكون اطيب سلام

وفي مكاتبات تلّ العمارنة اعلامُ مُدن كثيرة نكتفي بذكر ما له بعض العلاقة مع اخبار لبنان وهي : عكا (كما تُكتب اليوم) وصوري (صور) وصيدونا (صيدا) وبيروتا او بيرونا (بيروت) وجبله (جبيل) وسمورا او سموري (وهي بلدة تُرى اخربتها على مسافة كيلومترين من مصبّ نهر الكبير شمالاً)

(١) وقد اخبر المسبو دوسو في رحلة حديثة الى جبال النصيرية انه وجد امرأة كانت متولية رتبة المختار في ضيعتها

واروادا (جزيرة ارواد) . ومن المدن الداخلية المذكورة في هذه الرسائل . دِمَسْقَا
او دِمَسْقِي (١) (دمشق) وقطنا في جوار دمشق (ولعلها قرية قطنة)
ولا ترى في مكاتبات تل العمارنة ذكراً لجبل لبنان لاسيما جهاته الداخلية إلا
نادراً . وقد زعم الكولونل الانكليزي كُنْدَر (Conder) انه وجد فيها اسماء
البترون وجونية وشكّة وشتورة ومكسة في البقاع (٢) بيد ان العلماء الاثبات لم
يوافقوه على رأيه حتى الآن

ومن الاعلام المذكورة اسم مدينة آميا ذهب الاب ديلاتر اليسوعي الى ان
موقعها وراء لبنان او في جهته الشمالية . وقد زعم كُنْدَر ان آميا هذه هي اميون
الحالية في معاملة الكورة . فان صحّ قوله تكون اميون أقدم بلدة نعرفها في
داخل لبنان . والرسالة التي ورد فيها هذا الاسم كاتبها احد العمال المصريين يطلب
من صاحب آميا ان يسلم اليه عدداً من العبيد مع ابنة الشيخ ويرسل له فضة
وعجلات وخيلاً ثم يهتم قوله بما نصّه : « اعلم ان الملك على احسن حال كالشمس
في السماء وان جيشه وعجلاته على ما يرام من الصلاح »

وقد جاء ايضاً مراراً في هذه الرسائل اسم بلدة تدعى « نخاسه » يظنّ العلامة
نيبور (٣) انها كانت في شمالي شرقي لبنان . امّا الاب ديلاتر (٤) فيجعلها قريبة من
حمص . ففي اقوال العلماء كما ترى تباين ظاهر

ولكن ان كانت افادات رسائل تل العمارنة قليلة عن احوال لبنان الداخلية
فانها كثيرة التفصيل عن المدن الساحلية خصوصاً جبيل . ولولها « ريب اذى »
وحده نحو خمسين رسالة في مجموع رسائل تل العمارنة

واوّل ما يستلفت انظار مطالع هذه الرسائل ان مدن ساحل الشام كانت
فائزة بنصيب من العمارة والتقدم فكانت التجارة البحرية فيها على قدم . وكثيراً
ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيداء التي كانت تبحر عباب البحر المتوسط

(١) راجع مقالنا في اسماء دمشق (المشرق ٣ : ٦٥٨)

(٢) راجع كتابه The Tell Amarna Tablets, 2^o ed. London, 1894

(٣) راجع C. Niebuhr: Die Amarna-Zeit, p. 26

(٤) راجع كتابه السابق ذكره ص ٤٧

وتنقل محصولات البلاد الى اماكن شتى . وما هو اعجب من هذا ان المدن المذكورة كانت قد اتخذت لها بوارج حربية . والدليل على ذلك ما ورد في رسائل « ريب ادى » الى فرعون قال : « ان اهل ارواد عندك الان فاضبط سفنهم التي هي في مصر » . وقال في رسالة اخرى عن سفن بيروت وصيذاء : « أليست هاتان المدينتان تحت ولايتك فولّ عليهما رجلاً يمكنه ان يجهز سفناً لبلاد اموري (١) » . وزاد في رسالة ثالثة ان سفن صيذاء وبيروت بلغت ساحل بلاد اموري وقبضت على احدى مراكبها ثم اردف هذا الخبر بقوله : « وهذه السفن قادمة الآن لتستولي على بعض سفني »

*

ولا عجب من هذا الخصام الواقع بين مدن مجاورة فان رسائل تلّ العمارنة تبين بان امر بلادنا كان وقتئذٍ فوضى لا تجمع اهلها كلمة . وفي ما يأتي ادلة على ذلك

اما تجارة الفينيقيين البرية فكانت تبلغ الى تخوم مملكة آشور وكانت قوافلهم تعرف حق المعرفة كل الشعوب التي تملك على الاقطار المتوسطة بين بلادهم وبلاد بابل . وقد ورد ذكر هذه الممالك في رسائل تلّ العمارنة . وكان البابليون والميتانيون يزاولون صناعة المعادن وخصوصاً صيغة الجواهر الكريمة ثم يبيعونها للفينيقيين والفينيقيون ينقلونها الى الامصار البعيدة . وكان تجار فينيقية يعاملون ايضاً الحثيين في آسية الصغرى ويحولون الى عيلام اي بلاد فارس . ولا غرو فانّه يستدلّ من الكتابات الاشورية التي سبقت عهد رسائل تلّ العمارنة ان العيلاميين غزوا بلاد فينيقية فتكون الصلات بين الأمتين نشأت منذ ذلك الحين

اما الجهات الجنوبية فكان الفينيقيون اعلم بها من غيرها فكانوا يبحرون بلا انقطاع الى القطر المصري تارة ليدفعوا الجزية للفرعون وأخرى لمصالحهم الخاصة فيبيعون سلمهم ويستبدلونها بذهب مصر الشهير الذي ورد عنه في رسائل تلّ العمارنة « انه كثراب الارض كثرة » . والمظنون ان المصريين كانوا جلبوا هذا

(١) ذكر هذه البلاد وارد في ما يأتي والآراء متضاربة في تعيينها

الذهب من بلاد النوبة التي غزوها واستولوا على معادنها
ثم ان تاريخ الازمنة التابعة يشهد على ان سليمان الحكيم وفراعنة مصر
في عهده كانوا يستخدمون الفينيقيين لتاجراتهم وعندنا ان الامر كان كذلك في
القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل المسيح . وان الفينيقيين لم يجهلوا جنوبي
جزيرة الهند

واما اسفار الفينيقيين الى شمالي غربي البحر المتوسط فلا ذكر لها في مكاتبات
تلّ العمارنة . وانما ورد فيها اسم بلاد « ألأسيا » والمرجح انها توافق بلاد قرمانية
الحالية او احد الاقطار الواقعة في شمالي سورية . ومن اوصافها انها كانت من
البلاد الساحلية . وما لا مرأه فيه ان الفينيقيين كانوا يعرفون من ذلك العهد
جزائر الارخبيل وسواحل آسية الصغرى وكانت قفولهم البرية تتردد الى هذا
القطر للمتاجرة

*

فما تقدم يلوح للقرءاء ان فينيقية كانت بلغت في القرن الرابع عشر قبل
المسيح مقاماً عالياً من حيث تجارتها الواسعة وثروتها الوفيرة . وكانت المعادن
الثينة كالذهب والفضة تصاع في جيبيل فتجديها ارباحاً كثيرة يدلّ على ذلك
كتاب حرره واليهاريب ادّى السابق ذكره . وكذلك كانت الزراعة والفلاحة
في حال زاه رائع . وكان الزيت والخمر من جملة ما يقدمه الفينيقيون للملك مصر
لاداء الجزية . ولعل الخمر اللبثاني اشتهر من ذاك الحين قبل ما يذكره هوشع النبي في
سفر نبوته ٨ : ١٤ . وقد ذكرت ايضاً رسائلنا « الاشجار الكبيرة » التي وهبها ازيرو
احد امراء الشام ولما كان هذا يملك على قسم من شمالي لبنان فعلى ظننا ان
الاشجار الكبيرة المذكورة انما المراد بها شجر الارز . وهذا يصح ايضاً عن جبال
بيروت وجيبيل التي منها قطعت اخشاب هيكل اورشليم في زمن حيرام وسليمان .
ومما يدل على عمران بلادنا في ذلك العهد ذكر العجلات الحربية . لان وجود
العجلات ينبي بوجود طرق موثورة وفي توثير الطرق ما لا يخفى من الرقي لان ذلك
لا يخلو من الصعوبة في جبال كجبال لبنان (١)

(١) راجع ما كتبناه في هذا الصدد في اثناء كلامنا عن السكك الرومانية في لبنان

وقد جاء في رسالة لاحد ولاية بيروت اسمه أمونيرا ما تعريبه : « لما ورد امر سيدي وشمسي عليّ انا عبده وتراب قدميه . قائلًا لي اذهب الى مساعدة انصار سيدك الملك للحال اطعت امره وهاءنذا لاحق باصحاب سيدي الملك مع خليي وعجلاتي وكل مالي » . ولهذا الكاتب رسالة اخرى يذكر فيها عجلاته الحربية وما بيئه وبين ريب ادّى من الصلات الودية ١٦

هذا ولا تكاد رسائل ريب ادّى العديدة تخلو من ذكر الحرب التي اصلاها عليه « عبد الشرى وابنه ازيرو صاحب امورتي الشديدان » ويؤخذ من سياق كلامه ان سلطته كانت تمتد على ساحل جبيل الى طرابلس او مصب نهر الكبير شمالاً وإلى نهر الكلب جنوباً مع ما يجاور هذا الساحل من لبنان . امّا والي بيروت أمونيرا فكان نهر الكلب يحده ولايته شمالاً

ومن تصفح رسائل ريب ادّى ادرك انه كان قليل البخت لم تسعده الايام . ومن المبكيات المضحكات ما كتبه اليه احد عمال مصر بسبب قطع من الحمير كان الفرعون عهد اليه بحراسته بقرب مصب نهر الكبير في بلدة سميرة :
« . . . هم الطاعون بلدة سمري فامات الرجال واهلك الحمير . . . ويلا لك من كان يناظر الحمير ان انت لم تحتم بها . . . تقول ان الحمير وحراسها قد اُصيبوا بالطاعون وان مواشي سيدي الملك قد هلك فاذن يقتضى عليك ان تطلب غيرها للملك . . . »

فهذه الرسالة تفيدنا بان فراغة مصر كانوا اتخذوا لهم وسطاء من جلدتهم يناظرون ولاية المدن وامراء البلاد ويوقفون الملك على احوالهم وكان هؤلاء المناظرون يبلعون مروضيهم وامر الفرعون . وربما لاموهم عن اعمالهم كما رأيت او دافعوا عنهم في وقت الحاجة او اصلحوا ما حدث من الخصام بين اصحاب مدينة وجارتها

ودونك كتاباً آخر من ريب ادّى لبعض المناظرين المصريين اسمه امانياً يعرض له فيه تشكياته من اخصامه :

الى امانيا ابي الصنير من ولد ريب ادّى . ابي انطرح على اقدام ابي الصنير . ثم أسأله

١) الا ان هذه الملائق الودية لم تدوم زمناً طويلاً كما سترى وقد مرّ ان سفن بيروت استولت على سفن جبيل

ثانية : ألا تستطيع ان تنقذني من ايدي عبد الشرى . . . لا يبالي بامرئ احد من ولاة المدن ولعلمهم جميعاً متفقون معه ولذلك قد استفحل امره . اما انت فاجبتني : أرسل في صبحتي ساعياً الى بلاط الملك فان رضي الملك اعدته اليك مع الجنود ليدافعوا عن حياتك . فكان جوابي : اني لا اتأخر عن ارسال الساعي ولكن ليبق ذلك سرّاً لا يعلم به عبد الشرى لان ينهامون (وهو ناظر آخر كان ملك مصر) قد ارتقى . فأجبت : أرسل سفينة الى ياربينثا فيأتيك منه فضة وحلّ . . . ويلاه من يخلصني فاذا لم تسرع الجنود الى نجاتي سترك المدينة وانجو بنفسي »

وفي رسائل اخرى يطلب حيناً اربعة رجال وعشرين عجلة وحيناً اربعين جندياً (١) . . . وتارةً مثنين من المشاة وفئة من الحيّالة . الا ان المناظر المصري لم يجب الى طلبه ريب ادى ولم يُبالِ بامرّه وعليه فلم يزل عدوه يغزو اياله وتتنوّى شوكته حتّى ضبط كل النواحي المجاورة لبلاد جبيل ولم يترك لصاحبها غير مدينته . والعدو المذكور هو ازيرو وكان مالكاً على البلاد الواقعة شماليّ دةشق وعلى قسم من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبك وبجيرة حمص فطمع في املاك جاره صاحب جبيل واخذ منه ما اخذ في بقعة طرابلس وجبل عكار ولبنان ثمّ تفاقم الامر حتّى بلغ مسامع ملك مصر . وفي رسائل تلّ العمارنة ما يُشعر بغضب الملك على ازيرو لتعديده حدود ولايته . الا ان ازيرو المذكور كتب الى الفرعون لينكي نفسه ويلقي تبعه الامر على صاحب جبيل . وكتابه غريب في بابهِ احببنا ان نشبّه هنا :

« الى الملك العظيم سيدي وإلهي وشمسي من ازيرو عبده اني اقبل الارض امامك سع مرأت . . . اعلم سيدي اني انا عبدك متعز في التراب امامك ملكي ومولاي . ثم اني انجمار واقول لمرّتك لا تعرّ سمك الى الاعداء الذين رموني عندك بالزور والبهتان فاني عبدك الخاضع الى الابد »

لكنّ الفرعون لم يرض بقول ازيرو واستدعاه الى مجلسه ليدافع امام الملك عن نفسه . والظاهر انه سُجن في مصر ومات في حبسه

اما ريب ادى فلا نعلم عن وفاته شيئاً . وغاية ما يُستفاد عنه من رسائل تلّ العمارنة انه عمّر زمناً طويلاً وانه تولى على جبيل في أيام امينوفيس الثالث وابنه

(١) وفي الاصل يطلب الكاتب ان يكون عشرون منهم مصريين وعشرون من بلاد « ميلوخا » وميلوخا هذه مقاطعة واقعة عند تخوم مصر والشام

امينوفيس الرابع . وفي رسائله دلائل على انه كان يطلب خير رعيته وانه كان متعبدا لعشوتوت « بعله جيل (١) » يذكر اسمها في مقدمة أكثر رسائله . ويلاحظ ايضا من كتاباته هذه ان اسرته كانت مالكة على جيل وضواحيها منذ قديم الزمن لانه يشكو الى فرعون مصر امره ويقابل حالة السيئة بحسن حال اجداده فيقول : « ان الملك كان سابقا يرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك مما كانوا يحتاجون اليه وكان يسير لهم جنودا اما انا فارسلت الى سيدي الملك ساعيا ليساعدني ببعثة من الجند فلم يرسل اليّ احدا »

فما سبق يتضح لقراءنا ما تتضمنه مكاتبات تل العارنة من اخبار لبنان وسواحل الشام . لكن اهميتها الكبرى مبنيّة على قدمها لانها كتبت قبل موسى الكليم وقبل سفر التوراة وفيها عدّة تفاصيل تثبت صحّة اقوال الكتاب . ومنها ايضا يتبين ما في درس اللغتين المصريّة والبابليّة من الجدوى للعلوم التاريخية . وفي ما اكتشفه المستشرقون منها حتى الآن ضمن عن فوائد اكتشافات المستقبل ان شاء الله (٢)

٢٠ كنائس لبنان القديمة

فحال قراءنا قد اشتاقوا الى مطالعة وصف الكنائس القديمة في لبنان بعد ما كررنا ذكرها في فصولنا السابقة . وليس مرادنا ان نستوفي الكلام في هذا البحث لأننا لسوء الحظ لم نتمكن من زيارة كل كنائس لبنان القديمة . ثم ان كثيرا من هذه البيع قد خربت في مدة هذه السنين الاخيرة او ذهب عنها رونقها القديم وذلك لغيرة محمودة في اهل لبنان حملتهم على تجديد بناء كنائسهم او ترميمها لولا انهم حرمونا من بعض الآثار الجلييلة الناطقة عن احوال سلفائهم الافاضل وعليه فقد

(١) راجع فصلنا السابق عن الديانة الفينيقية في لبنان

(٢) ان اردت كلاما مطولا عن مراسلات تل العارنة فراجع مقالات مسبهة كتبها الاب ديلاتر . ومن جملتها نبذة افرنسية دعاها : « اكتشاف تل العارنة » . ثم اردفها بمقالة اخرى وسماها « بكتابات تل العارنة » . وللمستشرق الشهير هالفي (J. Halévy) مقالات في الموضوع نفسه في المجلة الاسيوية الفرنسية (J. A. 8^e série, XVI-XX)

اسرعنا الى كتابة هذه المقالة قبل ان تمتد يد الحراب الى الكنائس الاخرى
العديدة . وغايتنا من هذه النبذة ان نبين للقرأء اجمالاً ما اتّصفت به هذه البنايات
المقدّسة وما هي خواصها التي تفرّدت بها في لبنان

لا مشاحة في ان لبنان يتفاخر على غيره من الاصقاع بوفرة كنائسه . فانك
لا تكاد تدخل قرية منه بل مزرعة من مزارعه دون ان تلقى لها كنيسة ولعلّك
تجد في القرية الواحدة اللهم اذا كانت متوسطة في الكبر كنيسةين واكثر

واغلب هذه الكنائس لا يرتقي عهدها الى ما فوق المئتي سنة تراها في هندستها
اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها . فانها على هيئة مكعب مستطيل
مبنية بالحجارة والملاط لها على جوانبها ابواب ونوافذ . وفوقها سطح ترى على
احدى حافاته قبة للجرس لا تظهر بينه وبين الكنيسة علاقة هندسية . وقد
استبدل السطح منذ عهد قريب بسقف مغطى بالآجر الاحمر فزادت بذلك
الكنائس بعداً عن هيئة المعابد الدينية . وان سألت هل لهذه الابنية طرز هندسي
اجنبا أنّنا نجعل ذلك ولعلّ بنايتها انفسهم لم يدروا اي طريقة هندسية جروا عليها
في هذه العمارات

لكن الامر لم يكن كذلك في سالف الاعصار . ولو بحثنا لوجدنا لاهل لبنان
في القرون الغابرة طريقة هندسية في بناء كنائسهم كنّا نودّ لو يحييها المهندسون
المحدثون في المعابد التي يشعرون بتشبيدها او يستجدّون ببناءها

فترى اين نجد امثلة لهذه الابنية العتيقة ؟ أفي جنوبي لبنان او مقاطعة المتن ؟
كلاً لأنّ الموارد لم يدخلوا هذه الاصقاع منذ زمن مديد . وتزيد على ذلك ان
دخولهم في نفس كسروان ليس بتقديم كما بينّا الامر سابقاً في المشرق في نبذتنا عن
فراغريفون (المشرق ٥٦: ١) ثمّ في ردنا على مقالة « لاحد العلماء » أدرجت في
الروضة . وعندنا انّ الموارد لم يتوطّئوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول
يمكن تأييده بأدلة عديدة لعلنا نذكرها في مطاوي مباحثنا هذه عن آثار لبنان .
وحسبنا اليوم ان نقول انّه لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة دير واحد يسبق
عهده القرن السابع عشر ١) وكذلك لم نطلع في تواريخ الموارد على ذكر رجل من

(١) راجع كتاب الحوري منصور طنوس الحوري في المقاطعة الكسروانية ص ٢٨ .

مشاهيرهم اصله من كسروان قبل القرن السادس عشر . واذا جاء ذكر الموارنة في تأليف الصليبيين فلا نراهم يذكرهم الا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيه اثرًا . وكذا قل عن اديوتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابراهيم كما ان اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها

فيتضح من هذه الحقيقة امران : الاول ان لا آثار كسروان اليونانية الرومانية شأنًا اعظم من آثار المارونية . والثاني ان من يطلب امثلة تطلعه على هندسة الموارنة القديمة لكنائسهم الاجدر به ان يطلبها خارجاً عن كسروان وفي واقع الحال اذا اجتازنا نهر ابراهيم وتوغّلنا في بلاد جبيل وجدنا عدداً وافراً من هذه الكنائس وهذا العدد يزيد على قدر مسيرنا الى الشمال . ولا غرو لان هذه الاصقاع هي مهد الامة المارونية وموطنها الاول درجت منه فامتدت في النحاء لبنان لجبهات سورية فأقطار المشرق حتى بلغ ابناؤها في عهدنا بلاد الغرب ودخلوا العالم الجديد . فان وجد شي من آثار ابنيها الدينية القديمة فهي عند مركزها الاول وفي محل عزّها

*

قد اجمع علماء العاديات ان لهندسة الكنائس المسيحية منذ بدء النصرانية خواص مشتركة تشمل كل البلاد إن غربية وإن شرقية مع ما يُرى فيها من الاختلافات الطارئة عليها بسبب تقلب الاحوال ودواعي الظروف . ومن هذه الخواص تقسيم الكنائس المسيحية سالفاً الى ثلاثة اقسام الحنية او المحراب (abside) ثم السوق (nef) ثم الرواق او الدهليز (portique) . وبيع الموارنة القديمة لا تشذ في ذلك عن غيرها من معابد المسيحيين العهيدة

فاذا اعتبرنا اولاً هيئة الحنية وجدناها شبيهة بالحنايا اليونانية اي انها مجوفة في الداخل نائنة في الخارج على شكل مستدير كما ترى في كنائس اهدن وكفرحي ومار نهرا وسيدة سر جبيل ومار ضومط في تولّا ومار الياس (كنيسة واقعة بين

تولا وعبدله (ومسرح ومجديدات واده (في بلاد البترون) واده (في بلاد جبيل)
وفي جوار اده هذه عدة معابد وبيع بُنيت على هذا المثال
هذا ولم ننظم داعل في سلك القرى المذكورة مع ان كنيسة المتهدمة ذات
حنية ظاهرة الى عهدنا . لاننا نظن ان هذه الكنيسة كانت في الاصل هيكلًا
للإصنام ثم حوّلها الالهون الى معبد مسيحي على اسم القديس تادروس الشهيد .
وبين ردمها جدران ماثلة حسنة البناء فيها آثار خطوط كوفية مطموسة . وترى
مثل هذه الخطوط في حلتا في كنيسة السيدة القديعة . وكنيسة داعل المذكورة
يزورها المتأولة ويكرمونها ولهم عند اطلالها سندية كبرى لا يسها احد
ولو أردنا ان نسرّد اسماء كل الكنائس القديعة المارونية التي بُنيت لها حنية
مستديرة اطلال بنا الكلام . ولعلّ المشكاة التي يجعلها الموارنة وراء المذبح
الكبير مثال صغير لهذه الحنايا القديعة اتخذوها كذكر لها . ولا ريب ان الموارنة
اهملوا بناء الحنايا في كنائسهم يوم اخذوا يتقربون في مناسكهم وطقوسهم من
الكنيسة اللاتينية (١) ويقتدون بها في شؤون كثيرة . كما لحظ ذلك مرارًا
مؤرخو الموارنة انفسهم (٢)
هذا وقد اسفنا على ان البناء الذي سعى في ترميم بعض الكنائس القديعة هدموا
الحنايا السابقة او غيروا صورتها ما امكن . فترى مثلاً الحنايا الثلاث التي كانت في
كنيسة مار دانيال في حدث الجبة قد باد اثرها تماماً
ومن خواص البيع المارونية القديعة قببها . ومما استحسناه من هذا القبيل قبة
كنيسة مار الياس بين عبدله وتولا وهي تشبه قبة كنيسة جبيل . بيد ان هذه
الكنيسة مهلة يتنازع ملكها اهل القريتين
والكثير من الكنائس دهليز او رواق مقبب الشكل كما ترى في كنيسة
كفرحي وفي كنيسة مجديدات اعني مار نيقولا ومار تادروس وفي كنائس مار
يوحنا المعمدان في اده (جبيل) ورشكيدا ومسرح

(١) ومذ ذاك العهد ايضاً ترك الموارنة بعض العادات الجارية عند اليونان وباقي الطوائف
الشرقية ، ولعلهم تخيلوا ان بناء الحنايا من الابنية المخصصة بالروم
(٢) راجع مقدمة كتاب الدويهي المعنون بمنارة الاقداس (ص ٧)

هذه العجائب الثلاث اي الحنية والقبة والرواق هي التي تعم كنائس الموارنة قديماً اللهمّ ألا الدهليز فاننا لم نجدّه في قسم منها

*

هلمّ نعتبر الان ما اختصّت به بعض هذه الكنائس دون غيرها . فمن ذلك ان بعضها كان ذا ثلاثة اسواق ككيسة جبيل وان اعترض علينا احد بان هذه الكنيسة من بناء الصليبيين فلا علاقة لها مع كنائس الموارنة أحنأه الى مثل كنائس أخرى بُنيت في وسط المقاطعات المارونية ككيسة معاد ورشكيدا ومار جرجس في اهدن

فكنيسة معاد من اجمل كنائس لبنان بناءً وهندسةً لولا انّ مرّمتها لم يعرفوا قدر الآثار القديمة فانهم لم يحسنوا إصلاحها وطمسوا كثيراً من محاسنها وازالوا حنيتها ومحووا نقوشها البديعة وكان لهذه الكنيسة ثلاثة اسواق غير انها اقصر من كنيسة جبيل ودونها في العلوّ . ولعمدتها رؤوس اكلم من الطرزين الهندسيين الاقدمين اي الطرز الايوني (ionien) والدوري (dorique) . اصلها من بقايا هيكل قديم مع آثار أخرى راجع ما كتبناه عن معاد (ص ٧١) . وفي الكنيسة المذكورة قبور ترتقي الى متوسط القرون . وبازاء معاد قرية تدعى صغار لها كنيسة ذات سوقين في اعلاهما حنيتان

اما كنيسة رشكيدا فتستحق ذكرًا خصوصياً لقلة شهرتها . والحق يقال ان الدهش اخذ منا مأخذهُ لما صادفنا هذا المبدع الجميل في مزرعة حقيرة مجهولة

يسكنها المتأولة على مسافة عشر دقائق من عبرين

فلكنيسة رشكيدا رواقٌ واسع كانت سعتُهُ في سالف العهد اعظم منها اليوم . والمكان باسم القديس جاورجيوس الشهيد له ثلاثة اسواق مثل كنيسة معاد والسوق الاوسط ينتهي بجنيّة وراءها قبة كبيرة او بالاحرى ثلاث حنايا يندش لمرآها الناظر . فطلبتنا لهذه الصورة الهندسية الغريبة شرحاً يكشف لنا سرّها المكنون فقلب ظننا ان الكنيسة كانت سابقاً اكبر منها اليوم فرمها البناء واقتصروا منها على هذا القمم الباقي . ولاثبات هذا الظن ادلةٌ تتبادر الى ذهن

زائرها ولولا خوف الاطالة لعرضناها هنا . ونكتفي اليوم بأننا عرفنا القراء بوجود هذه التحفة الهندسيّة وسنلمح اليها في مطاوي الكلام غير مرة (١) ومن الكنائس القديمة الجديدة بالاعتبار كنيسة حدتون كان بقي منها بعض الاخرية قبل سنين قليلة . فلما بُنيت البيعة الجديدة تضععت تلك البقايا دون ان يمكنّا أننذ زيارتها . ولرينان في وصفها فقرة موجزة اثبتتها في بعثته الفينيقيّة (ص ٢٥٥) فزاد بطلانها أسفنا على فقد هذا الاثر البهيج . وكان في هذه الكنيسة عمودان تزينهما الكتابات القديمة التي رسمها رينان رسماً لا يكاد يُستخلص منه معنى . وكل هذه الآثار من عمد وجدران قد طُست وقت البناية الجديدة

وقد تفضّل حضرة الحوري نعمة الله نصّار فارسل الينا كتاباً ضمّنه عدّة افادات عن هذه الكنيسة الجميلة فقال في وصفها « انها كانت ذات أسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة لجهة الغرب ضمن دهليز متقن وباب لجهة الجنوب وله ايضاً دهليز خاص وباب للشمال ضمن دهليز طبيعي منقود في الصخر وبابان على جانبي الحنية وهي كانت غاية في الحسن تقوم على ذاتها ووراءها المونف (السكرستيا) فُتحت له نافذة جنوبية . وكان لهذه الكنيسة اربع قناطر رفيعة اثنتان للجانب الايمن واثنيتان للأيسر يتعلّق طرف الواحدة بجانب الحنية وطرف الاخرى بالحائط الغربي »

فهذه التفاصيل تنبئنا بأن كنيسة حدتون لم تُشبه غيرها من الكنائس السابق ذكرها وهي كلها مقببة ذات باب واحد ليس الا . اما العواميد التي كانت في داخلها فنرجح ان اصلها من بناية قديمة كهيكل وثني او غير ذلك وكان حضرة الاب نعمة الله سألنا في كتاباته مراراً ان ندلّه على اسم اي قديس شيّدت هذه الكنيسة لانه تحفّي في السؤال عن الامر لدى العامة وبحث عن تقليد الشيوخ فلم يفز بالمرام

(١) زعم رينان في بعثه فينيقية ان في جدار هذه الكنيسة كتابة قديمة استدلّ عليها . وعندنا ان لا وجود لهذا الاثر لان الاهلين يجهلونّه مطلقاً

قلنا اننا نحن ايضاً بحثنا عن هذا في ما تيسر لنا من التأليف فلم نحظ بالمقصود . ولعل ذلك يمكن استخلاصه من كتابة يونانية دلتنا عليها اهل حدتون . وهذه الكتابة كانت مكتوبة على طوق من النحاس كانت تُنَاط به ثُرياً او ما شاكلها . ومضمون الكتابة ما تعريبه : « في عهد حنا كاهن مار الياس » يريد كنيسة مار الياس . فيترجح من هذا ان الكنيسة المذكورة كانت على اسم القديس اليّا النبي لان لحدتون كنيسة أخرى قديمة مخصصة بالعدراء الطاهرة وهي باقية الى اليوم

*

هذا وان سياق كلامنا عن رشكيدا ومعاد وحدتون قد بلغ بنا الى ان نبسط المقال عن النقوش التي كانت الكنائس المارونية مزينة بها . ولا مراء ان تصاوير كنيسة معاد كانت بديعة جداً كما ينبغي على ذلك ما بقي منها على جدرانها وقد ذهب اكثرها بترميم محراب الكنيسة . ومما افادني شيوخ القرية انهم لو ازالوا الردم الذي هناك لوجدوا امثالا لتصويرية حسنة من حملتها صورة مار يوحنا مارون وفي تاريخ الموارنة للدويهي ما يؤيد زعمهم قال (في حاشية الصفحة ٣٦٨) : « وفي حنايها (يريد كنيسة معاد ومجديدات) مكتوب « ان الله صباوث » ومصور على حيطانها مار مارون ومار قيريان بالتيجان على رؤوسها والدروع على اكتافها » فياليت اصحاب الامر يتولّون هذا العمل وينتزعون التصاوير من تحت الردم ولنا الامل انهم يلقون مع التصاوير كتابات قديمة بالخط الاسطرنجيلي تفيدهم علماً عن اخبار قديسي الكنيسة المارونية . اما تصاوير كنيسة رشكيدا فقد باد اكثرها الا ما يراه الناظر في جهة المحراب وهي رؤوس متقنة التصوير تدل على ما كان ثمت من النقوش الجميلة

ومن الكنائس المزخرفة بالتصاوير كنيستاتان على اسم مار جرجس في اهدن وعبدله وكنيسة مار تادروس في مجديدات قد صبرت على عوارض الزمان ولو اراد السكّان لامكنهم ان يحدوها بعد ازالة الملاط الذي يحجب قسماً منها مع صيانتها عن الرطوبة . ومما يُرى في جدران مار تادروس صور الكروبيم يحملون بين ايديهم تسبحة التقديس (Trisagion) مكتوبة بحروف اسطرنجيلية ولبقية

تصاوير هذه الكنيسة كتابات سريانية تُعرّف موضوعها واسماء الاشخاص المصورين فيها . فلا يخلو البحث عنها من الفائدة

وكنّت ارفع كثيراً في زيارة كنيسة مار سركيس المجاورة لشبطين لاني كنتُ قرأتُ في بعثة فينيقية لرينان (ص ٢٥١) ان هذه البعثة مجلّة بتصاوير بديعة ظنّ انها ترتقي الى القرن السابع او الثامن تتّكل على زعم السيد المسيح ورسله الابرا وأردف ان وراء الهيكل قد بقي منها صور رؤوس جميلة . فزرتُ الكنيسة الا اني لم اجد لهذه التصاوير اثرًا البتّة

وفي كفرشليان معبد صغير غريب الشكل نُقر في الصخر يدعى سيدة نايا (١) وقد تبين لنا من فحصها انها كانت سابقاً مدفناً ثم جعلت معبداً (٢) . استدللنا على ذلك بصغر المعبد وهيئته وارتفاعه فوق الحضيض بعدة اذرع . وترى في سقف هذا المعبد فوق مذبحه وعلى جناحي الهيكل نقوش وتصاوير اسودّ قسم منها بسناج الدُرُج وهبوة البخور الذي يوقد امام صورة العذراء هنالك . وفي الزاوية القريبة من الباب صليب في تربيعة كتابية يونانية مؤداها : « قد انتصر يسوع المسيح » . وعلى شمال الصليب صورة رام بالقوس . وعلى يمينه وحش غريب لعلهم ارادوا به الشيطان الرجيم فيكون المصور اشار بذلك الى انتصار المسيح على قوات الجحيم بصليبه

وقد ذكر الدويهي في تاريخه كنائس أخر تزينها التصاوير القديمة لم يبقَ اليوم منها شيء . وما يزيدنا اسفاً على فقدتها ان نقوش بعضها كانت مؤرخة كبيعة مارنهر في اده من بلاد البترون فانّ تاريخها كان يرتقي الى سنة ١٥٧٥ لليونان اي ١٢٦٣ للمسيح (راجع الدويهي ص ١١٢)

وان سأل سائل من اي طرز كانت النقوش والتصاوير التي سبق ذكرها اجبنا انها كانت كلها من الشكل البزنطي فانّ من يقابل بينهما وبين النقوش

(١) لعلّ هذه اللفظة يونانية الاصل « $\nu\epsilon\alpha$ » اي جديدة فيكون المعنى « السيدة الجديدة »

(٢) وبقر السراية المبنية حديثاً في قرية اميون كنيسة مثل كنيسة كفرشليان على اسم القديسة ماريانا كانت ايضاً مدفناً ثم حوّلت الى معبد

البوزنطية من حيث طريقة التصوير والالوان وهيئات الاشخاص لا يرى بين الطرزين اختلافاً يُذكر فيحكم بلا شك أن مصوري هذه التصوير اخذوا الفن عن البوزنطيين كما تلمح الى ذلك الكتابة اليونانية التي في معبد كفرشليان . امّا اصل هؤلاء المصوّرين فنظن أنهم كانوا من الشام كفى دليلاً على ذلك الخطوط السريانية المحدقة بالصور

وقد بقيت عادة الموارنة على نقش كنائسهم في لبنان زمنًا طويلاً . اخبر الدويهي (ص ١٨١) في تاريخ سنة ١٥٨٧ ان الحوري انطون من بيت الجميل بنى كنيسة مار عبدا في قرية بكفياً وصورها على يد الشدياق الياس الحصري واتفق عليها الف قبرسي ما عدا اكلاف اهل بكفياً وغيرهم من المحسنين . ولا بدع ان هذه التصوير كانت محكمة الصنع لعظم المبلغ الذي صرفه باني الكنيسة

كذلك زين الحبر الجليل اسطفان الدويهي كنيسة قنوبين بالتصوير والنقوش . بقيت منها الى اليوم صورة العذراء ام الله ترى عند اقدامها بطاركة الموارنة جاثين امامها . بيد ان هذا التصوير ليس بمتمق لكنه يلوح من خلاله ان صاحبه يحاول تقليد المصوّرين الفرنج

ويلحق بهذا الباب نقوش أخرى كان الموارنة يحبون ان يزينوا بها كنائسهم اعني الفسيفساء . فهذه العادة وان كانت شائعة في بلاد كثيرة كانت في بلاد الشام أشيع وأعمّ حسبنا ذكر الفسيفساء المكتشفة قبل ١٥ سنة في مادبا في متصرفية الكرك وقطر الموابين القديم قد نُقش فيها رسم بلاد فلسطين

وكذلك كان صحن كنائس كثيرة للموارنة مجملًا بالفسيفساء وقد وقفت على صخرة هذا الامر بنفسي في كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح فان آثار هذه النقوش باقية حتى الان . وكان ايضاً لكنيسة كور التي هدمت منذ قريب ترصيع من الفسيفساء . افادنا الامر حضرة الابوين المرحوم الحوري بطرس ارسانيوس رئيس مدرسة مار يوحنا مارون والحوري بولس طعنه ومولد كليهما في هذه القرية امّا كنيسة حدتون فقد افادنا عن فسيفسائها حضرة الاب نعمة الله بما يلي قال : وكانت الكنيسة مبلطة بصغار الحجارة المنقوشة وكان اجمل هذه النقوش

في السكرستيا ملونة بالوان عديدة كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر والمانجوني الخ والحجر فيها لا يكبر قطعاً عن السنتيمتر المكعب . ويستدل على حسن رسومها واحكام صنعها من ذات تركيب الحصى . اما ارض الكنيسة فكانت مبلطة بهذه الفسيفساء الا انها اقل اتقاناً . منها ايضاً دهليز الخارج فان حجره يكبر سنتيمترين »

هذا بعض ما تسمى لنا جمعة عن فسيفساء الكنائس في لبنان ولا شك ان بيعة أخرى قديمة كانت مزينة بها

*

ومما قد اذهلنا في قرى عديدة من لبنان أننا وجدنا في جانب كنائسها كنيسة أخرى لاصقة بها او قريبة منها بحيث تضحى الكنيسة كبنية واحدة . مثال ذلك كنيسة مار يوحنا وكنيسة مار تادروس في اده (جبيل) . ومثلها كنيسة شامات وتولا الخ

ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج (١) ونوافذ ضيقة مستطيلة في جدرانها بقرب مدخلها كما في تولا واده (البترون) . وترى في صغار في دار الخواجا انطون جرجس التي كانت كنيسة قديمة صهريجاً في داخلها ومرامي في جدرانها ويستدل بهذه الآثار الهندسية على ان الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصنون في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعة لكثافة جدرانها ومتانة بنيانها فيشربون من مائها ويرمون القذائف من نوافذها

وفي هذه الكنائس أثر آخر يرتقي الى القرون المتوسطة وهو انهم كانوا يعملون في جدرانها قطعاً من العواميد ظناً منهم ان البنيان يزيد بها شدة . وزى

(١) وفي اماكن عديدة نرى الصهاريج خارج الكنيسة عند الدهليز مثلاً . ويشتمل انصا تكون حُفرت ليُفكَّسَل بجائها قبل مباشرة الاسرار . قال (الدويهي في منارة الاقداس ص ٥٧) : «مذ انتشرت النصرانية اخذ ابناء الايمان يبنون الكنائس ويمجرون امامها منابع الماء او يحفرون الابار ليستحم بها الداخلون . . . فقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يسلوا اناملهم طلباً للطهارة وتوقيراً للاسرار »

مثل هذه العادة جارية عند العرب في ابنتهم القديمة لنا شواهد على ذلك في بعض انحاء قلعة جبيل . وتغلّبت عليهم هذه العادة حتى انهم كانوا اذا لم يجدوا عموداً يدخلونه في بنائهم ينحتون دائرة نائثة في حجر كبير يثلون بذلك صورة رأس عمود . كما ترى في قلعة حلب وفي الباب الشرقي في دمشق الخ (١) . وقد جوى مهندسو الكنائس المارونية على هذه العادة فانّ لكنيسة مار ضومط في تولا ومار جرجس في عبدله ولكنيسة السيدة في سمر جبيل ولكنيسة رشكيدا مثل هذه العواميد المتداخلة في بنائها

*

ليست قبة الجرس في الكنائس الشرقية كما تُرى في الغرب . فانّ الغربيين جعلوا هذه القبة قسم معتبر من ابنتهم الدينية فتراها مُدمجة بالبيان متصلة به اتصالاً غير منفصم بخلاف الشرقيين فانّ قبة الجرس عندهم من العوارض ليس بينها وبين كنائسهم رباط هندسي ولو خلت هذه الكنائس منها لبقيت هندستها الاصلية بحسبها وهندامها . والبيع المارونية القديمة لا تشذ عن هذه القاعدة العمومية . فانّ من يحدّق بنظره اليها يرا لوقتِه انّ قبة الجرس من الملحقات التي زيدت على هذه الكنائس بعد بنائها . وادراك علّة ذلك سهل وهو انّ الاجواس المعدنية حديثة العهد بين الموارنة لم يألفوا قرعها الا بعد مجيء الفرنج الى بلاد الشام (٢) . قال العلامة الدويهي في تاريخ طائفته (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٣ اخذ الموارنة في الجبل يدقون النواقيس من النحاس بدل الخشب للصلاة »

ومن خواص لبنان كثرة كهوفه واغواره التي تُرى في اكنافه . وقد اتخذ اهل لبنان الاولون هذه المغاور كساكن لهم احتلوها فعاشوا فيها في قديم الزمن (٣) ثم ابنتى اللبناثيون لهم القرى وشادوا البيوت فبقيت هذه الكهوف خالية خاوية حتى

(١) راجع بحثه فينيقية لربان ص ١٥٩ و ٥٤٧ إلا ان هذا الكاتب قد اساء بنسبته ذلك الى الصليبيين

(٢) راجع المشرق (١: ٥٨)

(٣) راجع مقالة الاب زمرن في الطور الحجري في فينيقية (المشرق ١: ٩٧)

انتشرت في هذه البلاد انوار النصرانية فلجأ اليها قوم من النساك انقطعوا فيها الى العبادة والتأمل وعاشوا ثمة عيشة اشبه بعيشة الملائكة وجعلوا بتمادي الأيام غير أنهم كنائس كان يقضي فيها السكان المجاورون لهم فرائضهم الدينية . فمن ذلك الكهوف الواقعة في وادي قزحياً وفي سيده القطين التي تُعرف اليوم باسم سيده البراز . وهي لا تبعد عن قرية صغار في وادي مُقفر فأن هناك ديراً صغيراً ذا طبقات متعددة ملتصقة كلها في الجبل وللدير سورٌ حصين فيه منافذ ضيقة كان النساك القدماء يرصدون منها حركات العدو فيطردونه اذا ما فاجأهم . ولعبد هذا الدير حنيتان عاديّتان وكان العبّاد اذا جمّلوا سكناهم في هذه الأغوار يتخذون اكبرها لمناسكهم فيجعلونها بيعاً كسيده قنوبين وسيده القطين وقزحيا الخ .
ونما يلحق بهذه الكنائس معبد كفر شليان المنقور في الصخر وقد مرّ ذكره .
ومثله معبد مارسركيس للاباء الكرمليين في بشراي . وكذا كنيسة مار بطرس في العاقورة فإنها كلّها منحوتة في الصخر (١) ولعلّها كانت مدفنًا للموتى في الايام الغابرة (٢)

*

وقد حان لنا الان بعدما ذكرناه اجمالاً عن كنائس لبنان القديمة من حيث هندستها العموميّة وهيئتها الخارجيّة ان نبعث عن داخلها فتقف على صورته واحواله . ولنا في كتاب منارة الاقداس للحبر المفضل والكاتب البارع البطريرك اسطفان الدويهي دليل يرشدنا الى المقصود قال (راجع المنارة ١: ١٠٣) : « قسم الآباء القديسون الهياكل الكبيرة الى ثلاثة اقسام اي قدس الاقداس وبيت القدس والدار وفقاً لعدد الاقانيم الثلاثة كما يتبين ذلك من كنائسنا القديمة مثل كنيسة القديس ماما في اهدن التي بُنيت في سنة ٧٤٩ وكنيسة القديس سابا في بشراي سنة ١١١٢ وكنيسة القديس دوميّط في تولا من بلاد البترون وكنيسة القديس شربيل في قرية معاد من بلاد جبيل وغيرها » . فلهذه الافادات شأن خطير لاسيما ان المؤلف ذكر تاريخ بعض

(١) راجع الدويهي (ص ٢١٩)

(٢) راجع بشة فينيقية (ص ٣٠١)

هذه المعابد . ويأخذوا لوزاد في تعداد الكنائس القديمة التي لم يكُ بعدُ استولى عليها الخراب في عهد الدويهي

ولتقدمنَّ على تفاصيل كل قسم من اقسام الكنيسة . فالحنية كما سبق القول كانت مجلَّة بأنواع النقوش والتصاوير التي افادنا الدويهي موضوعها (ص ١٠٤) قال : « وكان الآباء الاطهار يصوِّرون الله الصباوت في حنايا الكنائس جالساً على عرش العظمة . ويثقلون وجوه الحيوانات الاربعية حول العرش مع الملائكة وقوفاً يقدمون له البخور والمصابيح المتلألئة حوله وذلك لكي يرفع الكاهن نظره اليه جلَّ جلاله عندما يقدم الطلبات في سرِّ القداس الالهي »

وكان للموارنة في كنائسهم القديمة تنظيمات اخرى احببنا ذكرها لتتم الفائدة منها توجيه الحنية الى الشرق . وزاد الدويهي في المشارة (١ : ١٠٧) : « وأن يكون فوق الحنية طاقة الى جهة الشرق لان الله ابو النور » لكن بعض الكنائس التي زرتها خالوا منها . ثم اردف البطريك المذكور : « وأن يكون تحت الطاقة داخل الحنية كرسي عال في كنائس الاساقفة اشارة الى عرش عظمتهم ويُنصب الكرسي في مكان مرتفع لاجل تعليم حقائق الايمان ويُجعل درج تحت كرسي الاسقف وتقام حوله مجالس ومسابط متفاوتة لاجل جلوس الحوارة والبرادسة (١) والقسوس ومثلما اوجب الآباء ان تُبنى المذابح من الحجر للدلالة على استمرار الذبيحة ودوامها اوجبوا ان تُبنى الكرسي في الحنية من الحجر ايضاً (٢) »

ومن الكنائس التي ترى فيها كل هذه الشروط مستوفاة كنيسة مار جرجس في اهدن فانها كانت كنيسة اسقفية (٣) . هذا وان نُصِّب كرسي الاسقف في الحنية عادة تفرَّدت بها البيعة السريانية دون البيعتين اللاتينية (٤) واليونانية كما اشار

(١) جمع البردوط وهو زائر الكنائس . راجع المشرق (٢ : ٦٤٩)

(٢) راجع مائة الاقداس (١ : ١٠٩ - ١١٤)

(٣) المارة (١ : ٢٩٨)

(٤) اما في الاجيال الاولى فكانت الكنيسة اللاتينية توافق السريانية في نصبها كرسي الاسقف في صدر الحنية (راجع مارتنيني قاموس العاديات المسيحية ص ١٣٧)

الى ذلك العلامة الدويهي

وفي قدس الاقداس ما عدا كراسي الاسقف والكهنة بيتُ القربان او تابوت الاسرار كما دعاه العلامة الدويهي وهذا نص كلامه (ص ١٠١) : « ويحوي تابوت الاسرار اربعة امور اي جسد الرب والميرون المقدس وزيت العماد وماء الدنح »

وهذه افادات أخر عن المذبح المنسوب بازاء الاسقف ننقلها عنه ايضاً (ص ١١٣) : « أمر الآباء المتقدمون كما يتبين في كنيسة مار سابا بمدينة بشراي وفي كنيسة السيدة بمدينة حلب وغيرهما أن يُنصب فوق المذبح في الهياكل الكبيرة قبة جميلة المنظر على اربعة اعمدة بأربع ستائر وفوق الزوايا الاربع اربعة تماثيل تشخص الملائكة او الحيوانات الاربعة التي مرّ الكلام عليها ويُجعل فوق القبة تَفَاحَة وفوق التَفَاحَة صليب »

ولا بدّ ان يكون المذبح من الحجر مربع الشكل « لانه مائدة ويمتدُّ في الطول بين الجنوب والشمال اكثر من امتداده في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وُحْفَة البخور والنوافير وغيرها »

ويُحْتَمَّ بان يُجعل امام المذبح درجة او اكثر لكي يرتفع عن الحضيض (الدويهي ١ : ١١٤ و ١٤٤) وينبغي ألا يكون « لاصقاً بالحائط قائماً بعزل عنه » (١) على عكس ما نراه اليوم في كثير من الكنائس المارونية . ومن المحتوم ايضاً « ان يجعل المذبح محوفاً لاجل رفع الفضلات المقدسة (ص ١٤٤) وتُفتح كوة من جهة الشرق لاجل وضع الذخائر ورفعها عند الاقتضاء . وقد تُنصب اخيراً مطهرة من جهة الجنوب بجانب بعض المذابح كما ترى في كنيسة ماري جرجس كرسي اهدن ليغسل بها الكهنة والروساء ايديهم في خدمة الاسرار » (ص ١٤٥)

وكان امام المذبح دريزين وهو بمثابة الايقونستاس في كنائس الروم وكان له

(١) وجاء في كتاب التكريسات الذي عني بنشره سابقاً (الكتاب المرحوم رشيد الشرتوني ص ١٩) : « يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاته وحوله تصير الزياحات والرتب المرسومة من الآباء ولاجل ذلك امروا باقامة الحنية حوله من جهة الشرق حتى لا يضايقه الحائط بتقدمه »

مثله ثلاثة ابواب بيد انه كان يختلف عنه بامور . قال الدويهي إمام المورخين الموارنة : « اوجب آباؤنا الاطهار ان تكون ابواب الدريزين مفتوحة وجدرانه غير مسطومة بل مصنوعة بثقوب على مثال شبكة حتى يتمكن الجميع من مشاهدة الاسرار . ولكنهم امروا الشمامسة ان يسبلوا الاستار في اوقات معلومة اجلالاً للاسرار (ص ١٣٥) »

فكان اذاً الايقونستاس عند الموارنة اشبه بمشك ليس بناءً مصمتاً كما في كنائس الروم . ولعلّه كان « كالشعرية » التي تفصل بين الرجال والنساء في كثير من كنائس لبنان الا انه كان مُتَقَنَّ الصُّنْع . وقد شهدنا في كنيسة السيدة في حدوتون قطعةً من هذا الدريزين القديم . ولا علم لنا أبقى منه في بعض الكنائس ام لا . امّا في عهد الدويهي فكانت هذه الدريزين شائعة كما اثبت ذلك في منارة الاقداس (ص ١٢٨)

بقي علينا ان نذكر القسم الثالث من الكنائس المارونية اعني دار الكنيسة او صحنها . فكانت هذه الدار خالية في دائرها من الكراسي التي ترى في الكنائس اليونانية . وقد بين الدويهي سبب ذلك قال (راجع منارة الاقداس ١ : ١٢١) : « ابائنا اصحاب الكرسي الانطاكي اهملوا نصب الكراسي واوجبوا على نفوسهم ان يصلّوا وهم قيام كقول الرب : اذا قمتم للصلاة قولوا ابانا الذي في السموات . . . وقد اخبرتنا التواريخ عن تلاميذ ابينا المكرّم القديس مارون انهم قضوا كل حياتهم منتصبين على اقدامهم ليلاً ونهاراً (١) وانقسموا جوقين امام الباب الملوكي . . . امّا الكهنة والشمامسة فيستندون الى العكازات لمساعدة الجسد الضعيف ما خلا الرؤساء فانهم يجلسون على الكرسي للدرجة التي ارتفعوا اليها » وكان المؤمنون خصوصاً الضعفاء منهم يتخذون ايضاً العكازات كما روى ذلك الدويهي في محل آخر من

(١) ورد في التاريخ ان صنفًا من النسك فرضوا على نفوسهم تقشفًا ان يعيشوا طول حياتهم قياماً فدعوا لذلك الرهبان المنتصبين (Stationnaires) راجع معجم اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١١٤٠) . اشهرهم تلامذة مار مارون . (راجع تاودوريطوس : تاريخ الرهبان ١٤٣١ ، ١٤١٩ ، LXXXII ، PP. GG. T. ومن هؤلاء النسك من جعل له عموداً فصعد عليه كالقديس سمعان العمودي وغيره

كتاب المنارة (١ : ٦٠, ٦١)

وكانت الدار المذكورة تشتمل على « القراءات والمنابر واجوان المعمودية واجوان الماء المبارك والمرائي وبيض النعام والنواقيس وما شا كل ذلك » اما ترتيب كل هذه الاشياء فكان على هذا النمط : تُقام أولاً قراءتان امام الدرازين من ههنا وهناك لاجل تلاوة الصلاة الجامعة التي تصير ليلاً ونهاراً وعليها تُتلى الكتب المقدسة وميامر الاباء وسنكسارات الشهداء . (ثانياً) اما المنابر التي تُنصب في الدار فبعضهم يقيمونها في اسفل البيعة وآخرون في وسطها والبعض في شمالي الدرازين لتقرأ عليها الوسائل والاناجيل والوعظ وزياح الميرون والشهداء وامثالها . . . (ثالثاً) يوضع في الدار جرن المعمودية . وكان يُنصب من قديم بخارج الكنيسة او في دهليزها لكي لا يدخل البيعة الا من كان ابن النور . الا انهم ادخلوه الى الحُرانة لانه هناك يُحفظ تابوت الرايات (اي الاسرار) كما ترى ذلك في هيكل مار سابا بمدينة بشراي (١) . ويُعلّق فوق الجرن تمثال حمامة دلالة على استقرار الروح القدس . ويُتخذ الجرن من الحجر . (رابعاً) توضع في الدار اجوان لاجل الماء الذي نباركه في الغطاس وفي تقديس البيعة وغيرهما . (خامساً) تعلّق في الدار المراني المدوّرة وبيض النعام . وهنا للدويهي بعض تفاسير رمزية تُنخيل القراء الى مطالعتها في كتابه . ثم قال : « (سادساً) توضع النواقيس في الدار تنبيهاً للمؤمنين للاجتماع للصلاة »

يظهر مما سلف ان الشعب لم يجلس في الكنيسة على الكراسي وانه كان يحضر الاسرار منتصباً . لكن ذلك لم يصدّ المؤمنين عن الركوع . وللبطريك العلامة الدويهي فصل مطوّل (ص ٦١) يبحث فيه عن انواع السجود والركوع . على ان الجثو على الركب كان معتبراً كضرب من التعبد والامامة وانما الانتصاب هو هيئة المصلين الرسمية في الرتب الطقسية

وقصارى القول ان الكنائس المارونية كانت تتفق مع الكنائس اليونانية (او

(١) وجاء في كتاب التكريسات (ص ٢٣) انه يُفتح حينئذ باب خارجي « حتى تدخل النساء وتخرج بالسفرة »

بالاخرى مع اليونانية واللاتينية معاً) في الخواص العمومية ولها مع ذلك فوارز تفصلها عما سواها بحيث يحكم صاحب الخبرة اذا رأى ما سبق لنا وصفه من طرائق بناء البيع وانواع هندستها الخارجة وتنظيم اقسامها ونقوشها ان الموارنة في سالف الزمان هندسة كنسية خاصة بهم . وكنا وددنا لو لم يجد بناء الكنائس الحديثة لاسيا منذ مائتي سنة عن تقليد آباؤهم القديم . وغاية ما نتمناه ان نحفظ الآثار الباقية منها لئلا يستولي عليها الخراب . وهذا ما حملنا على كتابة هذا الفصل في كنائس لبنان القديمة ١)

وان سأل السائل في اي عهد شاعت في لبنان هذه الطريقة الهندسية القديمة . أجبت ان الامر لا يخلو من الغموض والشبهة . وما يمكننا قوله ان اكثر هذه البيع شيدت قبل القرن الثالث عشر . وكان بناء بعضها في ايام الصليبيين على مثال كنيسة جليل . وهذا رأينا في كنيسة مار شربل في معاد وغيرها ايضاً من الكنائس كما رواه المؤرخ المدقق الدويهي حيث قال (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس . . . وكان للخوري باسيل البشرياني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرنا العفة وانفقن جميع ما يملكن على بناء الكنائس . اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار دومط . وفي بشنين من ارض الزاوية كنيسة تين احدهما على اسم القديس لبا الرسول (٢) والثانية على اسم القديس سركيس الشهيد ثم رقدت بالرب سنة ١١١٣ . اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في قرية بشرّاي . وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث »

ويرتقي بعض الكنائس اللبنانية الى عهد اسبق فنحن ما بُني في القرن التاسع او الثامن ايضاً كبيعة كفر شليمان التي نعدّها من اقدم كنائس لبنان . ومثلها كنيسة مار ماما في اهدن (راجع قول الدويهي فيها المندرج اعلاه ص ٩٢) . وليس قولنا

١) وهنا نكرّر طلبنا الى قرّائنا بان يفيّدونا علماً عن الكنائس التي لم نذكرها في هذه المقالة ولا بأس ان يستذكروا علينا في ما يرونه خللاً لنصلحه
٢) القديس لبا او لبّاوس ويدعى تدّاوس معدود بين تلاميذ المسيح الاثني والسبعين

هذا ألا اجمالاً . ولو اطلع احد المهندسين الخبيرين على هذه الابنية لامكنة ان يزيد ايضاحاً في تعيين زمن بنائها

✱

هذا وننتهز هنا الفرصة لتكرار ما اثبتناه في السنة الاولى من المشرق (ص ٢٦١) في مقالة حررت تحت عنوان : « هيأ بنا على درس تاريخنا » . فكان من جملة البنود التي اقترحناها على جمعية طلبنا انشاءها في كل طائفة (ص ٢٨٣) « ان تعني بالصور القديمة في الكنائس . . . وتهمّ بحفظ هذه الكنائس نفسها »

فلم نر حتى الان تشكيل لجنة تقوم بهذا المشروع ولعلّه لم يفكر احد في تأليف هذه الشركات الطائفية لتبرز الى حيز الوجود قسماً من هذه المقترحات . امّا العلماء الاوربيون فانهم تلقوا فكرنا في تنظيم مثل هذه الجمعيات بما لا مزيد عليه من الرعاية والالتفات وحدا الامر باحد كبار المستشرقين الالمانيين وهو الدكتور ج . كفيهاير الذي ذكرناه غير مرّة في مجلّتنا الى ان كتب فصلًا في « نشرة الاداب الشرقية » (١) يستلفت فيه الانظار الى مقالتنا بل زاد على ذلك انه نقل الى الالمانية هذه النبذة وألحقها بملاحظات نورد منها شيئاً ليرى اهل بلادنا ما يبني الاوربيون من الآمال على تأليف جمعية كهذه . قال الدكتور ما تعريبه :

« لا حاجة ان نبين لقرائنا ما ينجم من الفوائد الجمة من تشكيل جمعية تاريخية في سورية كما وصفها الاب لامنس . بل يأخذنا العجب من عدم انشاءها حتى الان لا سيما ان بلاد الشام من الاقطار التي توفرت فيها الاثار التاريخية الدفينة التي يتوق الى كشفها العلماء . فنحن نوافق كاتب هذه المقالة في ما اقترحه من انشاء مكتبة مركزية في سورية لدرس تاريخ البلد وهذه المكتبة لا بُدَّ ان تجعل فيها كل الكتب الادبية واللغوية والجغرافية التي تشتمل على احوال بلاد الشام وان يلحق بها متحف للآثار الى غير ذلك من التنظيمات التي عدّها صاحب مقالة المشرق

ولا نشك في ان الذين يبحثون عن شروء البلاد الشامية يتهللون فرحاً اذا ما تحققت امانى حضرة الكاتب

« ونحن الاوربيون نبنى آمالاً طيبة على تنظيم جمعية تاريخية يكون اعضاؤها شريقين . لان ابناء الوطن يكتفون ان ينالوا بزمان قليل ما لم يثله الغرباء بعد الجهد الجهد واذا تشكّلت هذه الجمعية الوطنية بادرت الجمعيات الاوربية الى مكاتبها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير »

هذه شهادة اثبتناها ليرى القراء ما للعلماء الاجانب من الكفأ بامور الشرق .
ويا ليتنا لا نتأخر عن تلبية دعوتهم فلا نجيب آمالهم فينا

وفي ختامنا هذه المقالة التي خصصناها بذكر الكنائس القديمة في لبنان كنّا وددنا لو امكنا ان نوصي هذه الجمعيات التي نطلب انشاءها منذ سنتين بالمحافظة على هذه المعابد القديمة قبل ان يستولي عليها الخراب . وعلى كل حال اننا نوجه دعوتنا الى ذوى الامر طالبين اليهم ان يصونوا هذه الآثار ولا يدعوا يدًا اثيمة تصليها باذى . واذا مسّت الحاجة الى ترميمها فليصلحوا منها ما خرب مع مراعاة هندستها القديمة . فان هذه كانت وصية المثلث الرحمت البطريرك بولس مسعد الذي كان حريصاً على حفظ تلك المآثر الناطقة بمفاخر مملته في غابر الازمان . على اننا نقر بكل سداجة ان معظم خوفنا من البناة المحدثين الذين يتخيّلون ان هذه الابنية لا طائل تحتها فيخربونها لاتخاذ موادها او لتجديدها كما يزعمون وهذه الطامة الكبرى

فيا حبذا لو امكنا بما سطرناه في هذه المقالة عن كنائس لبنان ان نكف يد الدمار عن بقايا الزمن القديم فان اصبنا المرام لا نتأسف على الاتعاب التي تجسّسناها لهذه الغاية الشريفة

٢١ دخول النصرانية في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعية مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا إلا الخوض فيه هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارد أنهم يدعون كون الوثنية لم تشع في وطنهم مطاقاً وهذا افتراء في حق أهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول الباطل . وكيف ياترى يزعم اللبنانيون بذلك وكل انحاء جبابهم تنطق بشيوع عبادة الاصنام في القرون الغابرة وفيه من آثار التوثن ما سبق وصفه في مقالتنا وما لا مرية فيه ان لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي عزلة موقعه ينوء تحت عبء الوثنية مدة بعد ان ارسلت النصرانية اشعتها على سورية اجمالاً وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحلية على طريق دعاة الدين المسيحي فنالوا من انواره حظاً وافياً قبل سواهم

١ لبنان واول مبشريه

ارتأى بعض الكتبة ان المسيح وطئ ارض لبنان واستمدوا في تأييد رأيهم على آيتي متى (٢١: ١٥) ومرقس (٢٤: ٧) حيث ورد عن الرب لذكره السجود انه ذهب الى تخوم صور وصيداء . غير ان هذا الموضع لا يصح بذكر الطريق التي سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاته ايضاً اذ قال (٣١: ٧) : « انه خرج من تخوم صور ومر في صيداء وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل » . فان الطريق التي تؤدي توما من صيدا الى المدن العشر تمر في منطف لبنان جنوبي شرقي صيداء فتبلغ النبطية او جوارها عابرة على نهر الليطاني عند الجسر المعروف اليوم بالقعقاعية فتنتهي الى جنوبي شرقي بلاد بشارة . وهذه الطريق تسير عليها السابلة الى يونا والطبيعة نفسها ترشد اليها . فلهذا الرأي كما ترى سند ولا حرج على من يقول به (١)

وللكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محلي يزعمون بموجبه ان السيد المسيح لم

(١) راجع المشرق (١١: ٨١-٩٣) مقالة الاب القرد دوران في رحلة المسيح الى فينيقية

يدخل فقط صيدا بل بلغ أيضاً حتى ثغر بيروت . والتقليد المذكور اثبت في القرن الخامس عشر احد الزوار الالمانيين يدعى برينتباخ (راجع المشرق ١ : ١٩١) . ثم اورد كوازميوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١) وذكره احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها . ولعل هذين الاخيرين نقلاً ما قاله برينتباخ . وهذا التقليد على ما نظن ليس بثبت ولا نرى وجهاً لتوفيقه مع ما رواه الانجيليون

لكن الله منح بيروت نعمة أخرى يحق لاهلها ان يفتخروا بها نريد احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعا . وهو امر يقبله العقل ويؤيده النقل . اما العقل فلأن بطرس الصفا انتقل غير مرة من اورشليم الى انطاكية فترتب عليه ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأناً . اما النقل فلنا منه شهادة قديمة تعزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفه في كرسيه البابوي القديس اقليسيوس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢) . وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبه الا انهم يتفقون على كونه سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب الموماً اليه فوائد أخر عديدة عن تاريخ النصرانية في فينيقية والانحاء المجاورة لمدينها الساحلية لكننا لا ننقل عنه غير ما نراه راهناً مقررًا توافقاً الشواهد القديمة (٣) . ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤) ان الرسول الهامة اقام لها اسقفاً حنا مرقس احد تلامذته وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥) وفي بيته نزل بطرس الرسول لما انقذه الرب من ايدي هيرودس (٦) . فسمّاه على جبيل كما تشهد على ذلك المنكسارات الشرقية اليونانية والمربانية المارونية فضلاً عن الكلندار

(١) راجع كتابه Elucidatio Terræ Sanctæ

(٢) طالع مجموع آباء اليونان لمن الجزء الاول والثاني

(٣) وقد عدلنا عن ايراد هذه الامور ليس فقط لان مؤلف كتاب الابحاث مشتبه فيه

بل لاسباب اخرى يؤدى بنا ذكرها الى الاطالة

(٤) وقد ذكر عن بيروت ان القديس بطرس سام لها اسقفاً يدعى كوارتس

(٥) راجع رسالة القديس بولس الى اهل كورنثوس (٢ : ١٠)

(٦) اعمال الرسل (١٢ : ٢١)

الروماني الذي ذكر عيده في ٢٧ ايلول . والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الاثار
الطاسية

فمن ثم تكون اسقفية مرقس المذكور الاثر الاول لدخول النصرانية في لبنان لان
جبيل كما اشرنا الى ذلك سابقاً (ص ٦٠ و ٦٧) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطاً غير
منفصم بل كانت معدودة منه داخلة فيه كما ترى في عهدنا . وبما انها كانت محاطة
ببدة هياكل مقدسة تشرف عليها من الآكام والرؤى المجاورة لاسيا هيكلي اقفا
والمشقة (ص ٣٩-٤١ و ٤٩-٥١) فكان الفيقيون يعدونها مثل كعبة دينهم
يحتجون اليها من اقطار بعيدة فيتممون فيها مناسكهم الدينية التي باسروها في هياكل
لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما ناله اول اساقفة جبيل من النجاح في تشمة رسالته المتدسة .
الاغرو انه لقي في دعوته عوائق شتى حالت دون رغائبه الخلاصية . وبما لا ينكر
ون في ذلك الوقت عينه اذ بزغت شمس النصرانية في اقطارنا الشرقية صار للدين
الوثني نهضة جديدة في لبنان فان تاريخ بناء بعض هياكل الاصنام فيه يرتقي الى
ذلك العهد كهيكمل فقرا (ص ٥٣) وغيره . ولم تزل الوثنية في عز وترو في مطاوي
القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واشتد از الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني اديان الذي زار لبنان
في بدء القرن الثاني وسكن مدة جبيل . وكان هذا القيصر من عبدة الزهرة يظهر
لها التجلة والاکرام وقد بنى لها في رومة معبداً كبيراً وادخل عبادتها في بيت لحم
لمعكسة النصرانية . ومن آثاره الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب
العاديّات وذكرها في مقالاتنا المرة بعد المرة . ولا نشك انه حج الى معابد الزهرة
وادونيس خصوصاً في اقفا ودير القلعة (١) كما انه شيّد بعض الهياكل ورّمم غيرها لاسيا
في جبيل وكانت تُعقد في ايامه كاحدى حراضر المدن وامهاتها
وجرى خلفاء اديان على سنه فعرّزوا في لبنان الشرك والتوثن كيف لا وبعضهم

(١) ولعلّ النصب الذي وصفناه في المشرق (٣ : ١٢٢) قد اقيم حفوةً به لما زار
هذا المعبد

كانوا ولدوا في لبنان او المدن الملاصقة له فنُحِصَ منهم بالذكر اسكندر ساويرس الذي كان مولده في هيكل الزهرة في عرقا . ولذلك ترى كثيراً من الآثار الدينية النخيمة التي ترى في لبنان حتى يومنا هذا قد سُيِّدَتْ في ذلك العهد . منها هيكل بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيرية اللذان تشهد على اصلهما كتب المؤرخين . وفي لبنان مباني أخرى غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينه لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنية وناس قرب كسبا وبززا في الكورة وغير ذلك مما ستورد ذكره في مقالاتنا

وهذه الغيرة التي زاما في عبدة الاوثان في اوائل النصرانية تدلّ دلالة واضحة على انّ المشركين في لبنان أبوا الا ان يدافعوا عن آلهتهم لئلا تحطهم ديانة المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليه سابقاً

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانية في لبنان في اواخر القرن الاول . افادتنا التآليف المنسوبة الى القديس اقايميس انّ القديس بطرس احتلّ طرابلس واقام عليها اسقفياً يدعى مارون . وهذا الامر ذو شأن لا نرى في صحته التاريخية مشكلاً وان كان مدون هذا الخبر زاد فيه من الاوصاف الرومية ما لا يقبله العلم الصادق . ويسرنا ان نرى في ذلك العهد اسقفاً جليلاً يتيمّن قراؤنا الموارنة باسمه وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذٍ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانية التي ترتقي الى القرن الاول استشهاد القديس تادّاوس الذي روى عنه الرواة الاقدمون انه رُجم في بيروت لاجل الايمان وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انه احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انه هو الرسول يهوذا او تداوس اخو يعقوب البار . ويصعب علينا جزم الامر لقلة الأدلة . وانما جاء في تاريخ البطريك ساويرس (راجع المشرق ١٠٤٣: ١) ان بيروت كانت تحتوي كنيسة باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البار في القرن السادس (١) وهذا لعمرى اثرٌ حسن يشهد بقدم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

٢ نزاع النصرانية والوثنية

يُحصَل من فصلنا السابق ان لبنان لم يُحرم من نعمة النصرانية منذ القرن الاول من تاريخها . ولا جرم ان الدين المسيحي نما في القرنين التاليين . الا ان الآثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شؤونه شيئاً فنظن ان غمّه كان بطيئاً لما تصدّى له من العوائق من قبل المشركين الذين كانوا اتخذوا هذا الجبل كمعقل لدينهم فبنوا فيه الهياكل العديدة وشيّدوا الآثار الدينية فلقوا في اخلاق الجبلين وطباعهم الغظة ما قوى روح التعصب بينهم . وعلاوة على ذلك نرى الشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمور قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد ولنا على ذلك شاهد في جبل برجيلوس المعروف في يومنا بجبل النصيرية فان سكانه اصرّوا على وثنيّتهم الى القرن السادس مع ان هذا الجبل دون لبنان في علوه واسهل منه مرتقى

وهذه الملاحظات العمومية عما لقيته النصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الا نادراً . وكذلك الآثار الكتابية فان الوثنية منها كثيرة امّا النصرانية فهي قليلة جداً . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويمة في ارض لبنان حتى صارت في توالي الاعصار عصمة للدين لاسيما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بجهاستها الدينية

وفي عهد الملك نورمان القيصر الروماني (٢٨٣-٢٨٤) تشرف لبنان بوفاة احد ابنائه شهيداً وهو الطبيب طليليوس (لعله كككل اي مظلل ومحمي) وكان استشهاده في قيليقيا وما ورد في ترجمة حياته انه قال للمحاكم لما طلب منه نسبة : « اني ادعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابني بريكوكيوس (لعله ككظ اي مبارك) وهو نصراني واحد ضباط الجيوش . وتدعى امي روميانيا واخي يوحنا هو شماس (١) . فحكم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مشّل به واذاقه مرّ النكال الا ان

الله عز وجل أشهر قداسة عبده بما اجتريه من المعجزات الباهرة على قبره حتى ذاع اسمه في اقاصي الشرق

ومن النص السابق يصبح لنا ان نستنتج ان النصرانية كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العشرات فضلاً عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شماس في أسرة لبنانية يدلنا على وجود الرتب الكنسية وكل ذلك لا يقرم الا بكنائس منتظمة . ثم ان اسماء المذكورين الا واحداً منها آرامية الاصل فذلك يثبت على ان لغة اللبنانيين لم تزل بعد آرامية اى سريانية

ولا بد هنا من ملاحظة على موقع لبنان الذي ذكره الشهيد طليليوس فنقول انه لا يدل ضرورة على ابنائنا الحالي لان اسمه كان في ذلك العهد يشمل الجبال الواقعة في شمالي نهر الكبير فالهم نجد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدل على جهته المنوية

وفي سنة ٢٩١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتارة من عذارى جبيل تدعى اكويلينا فقصفها المعتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) ان نصارى المدينة جمعوا ذخائرهم المقدسة فدفنوها بزيد الاكرام ثم تعددت العجائب على قبرها . الا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبق لها ذكر بين مواطنيها وهو امر غريب لولا ان التاريخ ينبتنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينية في القرون التالية فاصابت هناك من تعبد الالهيين ما فقدته في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان (ص ٢١٣١) ان ذكر الشهيدة اكويلينا قد امتزج في كرا الاعصار باسم قديسة أخرى تعرف بمرثينا التي يكرمها اهل جبيل اكراماً عظيماً وفي جوار بلدتهم معبد شيدوه على اسمها يججون اليه من كل اوب والزوار يأخذون من ترابه شيئاً فيعتبرون به . واكثر ما يأتيه المؤمنين في ايام قطف دود القز

وتشرفت ايضا طرابلس في ذلك العصر بشهادتها منهم الشهيدان مغداليتيس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان اولوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول) . ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الا اسمه كما صرح بذلك

العلماء البولنديين . وعندنا ان لوسيوس المذكور هو القديس الذي يكرمه اهل لبنان منذ زمن قديم باسم القديس نوهر او نهرا . وليس نوهر (نهو، اي نور) سوى ترجمة اسمه اللاتيني في السريانية وفي السنكسار الماروني في تاريخ ٢٢ تموز ما معناه : « في هذا اليوم تحفل بجهاد الشهيد لوجيوس (هججههههه) وكان اصله من منهور (كذا) من بلاد المعجم فطاف البلاد وبشّر بالايان في المسيح حتى بلغ مدينة البترون في بلاد فينيقية فمات فيها شهيداً . وهو شفيع المصابين باوجاع العيون ولذلك دعاه السريان بلفتهم نوهر وهذا معنى اسمه لوجيوس »

وليس في هذه النبهة ما يناقض قول الاقدمين بان لوسيوس استشهد في طرابلس وطرابلس كما لا يخفى تعدّ من اعمال فينيقية ولعلّ قرب موقع البترون وطرابلس جعل البعض يذكرون وفاته في احدهما دون الاخرى ثم لا نرى التقليد المحلي على رأي ثابت في ذلك لان اهل سمار جبيل يدعون بانّ اسنشهد القديس نوهر كان في قريتهم ولهم بئر يزعمون انه ألقى فيه ففرق . ويؤيدون زعمهم بكتابة سريانية في جدار كنيسةهم . ولكن غاية ما يستفاد من هذه الكتابة ان احد افاضل الكهنة مدفون في هذا المكان ولم يبقَ لاسم هذا الكاهن اثر . وسنورد ان شاء الله الى وصف هذه الكتابة عند ذكرنا سمار جبيل

واول ناسك ورد ذكره في لبنان عاش في عهد القيصر ديقلسيان واسمه إرسس وكان مولده في انطاكية العظمى وسُقف على مدينة لم يُعرف اسمها . فلما امتحن ديقلسيان المسيحيين بالاضطهاد ترك إرسس كرسية الاسقفية وتوكل في لبنان وتعبّد لله في احدى مغاوره وبقي على ذلك سبع سنين حتى ألهمه الله ان يعود الى انطاكية ليثبت المؤمنين في الايمان فعمل واستشهد اخيراً في ايطالية (١)

وكانت مدارس بيروت في تلك الاثناء تثير بتعاليمها العالم الروماني . وكان كثير من النصارى يزحمون في معاهدها ليأخذوا العلم عن ائمتها . اشتهر في جملتهم القديس غريغوريوس صاحب العجائب والقديس اثنودورس في النصف الاول من من القرن الثالث . وممن اثار اليهم التساريخ في عهد ديقلسيان شهيد في مقبل

العمر يُدعى افيان أو أمفيان كان اصله من ليقية ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيسارية فلسطين وله من العمر ٢٠ سنة فقط (١) . وفي ايامه مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن زينوبيوس وكان اصله من صيدا . وقد روى اوسابيوس في تاريخه (ك ٨ ع ٣) انه كان طبيباً وأنه اتقن الطب حتى برز فيه واخذت النصرانية بعدئذ تتوى وتنتشر في مدن فيليقية الساحلية حتى ان الاسر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح . وقد انبأنا التاريخ بذكر شاب بيروتي كريم المعتقد اسمه ينفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنه حتى اضحى نسيج وعده في العالوم الديونية لكنه أثر عليها درس الاسفار المقدسة فانتقل الى قيسارية حيث رقي الى درجة الكهنوت وأنشأ له مكتبة حافلة بالتأليف القديمة . وكان موته استشهاده سنة ٣١٠ (٢)

وفي ذلك العهد ايضاً ألع التساريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المغتصبون بتمدين معادن لبنان . والمرجح انهم ارادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لاسيا البترون وكسروان والمستن الى اواخر الترون المتوسطة . وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان على ان النصرانية لم تلبث بعد هذه المحن ان تنصرف على اعدائها فخرجت ظافرة مجهزة على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل منذ ذاك في ترق متداوم بينما كانت الوثنية تتقهقر وتهبط حتى انتشع ظلامها ودرست آثارها لكن عبادة الاصنام أبت ان تنكص على الاعقاب دون المدافعة والزعاع . فان الشرك بقي زمناً طويلاً حتى بعد تنصر قسطنطين وربما سمي في رد غارات دين المسيح . وكان كثير من عبدة الاوثان لم يزالوا يترددون الى هياكل الالهة الباطلة . وكان سدنتها يعرفون علانية باسم كهنة الاصنام تدل على ذلك كتابة وجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقب نفسه بكاهن اله الطب اسكولاب والهة الصحة

(١) راجع اوسابيوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان
(٢) راجع التاريخ الكنسي لـ اوسابيوس (ك ٨ ع ١٤) واعمال القديسين للبولنديين في ١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ابرونيوس في المشاهير (العدد ٧٥)

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افكا ان قسطنطين الملك دمر هيكل الزهرة فيها . والظاهر ان الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجددوا بناء هذا المعبد فانما نرى عبدة الاصنام في القرن الخامس المسيح يحججون اليه لاقامة مناسكهم الدينية (١)

وان تتبعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوه اللبنانيون الى القديسة هيلانة ام قسطنطين كعوض البروج المبنية على ساحل البحر يزعمون انها اقامتها لتبلغ ابنها اخبار الاراضي المقدسة واكتشاف الصليب . الا اننا يدنا ان هذه التقاليد لا صحة لها (راجع الصفحة ٥٧) وان هذه البروج شيدت بعد ايام الصليبيين لمراقبة الساحل ورد غزوات الفرنج . ولم تك هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لمخاطبة ابنها مع ما كان لديها من البريد برا على السكك الرومانية ومن السفن بحراً وهي تستطيع ما شئت ان ترسل ابنها في وقت وجيز . ثم ان التاريخ يفيدنا عن ام قسطنطين انها قدمت فلسطين بحراً وآبت راجعة كذلك دون ان تتلبث في مدن فينيقية وتزور لبنان

ومما لا شبهة فيه ان الدين النصراني كان فاز السهم المعلى في الساحل الفينيقي في اواسط القرن الرابع مع ما تحاف فيه من بقايا الوثنية فضلاً عن جماعة من اليهود كان اكثر سكانهم في بيروت وصيداء . وقد رويننا في مقاتلنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ١٧١: ٢) ان عددًا غفيراً من المشركين طلبوا العمد بعد زلزال ٣٤٩ لكن ارتدادهم كان عائله الخوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعة خاطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتدوا لهم معبداً اقاموا فيه رتبهم المستهجنة ولم يحضر على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيسة انصاراً اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانية باءالهم اكثر منهم بكلامهم . وان هولاء الا النساءك والحبساء الذين أووا الى مغاور ثم الى اديرة اضعفت بهتهم كمنائر سطع منها ضياء الدين المسيحي فبددت ظلام الوثنية تماماً

في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان

قال القديس ايرونيوس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤) : « لم يعرف احد من اهل الشام ناسكاً قبل هيلاريون » فمن ثم يظهر ان ارسس الذي سبق لنا ذكره مات ولم يقتدر بنسكو احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهيسلاريون وليس هذان الناسكان هما اللذان انشأ العيشة النسكية في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافاً للتاريخ الصادق . وزد على ذلك ان القديس انطونيوس لم يخرج قط من القطر المصري والصواب ان مثلهما حمل نصارى الشام على التشبه بهما ولا غرو انه بوشر منذ ذلك العهد بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئاً قلّة اعتبارها . وانما روى اخبار مناسك أخرى تدعى منسدة (*μνσδε*) ومعناها حضيرة الغنم كان العباد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونه لذلك ارشيسندريتا اي رئيس المنسدة . وربما كانوا يدعون ايضاً هذه المناسك لورا (*λσρε*) او قيشوبيون (*κισυβιον*) ومعناها المتشدى والمجتمع . وكان اسم المنسدة شائعاً في مصر وجنوبي فلسطين اما الاسمان الاخران فاشتھرا في سورية . ولعل منسدة احدى مزارع البتاع بمجوار تغنايل اشتقت اسمها هذا من دير كان سابقاً بقربها (١)

لوتقضيّنا آثار الكتب التاريخية لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واولئ الخامس . منها عدلون بين صيداء وصور ليس بعيداً من صرْفند . فان فيها عند البحر صخرًا عاليًا حُفر فيه نحو ٢٠٠ كهف . ولعل هذه المغاور كانت في بادئ الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الأدلة ما يجعلنا على القول ان الرهبان اتخذوها لهم كمساكن أووا اليها . من ذلك ما ترى فيها من شارات النصرانية

(١) وكذا دُعيت بعض المدن في أورباً باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moustier او Moutier في فرنسة ومُنستر Munster في المانية الخ وكلها مشتقة من monasterium اي دير

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومراقى منقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلالي . ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشك في انّ الرهبان وحدهم امسكتهم الاقامة فيها ويؤيد ذلك ما درّته المؤلفون في تراجم بعض الابهاء انهم كانوا يعيشون في المقابر . وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم . والمرّجح عندنا ان عدلون من هذا القبيل . فمضى ان يجد العلماء نصّاً تاريخياً يزيل عنا كل شبهة في الامر

وليس بمستبعد ايضاً ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادي مطلّ على بلاد البقاع بقرب قرية فوزل شمالي زحلة كانت مأوى للسياح . يستدل على ذلك بدلائل عديدة . وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهلون يدعون موضعها الحبس ويزعمون استناداً الى تقاليد قديمة انّ سياح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدول ماء صافٍ يتفرق سائحاً

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة أنّها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر رؤوس نهر العاصي . ولهذا التقليد اثر في كتبة القرون المتوسطة كالي الفداء والفاقة شندي وغيرهما وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب . والموارنة يدعونها « دير مار مارون » . ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصة رهبان لبنان الانطونيانيين ويسكن البعض منهم هذا المكان في عهدنا الحاضر مع ان سكان هذه الايالة كلهم من المتناولة . وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيه انّ الناس تحصّنوا فيها سابقاً يُستدل على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للمدافعة عنها فزادوها منعة على حصانتها الطبيعية

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفوزل بمحاسنها . وكانت في الاصل طبيعية سكنتها كما يظهر قبائل عادية في الاعصار السابقة التاريخ واملّ هذه القبائل فضّاتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير . ألا انّ الحلف حسنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليه منتديات نقرها في الصخر على احسن هتدام مع قبة ذات حنية مقوّسة ودرج داخلي يُصعد منه الى الطبقات العليا وبئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر . وكل ذلك منحوت في الصخر الاصم

ومن المنازل التي احتلتها في العهد القديم نساك لبنان وادي قزحيسا والقاديشا . وبقايا العيشة الرهبانية فيها ظاهرة حتى الان صبرت على الايام وتقلبات الدهر . وكان بعض الرهبان يعيشون فيها عيشة عومية فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة منقورة في الصخر ترى واحداً منها اكبر من سواه في وسط الوادي . وبعضهم كانوا يفصلون العزلة التامة فيعيشون منفردين في مغاور متفرقة في جانبي الوادي منعزلة في صخورهم تجري منها ينابيع صافية ويجدق بها النبات وكلها غاية مايرام لعيشة العباد وفي بيرة وادي قاديشا دير قثوبين تعريب (κοινοβιον) يعزو التقليد المحلي بناءه الى الملك ثاودوسيوس الكبير . والامر ممكن الا ان النصرى التاريخية لا تنفيذا في ذلك علماً . وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشئ هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار آباء الطريقة النسيكية . وقد عرف بهذا الاسم في ذلك العهد رجلان عظيمان تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله . احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديراً كبيراً والاخر اصله من قبادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديراً واسعاً تقاطر اليه الرهبان من كل فج وأوب كان بينهم يونان وارمن وصعالبية . ولا جرم بان السوريين واللبنانيين تتلمذوا له ايضاً . وكان ثاودوسيوس المذكور قسمهم اقساماً على حسب اصلهم ليستجوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفي في اوائل القرن السادس وله من العمر ١٠٥ سنين . ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحاً انه قدم لبنان ولعله زار هذا الجبل في رحلته الى مقام سمعان العمودي (١) . ولكننا نعلم من تاريخه ان تلامذته انشأوا اديرة عديدة في النحاء شتى . فلا نراهم تتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انه احتل قثوبين فأسس فيها ديراً نسبة الناس بعده الى القديس ثاودوسيوس استاذهم ثم اشبهه الاسم على الخلف فقلنا ان المنشئ هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكره الكنيسة اليونانية في عداد قديسيها . وما يؤيد هذا الرأي اننا نرى الطائفة المارونية تكرم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكراماً خصوصاً وتعده بين مشاهير النساك (٢) . وهذا لعري شاهد واضح على ان اسمه كان ذائعاً في لبنان

(١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ٢٢)

ترقي النصرانية في القرن الرابع

حان ان نعود الى تاريخ انتشار النصرانية في لبنان بعد استطرادنا الى ذكر مبادئ العيشة الرهبانية فيه

لما تبوأ قسطنطين الكبير منصة الملك اخذت قدم النصرانية ترسخ في لبنان ولعلها كانت طمست آثار الوثنية لولا بدعة آريوس التي بذرت في قلوب المؤمنين وخصوصاً بين الاساقفة بذر الشقاق والنفور فجعل الآريوسيون يفرغون كنانة الجهد في مطاردة الرعاة الاورثوذكسيين ومعاكستهم لايهمهم شيء من امر الوثنيين وانارتهم بضياء الايمان . بل كان المشركون يزدون تباعداً عن الكنيسة لما يرون في احبارها من تفرق الكلمة في اكبر عقائد النصرانية اعني لاهوت المسيح ومساواته لابيه في الجوهر

ثم تملك جليان الجاحد فأولى الوثنية انتصاراً لم يكن في حسابان اهلها . فاستأنف المشركون فتح الهياكل المقفلة ورموا ما تهدم من المعابد . والمرجح ان هيكल الزهرة في افقا جدد بناؤه في ذلك العهد كما أصلح قسم من معبد المشنقة (١) وعاد الوثنيون فاحتفلوا باسرار ادونيس اي تموز بابهة عظيمة كألوف عاداتهم سابقاً . ونال بيروت نفسها اضطهاد عبدة الاصنام فان الكنت مغنوس قدم هذه المدينة ومعه فريق من الجند واليهود فاخربوا كنيسة الكبرى ولا غرو ان كنائس لبنان اصابها ما اصاب كنيسة بيروت من حريق ودمار

ولكن الله اللطيف بعباده جازى وشيكاً جليان على كفره وأقام خلفاً له يُشيان وكان رجلاً تقياً مبغضاً للمشرك فامر الكنت مغنوس بان يشيد كنيسة بيروت على نفقته ولولا حلم الملك لقطع رأسه واصاب الجزاء عما جنت يده من الآثام العديدة ومن اشتهروا في ذلك العهد ناسك لا يزال ذكره مكرماً في لبنان وهو القديس موسى الحبشي الذي اختارته ماوية ملكة العرب اسقفاً لقومها وسامه

القديس اثناسيوس الاسكندري فتولّى رعاية العرب المقيمين في شبه جزيرة سينا وفي جنوبي فلسطين

ولما صار زمام الملك الى يد ثاودوسيوس الكبير أُصيبت الوثنيّة في سواد قلبها فان هذا العاهل الشهير امر كبير قوّاده سنة ٣٨٤ بان يُقفّل هياكل الاصنام ليس فقط في لبنان بل في الشرق بأسره . وفي سنة ٣٩٢ في العشر الاول من تشرين الثاني سنّ شريعة ثانية كان مؤداها ان تبطل عبادة الاوثان فلم يتجاسر الوثنيون على مقاومة السلطة . لكنّ بعضاً منهم ثبتوا على عاداتهم ومارسوا دينهم خفية في القرى المنفردة والجبال القاصية . وكان القياصرة مع ذلك لم يهدموا هياكل الاصنام بل اكتفوا بان يبطلوا فيها المناسك الدينية . والدليل على قولنا ان الدستور المعروف باسم ثاودوسيوس يتضمّن عدّة شرائع سنّها الملوك النصارى تقضي بمعاقة الذين يسعون في خراب الهياكل الوثنية وكانت غايتهم بذلك ان يحافظوا على آثار الاقدمين لحسن هندستها (١) وكانوا في الغالب يخصّصون هذه الابنية لخدمة الدين الحقيقي فيجعلونها كنائس مسيحيّة (٢) . الا ان ذوي الامر اضطروا في بعض المواطن الى استعمال القوة الجبريّة وتقويض المعابد الوثنية خصوصاً في بلاد فينيقية ولبنان . فمن حملة الابنية التي اجابتهم الاحوال على نفسها زوّن الزهرة في افق لان سدنته كانوا اتخذوه كهاخور يجتروhon فيه الفحشاء وافطع الارجاس باسم دينهم الباطل

ومن بدء القرن الخامس للمسيح لما استوى القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٧) اراد ان يستأصل من لبنان شأفة الشرك فارسل قوماً من دُعاة الدين ليرشدوا اهل لبنان الى طريق الهدى (٣) وقد لاقى هؤلاء

(١) راجع P. Allard ; *L'art païen sous les empereurs chrétiens*

(٢) راجع كتابات سورية وهوران لودنغتون (ع ٢٤٩٨) . ومن الهياكل التي جعلها النصارى كنائس هيكل بعلبك المعروف باسم تريليتون (Trilithon) وكنيسة مار يوحنا في دمشق المعروفة اليوم بالجامع الاموي

(٣) راجع تاريخ ثاودوريطس (ك ٥ ع ٣٩) ورسائل القديس يوحنا فم الذهب (ع ١٢٦, ١٢٧) الا ان هذه الرسائل مع ذكرها لبنان لا توضح جلياً أيراداً به لبنان الحالي او جبال النصيرية ولعلّ المقصود منها هذه الاخيرة

الرسولون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة فطرد الاهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين . على ان هذه المعاملة السيئة لم تكن لثني عزائمهم فواصلوا الانذار والتبشير وبالغوا في ملاطفة السكّان حتى اجتذبوهم الى عبادة الاله الحقيقي . وبمّا اتخذوا من الوسائل لإبطال الوثنية انهم جعلوا لاهل لبنان الاعياد واقاموا المواسم احتفاءً بأسرار الدين النصراني الطاهرة فعدلوا بهم عن الحفلات الوثنية الى العبادات والمناسك الخلاصية

تنظيم الكنائس في لبنان

وفي مطاوي هذا القرن الخامس جعلت كنائس لبنان على نظام قانوني فقسّمت الى قسمين كنائس فينيقية الساحلية وكنائس فينيقية لبنان وفقاً للتقسيم المدني الذي جرى عليه أولاً ديقلسيان (راجع المشرق ٣ : ١١٠٣) . وقد ذكرنا هنا هذا التنظيم لإزالة اللاتباس لأن الكراسي الاسقفية اصابتها بذلك بعض التغييرات وُعدت من اياله غير التي كانت معدودة منها سابقاً . وما يهتّمنا نحن في مقالتنا عن آثار لبنان انما هي فينيقية الساحلية اما فينيقية لبنان فانها كانت تشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنان من جهة الشرق وعليه فانها لا تدخل في حيز مباحثنا

وُجعت صور رأس ولاية فينيقية الساحلية واضحي كرسيتها لهذا السبب متقدماً على بقية كنائس الولاية فدُعي لذلك بالكرسي الاول (πρωτοθρονος) في بطريركية انطاكية وُجعت تحت حكمه كراسي اسقفيات عديدة نذكر من جملتها ما لهُ علاقة مع لبنان الحالي وهي : ١ صيدا . ٢ برفيرون الموافقة لقام النبي يونس وتدعى ايضاً برجاً موقعها بين بيروت وصيدا (١) ٣ جبيل او بيبلاوس . ٤ البترون او بتريس . ٥ غيفرتا (٢) . ٦ ترياديس (Trierès) وهي المسماة اليوم أنفة (٣) . ٧ طرابلس .

(١) وسنعود الى ذكر آثارها

(٢) أمّا موقع هذه المدينة فسنبيّنه ان شاء الله

(٣) هذا الصواب وليس كما ورد في المنار (ص ١١٤ من السنة ١٩٠٠) انما « حصن ساحلي شمالي طرابلس ربما القليعات »

٨ عرقا (١) . ٩ اورثوسياس (٢) . اما بيروت فمع كونها واقعة في ولاية صور الكنسية كانت مستقلة عنها . ورتقي اسقفها الى رتبة مطران ولكن لم يكن له اساقفة تحت حكمه (٣)

هذا ولا نشك في ان بعض قرى لبنان الكبرى كاهدن وبشرأي واميون (في الكورة) كان لها رؤساء رويون من درجة الخورفستقوس . وكانت هذه الرتبة شائعة في ذلك العصر . ولنا شاهد في ما ذكر عن القديس باسيليوس اسقف قيسارية انه كان تحت امره خمسون خورفستقواً الا ان هذا المنصب الكنسي ابتدل لكثرة شيوخه فامتزج بدرجة رعاة القرى . وما اسم « الخوري » الا اشتقاق من اسم الخورفستقوس

وفي هذا العهد ايضاً انتظمت الطقوس الكنسية المهمة الى ان صارت بعد زمن على هيئتها التي نألفها اليوم . ومن ساعدوا على تنسيق هذه الطقوس بعض القديسين الاجلاء كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس الكبير الا ان هذه الطقوس لم تنس ما كان سبق اليه القدماء من الرتب الدينية كالطقوس الرسولية والرتب التقليدية منها الليتورجيا الشريفة المنسوبة الى القديس يعقوب وغير ذلك

اما اللغات الكنسية فكانت محصورة في اللغتين اليونانية والسريانية ولم تشع اللاتينية كلفة طقسية وانما كانت لغة الدولة الرسمية فقط . وقد استعملها اهل بيروت مدة ثم انحصرت في ضمن مدارسها الفقهية الشهيرة . الا انها اُهملت شيئاً فشيئاً حتى اُبطل استعمالها وكانت كنائس المدن الساحلية تؤثر في طقوسها اللغة اليونانية اما كنائس الجبل فكانت السريانية هي الغالبة على السنة كهنتها (راجع المشرق ٣ : ٢٦٧) . وزادت السريانية انتشاراً في لبنان لما صارت السيطرة فيه للطائفة المارونية

(١) واخبرتها تُعرف الى اليوم بهذا الاسم

(٢) تدعى اليوم اورتوزي بجوار نهر البارد

(٣) خلافاً لما جاء في مقالة المنسار السابق ذكرها (ص ١١٤) . وهذه المقالة تستدعي عدّة اصلاحات . نقول ذلك رعاية للحق مع ما نعرفه من فضل كاتبها الذي اختبرنا لطفه يوم زرنا دير البلمند

انتصار النصرانية نهائياً على الوثنية في لبنان

بعد وفاة القديس يوحنا فم الذهب قدم لبنان من مدينة الرها احد الناسك فتوطنه وجعل يسعى في هداية اهله الوثنيين . ذكر ذلك البولنديون في تاريخ ١٤ شباط . ولعل المراد بلبنان في ترجمة الناسك المذكور انما هو جبل عكار لان النص الوارد فيه اسم هذا العابد يشير الى مدينة حص وهي كما لا يخفى مجاورة لجبل عكار وكذلك تكرر ذكر لبنان في ترجمة حياة القديس سمعان العمودي فان رواية اخباره يقول عنه انه انجز هداية اهل لبنان فرجعهم الى الدين القويم بما اصطغنه من المعجزات الباهرة . لكننا هنا ايضاً لا يمكننا القطع بان المراد بلبنان الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم . ونحن نعلم ان هذا القديس اشتهر في ولاية حلب في الجبل المسمى اليوم بجبل سمعان . على ان الذي يُعمن النظر في اقوال مؤرخيه لا يرى ما ينفي لبناننا الحالي لان الزوار كانوا يتقاطرون الى عامود القديس من بلاد بعيدة فكان العرب يأتونه من اقاصي البادية ليستمعوا تعاليمه . ثم ان اوصاف لبنان في تواريخ هؤلاء الكتبة توافقت جبلنا منها ذكر الغابات والوحوش الضارية ومعابد الاصنام وتعلق الاهلين بعبادتها بحيث لا يردلون خدمتها الا بعد نظر العجائب التي تجري على يد القديس سمعان . فكل هذه الاوصاف تصدق عن جبل لبنان الحالي . غير ان اسم لبنان وحده ليس بكافٍ لنجزم بهذا الامر وقد قلنا سابقاً ان هذه التسمية كانت تشمل في القرنين الخامس والسادس جبلاً آخرى

وان قال قائل ان المراد بلبنان انما هو لبناننا الحالي لانه ورد في اثناء ذكر لبنان اسم احدى قرأه وهي قرية انداريس (Andaris) الموافقة لقرية عين دارا في معاملة العرقوب الشمالي . اجبنا ان هذه الموافقة بين الاسمين ليست مقررة ثم انه مُحتمل ان ضيعة تدعى عين دارا اشتهرت سابقاً في جبال غير لبنان الحالي مما كان يُعرف ايضاً باسم لبنان كجبل النصيرية وجبل الشيخ . فترى من ثم ان هذه الافادات ليست بكافية لتدوين هذه الاخبار في تاريخ النصرانية في لبنان

ولما ظهرت بدعة نسطور وجدت في بعض اساقفة لبنان صدقاً لتعاليمها الفاسدة . فان افراداً منهم انحازوا الى النسطورية . وفي بيروت التأم المجمع الذي حكم

على ايباس اسقف الرها احد انصار نسطور . وكان ذلك حسب منطوق اعمال المجمع « في بيروت المدينة الفاتحة الجمال في دار اسقفها الحديثة بجوار الكنيسة الجديدة المقدسة »

اما بدعة اوطيخا فكان لها في لبنان عاقبة اوخم من النسطورية ففشا سنها في بلاد الشام وألحقت باهلها مدة زمن مديد اضراً لا يُسبر لها غور . وكان اوستات اسقف بيروت تشييع جهازاً لادطاحي . فجازه ملك الروم بان اصدر براءة ورد فيها انه « يخول مدينة بيروت المزدانة بالفضائل اسم حاضرة (métropole) مع الامتيازات التي تُعطى لأُمهات المدن » . فظن اوستات ان رقيم القيصر كافر ليد سلطته الروحية على اساقفة جبيل والبتون وطرابلس وغيرها من الاسقفيات الواقعة في شمالي فينيقية الساحلية . الا ان مطامعه رذلت بعد زمن قليل في عهد مرقيان الملك

وقد تعطر لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس للمسيح فخص منهم بالذكر القديسة مطرونا ولدت في آسيا الصغرى ثم اقامت ديراً في حمص وانتقلت اخيراً الى بيروت فانارت جماً غفيراً من النساء الوثنيات بانوار الايمان

ومنهم القديس ربولا السّيساطي قدم بيروت في ايام الملك زينون ثم تعبد لله في جبال لبنان المعتلة . وجاء في تاريخ قديم (راجع اعمال القديسين للبوانديين ١٥ شباط ص ١٢٦) « ان ربولا المذكور شيد بمساعدة زينون القيصر ويوحنا حاكم بيروت ديراً كبيراً في وسط الجبل . وكان يعيش مع رهبانه بين الجبلين وهم وقتئذ متسكّون بظلمة الوثنية فعرض عليهم اسرار الديانة وردّ حججهم واجتذبهم الى الدين القويم الا نفرأ قليلاً منهم » . فيؤخذ من هذا الكلام ان عبادة الاصنام لم تُطمس بعد اثارها في لبنان نحو مئة سنة بعد ثاودوسيوس الكبير

ولعلّ القارئ يسأل وما هو الدير الذي عمّره ربولا الراهب ؟ قال الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان (ص ٢٣٨٩ من تاريخه المخطوط) : « ان الدير الموما اليه هو دير القمر » . لكننا لا نرى على اي حجة بنى الاب مرتينوس زعمه هذا . وغاية ما نعرف عن دير القمر ان ذكرها ورد في تاريخ الصليبيين ولكن هذا ليس ببرهان مقنع . لاسيما اننا نرى في لبنان قرى غيرها دخل في تركيب اسمها اسم الدير

فيصح فيها قول الكاتب المنوّ به وبعضها ليس بعيداً عن بيروت. لان النص يشير الى دير قريب منها

وزادت بدعة او طيفاً انتشاراً في سورية لما ظهر ساويرس الانطاكي . وكان المذكور قضى سنين عديدة من عمره في بيروت حيث درس الفقه ثم تعمّد في طرابلس (١) وصار بطريركاً دخليلاً على انطاكية وتوفاني في نشر الشيعة الاوطاخية . لكن الله اقام لدينه الحق محامين يدافعون عنه لاسيا في عداد الرهبان . والكنيستين الشرقية والغربية تحتفلان في ٣١ تموز بعيد ٣٥٠ راهباً قُتلوا في سبيل الايمان سنة ٥١٢ . كان المبتدعون كمنوا لهم يوماً وهم سائرون الى كنيسة القديس سمعان العمودي التي موقعها في جبل بركات شمالي غربي حلب . وقد ذكرناهم هنا لان اللبنانيين يقيمون لهم عيداً حافلاً ولو كان استشهادهم قد جرى خارجاً عن لبنان وعن فينيقية . وانما اصلهم كان من ولاية سورية الثانية التي حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وموقعها شمالي ايلة فينيقية لبنان . اما فينيقية لبنان هذه فقد سبق ان حاضرتها كانت مدينة حصص وانها تشمل قسماً من لبنان الشرقي على ان معظم جبل لبنان داخل في فينيقية الساحلية

وكان هؤلاء الشهداء ينتمون الى دير مار مارون . وكان هذا الدير مبنيّاً في جوار افامية في وادي نهر العاصي (٢) . قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراق (ص ١٦٣) يعرف موقعه انه : « شرقي حماة رَشِيْر ذو بَنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شي عظيم فخر به هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن وهو بقرب من نهر الارنط نهر حصص وانطاكية » . ولدينا العريضة اليونانية التي ارسلها رهبان هذا الدير للبابا هرمزداس يجبرونه باستشهاد اخوانهم وقّعوا عليها بما نصه : « نحن الحقرام الارشيمندريين ورهبان سوريا الثانية » . امّا رئيسهم فقد وقّع الرقيم كاتباً : « انا ارشيمندريت مار مارون » . فما سبق ترى ما كان لهذا الدير من الخطورة والشأن

(١) راجع المشرق ٣ : ١٠٠٣ وكتاب الاب نو ٤٩ seq. Opuscles maronites II,

(٢) راجع كتاب الاب نو (l'abbé Nau) السابق ذكره (ج ٢ ص ٢٢)

وعدد الرهبان . اما الاسباب التي حملت الموارنة على اكرام هؤلاء الشهداء فهي ثلاثة ذكرها صاحب مروج الاخياري : « أولاً لان اكبر اديار هؤلاء الشهداء الطوباويين كان معروفاً باسم القديس مارون وارشيمنديت هذا الدير كان اسمه اسكندر وهو اول من امضى الرسالة التي رفعت الى البابا هرمزداس القديس . ثانياً لان كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الشينة التي كانت بهذا الدير . وثالثاً بما ان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يغار له الموارنة غيرة لانهم كانوا خاضعين اتم الخضوع لكرسي هامة الرسل . والطائفة المارونية تتفخر بانها تقتني آثارهم في ذلك »

وقبل ذلك بزمان قليل (سنة ٥١١) كان الملك انتاس طرد من القسطنطينية عدداً غفيراً من الراهبات المستقيمات الايمان فقصدن لبنان واتخذن هنّ سكناً وعطرنه بعرف فضائلهنّ . وفي اختيارهنّ لبنان للعزلة دليل على ان اهله كانوا يردلون الشيعة الاوطيخية

والاربع ان كنيسة دير پرفيريون (اليوم برجا او النبي يونس) بُنيت في ذلك القرن السادس . وكذلك كنيسة القديس فوقا على مشارف الجبل (١) . وقد ورد ذكر هاتين الكنيستين في تاريخ الابنية للمؤرخ پروكوب . وكان بانيهما الملك يوستيان الذي اشتهر بغيرته على بناء الكنائس . وليس بمستبعد انّ اقدم كنائس لبنان المعروفة اليوم تشيّدت في عهده او على يد المهندسين الذين جروا على طريقة بنائه . مثال ذلك كنيسة اهدن وكفر شليان اللتان تشبهان كل الشبه الكنائس البوزنطية المنسوبة الى هذا الملك . واهل كنيسة حدوتون المهدومة التي ذكرناها في الفصل السابق (ص ٨٦ و ٨٩) هي ايضاً من هذا القبيل فيكون بناؤها سبق دخول الموارنة في لبنان . لنا في تأييد قولنا بعض الحجج منها وجود كتابتين يونانيتين الواحدة اكتشفها رينان واكثر حروفها مطموسة والاخرى وقف عليها الفقير كاتب هذه

(١) راجع پروكوب (ك ٥٥ ج ٩) . على ان پروكوب بقوله « مشارف الجبل » لم يذكر لبنان وانما يؤخذ ذلك من قرينة كلامه لانه ذكر الجبل بعد ذكر پرفيريون والساحل القينيقي

الاسطر ١٦ وفي كليهما ما يشير الى قدم هذه الكنيسة . ومنها الطرز الهندسي والنقوش وضروب الفسيفساء فان كل ذلك يلمع الى عهد يوستينيان
فترى ممّا تقدم ان النصرانية في القرن السادس لاسيا واوره لم تغلب فقط على
المدن الساحلية بل بان شأوها على كل اخصاها في لبنان . وكانت مدينة بيروت حافلة
بالكنائس (٢) واهلها معتمدين بحبال الدين . وكذلك تفيدنا ترجمة البطريك
ساويروس السريانية ان المعاملة اللبنانية المجاورة لبيروت كانت مستوثقة بعروة الدين
وهناك اشتهر احد الرهبان العاموديين الذي كان يسكن في قرية لم يُذكر اسمها
قريبة من البلدة . وكان هذا الراهب شديد التمسك بالدين الاورثوذكسي يدافع عن
الايان الكاثوليكي مدافعة الشهام . وبما روي عنه ان بعض اشياخ اوطيخا من الطلبة
الذين اتوا من الاسكندرية الى بيروت ليدرّسوا الفقه زاروه يوماً فلامهم عن تشبّثهم
بتعاليم المراطقة . وفي خبر هذه الواقعة ما يُشعر بان الشيعة يعقوبية لم تُفرد بعد
لاصحابها كنيسة في بيروت (٣)

ومن الشواهد اللامعة الدالة على انتشار النصرانية في لبنان العيد الحافل
الذي اقيم فيه لما عاد هرقل ظافراً ومعه الصليب المقدس الذي انقذه من يد القرس .
فاقيم في لبنان حفلات بهيجة جعلها اللبنانيون سنّة لهم يعيدون ذكرها في كل عام
في ١٤ ايلول

الا ان هرقل الملك كسف شيئاً من بهاء انتصاره بما اعاره من المساعدة لهرطقة
المونوتليين اي القائمين بالمشيئة الواحدة في المسيح . فكانت هذه المضافة الملكية
سبباً لفشو هذه البدعة في سورية وخصوصاً في وادي العاصي . لكن هذا الوباء لم
يسرّ حتى لبنان وكفاه بذلك شرفاً

وممن تصدّوا لهذه العدوى القديس صوفرونيوس الدمشقي الاصل بطريك
اورشليم . وقد زعم البعض انه وُلد في لبنان في قرية بسري . وهو قول تردّه الادلة
العديدة كالميناون والبولنديين (في تاريخ ١١ اذار) بل يقنّده القديس صوفرونيوس

(١) راجع مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٩ ص ٥٦٥، ٥٦٩

(٢) راجع في المشرق (٣ : ١٠٠٤) ما ورد في النشرات المارونية للاب نو

(٣) مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٨ ص ٣٨٠

نفسه في قصيدة له وردت في مجموع اعمال الآباء (مين ج ٨٧ ص ٣٤٢١) قال عن نفسه انه من مدينة دمشق التي تسكنها قوم لبنان (Διβανοστέφανος) فقاوم هذا الالب القديس الجليل الشيعة المونوتلتيية التي جعلت الدولة البوزنطية على قاب قوسين من هلاكها في سورّية . لكن الله كفى لبنان شرّها وجعل منذ ذاك هذا الجبل معتصماً لاذ باهدابه انصار الحق الى يومنا

بلاد البترون

من تتّبع الآثار اليونانية او الرومانية في بلاد البترون لا يجد منها ما يجده في مقاطعتي كسروان وجبيل . وسبب ذلك ان موقع البترون في سفح جبال شاهقة ابي الاقدمون ان يتخذوها كسكنى لهم اللهمّ الا قليلاً منهم حتى ظهرت الامة المارونية فاستعمرت تلك الجهات وجعلتها كمرکز انتشرت منه الى البلاد المجاورة . والدلائل التاريخية المنبئة بذلك كثيرة نشير اليها في مطاوي كلامنا ان شاء الله ولقلّة الآثار القديمة في البترون ونواحيها علّة أخرى وهو بُعدها عن أمّات المدن كبيروت وصيدا . ووقعها خارجاً عن دائرة امكنة الفينيقيين المقدّسة كجبيل . ولذلك ترى في جنوبي لبنان ووسطه من الكتابات والاخرية ما لا تجده في البترون وتواحيها

٢٢ مدينة البترون

البترون احدث عهداً من جبيل وبيروت وكان الانكليزي كُنْدَر (Conder) زعم انه وُجد اسمها في مراسلات تلّ المارنة (راجع الصفحة ٧٦) الا ان علماء العاديّات فنّدوا هذا الزعم . وكذلك لو تصفّحنا تواريخ الفينيقيين واليونان والرومان لما وجدنا عن البترون الا التذر القليل الذي لا يُشفي منه غليل . وذلك دليل واضح على انها لم تكن ذات شأن خطير

على اننا لا نريد بذلك ان نبخس البترون حقها فان هذه البلدة لا تخلو من البقايا والاطلال القديمة لولا انّ الابنية الحديثة التي تعالوها اليوم لا تسمح بتقدير هذه الاخرية وتعريف تاريخها . ولنا ايضاً شاهد آخر على مقام البترون سابقاً وهي المسكوكات

والنقود التي ضربها اهلها ايام استقلالهم فترى لها تاريخاً خاصاً بها كبقية مدن الساحل .
وقد بين ذلك الدكتور جول روفيه في مقالته عن تاريخ مسكوكات البترون (راجع
المشرق ٢ : ٤٧٦)

والشائع عن اصل هذه المدينة ان بانيها ايتوبعل ملك صور في القرن العاشر قبل
المسيح كذا روى المؤرخ اليوناني ميناندر وصادق عليه يوسفوس المؤرخ اليهودي الشهير
ومن آثار الفينيقيين في هذه البلدة سورٌ متينٌ نحتوه في الصخر الاصم من جهة
البحر وقد بقي منه بقايا الى يومنا مع اعمال أخرى تنطبق على ما نعرف من حذاقتهم
في قطع الحجارة . ومنها أيضاً بعض قبور ونواويس قديمة كما ترى في غيرها من المدن
الساحلية

ولا غرو ان الرومان بعد فتح سورية شيدوا في البترون الابنية وجعلوها من القلاع
الحريزة وازهرت في ايامهم الى ان خربت في زلزال سنة ٥٥٠ م
وقد بقي من عهد الرومان نقوش وقطع وكتابات رأى منها رينان طرفاً كما اثبت
ذلك في بعثة فينيقية (ص ٢٤٩) يقول انه وجدها في انقاض حصنها وقد بجشنا عنها
فلم نشاهدها

اما الحصن المذكور فقد شيده اصحابه في القرون المتوسطة واتخذوا لبنائه ما
عثروا عليه من الابنية السابقة . وقد ذكر العرب هذا الحصن منهم ياقوت الحموي في
معجم البلدان (١ : ٤٩٣) قال : « بَترُون (١) بالتحريك والراء حصنٌ بين جبيل
وأفنة على ساحل بحر الشام » وقال الادريسي (طبعة غلدميستر ص ١٧) : « ومن
مدينة جبيل على البحر الى حصن بَترُون عشرة اميال وهو حصن حسن »

وعلى مقربة من البترون في المكان المسمى مراح الشيخ ملعبٌ قديمٌ من بناء
الرومانيين له مقاعد على شكل درج مستدير منحوتة في الصخر وكل ذلك ظاهر
حتى يومنا . وحول هذا الملعب قطع من الرخام وحجارة منقوشة تراها مبثوثة في
الارض يتخذها الاهلون للتكليس

(١) كذا ضبطها ياقوت والادريسي . وسُت في تواريخ الصليبيين « Le Boutron »
اما اليونان فكانوا يسمونها بَتريس (Botrys) وكان يقيم فيها اسقف (راجع الشرق المسيحي
للوكيان «

وان سرت من البترون ليس بعيداً عنها الى شمالي نهر الجوز ترى كنيسة قديمة تُدعى كنيسة مار يعقوب بُنيت بأنقاض هيكل قديم . وعلى بعض حجارها كتابة يونانية طُمس اكثرها فلم يبقَ منها الا حروف قليلة (١)

وعلى مسافة بضعة امتار من هذه الكنيسة من جهة الشمال الغربي كنيسة اخرى منتصبة فوق اكمة تعرف باسم « سان سابور » وهي لا تزال على حال مرضية تجد في بنائها ما يذكّر بطريقة الصليبيين في الهندسة . ولهذه الكنيسة عيدٌ يقيمهُ اهل البترون في اليوم ٦ من آب وهو يوم عيد التجلي . وعلى رأينا ان اسسها مصمّف عن كلمتين افرنسيّتين معناهما الطور المقدّس (Saint-Thabor) . اما سبب اطلاق هذا الاسم على الكنيسة المذكورة فهو لانها كانت لاحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور . وكان لهذا الدير اوقاف عديدة واملاك واسعة منها في الكورة وقرب طرابلس (٢) نعم ان هذا المحلّ لم يُذكر في قائمة تلك الاملاك بيد ان اسم الكنيسة الاعجمي وشكل هندستها ووقوع عيدها في يوم التجلي كل ذلك يؤيد رأينا . ومهما كان من امر هذه الكنيسة لا شك انها تستحق الذكر لانها مثال حسن عن طريقة اهل لبنان في الهندسة الكنسيّة

٢٣ سمر جبيل

هي من اقدم قرى بلاد لبنان واعظمها شأنًا من حيث آثارها . موقعها شمالي جبيل وكانت في القرون المتوسطة احد مراكز الملة المارونية استوطنوها فتحصّنها فيها ردّهجات اعدائهم وفيها كنائس عتيقة ذكرناها سابقاً . الكبرى منها مشيدة على اسم القديس نهرا وهي حسنة البنيان يصلي فيها القوم حتى يومنا . وعلى جدارها الخارجى كتابة سريانية ذهب الدهر بقسم منها مُفادها ان كاهناً قُبر هناك . اما اسم الدفين وتاريخ وفاته فقد طُمس . وكان ديان نقل هذه الكتابة سنة ١٨٦٠ (ص ٢٤٦) وقد أخذنا مؤخرًا رسمها الشمسي فلم نكد نجد منها الا القاطن قليلة . ولسمر جبيل كنيسة اخرى قديمة لم يبقَ منها غير ردمها

(١) راجع بعثة فينيقية (ص ١٤٨)

(٢) راجع المحلّة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, X, 235)

واول ما يستدعي اليه نظر الداخل في سمر جبيل قصرها المبني فوق الصخرة .
 وجدران هذا البناء الجليل الماثلة ترتقي الى الاجيال المتوسطة فقط لكن اركانها
 السفلى واساس بروجيه وخطاؤه المنحوتة في الصخر تدل على قدم عهده وعظم اثره
 وترى المدخله عتبة ذات درجتين منقورة في الصخر . ولا يبعد ان الفينيقيين قاموا
 بهذه الاعمال فانهم كانوا مولعين بنحت الصخور كأن عزمهم اشد صلابه منها وكانوا
 مع ذلك يجعلون الصخر كمقاع يتخذون منه حجارة ابنتهم كالقلاع وغيرها . وفي
 داخل هذا القصر وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة
 الغور كلها في الصخر الاصم لا نظن ان الرومان مع جلدتهم واعمالهم الجبرية تولوا
 نقرها بانفسهم

وما يرتقي ايضا في هذا القصر الى عهد قديم النقوش التي يراها الزائر عند جهته
 الشمالية في اسفل الصخر الذي أقيم فوقه البناء . غير ان هذه النقوش دائرة يصعب
 تعيين زمنها ورسم صورتها

وفي سمر جبيل آثار أخرى من العاديات منها المدافن الواقعة في شرقي القصر .
 وقد كُتب باليونانية فوق بعض قبورها ان امرأة عمرها ١١٠ سنوات دُفنت مع ابنها
 في قبر واحد وتاريخ هذه الكتابة في القرن الثالث للمسيح وهو حسن الرسم
 لا إشكال في قراءته . وفيه دليل على سن طاعنة قل ما يبلغها الشيوخ المعمرون .
 اما البالغون سن الثمانين الى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك
 الكتابات منها كتابة لاتينية محفوظة في كنيسة بيت خشبو يُستفاد منها ان بعض
 الشيوخ توفي وله من العمر ٨٧ سنة (راجع ايضا بعثة فينيقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سمر جبيل وخطورتها لكننا لا نعرف شيئا
 من تاريخها السابق ولعلها احدى القلاع التي خربها بيمبوس عند فتحه بلاد الشام
 (ص ٣٤) والله اعلم . وما اثبتته الدويهي في تاريخ الموارد (ص ٢٠٢) ما
 حرفه : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الاحد
 حدثت زلزلة مريعة . وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت
 البرج الاسط من جوانبه الاربعة وخربت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب
 على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدة امكنة تستحق الذكر لآثارها فإن الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصلها القديم أخصها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليان التي تكرر ذكرها غير مرة في اثناء مقالاتنا عن كنائس لبنان والحق يقال ان العملة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نقر صخورها . من ذلك ثلاث حُجَر نُقِرَوا في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بينة كأنها نُقِرَت منذ زمن حديث

ومما عايناً في مسرح نقوش محفورة في الصخر اكثرها دارس مطبوس بقي منها صورة ثور وبقرة مسحة وموقع هذه النقوش فوق اقبية تنمقة . وقد شاهدنا ايضاً تمثال شخص يُرجح كونه امرأة وهي لابسة ثوباً رافلاً وفي يدها اليسرى رمانة وعنقود عنبر

٣٤ قلعة الحصن

اذا ملت عن الساحل سائراً من البترون لتتوغل في لبنان من جهة دوما رأيت بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كأنها السارية المنحوتة نحاً عمودياً وفوقها قلعة قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشملي (١) . ومن رقي فوق هذا المرقب تمتع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غرباً البحر وسواحله وترى شرقاً القرى الممتدة الى جهات ارز لبنان . اما جهتا الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها . وليس لهذا المقام مجاز آخر الا من جهة بشملي وهي الجهة التي عني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريزة منيعة لا يقوى على فتحها العدو من كل النحاه

اما القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد . فان موادها واخرتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبئ بما اعتاده الفينيقيون والرومان من الابنية الجبائية . وعندنا ان هذه الاطلال صرح بُني في الاجيال المتوسطة فوق جدران اقدم عهداً بقي منها بعض آثارها

ومما يرى داخل هذا القصر آثار بيوت كان يسكنها السكّن سابقاً . وفي أسفل القلعة نواويس عديدة ومدافن نُحِتَتْ في الصخر الاصم وجد فيها الاهلون نقوداً ومصكوكات نادرة

ومن غريب ما شاهدناه في اعلى هذه القلعة حجر كبير وسطه منقوب وهو منفصل عن الصخر الذي تحته وفيه جدول للماء لا تظهر وجهه جريه . وقد عملتُ الفكر لاعرف ما الغاية من نصب هذا الحجر فلم يثبت لي الامر

وان استطاعنا طلع التاريخ لنستدلّ على اخبار قلعة الحصن وجدناه ساكتاً لا يفيدنا عن احواله شيئاً . لكن موقع هذا البناء يناسب ايّ مناسبة للاعمال الحربية كيف لا وهو يطل على قسم من اخصب معاطف لبنان فلا يبعد ان القدماء اتخذوا هذا المقام للدفاع عن مواطنهم واعلم ان هنا قلعة قديمة ابتناها الفينيقيون فاخرها پمپيوس القائد الروماني عند فتح بلاد الشام كما ذكر آنفاً

اما « بشعلي » التي هي بقرب قلعة الحصن فلا تريد في وصفها شيئاً على ما كتبناه سابقاً في المشرق في مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » (٢ : ٨٧٠) . وفي بشعلي رأس عمود على اربع جهاته كتابة يونانية خشنة ذهب اكثرها فلم يبق منها سوى بعض حروف لا يظهر لها معنى شاف (١) وانما وجودها هناك دليل على ان القرية سبقت عهد العرب . وقد جاء ذكر بشعلي في آثار الصليبيين وهم يدعونها « Betzaal » وكانت داخلية في حكم امير جبيل (٢)

ومما رأينا في « ترتج » عند زاوية كنيسة صفيحة من الحجارة طولها متر ونصف وعرضها سبعون سنتيمتراً وهي داخلية في الحائط عليها صورة فائنة تمثل حيواناً تهشّم رأسه ولم يبق سوى ذنبه الذي لم تثبت اي حيوان هو

(١) ولعل هذه الكتابة من الاثار التي لم يجدوها رينان بعد ان بحث عنها في بشعلي كما اخبر بذلك في كتاب بعثته الى فينيقية (ص ٢٥٧)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV) الجزء العاشر ص ٢٥٦

٢٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناه سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حالياً (راجع المشرق ٢: ٨٦٩)

أما عاديّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيتان الواحدة منهما محفورة في الناووس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منه قعبي وسطه دائرة كان فيها نقشٌ أخنى عليه الزمان . والكتابة المعلقة عليه كثيرة الحشونة كان النقاش الذي نُحتها لم يدرك معناها ولم يُحسن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلطاً . فإذا تداركنا هذا الخلل واصلنا ما يجب اصلاحه وجدنا ان تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها ان هناك دُفن كاستور وكان كاهناً وثنيّاً لإله الطب اسكولاب وإلهة الصحة (Ἑστία) . وفي آخر الكتابة تهديد لمن يهكون حرمة هذا المدفن فان فعلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠ ٠٠٠ دينار لبيت المال

فهذه الكتابة اليونانية من احدث ما نعرف من اثار الوثنية في لبنان . اما ما جاء فيها من الوعيد ضدّ تاقضي حرمة القبور فثلة كثير في الكتابات الضريحية القديمة (١) . وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لأن الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن . وهذه الكتابة مهمة لتاريخ دوما القديم لان منها يُستفاد ان هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبراً لإلهي الصحة وان سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناووس الذي دُفن فيه هذا الكاهن . وهو جميل حسن النقش . ولعمري قد اصاب الاقدمون لما جعلوا هذه القرية مقاماً لمعبد الصحة لان علوها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيب ومناظرها البهجة المطلة على سهول كفرحلا المنخفضة توافق الصحة وتنعش القوى

أما الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثدوكس (المشرق ٢: ٨٧٠) وقد اخذتُ رسمها بعد افراغ الجهد الجهد إلا ان هذه الكتابة

مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحاً لعدّة اشخاص ذهبت اسمائهم الآن واحداً منهم . وقد درس ايضاً تاريخُ الكتابة فلم يُعُد لها شأن كبير . ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الآثار قرية « بقسميّة » . فأنّا نقدر انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الأعصار والكنيسة الحالية مبنية بموادّ ذلك البناء . فترى حجارها كبيرة حسنة النحت . وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبد القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحدة . وان دخلت الكنيسة وجدت آثاراً غير السابقة كالتقوش المحطمة المعترضة في وسط البناء . ولو بحث الاهلون او نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد انهم حتى الان لم يقدموا على ذلك وما رأيناه عتبة معبد السيدة الملاصق للكنيسة فانها تُبرز للمعيان بقايا كتابة لم يمكنّا قراءتها .

وبقسميّة من القرى التي احتلّها الروم الملكيون زمنًا طويلاً كما سنبين ذلك في مقالنا الآتية عن دير مار يوحنا مارون . والروم لم يسكنوا فقط جهات الكورة حيث كان عددهم وافراً بل احتلّوا ايضاً قسماً من بلاد البترون التي تُعدّ كعهد الامة المارونية . ولنا في كل ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند سنوح الفرصة

٢٦ كفرحي ومدرسة ماريوحنا مارون

كفرحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفرحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار كما يستدلّ على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من الموارنة . وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظننا انها سُيّدت في مكان معبد وثني قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة نصب نُقش في واجهته اكليل الا انه خلّو من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسم منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمون الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما مونيوس (Μονιμος) والآخر سيناس (Σιννας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم يبقَ من اسمه الا حروفه الاولى الثلاثة (ΔΙΙ. ΑΡΑ.)

واسم مونيوس نفسه اسم إله كان يتعبد له خصوصاً أهل الرها يشركونه بمعبود آخر يدعى عزيزاً (AZIĞOS). إلا أن عبادة ذلك الإله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران. وقد وجدنا اسمه مدوناً في عدة آثار وقفنا عليها في حمص ثم غنينا بنشرها. وما اسم مونيوس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافقه في العربية «منعم» من الأسماء الحسنى عندهم كما يستدل على ذلك بتقديم العبد فيقولون «عبد المنعم» وهو اسم بعض المقدمين في بشرأي في القرن الخامس عشر (١). وما يؤيد رأينا بل يزيل عنه كل شبهة أن العلامة رينه دوسو (R. Dussaud) وجد اسم «منعم» (DUSAUD) بين اعلام كتابات الصفا (٢) وكانوا يريدون به الإله الكريم الوهاب. ويمثل هذه الصفات وصفه الكتابة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الإله ورفيقه عزيزاً

أما مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي أكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية. والتقليد المحلي مجمع على أن هذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناه القديس المذكور في نهاية القرن السابع. قيل أن هذا البطريك زين كنيسة ديره بذهيبة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير إلى الطائفة المارونية وأن الدير دُعي مدّة من جرّاء ذلك دير رأس مارون (قُمع دُعي). وبقيت الذخيرة هذه في مكانها إلى سنة ١١٣٠ فنقلها أحد الرهبان البندكتيين إلى مدينة فولينيو من أعمال إيطاليا

ولا يخفى على من له الملم بتاريخ الطائفة المارونية كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن أصل هذه الأمانة الجليلة وأحوالها في الأعصار الأولى بعد ظهورها. وغاية ما نعرفه من هذا القبيل قد باقنا بالأحاديث الشفاهية التي لم تدوّن إلا منذ عهد قريب فلا بدّ أذاً من شواهد كتابية قديمة لتؤيد هذه الأخبار المنقولة (٣). على أننا لا

(١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوبيي (ض ١٤١) وروايتنا المعنونة «حليس بجيرة قدس»

(٢) راجع كتاب Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83,412

(٣) فليراجع الكتاب الذي نشره حديثاً سيادة المطران يوسف دريان المعنون «لباب البراهين الجليلة عن حقيقة امر الطائفة المارونية»

نيأس من اكتشاف مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفرت فيه الوسائل وانفتحت الحزانات الادبية وظهر للعيان ما لم يكن قبلاً في الحسبان . واملنا واطدي اهل هذه البلاد فانهم اذا بحثوا لدى الخاصة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركية او الكراسي الاسقفية القديمة لا نشك ان مساعيهم تتكفل بالتحجّاج فيجدون في الزوايا خبايا (١)

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكره اثرًا قديمًا . وانما يروي الرواة ان منشئ عايش ودفن فيه وقد عني مراراً اصحاب الهمة بالحفر فيه لعلهم يقفون على قبره . لكن هذه الابحاث لم تأتِ حتى الان بشرة مع ما وجد هناك من المدافن

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (المشرق ١: ٢٥١) ان خلفاء مار يوحنا مارون سكنوا هذا الدير وفيه قبر كثيرون منهم . ولهذا المقام ذكر في تاريخ الصليبيين (٢) يدعونه مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)

ثم نقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيه الى عهد البطريرك دانيال الشاماتي فابعد الى كفرحي . ثم جرى بعدئذ على هذا الدير ما جرى من حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب بآثاره

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص ٢٠٧) : وبسبب كثرة الحكمم والاغراض كثر الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مائتين وقبضوا على الرساء في القرى . . . وكان القس يوحنا الاجبعي مترسلاً على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى به اهل قسمة الى ابن سيفا حتى قبض عليه واهانه وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير من ثم وارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت بقسمة التي كانت لطائفة الملكية »

وبقي ذلك الدير خراباً صنفصفاً الى ان جدّد البطريرك يوسف اسطفان بناء ما كان متهدماً فيه في اواخر الجيل الثامن عشر واسكن فيه بعض رهبان . وكان ذلك بعد

(١) وما نُشر مؤخراً في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscles maronites) وكذلك مرّ في المشرق (٢: ٢٦٥, ٣٦٥, ٤٥١) بعض مقالات في هذا الصدد

(٢) راجع : Colonias franques. p. 359 Rey

رجوع البطرك المذكور من الكرمل وعند زيارته الرعية فلما مر على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دارة واطلال طامسة فحرّكته الغيرة الدينية على ارجاعه الى رونقه القديم فوجه اليه القس يوسف الحدّاد والقس الياس من ريفون ليعتنيا بتجديده

وفي آبان زيارة المطران جومانوس ثابت لابرشيته جُبل و البترون رأى افتقار رعيته الى المدارس فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلّم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدان . فصادق البطريك يوحنا الحلوعلى هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضده القاصد الرسولي السيد لويس غندلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل و البترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاخرى ان يقال ان ابرشية جبيل و البترون صارت ابرشية البطريك الخاصة فيجعل له فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . ومتمن زادوا هذه المدرسة رونقاً ووسعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدة وافرخ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزز المرحوم المنسيور بطرس ارسانيوس رئيسها السابق دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الايام اوج عزها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . وبما سرنا ان طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربية واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلمون بها (١) . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحريتها في مقاتلتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقية في معارج التقدّم والفلاح

٢٧ جبة بشرأي

بلغ بنا تبّعنا لآثار لبنان الى مشارف هذا الجبل وهانحن ذا في معاملتي اهدن

(١) ونفتنم هذه الفرصة لتقديم فروض الشكر لروءاء مدرسة مار يوحنا واساتذتها الافاضل لما لقينا عندهم من الحفاوة والاكرام كلما حللناه في رحلنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الحوري بولس طعمه لطفه لما افادنا من المعلومات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي درّناها في مقاتلتنا قد استندناها من فضل

وبشري . على أن هذه الجهات دون السواحل الفينيقيّة من حيث مآثرها القديمة وإنّما هي معتبرة لسبب آخر « لكونها أصبحت مهداً للطائفة المارونية » (قال ذلك رينان) فنمت هذه الامة الكريمة في ارجائها واتسعت منذ نحو ١٢٠٠ سنة

اما اذا ضربت صفحاً عن نشأة الموارنة في تلك الاصقاع فلا تكاد تعثر على امر ذي بال يستدعي التفات العلماء اليها . وكانت بلاد بشري في سالف الزمان قليلة الاهلين تمتد في معاطف جبالها غابات الارز الباسقة . ومن المحتمل ان تكون ظهرت فيها بعض القرى ومن جملتها بشري . لكن الامر محمول على الحدس فقط . ولا احد من العلماء حتى الان وجد فيها اثرًا يرتقي الى عهد اليونان او الرومان

اما اسمها بشري ويكتبه البعض بشرّة وبشري فقد اختلف في معناه . قيل (١) ان اصله بيت الشرى يراد به بيت عشوت . فان صحّ هذا الاشتقاق دلّ اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون إلهة السماء الفينيقيّة كاهل جيل

والمرجح ان مؤرخي الصليبيين ارادوا هذه البلدة في تأليفهم لما ذكروا قرية يدعونها Buissera و Bussera وهي من القرى التي كانت لاحقة باملاك صاحب طرابلس واليهما تنسب احدى الأسر الفرنجيّة الشريفة كما روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج (٢) . اما تاريخ الامة المارونية فانه يجعل في بشري وجوارها الحوادث التي جرت في أوّل ظهور الطائفة غير ان هذا التاريخ لم يدوّن قبل ابن القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر

وما ذكره صاحب اخبار الاعيان (ص ٢٠) ان مولد القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم في القرن السابع كان في بشرّة وقد كان سألنا احد السائلين في المشرق (٣٠٨:٤) هل صحيح ان هذا القديس وُلد في « بسري » كما يزعم اهل التقليد . ولا نعلم اي التقليدين هو الصواب أبشرة كما قال الشيخ طنوس الشدياق او بسري كما زعم السائل وعلى كل حال فقد بينّا هناك ان القديس صفرونيوس وُلد في دمشق لا في لبنان واستندنا في قولنا الى شواهد لا تُنقض

ولنا في تاريخ اهدن ما يزيد ثقتنا بقدم عهدها . على اننا لا نسلم بالتقليد الذي

(١) راجع كتاب فلسطين لإبرس وغوتي Ebers und Guthe: Palästina II.448

(٢) راجع Rey: Colonies francaes p., 363 . وراجع أيضاً ZDPV, X, 211, 204

يجعل الفردوس الارضي في اهدن ١٦ . ومن روى ذلك يزعم ان اهدن هي جثة عدن وان اسمها مشابه للبرانية ١٦٥ . وهذا قول لا سند له وكذلك قد وهم الذين ظنوا ان اهدن هي المدينة التي ذكرها بعض القدماء . ودعاها *Παράδεισος* و *Τριπαράδεισος* لأن موقع هذه المدينة في جنوبي حمص على مسافة ست ساعات من حمص ونصف الساعة من ربله وكانت قرب العاصي في مكان قرية جوسية الجديدة كما اثبت الامر السائح العلامة موسيو دوسو (راجع المشرق ٣ : ٣٤ ، ٣٥)

وقولنا هذا لا يبخص شيئاً من حقوق اهدن ونحن اول من يقرّ بحسن موقع القرية وطيب هوائها وجمال مناظرها الفتانة اما الادلة على قدمها فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثة بالسريانية . فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يُبقَ منها الأسطرين في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ للاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م . والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قبر مجاور لكنيسة القديس ماما . وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لها تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعلوها ولكن هذا لا يكفي لان نسب الكتابة للتصاري لأنه امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة . وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين عن الحجر ولكن لم يمكننا ان نصلح في شيء ما اثبتة رينان في كتاب بعثة فينيقية . وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانية بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منها : « بسم الله الذي يُحيي الموتى في سنة ١ — للاسكندر ٥٥٠ وقد ومات مرقس ٥٥٠ »

وفي اهدن كنائس قديمة ذكرنا في مقالة سابقة ما لها من الخواص الهندسية فلنراجع

وترى على مقربة من اهدن عدة قرى كالحث وحصرن وغيرهما من الضياع التي لا نجد فيها شيئاً من الآثار الناطقة عن قدمها . الا انها مذكورة في اخبار الطائفة المارونية كما نقلها الينا التقليد فيكون ابناء مارون اول من خول هذه الاماكن ذكرها تاريخياً ولعلهم هم الذين انشأوها فسكنوها والله اعلم

٢٨ أرز لبنان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفحاً عن شجر اختصّ به هذا الجبل دون غيره نريد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منفصلة . لكننا لا نبسط الكلام فيه الا لنورد ما يفيدنا عنه علماء تاريخياً وأثرياً ونذع لارباب الطبيعة ما هو أحقُّ بوصفهم

غني عن البيان ان الارز المذكور في الاسفار المقدسة هو هو ارز لبنان كما تشهد تسميته العبرانية والعربية التي لم تختلف منذ القدم حتى الان . وكذلك يوافق ارزنا الذي نعرفه ما جاء فيه من الاوصاف في الكتب المأثلة مثل بسوقه (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و ٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانه الفناء الوارفة الظل (حز ١٧ : ٢٣) ورائحته الرائحة التي تعطر الارحاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنه الذي يجعله فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ووفرته في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ - ١) ملخصاً كل هذه خواص الارز وهو يشبه به ملك اشور : « هوذا اشور ارضه بلبنان بهيجة الانان غياة الظل شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة . المياه عظمتها والغمر رفعها . انهارها جرت من حول مغرسها ومجارها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء . وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجة في عظمتها وفي طول عذباتها لان اصلها على كان مياه غزيرة . . . فكل شجر في حنة الله يماثلها في بهجته فاني صنعتها بهيجة بكثرة عذباتها فقارت منها جميع اشجار عدن في حنة الله » فله من وصف يطابق الواقع لاسيا في عهد النبي اذ كانت كل قمم لبنان مكللة بغابات الارز . وفي قول حزقيال احسن تفنيد لاراء احد المحدثين من الفرنج واسمه اوجين دي لاسال (١) الذي زعم ان الارز غرس في لبنان على عهد السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي

أرز لبنان

١٣٥

هذا والأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عطر الرائحة لا يفعل فيه الزمان ولا تقربه الأرضة والسوس ولذلك اعتبره قداماء البنّائين (راجع سفر الملوك الثاني ٧: ٧ و ١ أخبار ١٧ : ٦ واش ١٠ : ٩ وارميا ٢٢ : ١٤) واستعماله منذ عهد عهيد في الابنية كان اعظم الاسباب التي أدت الى ملاشاته

وقد ذكر الطبيعى بلينيوس (١) ارز سورى كخشب لا يصيبه الفساد وروى ان سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمته النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قداماء الشعراء يشبهون الاعمال المخلّدة بالارز (٢) .

ومما يشهد لهذا الشجر بالبقاء ان لايرد (Layard) وحده بين عاديّات اشور تزويرهال في غرود اخشاباً من الارز صبرت على آفات الدهر نيفاً و ٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قُطعت حديثاً . وفي المتحف البريطانى قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد ألقى شيء منها في النار ففاح عرفها الذي اطراه القداماء (٣)

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوعاً يتخذهُ المهندسون لعبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر التشيد ١ : ١٤ و ٨ : ٩ وارميا ٢٢ : ١٤ وصفنيا ٢ : ١٤) بل ربما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهاكل بالواحه . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦ : ١٥ - ١٧) انه « بنى على جدران البيت من داخل الواح أرز ٠٠ من ارض البيت الى جوائز السقف » وقد احب القداماء ان يصفحوا الجدران بهذه الالواح لأن حجارة فلسطين وسورية هي في الغالب كلسية نخرة لا تروق العين كالرخام والصوّان والحجر المسامع فلتلاني هذا الخلل كانوا يصفحون الجدران بصفائح من ذهب او فضة او خشب ثمين وكانوا يفضّلون الارز لبقائه . وكان داود قبل ابنه سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يرسل له كمية من اخشاب الارز ليتنى بها بلاطه في اورشليم . فلما صار الامر الى

(١) راجع تاريخه الطبيعى (ك ١٣ : ١١ و ١٦ و ٧٦ و ٧٩)

(٢) راجع Horace, *Epist. ad Pisones*, 32 و Perse, *Satires* I, 41

(٣) راجع الشاعر فرجيل Eneid. VII, ١3 والتاريخ الطبيعى لبلينيوس ك ١٣ ف ١

وتأليف لايرد Niniveh and Babylon, 367

ابنه فاراد ان يشيد للرب هيكلًا يُعبد من عجائب العمور فضل الارز على سواء
لتتميم هذا المشروع الخطير
وكذلك صفعوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١) وهكذا ايضا
جعلوا سقف الهيكل الذي جده هيرودس (٢)

امّا الابنية الاولى المسيحية التي شيدتها الملكة هيلانة مثل قبة القبر المقدس
وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضا خشب الارز الى ان جدها الصليبيون .
هذا فضلا عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونها كما قال قاثيل واصناما
اشعيا (١٤: ٤٠) وقد قال مثله ايضا كل من يوسانياس وپلينيوس (٣)

ثم ان خشب الارز كان معتبرا ومستعملا في خارج سورية وفلسطين لان
سنعاريب ملك اشور يفتخر بانه صعد جبال لبنان وقطع منها شجر الارز (٤) وفي
الكتابات المسمارية ايضا يفتخر ملوك بابل واشور بثل هذه الماثرة لانهم كانوا في
الغالب يتقاضون جزية من خشب الارز . وكثيرا ما يرد في النص الاشوري ذكر
الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولاً عنه ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونه جسورا
اوروافد في هياكلهم وقصورهم (٥) وكانوا يكثرون جدا من استعمال الارز حتى ان
النبي اشعيا (٨: ١٤) في معرض كلامه على سقوط بابل يصور الارز فرحا مجبورا
بخرابها . وكذلك كانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦)

وقد عرف المصريون الارز وخواصه العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونه الى سواحلهم
بحرا (٧) فأتخذوه القراعة لابنتهم الفخيمة كالتصور الملكية والهياكل الدينية وقد
اقتدى بملهم الملوك السلوقيين في سورية وقد اصطنعوا منه ايضا اثاث بيوتهم لعدم
فساده . وذلك ما حدا الى ان ينحشوا من نشارته على موتاهم في تحنيطهم ويطلوا

(١) عزرا (٣ : ٧)

(٢) يوسيفوس في حرب اليهودية (٥ : ٢٥ و ٢٦)

(٣) التاريخ الطبيعى (١١ : ١٣)

(٤) ملوك رابع (١٩ : ٢٣) واشعيا (٣٨ : ٢١)

(٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية (ك ١ ص ٦٨، ١٠٨، ١٤٠) الخ

(٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس (٥، ٢٢)

(٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لپيرو (Perrot) الجزء الاول (ص ٥٦٧)

برائتنيجه خارج التواييت كما يشاهد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متسعة النطاق . على اننا لم نذكر الأقساماً صغيراً من الابنية التي كانت تجهز بهذا الحشْب . فانّ الادوات الحربية والمجانيق كانت في الغالب تُصنّع من الارز . ولا شك ان السد الذي اقامه الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة المبنية عليها مدينة صور دخل فيه شيء كثير من خشب الارز

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيوخوس الملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م . فاراد ان يجهز له اسطولاً قوياً فألّى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربية . فنقل الحشْب المقطوع على ظهر الف دابة الى مصانع صيداء وجميل وطرابلس حيث أنجز العمل . قال الراوي : « وكان الحشْب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان . ولكن كم عبت به من الخطّابين غير الثمانية آلاف الذين ذكّرناهم . ولو اردنا لأوردنا امثلة عديدة تؤيد قولنا . ويؤخذ من رواية ديودورس ان كل قم لبنان كانت تردهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يستدلّ على ذلك من ذكر المدن الساحلية التي نقل اليها الارز لهامة اسطول انطيوخوس . واذا استغرب القارى وجود الارز جنوبي لبنان فليذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليه سابقاً

ومما يؤسف له ان الحكومة المحلية لم تسن السنن لقطع هذه الغابات بنظام . وعلى رأينا ان الرومان اول من فكّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأدريان الامبراطور اوردناها مراراً مفادها ان الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار (١) من جملتها الارز . ومع ما دهم الارز من العيش والفساد ترى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباته الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك ٥ ف ٦) . وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) ان سقوف البيع كانت تتخذ عادة من خشب

(١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١: ٧٣٩) على خلاف هذه الرواية . والصواب ما ندونه هنا

الارض في القرن الرابع

على ان السّن الرومانية لم تحفظ للبنان فخر غاباته إلا زمنًا قليلًا فإنّ پروكوب المؤرخ (١) يجبر عن يوستينان الملك انه بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري لتشييد كنيسة مريم المكيّة في اورشليم . وبعد التنقيب والتفتيش عثر البناؤون على ما كانوا يطلبون اي سواي باسقة الطول كافية لعوارض سقف البنية واذا تدبّعنا تاريخ الارز من ذلك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتى لم تسكد تترك منها غير اثر بعد عين . فقد ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ سنة ٦١٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابّنى ١٧٠٠ سفينة شراعية واتخذ موادها من جبل لبنان . ولم تقصر سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضا اسطولًا ثانيًا اكثّر عددًا واشد هولًا من الاول وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية وكانوا يجعلون اخصّ دور الصناعة وهي التي تسمّى اليوم بمحلات الورشات او الترسانات في مدينة طرابلس نظرًا لقربها من غابات الارز . وما عاون ايضا على تلف الارز وكان من حملة اسباب قطعه صناعة استخراج الحديد ومعالجته التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي . ثم ان الجهات التي اقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهية بالغابات والاحراج الملتفة أصبحت ولا زى فيها اليوم نبتة خضراء . فهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلل سرعة فناء الغابات في حل لبنان

اما الان فلم يزل شجر الارز موجودًا في اربعة اماكن من لبنان لانك تجد منه اولًا في شمالي لبنان بين قريتي الحدث ونيحا غابة يبلغ طولها نحوًا من ساعة ونصف . نعم ان اكثر اشجارها فتية وليس في كل اماكن الغاب بملتفة ولكن اذا اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصبح بتادي الايام حرجًا من اللف الاحراج وأنقها

وثانيًا في اعالي قرية سير ببلاد الضنية في اعالي وادي النجاص فهناك كثير من

شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر . وتجده الارز ايضا بين سير ونسع السكر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنم (١) والقوم في تلك الناحية يسمونه تنوب (٢)

ثالثاً في لبنان لقيف ثالث من شجر الارز لا يعرفه الا القليلون ثابت في الجبال المشرفة على قرية الباروك وعلى مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غيباء تمتد على مسافة ساعة طوًلاً غير ان شجر الارز في المحل المذكور يوجد ألقافاً ينصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية او مشغولة بأشجار أخرى من جملتها السنديان وهو من نوع السنديان الذي يثبت في شمالي اوربة واهل البلاد يسمونه اللك ويسمون الارز الأبهل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتي ولكن قد تصادف فيه بعض اشجار عتيقة غير انها اقل سموً وارتفاعاً من الارز الموجود بناحية بشرى لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيراً ما يكسر قمم الشجر كما ان شدة الريح تمنعها حتى تجعلها منبسطة كالظلة على هوى الريح . فضلاً عن ان الجذوع تنفر عادة الى فروع فتصير عظيمة وكبيرة . اما متى كانت الشجر مجتمعة لفاً واحداً فترى جذوعها سامقة مستطيلة وخالية من الفروع غير انها تكون اقل ضخامة نظراً لشدة قربها بعضها من بعض . على ان ارز الباروك بما فيه من الشجر الكبير والصغير والفتي الثابت على اصول القديم يثل للعين غابة حقيقية اكثر من ارز بشرى

ولكن حياة هذه الغابة الحبيبة زارها لسوء الحظ مهددة كل ساعة بالفناء والدمار لانها لما كانت ملكاً لقرية الباروك كانت بلدتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دريهمات تلتفت بها فن ثم نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية

اما اشهر لقيف من شجر الارز فغابة بالقرب من قصبة بشرى وموقعها على علو ١٩٢٥ متراً فوق مساواة البحر في سفح الجبل المعروف بظهر القضيبي . والتربة الثابت فيها الشجر المذكور كاسية ولكن الورق الذي يتساقط منه ادى شيئاً فشيئاً الى

(١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سيترن (١ ص ١٧٩)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٢٠)

تكوين قشرة من التراب الاسود . وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي واعظم شجر الارز ثابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنه ارزة يبلغ محيط جذعها اربعة عشر متراً و ٥٦ سنتيمتراً ثم ارزة أخرى تقاربها في هذه الضخامة . والارزتان المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدّر بعضهم ان عمرها لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة (١) . قال بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغه هذه الشجر لا يتجاوز ٢٥ متراً وفي جملتها شجرات يتراوح ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين متراً والباقي يقل ارتفاعه عن اربعة عشر متراً

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه سبعة امتار وهو مما وقّف الشجر الكبير في سبيل نموه مانعاً عنه الهواء اللازم لذلك . وفي الغابة ايضاً شجرات اشتدّ قربها الى بعضها كثيراً حتى تلازمت جذوعها واصبحت كأنها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السياح والحوالة الذين زاروا هذه الغابة يرّ أن ارز بشراي قد زاد عدداً في ايامنا . لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تناقص بل اوشك ان يتلف لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهّدّوا بالحرم كل من يدّ اليه يدّاً عادية

واول من تكلم عنه هو بيلون (٢) الافرنسي وعدّ منه ثمانية وعشرين ارزة قديمة . ثم السائح الالماني فوريرفون هايندروف (٣) سنة ١٥٦٦ وعدّ منه خمساً وعشرين ارزة . ثم العشّاب راولف (٤) الذي زاره سنة ١٥٧٥ ولم يعدّ منه غير اربع وعشرين

(١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبس وغوته
 (مجلد ٢ ص ١٤) المعنون Palestina im Wort und Bild
 (٢) Belon
 (٣) Fürer von Haimendorf
 (٤) Rauwolf

أرز لبنان

١٤١

ارزة . ومن بعد هذا التاريخ كثر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيوس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارنة فانه زاره سنة ١٥٩٩ وعد منه ثلاثا وعشرين ارزة . ومنهم دارفيو (١) الذي زاره ١٦٦٠ ومنهم روجه وغيره ولم يجدوا اذ ذاك غير اثنتين وعشرين شجرة . ومن بعد هؤلاء زاره المؤرخ دي لاروك سنة ١٦٨٩ فوجد فيه عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم بوكوك وعد الاول ست عشرة والثاني خمس عشرة فقط . غير ان الشجرات الفتية قويت لحسن البتخت في اثناء هذه المدّة على ان تنمو تدريجاً وتعوّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجددت الغابة شيئاً بعد شيء وترتقي اعمار الشجرات الفتية الى هذا التاريخ ومن ينظر الى ما فيها من العقد يُقدّر ان اعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ جعل سيّزن عددها ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انه لم يعدّها واحدةً فواحدةً . وفي سنة ١٨١٠ احصاها بورخارد ثلاثمائة ارزة صغيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وحجمه ذلك ٣٧٥ ارزة . وقد ذكر هذا العدد نفسه تقريباً الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ ثمّ يدلّ على ان عدد الارزات قد بقي في زماننا على حاله

ومع كل ذلك لا يتنوع تكثيرها وفراً من تكرار ما سبق لنا ايراده في هذا الشأن نحيل القارئ على المشرق (١ : ٢٢٧ و ٣ : ٩٧٦) حيث أفضنا الكلام في الارز وأقنا المقابلة بين لبنان وجبال الألب

وقد مرّ القول انّ الارز يوجد ألقافاً متفرقة ما بين كبيرة وصغيرة في اماكن مختلفة من جبل لبنان . وهذا يثبت انه يقوى على النجاح والنمو فيه . بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضاً في تعانيل التابعة البقاع وذلك في ارض الالباء اليسوعيين الذين امتحنوا زراعته عندهم فافلحوا . اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب وكل هذا من شأنه ان ينشط مساعي الذين

يهتمون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية لهامة لبنان منذ الدهر
القديم (١)

٢٨ الكورة

الكورة من اخصب انحاء لبنان تجمع بين ارفاق السهل والجبل . ولا مراء ان
الناس سكنوها منذ القرون الغابرة . ولو بيننا الحكم على ما يوجد من التشابه بين
اسم قريتها « اميون » وعلم آخر « اميا » ورد ذكره في مكاتبات تلّ العمارنة
(المشرق ٣: ٧٨٩) لصح القول انها اقدم مقاطعة في داخل لبنان احتلها السكّان .
وفي الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان كما سترى

٢٩ دار بعشتار - بززا - ناوس

اذا ما قطعنا نهر الجوز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبتون لقيت بادناً
دار بعشتار . وهي قرية فيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنية
محكمة العمل تكتنفها اخوة قديمة من العهد نفسه . غير ان اسم دار بعشتار جدير
بالاعتبار . وهو مركّب من لفظتي بيت وعشتار . وعشتار هذه هي إلهة الفينيقيين
الشهيرة . فيستدلّ بذلك على ان هذه القرية كانت سابقاً هيكلًا لعشتروت يعبدها
فيه اهل لبنان

واذا يمتّ الشمال الشرقي بلغت بعد قليل قرية بززا ولعلّ اسمها منحوت من
بيت عزيز . فالباء اختصار لفظة « بيت » شائعة كبعديدات ومحمدون وبزمار . اما
عزيز فاحد الالهة الساميين مرّ ذكره في المشرق (٤: ٢٢٩) . وفي بززا هذه هيكل
صغير قديم العهد حسن البناء لم يضععه حدثان الدهر . ولما تنصّر الاهلون جعلوا
الهيكل كنيسة وأضافوا اليها حنايا آثارها باقية حتى اليوم . وهم يدعونها كنيسة
العواميد او سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة . وليس هناك كتابة تفيدنا
عن امر هذا البناء القديم وغايته

(١) اما طريقة تكتيرها فراجع في شأنها ZDPV ; 93 X.

وقس على ذلك قرية ناوس التي موقعها شمالي شرقي بزيزا على مسافة اربعة كيلومترات منها . وهي فوق ربوة قريبة من عين عقرم الحالية . وما ناوس الا تعريب اللفظة اليونانية *νάος* يراد بها الهيكل . واذا استثنيت بعلبك وآثارها الجبّارية لا تجسد في كل لبنان ما يضاهي بقايا ناوس واطلاها اتساعاً وعظمة . اما نقوشها فهي ايضاً دون نقوش بعلبك دقة واحكاماً وفيها مسحة من الصناعة السورية . وهي من عهد الرومان كابنية بعلبك

وفي ناوس اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احدهما الآخر يحديق بهما سوران رحبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع ترينه اعمدة مصمتة تراها على صورة هيكل حصن سليمان في جبل النصيرية (١) واركان الابواب التي يدخل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي منتورة على شكل درج . وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا . ولا ريب انه كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصار . وكان الناظر يكشف من هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس . وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة ممتدة امامه

واذا لحظتُ النقوش التي على الهيكل الشرقي وجدتها خشنة غليظة . وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثثة الزوايا التي تعلوها . اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة فقرا . وفوق باب المدخل صورة كرة مجنحة ترينه وقد ألف الفينيقيون مثل ذلك في هياكلهم (راجع وصفنا لقرية اده في الصفحة ٦٨)

اما الهيكل الآخر الذي موقعه جنوبي عربي الهيكل السابق ففيه بقايا حسنة من نقوش ابوابه . وقد وجدنا بين ردم الهيكل عمالاً نصفياً يمثل البعل وعلى رأسه شعاع الا ان نقشه خشيب ونظن انه سقط من الكورة التي تعلو مدخل المعبد . ولهذا الهيكل سور حجارته جبّارية تشبه حجارة دير القلعة يبلغ طول بعضها ستة امتار

ونضرب صفحاً عن المدافن الجميلة والمقاطع المتسعة والثواريص المنقوشة التي تُرى حول قرية نالوس لئلا نعود الى ذكر آثار وصفناها مراراً . على ان هذه المدافن والمقاطع تدلّ دليلاً بيّناً على ان تلك الانشاء كانت في الاجيال الحالية عامرة حافلة بالسكان وان لم يُفدنا التاريخ من امرها شيئاً . وكذلك لم يكتشف احد حتى الآن بين هذه الاخرية كتابة تفيدنا علماً عن اخبار السلف

٣٠ اميون

قد سبق لنا القول عن اميون وقدمها . اما الآثار الباقية فيها فقليلة لا يُعبأ بها . من ذلك صخر منحوت نُقرت فيه كوى او مشاكير . ومنها كهف يُرى اليوم تحت السراية الجديدة كان في ما سلف من الزمان مدفناً ثم جعل معبداً لذكر القديسة ماريانا . وبقرب الكهف اخربة كنيديّة عتيقة بقي منها حنيّتها وكان معبد القديسة ماريانا تابعاً للكنيسة معدوداً كاحد مصليّاتها

وقد تكرر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم . وكانت اذ ذاك مركزاً مهماً للملكيين كما هي اليوم . ومن ذكروا اميون الشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق امّا الصليبيون فلم يُجد اسمها في تأليفهم وهم يصفون مع ذلك غيرها من قرى الكورة (ويدعونها La Core) ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفر قاهل (Caphrahael) وبتوراتيش (Boutourafig) ويطارومين (Bertrandimir) وبديبون (Bethamum) وغير ذلك من الاسماء التي شوّهها الفرنج باللفظ ويسهل اصلاحها

٣١ المَسِيحَة

للبترون الى طرابلس طريقان الواحدة على ساحل البحر والاخرى جبليّة فن سار في طريق الجبل . جاريّاً لوادي نهر الجوز (وهي اليوم طريق العربات) وصل بعد مدّة قليلة الى حصن يُدعى المَسِيحَة وهو حرزٌ منيع موقعة فوق صخرة منتصبة على الوادي عودياً . والوادي في هذا المكان ضيق خرج المنعطف

اما تاريخ هذا البناء واخباره فجهولة لم يرشدنا اليها احد من الكتبة . ولعلّ

الى ان يقدموا الى زيارة هذا الجبل الصَّرد. ولو زادهُ الجيولوجيون والجغرافيون لوجدوا فيه ما يُجديهم علماً

فلنباشرنَ بوصف القسم الشمالي من هذا الجبل اعني رأس الشقعة فنقول: انَّ هذا الرأس ينتصب كصخرة صماء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلوهُ يبلغ ٣٠٠ متر. واذا نظر اليه المسافر القادم من جهة طرابلس رأى شكله اشبه بدارعة هائلة قائمة فوق ثبج البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهجأً مرعب المناواة عدوها. وفي جوانب هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمهُ من الزلازل في كرور الاجيال فتضعضت اركانهُ وتقطعت اوصاله. نخصي منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك ومرّ لنا وصفها في المشرق (١: ٥٠٣). وهذا الزلزال غير هيئته رأس الشقعة بل ألحق احواله بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوه صورته

وكان القدماء (١) يطلقون على هذا الرأس اسماً غريباً في معناه فيدعونه وجه الله (Θεοπροσωπον). أمّا النصارى اليونان فابدلوا اسمه باسم وجه الحجر (Λιθοπροσωπον) وهو اسم قرية مجاورة لهُ موقعها فوق سطح الجبل جنوباً. ومما يفيدنا التاريخ ان الالهة تأيئت معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم «وجه بعل» أفلا يسوغ لنا ان نستنتج من هذه الدلائل ومن المقابلة بين هذه الاسماء ان الفينيقيين كانوا اختصوا هذا الجبل لعبادتهم لا سيما ان صورته الغربية تستلفت الانظار. وهذا الظن يتأيّد بثمل جبال اخرى في ساحل بحر الشام كان القدماء يعظمونها تعظيمهم للالهة كجبل الكرمل والجبل الاقوع شمالي اللاذقية وغيرهما. وكان جبل لبنان نفسه مكرماً كاله يعبدونه ويدعونه بعل لبنان. أمّا تسمية الكتبة الفرنج لهذا الجبل برأس مادون (Cap Madonne) فليس هو كما زعم رينان اثرًا لعبادة الالهة تأيئت بل «مادون» تعريب كلمة «السيدة» فقيل لهُ رأس السيدة اشارة الى سيدة النورية التي بُني هناك ديرٌ باسمها. وقد ذكر الجغرافي اسطرابون انَّ في زمانه كانت قلعة مشيدة في اعلى رأس «وجه الله» وان في هذا الجبل ليس بعيداً من البترون اغواراً وكهوفاً يأوي اليها المصوص وقطاع الطريق كانوا يعيشون في البلاد حتى اجتثَّ پومپيوس دابرهم واستاصل شأفتهم. ولعل

هذه المغاور هي الاغوار التي تُرى في يومنا هذا وراء قرية « قبة » قريباً من قرية وجه الحجر وهي واسعة تُشرف على البحر (١)

واذا سرت من البترون على ساحل البحر قاصداً حُوش قمر باء مزرعة تدعى سلعاتا عندها نبع جار. وهذه المزرعة لم اتفق آثراها في رحلي. واني اتأسف اليوم على فوات الفرصة لانه يُحتمل ان سلعاتا هي في مكان بلدة قديمة دعاها القدماء Σελάτων او Τονασίτιοι Σελάτων وقالوا عنها انها كانت كرسياً اسقياً وجعلوها مع جيفرتا وأنفة (٢) ولكن لا بد من تحقيق الامر والاستطلاع على آثار المكان. وعلى كل حال لا يخالو وجود نبع في هذا الساحل الرملي القفر من الدلالة على مقام قديم

وراء سلعاتا هذه جون صغير يفضي اليه مسيل ماء ناشف يدعى وادي غميق. والطريق التي تمر حول هذا الجون منقورة في الصخر كالطريق الرومانية التي ترى عند نهر الكلب. وعلى جانب هذه الطريق صخرة قد كُتب على وجهها أقيماً باليونانية ما تعريبه: « هنا يلتقي مُلك ديوسترات. وقد اتفقنا على ذلك ». وهذه الكتابة ضخمة الاحرف طولها ٣٠ سنتيمتراً وهي كما ترى نصبُ جعل للدلالة على حدود الاملاك ومثلها كثير في منعطف لبنان الشرقي بين بحيرة البسونة وبعليك



وبازاء هذه الكتابة على الصخر العمودي الذي

بجوارها رسم تربيع بعروتين على هذه الصورة وليس

ضمن التربع شيء ولعله كان فيها سابقاً كتابة طمسها الدهر لكنني لم اجد فيها اثرًا للحروف كالسيّاح الذين سبقوني الى هذا المكان

وهذه الكتابات مع نقر الصخور تدلّ على ان القدماء مروا في تلك الانحاء. ولا ريب ان الطريق كانت تجتاز في هذا المكان ولعلها هي الطريق الرومانية التي كانت تتبع ساحل بحر الشام تنعطف بانعطافاته مارةً حول رأس المشقة. والمرجح ان الجيوش الرومانية كانت تسير في هذه الطريق الساحلية لان الطريق الجبلية الحالية قليلة

(١) راجع الرحالة ستزن (Seetzen I , 231)

(٢) راجع ريلند (Relandi Palæstina , p. 216) والمجلّة الفلسطينية (المانية ZDPV)

XXII , 143) بيد اننا لا نبث حكماً في ما قدّمنا

الوعورة صعبة المرتقى وليس فيها شيء من الآثار الدالة على اعمال الاقدمين . ولم يكن قبل طريق العربات الخديشة طريق غيرها تصل بين طرابلس واوراسط لبنان . امّا الطريق القديمة على وادي غميق وحنوش ورأس الشقعة فلم تعد مسلوكة . والارجح ان الزلزلة التي جرت في عهد يوستنيان دمرت هذه السبيل واخربتها

٣٣ حنوش

اذا عبرت من ثمّ وادي غميق بلغت بعد زمن قليل حنوش . وحنوش هذه هي اليوم عبارة عن دير صغير للرهبان الموارنة البليدين يحدّق به بضعة بيوت لسكنى الشركاء . ولكنها سابقاً كانت قرية ذات شأن (١) كما يؤخذ من الآثار العديدة التي تراها مبعثرة في السهل المجاور لها بينها معاصر وحجارة رحيّ ورؤوس اعمدة . وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البوزنطبي تُعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ متراً و ٥٠ سنتيمتراً في عرض ١٥ متراً . والمرجح انها كانت مثلثة الاسواق وحواليها قطع اعمدة من الرخام مع صليان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها بيد ان هذه البقايا تشير الى خطر ذاك المقام الدينيّ وعظم قدره . وكذلك ترى من جهة الشرق مدافن نُقِرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن متعفن العمل قطره ٤١ س وعمقه ١٠١٥ يبلغ وزنه ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير به نقشٌ نائى ذو كتابة يونانية مطحوسة يُستدلّ من الفاظها الباقية ان فلاناً ابن فلان اصطنع هذا الجرن من ماله الخاص هبةً للمشتري (τῷ Δεῖν) وكلا العَلَمَين الواردين في هذه الكتابة سامي الصورة والاصل يُدعى احدهما انيلوس (Ἀννίλος) وهو اسم ارامي بحث والاخر نارس (Ναρσός) يشبه الاسماء اليونانية المنقولة عن العربية مما ورد في كتابات حوران . وفي تعريف اصول هذه الاعلام فائدة كبرى للوقوف على سكّان هذه الامكنة وغيرها ايضاً فانها تدلّ على ان الاهلين كانوا آراميين جنساً وان كانت اللغة اليونانية اضحت لغتهم الرسمية

(١) وقد وصفها حديثاً سيادة المطران بطرس شبلي في المجلة الكتابية (R. Biblique, 1901) 583 واتخذ على ما كتبه ريان بهذا الصدد

فان الاعلام اصدق اثر ينجي باصل القوم وذكر اجدادهم . وامثال ذلك عديدة فقبائل الفرنك . مثلاً بعد استيلائها على بلاد غالية ابدلت لهجتها الجرمانية باللغة اللاتينية . لكن كثيراً من اعلامها بقيت على مسجتها الاصالية فكذلك بها دليلاً على تشعب الفرنك من العنصر الجرمانى

وقد وجد البعض آخرًا في جوار حنوش نقودًا كثيرة من الذهب عليها كالم صورة يوستينوس الملك . وفي هذا ايضاً دليل على ان هذا المكان في سالف الدهر كان احول بالسكان منه في ايامنا . ولكن ماذا يا ترى كان اسم المحل سابقاً ؟ فنجيب ان في تعريف اسمه القديم كبحثاً مفيداً لجغرافية لبنان اعني تطبيق هذا المقام مع بلدة قديمة تدعى جيفرتا

٣٤ جيفرتا

اذا اعملنا النظر في تاريخ القدماء وجدنا في اسطرابون (ك ١٦ ف ٢) ما لم يفر بالغرض المقصود . فان غاية ما يعلمنا به هذا الكتاب ان جيفرتا حصن حريز يحتمل الايتوريون موقعه عند البحر قريباً من البترون ورأس الشقعة (Θεουπόρων). على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيفرتا تكون شمالي البترون ام جنوبيها . وهذا الالتباس يُزيله المؤرخ پلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ومن قوله يتضح ان جيفرتا شمالي البترون وجنوبي تيراريس (وهي افقة كما سترى) . وكذلك قد ورد اسم جيفرتا في قائمة قديمة للمدن الاسقفية التي موقعها على الساحل الفينيقي في اثر البترون وتدعى هناك قرية (Κώμη) (١) وهذا مما يبين ان جيفرتا كانت خاملة الذكر على ايام ملوك القسطنطينية . ولا يبعد انها اخذت في الانحطاط منذ زمن يستيان الملك بسبب الزلزال الذي اخرج الطريق القديمة واضطراً اهل السابعة ان يمرّوا في مضيق المسيلحة . وهذا ايضاً يعكس سكوت المؤرخين العرب عن جيفرتا ومما يطلعنا على خطر جيفرتا في ايام دولة الرومان كتابة لاتينية اثبتها رينان في بعثة فينيقية (ص ١٤٨) يُستدل بها على سعة حدود تلك البلدة . وقد وجدت هذه

(١) راجع Relandi Palaestina, 160. وامل كنيسة مسار يوحنا في حنوش هي الكنيسة الكاثدرائية التي اتخذها اساقفة جيفرتا

الكتابة في عبرين وقيل انها نُقلت اليها من المسيحية او من الهري فوق شكاً وعلى كل حال انما ينبغي وجودها في احد هذين المكانين بان جيغرتا المذكورة لم تكن بعيدة من راس الشقعة وعن شمال البترون لأن مثل هذه الحجارة لا تُنقل عادة الى مكان قاص.

وهذه الملاحظات اذا اعارها المتقنون بالآتحققوا ان جيغرتا ليست بُرغرتا كما ظن بعض العلماء كفورر (Fürer) (١) وهو لم يسند رأيه الى برهان آخر غير التشابه اللفظي بين الاسمين مع ان موقع زغرتا لا يوافق وصف الاقدمين لجيغرتا بعد زغرتا عن البحر في شمالي انفة ووقعها في وسط سهول خصبة لا تصلح للتحصين بخلاف ما جاء عن حصن جيغرتا المشرف على البحر. وعلاوة عن ذلك لم نسمع ان احدًا وجد في زغرتا شيئاً من العاديّات. على اننا لا ننكر كون زغرتا من القرى القديمة التي استلقت انظار الاسم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخضبة وادوية غناء يسقيها ماء نهر غير لكننا لا نرى فيها مناعة القلاع وليست هي جديدة بان يتحصن بها لصوص الايتوريين وقطاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصحّ تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعده غرزوز جنوباً عن البترون. ولا مع شكاً لوقعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع. ولا مع الهري لخالوها من الآثار القديمة وان كان وصف الاقدمين يوافقها بعض المواقفة من حيث الموقع الا انه لا يجوز ان ينسب الى قرية اصل قديم قبل ان يكتشف فيها شيء ينبغي بقدمها امّا حنوش فتصدق فيها كل الادراف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمها وكثرة آثارها واتصال السكة القديمة المنقورة في الصخر عند وادي غميق بمقامها فضلاً عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفة والبترون. وترى من خلفها صخوراً عالية مقطوعة قطعاً عمودياً تصلح قممها لتكون معلاً لقوم من الصعاليك وعشاً لاهل الغي والفتن يعيشون بها دون ان يهابوا مباغتة العدو. وقد شهدنا بالعيان وعودة هذا المكان وصعوبة مسلكه اذ ادركنا الليل ونحن فوق هذه الصخور المرتفعة تحديق بنا من كل جهة المهاوي والوهاد العميقة فاثرا ان نقضي ليلنا في العراء من ان نلقي

بانفسنا في المخاطر بمواصلة السير بين تلك الجاهل. هذا ونظن ان اهل الفساد من الجيفرتين بعد الفتح الروماني واستتاب السلام نزلوا من مأويهم الحثينة فسكنوا في السهل الممتد بين البحر والصخور حيث توجد الاخرة القديمة
أما اسم جيفرتا (باليونانية Γίγας و Γίγας و Γίγας) فنظنه سامي الأصل يوافق العبرانية גיגס والسريانية ܕܓܝܓܐ ومعنى كلاهما المضيق وشعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة ساكنيه القديمة اي الارامية وعي لغة الايتوريين الاصلية. وهذا المعنى على رايانا انسب للمقام من اشتقاق الاسم من اليونانية γίγας وهو ثقل العنب (راجع بعثة فينيقية ص ١٥٠)

٣٥ أنفة

أنفة ما وراء راس الشقعة في اخر السهل الذي بُنيت فيه شكاً وهي مركز لدرس العاديات. والقرية الحالية موقعها بقرب راس مستطيل دقيق يشبه البرزخ. وقد خُذ هذا الراس في عرضه بشبه خندقين نُقرا في الصخر قُراً عجيبة متسعاً يبلغ سطح البحر. ومن اعتبر هذين الخندقين اخذه الاندهاش من شدة عزيمه الاقدمين في مباشرة مثل هذه الاعمال الجبّارية كيف نحتوا الصخور الصماء كأن صلابتها تلين بين ايديهم او كانت لديهم ادوات قاطعة غير ادواتنا الشائعة اليوم. وبين هذين الخندقين والقرية ترى اعمالاً اخرى غريبة في شكلها على جانبي الراس الموما اليه وكلها منقورة في الصخر ويالحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية ضخمة متصلة بهما ذات حجارة كبيرة مستندة الى الصخر. وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل شهاً عظيماً في تنوّ حجارتهما والتحام هذه الحجارة بعضها ببعض بحيث لا يشك الناظر ان ثمت كان حصن منيع ويؤيد ذلك التقليد اهل أنفة الذين يدعون هذا المكان بالقلعة
وبين الخندقين المذكورين والقرية ترى في الصخور من الآثار المنحوتة المحكمة العمل ما يندر مثله في لبنان والحمّات والمدافن والاحواض ولكلها اطراف وافاريز جميلة حسنة النحت. وهناك ايضاً رحيّ ومعاصر عديدة مبهوتة في الحضيض. وللصخر طبقات منظمّة يُنزل منها الى البحر بعماء على جوانبها شبه الدرابزين. وفي مداخلها ثقب لزالج الابواب ورزاتها. وفي جانبي الحائط أغوار عديدة منحوتة في الصخر عمودياً

ومنها ما هو ممتن الهندام يصلح للسكنى. وكذلك المدافن فإن لها مساحة من القدم وهيئتها غريبة

أما بُناة القلعة فنرجح انهم الصليبيون لما بين آثارها واثار جبيل من الشبه. وقد اثبتنا سابقاً ان قلعة جبيل من ابناء الفرنج (راجع الصفحة ٦١). وفي تاريخ بروكرد ما يشير الى هذه القلعة قائلاً وصف للفرنج في انفة « قلعة كان معظم جوانبها داخلاً في البحر ولها اثنا عشر برجاً وهي شديدة الحرارة »

لكنّ الحنّاقين الفاضلين الراس عن الساحل على رأينا ليسا من اعمال الفرنج فانهما اقدم عهداً يرتقيان الى عهد الرومان ان لم نقل الفينيقيين. والفينيقيون كما لا يخفى كانوا اتخذوا في ساحل بحر الشام كل الرؤوس البارزة ليجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما جرى لهم في عكا وصيدا وبيروت وجبيل فلا نظنّ انهم استثنوا من هذا الحكم راس انفة فتكون هذه المتاريس والحنّاق ممّا حصّنوا به قلعتهم وقد رغّبهم في حفر هذه الاخاديد انهم اتخذوا منها موادّ بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة

ونرى كذلك ان بقية الآثار الموجودة في انفة ممّا نقر في الصخر اقدم عهداً من

الصليبيين

وكان اسم انفة قديماً تياريس (Τειρίς) ذكرها المؤرخون سكيلكس ويوليبيدوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية وقد ورد اسمها في لائحة الاستقفيات القديمة. أما اسمها تياريس فقليل انّه مشتق من اليونانية ومعناه « المثلثة الزوايا » لشكل راسها الشبيه بالمثلث المستطيل (١). وكذلك معنى انفة بالعربية يراد بها الراس. والشريف الادريسي يدعوها « انف الحجر » ولعلّه التبس عليه

(١) هكذا زعم البعض لكننا لم نجد في قولهم حجة قاطعة. وعلى كل حال اتنا نرى انّ هذه الاسماء اليونانية التي اتخذها اليونان أيام دولتهم للدلالة على بعض مدن ساحل فينيقية وقرى لبنان كبطوليس (عكا) وبيلوس (جبيل) وثاوبروسيون (راس الشقمة) وغير ذلك لم تبت زمناً طويلاً وانما كانت اسماء رسمية استعملها عمال الدولة فلما سقطت عادت الاسماء السامية الشائعة على لسان الشعب الذي لم تؤثر فيه لغة الدولة واصطلاحاتها الرسمية. وهذه الملاحظة العمومية تصدق في تياريس التي أهمل اسمها اليوناني وعاد اليها اسم انفة السامي

اسمها واسم قرية وجه الحجر في رأس الشقعة
وليس من غرضنا ان نلخص في هذه المقالة تاريخ أنفة في القرون المتوسطة وما
قال عنها كتبة الفرنج وجغرافيو العرب لكننا نكتفي بإثبات ما جاء عنها في معجم
البلدان قال ياقوت (١ : ٣٩٠) : « أنفة بليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون
بينهما ثمانية فراسخ » وفي قوله غلط ظاهر يريد غربي جبل صهيون او بالحري جنوبي
غربي صهيون . وقد جاء في مرصد الاطلاع بدلاً من « شرقي جبل صهيون » شرقي
جبل وهو اصح . وقد افادنا شمس الدين الدهشقي في كتاب عجائب البر والبحر
(ص ٢٠٧ و ٢٠٨ مع الحاشيتين a b) ان « للأنفة كنيسة عظيمة البناء .
وبها بيت يزعمون انه اول بيت وضع باسم مريم في الشام وان البيت الثاني المشيد بعده
لذكرها كان في انطربوس » . وهذه افادة جلية لتاريخ النصرانية في سورية . وكانت
أنفة على عهد الصليبيين من الاملاك اللاحقة بكنية طرابلس وكان الفرنج افسدوا
اسمها باللفظ فدعوها نفين (Nephin) . أما قلعتها فقد امر السلطان قلاوون بهدمها

٣٦ قلمون

اذا سرت من أنفة متوجهاً الى طرابلس بلغ بك المسير الى قرية بهجة المنظر
تدعى قلمون موقعها في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه . واسم قلمون يطلق في
الشام على عدة امكنة منها جبل قلمون المشرف على دمشق ومنها قرية قلمون
(Calamon) بجوار الكرميل وحيفا (١) وجبل قلمون في شبه جزيرة سيناء . وقد ذكر
الادريسي قلعة تدعى قلمون بين صيدا ونهر الدامور
وقلمون هذه قد دعاها القدماء قلموس (Calamos) وممن ذكرها المؤرخان
بوليبوس وبلينيوس وغيرهما وربما جعلوا اسمها مع اسم جارتها تيرابيس وان لم يكن
لها من الشأن ما كان لأنفة . وكانت قلمون في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في
الادريسي وفي رحلة الكاتب الفارسي نصري خسرو الخ

(١) راجع كتاب فلسطين لريلند (Relandi Palaestina, 230,678) وكذلك راجع
اسطرابون (Strabon, notes 916)

وفي قلمون وضواحيها عدة اثار قديمة كمقالع ومعاصر ورحي وبقايا اعمدة وغير ذلك ممّا يدل على قدمها. بيد اننا لم نجد في هذه الآثار ما يجدينّا علماً عن احوالها ومن ثمّ لا نرى داعياً لاطالة الكلام فيها

٣٧ دير البلمند

في الجبل المشرف على البحر بين انفة وقلمون على يمين السائر الى طرابلس دير شهير لا يمكن ضرب الصفح عنه. يزيد به دير البلمند للروم الارثوذكس حيث كان يدرس المترشّحون للكهنوت من البطريركية الانطاكية. قال المنار (في عدده الصادر في ٢٩ ١٤١٠ سنة ١٩٠١) : « البلمند من اعظم اديرة الشرق فخراً واضمحها بناء واطرفها موقعا وابعدها شهرة وزمن بنائه مجهول وقد ثابه ما ناب أكثر الاديرة الارثوذكسية في سوريا وفلسطين في غزوة الصليبيين »

قد صدق كاتب هذه الاسطر بقوله انه مجهل زمن بناء دير البلمند لكنه ساء ظناً بتزقيته هذا البناء الى زمن سبق عهد الصليبيين ونسبته اليهم ما هم براء منه وكان الاولى ان يشكرهم على تشييد هذا الدير اذ لولاهم لما رأى عالم الوجود ومصدّقاً لقولنا نورد هنا مختصر تاريخ دير البلمند ليقف عليه كتبة الروم

كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧. وقد تولى بناءه رهبان القديس برزس المعروفون بالسّستريين (١) وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بلّمنت (Abbatia Belimontis). وبلّمنت لفظة لاتينية منحوتة من كلمتين معناهما الجبل الجميل. وربما ورد اسمه في كتبة الصليبيين على صورة الفرنسية القديمة «Beauleu» وهي بمعنى «Beaulieu» اي المقام الجميل وهو اسم يطابق المسمى ولذلك قد اتخذ اهل طرابلس الى يومنا كصيف يقضون فيه فصل القيظ. ثم افسد القوم بلّمنت فجعلوها «بلمند». ومما يدل على اصل اشتقاقها انها وردت في كتاب مختصر تاريخ

(١) لنا على ذلك شواهد عديدة منها مناشير للاخبار الرومانيين ذكرها روريت (Roehricht) dans ZDPV, X, 35. إمّا ما كتبه الاديب جرجي افندي يفي في تاريخ سوريا (ص ٢٩١) عن مائدة هيكل كنيسة البلمند ان عهدها يرتقي الى سنة ١١١٣ م فلم تتحقق بنفسنا وكناً وددنا لو اثبت جنابه هذه الكتابة بنصّها. ولعل هذه المائدة نقلت الى البلمند من مكان قريب

لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلعوند . وعليه فلا صحة لما قاله البعض (١) ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويند صاحب طرابلس شيدّها على زعمهم كمنتهى لهُ في سنة ١٢٨٧ . ثمّ ان تاريخ بويند السابع (١٢٧٤ - ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويند قضى السنين الاخيرة من حياته في عاصمته لم يمكنه الخروج منها وكان السلطان قلاوون يضايقه فيها الى ان توفي في ١٩ تشرين الاول سنة ١٢٨٧ فما كان له اذ ذاك ندحة في تشييد القصور والمنتهات . هذا فضلاً عن انه لدينا نصوص ورد فيها اسم بلمند قبل هذا التاريخ كما سيأتي



مسكوكات بويند السابع صاحب طرابلس

وبراءات الاحبار الرومانيين في دير البلمند كثيرة (٢) نخصّ منها بالذكر براءة غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨ واينوكت الرابع سنة ١٢٥٠ واوبانوس الرابع سنة ١٢٦٢ . ويظهر من هذه المناشير ان دير البلمند كان اكبر اديرة الفرنج في كُنْتيّة طرابلس . ولما خرج الصليبيون من الشام صار هذا الدير الى يد اليعاقبة وكان عددهم كبيراً في طرابلس لهم فيها اسقف يرعاهم وفي تواريخ الفرنج اسما بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه . فمنهم الرئيس بطرس الالاماني (Pierre l'Aleman) ورفيقه « سمعان الطرابلسي » . وممن ترأس على دير البلمند احد اساقفة بيروت اللاتينيين لعله استقلّ من كرسيه فاعتزل في هذا الدير وصار رئيساً عليه . وهذا ممّا يُطلعنّا على عظم شأن المكان ولا نعلم من امر الدير شيئاً بعد تلك اليعاقبة عليه . وانما روى مكاتب المنارة بعد الصليبيين « تشبّت شمل رهبانه . وخرّب » وبقي خراباً الى سنة ١٦٠٣ وفيها

(١) راجع الدوجي في تاريخ سنة ١٢٨٧ وبمئة فينيقية لرينان (ص ١٢٨)

(٢) راجع مجلّة الجمعية الفلسطينية (ZDPV, X, 35)

جدده السيد يواكيم ابن الخوري جرجس. طاران طرابلس. ولبلعمند بعد هذا العهد اخبار طويلة لا حاجة الى استقصائها

واليوم لم يبق من هذا الدير العظيم سوى اثار لا تُذكر واذا اعتبرت ابنيته الحديثة لا ترى شيئاً من تلك المباني النخيمة التي كانت تزين هذا المحلّ وتنطق بفضل بناته الذين عارضوا الرومان والفيانيقين بآثرهم حتى ان كثيراً مما كان ينسبهُ العلماء سابقاً لتلك الالام ثبت اليوم انه من عمل الصليبيين

وقد بقي في البلعمند من ابنيته القديمة قسم من طبة السفلى منها ردهة جميلة مقببة حسنة الاثاث طولها اربعون متراً وهي اليوم مطحورة في الارض لارتفاع الحضيض بما هبط فوقه من ردم الدير القديم. اما الغاية من ابقائها هذه الحجرة فليست بظاهرة. وفي بقية انحاء الدير الحالي قناطر وقوش من طرز القرون المتوسطة وهذه الاثار مع قلعتها تنبئ باصل الدير قتيين جلياً ان الصليبيين هم الذين شيدهو ويتأيد بذلك ما نقلناه في صدد من شواهد التاريخ مع بيان اشتقاق اسمه الاعجمي من اللاتينية فتاهيك بهذه الادلة عن تعريف اصل هذا الدير واصحابه الاولين

وفي الختام يسرنا ان نبدي لجناب الفاضل غطاس افندي قندلفت مدير المدرسة عند مرورنا عواطف الشكر لا اظهره من الانس لا استقبلنا في هذا الدير. وقد اطلعنا على خزانة كتبه التي تحتوي اليوم على مطبوعات حديثة العهد وبعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر قد جمعها حضرة المدير ونظمها اثلاً تأخذها يد الضياع. وكانت هذه المكتبة قديماً حافلة بالمخطوطات ولا نشك ان في عدادها كانت تأليف عديدة سريانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوار الفرنج مصنفات سريانية قديمة غالية الثمن. وكذلك كان دير صيدنايا غنياً بذخائر الاداب السريانية قبل ان يحرقها وكلاؤه كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيات في خبر رحلته الى هذا الدير (راجع المشرق ٥٨٦: ٢). الا ان اليونان الذين قتلوا زمناً طويلاً دير البلعمند اتلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدها

فهرس

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

| الصفحة | مقيد |
|--------|--|
| ٣ | الفصل الاول قسم لبنان الواقع شمالي بيروت |
| ٦ | رسم مدخل مفارة انطلياس |
| ٦ | رسم جواد انطلياس: ١ المغارة ٢ النبع |
| ٥ | ٢ صربا وجونية |
| ٨ | ٣ نهر الكلب |
| ٩ | رسم مدخل مفارة نهر الكلب |
| ١١ | رسم داخل مفارة نهر الكلب |
| ١٣ | ٤ دير القلعة |
| ١٧ | رسم هيكل البعل في دير القلعة |
| ١٧ | رسم بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة |
| ١٧ | صور المخروطات رمز عشتاروت |
| ٢١ | ٥ آثار الرومانيين في لبنان |
| ٢٥ | قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة) |
| ٢٧ | جسر المعاملتين الروماني |
| ٣٤ | ٦ صتين |
| ٣٦ | ٧ ساحل علما |
| ٣٧ | ٨ معراب |
| ٣٧ | آثار قلعة معراب |

١٥٨ فهرس تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

| الصفحة | |
|--------|--|
| ٣٨ | ٩ غينة |
| ٣٩ | رسم آثار غينة - آثار المشتقة |
| ٣٩ | ١٠ المشتقة |
| ٤١ | ١١ الديانة الفينيقية في لبنان |
| ٤٣ | تمثال الزهرة المعبودة في لبنان |
| ٤٦ | ١٢ اليمونة |
| ٤٧ | رسم بركة اليمونة |
| ٤٩ | ١٣ افقا |
| ٥١ | ١٤ مجاري المياه في لبنان |
| ٥٣ | ١٥ قلعة فقرا |
| ٥٤ | صورة قلعة فقرا |
| ٥٧ | ١٦ الساحل بين جونبة وجبيل (برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم) |
| ٥٩ | صورة برجا |
| ٦٠ | ١٧ جُبيل |
| ٦١ | مدافن جبيل |
| ٦٦ | نواويس جبيل |
| ٦٧ | ١٨ بلاد جبيل |
| ٦٨ | بلاط |
| ٦٨ | اذة |
| ٦٩ | عمشيت = معادات |
| ٧٠ | مجديدات = جربتا |
| ٧١ | معاد |
| ٧٦ | ١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح |
| ٨١ | ٢٠ كنائس لبنان القديمة |
| ١٠٠ | ٢١ دخول النصرانية في لبنان |
| ١٠٠ | ١ لبنان واول مبشرينه |
| ١٠٤ | ٢ نزاع النصرانية والوثنية |
| ١٠٩ | ٣ في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان |

فهرس تسريخ الابصار في مايحتوي لبنان من الآثار ١٥٩

| | | |
|-----|--|--|
| ١١٢ | ٤ ترقي النصرانية في القرن الرابع | |
| ١١٤ | ٥ تنظيم الكنائس في لبنان | |
| ١١٦ | ٦ انتصار النصرانية خائياً على الوثنية في لبنان | |
| ١٢١ | ٢٢ بلاد البترون - مدينة البترون | |
| ١٢٣ | ٢٣ سَرَّ جُبَيْل | |
| ١٢٥ | ٢٤ قلعة الحصن | |
| ١٢٧ | ٢٥ دوما | |
| ١٢٨ | ٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنا مارون | |
| ١٣١ | ٢٧ جبّة بشرّي | |
| ١٣٤ | ٢٨ ارن لبنان | |
| ١٤٢ | الكورة | |
| ١٤٢ | ٢٩ دار بعشتار - بزيوا - ناس | |
| ١٤٤ | ٣٠ اميون | |
| ١٤٤ | ٣١ المَسِيحَة | |
| ١٤٥ | ٣٢ جبل رأس الشّعة | |
| ١٤٨ | ٣٣ حنوش | |
| ١٤٩ | ٣٤ جيفرتا | |
| ١٥١ | ٣٥ انفة | |
| ١٥٣ | ٣٦ قلمون | |
| ١٥٤ | ٣٧ دير البلمند | |
| ١٥٥ | مَسْكُوكَات بيومند السابع صاحب طرابلس | |

تَبَيُّنُ الْإِبْصَارِ فِي مَا يَحْتَوِي لِبْنَانُ مِنَ الْأَشْيَاءِ



القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الأمم التي سكنته



١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصينا لآثار لبنان الى تخوميه الشماليّة فرأينا ان نخطّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممّا يشمل تاريخه اجمالاً ويعمّ شؤونه من حيث تقاسيمه الجغرافيّة مع تعريف الأمم التي سكنته في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثاره في جهاتٍ الأخرى

لا جرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة ان اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على ثغور معروفة ورّجماً اتسع او انحصر معناه على اختلاف الظروف ونزعات الكتّاب. فاحسّر لثام الشبهات وازالة كل العضلات رأينا ان نبين حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق

ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيه الاربع وكلّ يعرف ان المراد به

تلك السلسلة الجبلية الممتدة بين البحر المتوسط او بحر الشام والنهرين الشهيدين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا به في عهدنا . واول ما ينبغي استفتاؤه من كتب التاريخ الاسفار المقدسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لبْنُون (٦٥٥) وهكذا عرفه ايضا الفينيقيون . اما الاسوريون فيدعونه لبناو . وما يستفاد من الكتاب الكريم ان لبْنان جبل شاهق فخم في شمالي نهر الليطاني يحد ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرر ذكر لبنان في صُحف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل . واكثر ما ورد اسمه في اوصاف الكتاب الشعرية كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارض لبنان (المشرق ٤ : ٩٣٠ - ٩٣٨) . وذكرنا بين خواصه الثلوج الغراء التي تكلل هامته (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فينبوا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبناو دون سواه

ومما جاء ذكره ايضا في الكتاب الكريم وادي البقاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١) » وهو اسم يطابق المسعى لان سهل البقاع اشبه بطريق لاجبة تنفذ بين جبلي عالين . وفي هذا الاسم ما يشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشمالية الشرقية . اما اليونان (٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوها ايضا بسورية المجوفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣) ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنياً بحدادن النحاس والمرجح

(١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٢٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ

(٢) راجع تاريخ بوليب ك ٥ ف ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ

(٣) راجع معجم الكتاب المقدس لتيكورو في المادة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Ruhl) ص ٨٢

اسم لبنان وسعة نطاقه

٥

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع على ان اصحاب الصحف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقي فاطلقوا على كليهما اسم لبنان . وهو امرٌ سهل ادراكه لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تاماً يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولهما واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسية متجانسة . ولا غروَ انها كانتا في القرون الحالية جبلاً واحداً ففصل بينهما طارئٌ جيولوجي غير هيثمه فانشفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الا نتيجة هذه القارة . ومن ثمَّ لا حرج على كتبة الاسفار المقدسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدققوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون . وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانه قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما ستري

واول من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبة اليونان فانهم قد افروا بينهما وخصوا احدهما باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban) (Antilibanus) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتبة . ومما يدلُّ على قدم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينية في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانية باسم انتيليبانوس لما رأوا أنَّ مدلوله الجبل الشرقي لا لبنان احالي وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١) . وكذلك ورد في النص اليوناني من سفر يهوديت (٧:١)

وقد تصفحنا تأليف يوسيفوس اليهودي فوجدناه متردداً في تعريف لبنان كأنه لم يطَّلِع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم فسترأه اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيه ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا به الجبل الموازي له انما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكره كثير في التوراة . وقد دوننا في بعض مقالاتنا السابقة (٢) اسماء جبل حرمون عند

(١) تثنية الاشتراع ١ : ٧ و ٣٥ : ١١ و ٢٤ : ١١ يوشع ١٤ : ٩ و ١٥ : ١

(٢) راجع الجزء الاول . ص ٢٤

قبائل سورية وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحة هذه الاسماء لئلا نخرج عن الموضوع
امّا اتساع لبنان وحدوده فانّ الكتاب المقدّس لا يذكر غير حدّه الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني . ومن ثمّ لا بدّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيّة الحدود

*

لعلّ المؤرخ بوليب (١) أوّل من سبق فيّين بضبط وتدقيق تخوم لبنان . وهو يفصله عن الجبل الشرقي فصلاً صريحاً ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي . وممّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصقلّي (٢) في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انّ لبنان يمتدّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانّ غابات الأرز تظلّل قممهُ (٣)

امّا معاصره اسطرابون فانّ في كلامه لبساً واهاماً وهالك تعريب ما كتب قال : « انّ سورية المجوّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولهما . وكلاهما يبتدئ قريباً من البحر امّا لبنان فانّ أوّلهُ عند طرابلس وجبل ثيودوروس (راس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص ١٤٠) . واما جبل انتيليانوس فبدؤه بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيّة التي تُشرف على اقليم دمشق » . وفي الفصل ذاته قد اثبت اسطرابون انّ منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي انّ اعالي لبنان كصنّان وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطّاع الطرق . وكذلك يزعم انّ هؤلاء الاوباش يملكون على البترون وجيفرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحصن الشقعة (٤)

فترى ممّا تقدّم انّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذّ عن الصواب اذا دلّ على حدود لبنان الشماليّة وهو يجعلها تقريباً

(١) في كتابه الخامس (ف ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٩)

(٢) ك ١٩ ف ٥٨

(٣) راجع الجزء الأوّل ص ١٣٧

(٤) الجزء الأوّل ص ١٤٦

عند طرابلس لأنّ جبل عكّار يُعدّ أيضاً من لبنان فيتّصل به ويمتدّ بعض اميال الى
النهر الكبير الذي يمجّز لبنان عن جبال النصيرية . غير أنّ اسطرابون وهم وهماً
جسيماً بزعمه انّ كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيدا . وهو خطأ لا صحّة له في
انثيلييانوس . وكذلك قد اخطأ بقوله انّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق
عن لبنان وقد ساء ظنّه في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من
البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان
سيف البحر

أمّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصه فقد مرّ ذكرها في محلّها
مع بيان ما صدق منها

وفي وصف پلينيوس (١) للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواه . وهو يجعل أوّل
لبنان عند صيدا ثمّ يذكر امتداده شمالاً الى مدينة سحرّة القديمة اعني وراء مصبّ
النهر الكبير بقليل حيث يتندى جبل برجيلوس وهو جبل النصيرية . وناهيك بهذه
الافادة تدقيقاً وضبطاً . وكذلك لم يند في وصفه لبنان وتمييزه له عن الجبل الشرقي
وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوّن منها العاصي

ومن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوساينوس القيسري في كتاب الأعلام
(Onomasticon) . وتبعه القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انّ لبنان سلسلة
الجبال الغربية المحاذية لبحر فينيقية اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل
انثيلييانوس اي الجبل الشرقي

فترى من ثمّ انّ القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة . وقع لبنان
وافرزوه عن الجبل الذي هو قائم في وجهه ويثنوا وجهه امتدادهما غير ان كتّبة
القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . ومأ حدا بهم الى هذا اللبس التقاسيم
السياسية التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام
تدلّ على غير ما وضعت له سابقاً

فن ذلك سوروية المجوّفة التي كانت تدلّ في اول الامر على سهل البقاع ليس

الآاصبحت اقليماً واسعاً يمتدّ شمالاً الى ما وراء انطاكية بحيث اوضحت هذه المدينة
قصة له . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر
بل صار يعني بلاداً متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر
وعلى هذا المنوال تعلّب اسم لبنان الشهير على جبل النصيرية المجاور اذ لا يفصل
بينهما الا وادي النهر الكبير . فأبطل اسم برجيلوس الذي خصّه به پلينيوس الكاتب
واعتبر كأنه لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلّبات في تقسيم الايلات ان الاقليم المعروف
بفينيقية اللبنانية لم يضمّ في دائرته لبنان العربي وأدخلت فيه تدمر مع بعدها عن
لبنان . وكفى بذلك دليلاً على ان اسم لبنان لم يؤخذ بمعناه الاصلي او انه كان ادلّ على
جبل انتليمانوس منه على لبنان لاسيا بعد ان جعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية
اللبنانية . ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انه دعا وطنه « المتوجّج
بلبنان » (Λιβανοστέφανος) ولعلّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانه لبناني الاصل
وعُدّت حمص قبل دمشق مدّة كعاصمة ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهلون يدعون
الجبال الواقعة بازائها وفي شماليها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية .
وفي تاريخ سوزومين (ك ٣ ف ١٥) ترى اسم لبنان محتصاً بالجبال المعاذية لمدينة افامية
واغرب من ذلك ان ثاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامه عن المردة اطلق اسم لبنان على
كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي وبلاد فلسطين (١) . وقد جرى بقية
المؤرخين البوزنطيين على هذا الاصطلاح تخصّص منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

*

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكهم التقاسيم الجغرافية الجارية قبل عهدهم
ولذلك ترى الكتابة السريان كابن العبري (٢) وجغرافيتي العرب يتأثرون اعقاب الروم في
وصفهم جبل لبنان فرمّا اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثلاً يقول في كتاب
معرفة الاقاليم (ص ٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيدا وطرابلس . امّا ابن

(١) راجع تاريخه في اعمال الاباء اليونان لابن (ج ١٠٨ ص ٧٢١)

(٢) راجع تاريخه المدني بالسرانية (ص ٢٨٢)

الغقيه الهمداني (ص ١١٢) فانه يزعم « ان لبنان بدمشق وانه متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية . وبوصفه هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سورية حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتبة الروم

وقال ابن جبير في رحلته (ص ٢٥٦) : « وراء العرة جبل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية وجبل لبنان حد بين المسلمين والافرنج لان وراءه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم » فترى من قوله هذا انه ادخل في لبنان بلاد الاسماعيلية الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخواني وكهف والعليقة

واياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطل على حصن يجي من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . ويتعد الى ملطية وسميساط وقايقالا الى بحر الحزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلاً واحداً تختلف اسميه باختلاف الامكنة . واختصاصه باسم لبنان يبتدىء في حلب وينتهي في حماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابه عجائب البر والبحر غير مرة اسم لبنان وكلامه في الغالب مصيب الا انه يجعل حدوده الشمالية الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اولها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامه انه يطلق اسم لبنان على الجبل الممتد بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيرية فوصفهم . وكان النصيرية وقتئذ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكار بل ايضاً البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبين الامر في مقالة آتية . ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كل بلادهم ١)

وأضبطُ العرب وصفاً للبنان الكاتب الشهيد ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناه في بلاد تجاور لبنان فيز في تقويم البلدان (ص ٦٨ و ٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفه الشمالي وهو أنثيلييانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد به حرمون وأطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستتبع من كتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتد الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضاً القلقشندي من بعده . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوه جبل اللكّام (ص ٦٨) وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشمالية بالقرب من مدينة حماة هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيتي العرب تبين ان هؤلاء الكتبة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان هموا في بعض الامور اخذوها عن كتبة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختص بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسهحان من تترّه عن كل خطأ وعيب

٢

ما تستفيد سوربة من لبنان

بعد تعريفنا للبنان وتطبيق اسمه مع قوال المؤرخين لا نرى بداً من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طوره الطبيعي على اننا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالاتنا السابقة (راجع الجزء الاول ص ٥١) واثبتنا ان لبنان بالنسبة الى سورية كائسبل بنسبته الى مصر اذ انه كحوض عظيم تتفجر منه المياه التي تسقي النواحي المجاورة اماً على هيئة الامطار واما بطريقة المجاري المائية او بتكاثف الانجرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رمة صلعاء تابعة لمغازل جزيرة العرب التي هي متصلة بها من جهتها الجنوبية الشرقية

وبما سبق لنا ايضاً في وصف لبنان اننا قابلنا بين هذا الجبل المنيّف وجبل الالب (المشرق ١ : ٧٢١) فبيننا ما خص به الله الطود السوري من المناظر الجمية والمرافق

العديدة فتري فيه الرُّبى المكَلَّة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والادوية العلية النسيم ذات الظل الظليل مع جداول متفرقة وسيول جاحفة وشلالات مزبدة ومجيرات كالمرايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعية التي زين بها الخالق تلك المشارف الزهية التي اطنب الانبياء في اوصافها وعددوا في الاسفار الكريمة معانيها والطاقها

على ان لبنان يُورث سورّية غير هذه المنافع ممّا يستلقت نظر ذوي العبرة، ولو تحوينا تعدادها لكتبنا فصلاً رائعاً جديراً بان يُنظّم في سلك فلسفة الجغرافية من شأنه ان يوسّع نطاق اهل الرويّة ويبين لهم عجائب الكون وهذه الفوائد الجبّة التي تستفيدها سورّية من لبنان على اربعة اصناف منها هيدروغرافية وجيولوجية ومنها نباتية ومنها جوية ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام.

*

١) لا حاجة الى ان نستدل في الكلام عما يجدي لبنان القطر السوري من المنافع الهيدروغرافية اذ اتنا وصفنا سابقاً ما يختص بمجاري المياه في لبنان (راجع الجزء الاول ص ٥١) وغاية ما نقوله هنا اننا لم نعال في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سورّية وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سورّية ويخصب نواحيه . وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحصص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفراً مقفراً لا يؤوي اليه سوى قوم من عرب البادية . وهو به جنة غناء يتقلب فيها الوف وربوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيع

وما قلناه عن وادي العاصي يصحّ ايضاً في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مآتيها ونضارة حدائقها وإن ذلك الأمن فضل لبنان الذي يفيض عليها مياه ينابيعه النيرة مع دسم تربته التي تنحدر من السيول وترسب في قاع الارض فتخصبها وتستثمرها

وتزيد على ذلك ان التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارعاء زاهية الزروع تمتد من طرابلس الى مصب النهر الكبير ولولا ان مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جوداً تعممه مياه البحر كما ترى في جهات أخرى . لأنه من النواميس الثابتة تمام المؤازاة والمقابلة بين السلسلة اللبنانية والشواطئ البحرية أي أن لبنان كلها امتد نحو البحر أصبح رأساً داخلاً في المياه وإذا اندحر استبطنته المياه فصارت في بطنه خليجاً . أما هذه نواحي طرابلس فإن أنهار لبنان وجبل عكار كالني علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخص النهر الكبير انحدرت اليها وملأت بالتربة التي سقطتها الجون الذي كان هناك وهو يُعرف حتى اليوم بجون عكار دلالة على اصله لكتنه في الوقت الحاضر خُبت منفسح ذو نعومة وخصب

*

٢ وليس لبنان اقل فائدة من حيث الملك النباتي . فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سرورية لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار . فأنها تجمع بين نبات الاصقاع الشمالية ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية . والنباتي اذا تفرع لبنان وجد في اعاليه اعشاب الصرود التي لا تُرى الا في شمالي اوربة وقم الالب . اما حشائش البلاد الحارة فهي نامية في سفح لبنان عند وطي مجيرة الحولة وهناك من نبات البردي الذي لا يُرى اليوم الا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينايبع النيل . والى لبنان يعود الفضل من هذا القليل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسه المحلق في العنان المعتم بالثاوج وحرارة حضيضه البارز لانوار الشمس واسعتها الحامية فيسوغ للنباتي في سوربة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجده في غيرها الا بعد مشقة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجبلية كالسنديان والارز والاشجار الصحراوية كالنخل والبردي لكنه ايضا يجدي الزارع نفعاً حيث يمكنه ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبية . كيف لا وهو يجدي في وطنه تربة ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيبة توفر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيه . فباليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتسكى من فقر بلادنا وقطعها وفيها كل ما يلزم ليعني شعباً جمة . ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا ان هذه البلاد يدر منها اللبن والعسل كما في أيام بني اسرائيل لا ينتصها لذلك الأرجال جد وإقدام ممن لا يستكفون

من العمل ولا تثنى عزائمهم المصائب . فلا يمرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نروج بغاباته وتسمي السهول الساحلية اشبه ببطانج الهند وخط الاستواء .

*

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النبات الى وصف الهواء اذن لوجدنا ان حطّ اهل سورِيَّة لأسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك ممّا لحظهُ الكاتب الشهير فولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « ان بلاد الشام تجتمع تحت سماء واحدة احوالاً جوية مختلفة وتندخ في اقطار ضيقة الارحاء مرافق لا ترى في غيرها من البلاد الا متفرقة على مسافات قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور وأما سورِيَّة فصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الا بضع ساعات فقط فان اثقلتك توقد الحرّ في صيداء او طرابلس أيام القيظ فما لك الا ان تمشي نحو ست ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواء لطيفاً كهواء شهر اذار (١) »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطننا بسببه البلاد المجاورة للشام كبلاذ الجزيرة ومصر انما اصابه القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرض الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طوله البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعه فوق سطح البحر . ولولا علو جباله لما كان فرق يُذكر بين شمالي سورِيَّة وجنوبها . فأننا نرى ان حالة الجوّ في غزّة لا تختلف كثيراً عن حالته في الاسكندرونه وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكن الفرق العظيم انما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليّة

وممّا يساعد ايضاً على تكييف الجوّ وتلطيف لهوات الحرّ هيئات تركيب لبنان المختلفة واوديته ووجهة تقاطيعه فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تغير احوال الهواء كما تؤثر في السحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصنونة من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحداراً ايّناً وهي امكنة تنهأ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيّ فرنسا برطوبة هوائها

ولا عجب ان اضحي لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلاء يتقاطرون اليه لعلاج ادوائهم كما يهرع اليه المصيفون لينجوا فيه من وقعات القيط ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيبة . أما الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنة في لطف لبنان يدفعون فيها برده القارس ويقضون فصله في مأمن من اذاه اذ يحميها لبنان من نفع الرياح وشدة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كان » وسواحل فرنسا الجنوبية التي يزدحم فيها شتاء الاوربيون والاميركيون فراراً من صبارة القور . فياليت شعري أليس خور جونية وما يحده من المزارع مقاماً شتوياً يضيء خور نابولي . ألا ترى كيف ان ريفه العجيب بارز لاشعة الشمس ولصفاء هواء البحر المنعش وهو مع ذلك في حمي من السموم والرياح الشمالية . فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية محطاً لذوي الامزجة النحيفة ومنزلاً للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوه عديدة وادي النيل وفضتيه حيث المناظر قليلة والهواء يتقلب تقلباً كبيراً فيلي النهار المتوهج الحر زمهرير الليل وصرده . أما في واطى لبنان فتري للآفاق محاسن متجددة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطب قليل الاختلاف . وهي لعصري منافع كبرى لا تخفى طويلاً على ذوي الخبرة

ولعل منتقداً يعترض علينا بقوله ان منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الانجرة المتصاعدة من البحر في جوانبه . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرن على المقامات الرطبة الهواء المنازل اليابسة

أجل ولكن لا يخالو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفه الشرقي فاذا تسنمت اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعات قليلة الى نواح جافة الهواء لا يشوب ساءها غيم ولا يقرب منها ندى البحر لتوسط لبنان بينها وبينه فان لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحلي ندي الجو لين النسيم معتدل الهواء دون حر محتدم ولا برد شديد . والآخر شرقي بري تختلف فيه الانواء وتتوالى الفصول التباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوة وصلابة . وعلى كل حال مهما افتي الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانية لم تحرم لبناننا من خواص الهوائين فيختار كل منهم مما يشاء

*

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفع آخر وهو تأثيره في بنية الجسم وغني عن البيان ان طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتباس بالاشغال ومدولة الامور والتهافت الى رشف اناء المذات كل ذلك مما يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحط بالنسل . وهذه المضرات في الاقطار الحارة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحلية اوفر منها في سواها من البلاد لزدحام الناس في البيوت الضيقة ولتراكم الاقدار في الاسواق وقلة تغيير الهواء . فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمناً قليلاً فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا ان اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدم جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدد قواهم . وكما ان هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يؤتون اهل الحضر دماً جديداً كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهوراً من سنتهم في فصل الصيف فوق رلى لبنان تجددت عزائمهم او تقوت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثقي الاركان مضطرب الحلق تتدفق منهم مناهل الحياة هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامه الطبيعي . فلا ريب انه لو فقد لتلفت ايضاً معه اكثر ارفاق بلادنا وقمرت المواطن واصبحت التربة عقيمة خاوية لا تأتي بغلاتها فكانت اشبه بغياف جرداء لا يرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويهما يسكنها قوم من صعايك البادية يتنقلون فيها لطلب كلاً الربيع ثم يحلون عنها . وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبي حران ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافعها واسماؤها

١ منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً

ذكرنا غير مرة غنى لبنان بمنتجات المياه وما يتركب على ذلك من الفوائد المدهورة فنتقول الآن ان من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئته وموقعه ففهم ان قربة من البحر لا يسمح للانهار الجارية منه ان تتسع احواضها اتساعاً كبيراً .

والأحرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولاً لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعة واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيه لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخللها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان إلا ما ينضب ماؤه في فصل القيط مباشرة من الشمال الى الجنوب (١) . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافية التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امر

١ النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢) = ٣ نهر ابراهيم = ٤ نهر الكلب = ٥ نهر بيروت = ٦ نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحلية فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لاتفعوا من هذه المياه لغاية أخرى وذلك بان يجعلوها كمحرك لادوات كهربائية يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمى البعض قوة المياه في تحريكها بالفحم الأبيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجري . ولما كان مهبط هذه المياه شديداً وكميتها وافرة لا غرو أن ينجم عنها قوة تناسب احصنة بخارية عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة . وقد بلغنا آخر ان شركة لبنانية نالت امتيازاً لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتزود القرى الساحلية حقن الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللاً فان مصيها يتسع اتساعاً كبيراً وذلك لما تأتى به المياه من الطين المجروف ولما يدفعه البحر الى الساحل من الرمل فتتكوم هذه المواد في وجه النهر بحيث لا تقوى مياهه على خرقها فتتدفق جوانبه وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حشيات ملارئة خبيثة . وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظه العلماء في البحار التي يضعف فيها المد والجزر . لكن هذا الحثل يسهل استدراكه بان يُحفر للنهر مسيل عند مصبه . وكذلك تُنصب اشجار الاوكالبتوس على ضفافه لتزول بها وخامة الهواء

(١) ان نهر العاصي يستمد اكثر مياهه من لبنان لكن مسيله خارج عنه

(٢) لا نذكر نهر الجوز قرب الترون لأن ماءه ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيّنا ان النهرين البارد و الباطي بما سَحَوَهُ من التربة من اعالي لبنان طمًا جَوْن عَكَّار و كَوْنًا سهل طرابلس المعروف بجودة مزروعاته . ولعلَّ نهر بيروت اتي بما هو اغرب فعلاً منهما

فكلُّ يعرف ان مدينة بيروت مبنية على شبه جزيرة يتصل بها البحر شمالاً وغرباً وجنوباً غريباً . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحُدُّ بها المياه من كل جهاتها (١) فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة له كَوادي غدير ووادي شويقات تأتياها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبية الشرقية بينما كانت الرياح الغربية تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متَّصلة بالبر وجرى لها ما جرى لمدينة صور لما ابنتي لها اسكندر ذو القرنين سداً عظيماً وصل بينها وبين البر فتراكمت الرمال على هذا السدِّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سورية امرٌ ظاهرٌ فترى الرمل يتقدَّم دون انقطاع . وممَّا شهد الثقة على صحته ان معدل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزّة و يافا يبلغ متراً على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتخذون قديماً ألواء الرمل سكناً لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجده الحافرون من الخُزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرمل قد نشر عليها كلها رداءً وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركته المتواصلة يتأكد بانه في مدة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاًكاً منسمة لبعض الوجاه فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدة توارت تحت كسبان الرمل . وممَّا أثبتته الشاعر نويس (٢) عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجه من بيروت ميتماً صيداء انَّها « رمليةٌ تظللها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرملية التي تتخللها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على انَّ الرمل لم يَسْطُ عليها بعد . ومن الثابت المقرّر ان العوامل الطبيعية لا تزال تدرّي هذه الرمال فتجرف مياه

(١) راجع كتاب رينر (ص ٤٣٠)

(٢) راجع كتاب شعره (Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45)

البحر وتنسفه الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قواك بعملها على مرور
الادهار لاسيما اذا اضفت الى هذه العوامل ظواهر أخر خارقة العادة كالزلازل
والاهتزازات الأرضية التي ربما رفعت بحضض الارض ومسيل الاودية - وفي سواحل
فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتيّنا عن الزلازل في المشرق
١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

ومما يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجية ان هذه
المدينة كانت في سالف الزمان مزدانة بعدة جزائر لا نرى اليوم منها أثرا . فان الشاعر
اليوناني نونس المذكور (١) اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة
الجزائر εὐνησος » وهي لعمرى شهادة حسنة اتى بها شاهد عيّن سكن بيروت روحاً
من الدهر لم يفتئ شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتيئة يرتقي عهدهما الى
القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢) . وكذلك
ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم پريمونتراري (Prémontres)
كانوا يسكنون ديراً موقعه في جزيرة على مقربة من بيروت (٣) . وفي هذه الشواهد
ما يدل على ان هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس
بيروت او عند مصب نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نص صريح ومن المرجح
انها انخسفت في الزلزال الذي ذكره المقرئ في تاريخ الممالك (٤) في تاريخ سنة ٦٦٠ هـ
(١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكّة وطرابلس غاصت في لجج البحر .
وقوله هذا يطابق الآثار التاريخية التي لم تعد تذكر فيما نعلم الجزائر المجاورة لبيروت
بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاولى وهو نهر صيدا
ثم الليطاني الذي يحد لبنان في جنوبيه وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

(١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, XVIII)

(٣) راجع المجلة ذاتها (ج ١٠ ص ٣١٠ و ج ٢١ ص ١١٦)

(٤) راجع طبعة كاترمار (Quatremère : Sultans Mamlouks, I, 1^{re} partie, p. 145)

التي يجاورها وقد اغناها بمنافع الجمة الاقتصادية . ونهر الاولي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طوله ٤٥ كيلومتراً اما الليطاني فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخللها . ومنبعه في البقاع بين الجبلين الغربي والشرقي وطول مجراه ١٥٠ كيلومتراً . وخطره عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانه ليس فقط يفتح طريقاً في خلال الجبل كما يفعل الاولي ولكن ايضاً لان هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهولة فيحاء وبطائح غناء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غرو ان تجار صور من الفينيقيين قدروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبة في الارباح البالغة أما وادي الاولي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطراً الا انه اغني منه واخصب وفي مسيره على ضفتيه مسالك وطرق تقضي الى البقاع والى عدة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلاتها كما يفعل اهل صيدا في أيامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبي جزين

ولولا الاولي والليطاني لما وجدت صور وصيدا فان بُنائهما اختاروا مصب هذين النهرين لما كانوا ينتظرونه منهما من العوائد التجارية وهو الامر الذي جعل لاهتين الحاضرتين شأنًا تجاريًا لم تبلغه بيروت وجبيل لحاوتها من نهريين يجديانها من المنافع ما احزته صيدا وصور بنهريهما

٣

اسماء انهر لبنان قديماً وحديثاً

قلنا ان اول أنهر لبنان شمالياً نهر البارد . والمظنون انه هو النهر الذي دعي قديماً بروثس (Brutus او Bruttus) وان اشتقاقه من اصل سامي

ولكننا نجعل الاسم الذي عرف به عند القدماء النهر الثاني اي ابو علي . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهيد الذي اعاره اسم ابي علي

أما نهر ابراهيم فقد مر ذكره في مقالة سابقة (راجع الجزء الاول ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختص باسمه القديم ادونيس (اي تموز) وباسمه الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائه وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)
وان تحطّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمه مشبوه به وان كان الرأي الشائع انه هو نهر ماغوراس الذي ذكره پلينيوس في تاريخه الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعله في جوار بيروت . وفي قوله هذا نظر اشرفنا اليه في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

ومتما حمل العلماء على القول بان ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان پلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الا النهر المنسوب اليها فضلاً عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أطلقت على الانهر الواقعة جنوبي بيروت وشمالها ما عدا اسم نهرها

على ان بعض العلماء شكوا في ذلك وظنوا ان مقصود پلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانه في وصفه لمدن الساحل مباشرة من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنه جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شمالها . ولأن پلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنوا انه دعا هذا النهر باسم ماغوراس
هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحة بيد اننا نفصل القول بان پلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلاً من ان يؤخره . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال ان هذا الامر جرى على يد النساخ سهواً منهم . ومن ثمّ فانّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابة تؤيد رأينا وتزيل كلّ شبهة عن نصّ پلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرّر في كتب القدماء وهم يدعونه تاميراس وقد عرفه المؤرخ پوليبوس باسم داموراس (Δαμορασ) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاولى » القديم . فان الكتابة قد دعوه بُسترينوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبياً وهو الليطاني فانّ في تعريف اسمه القديم مشكلاً عظيماً ولعلّ القدماء لم يتعرّضوا لذكره وقد شاع اليوم عند الكتبة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) الذي ورد اسمه في بعض تأليف اليونان فحُرف بالليطاني . وكُنّا نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاول ص ٩) لما فيه من شبه الحقيقة . لكن في هذا الرأي عقبات كما سترى

فلنباشر أولاً بذكر الاشياء المقررة التي لا يُختلف في صحتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حالياً الليطاني ويُدعى عند مصبه بالقاسمية . وعلى الاصح أنه عُرف بذلك لزار هناك يدعى النبي قاسم . وزعم البعض ان القاسمية مشتقة من القسَم كان النهر قاسم بين صور وصيدا او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند له والدليل على بطلانه أنه لا يُطلق عليه هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لما يلتوي عن سيره الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقعية . فلو كانت نسبته الى قسَم البلدين لصدق الاسم عن كل مجراه الجنوبي لا عن مصبه فقط . ثم ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكره خليل الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك والمقرزي في تاريخ الممالك (١)

امّا اسم الليطاني فانه قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاه شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢) . ويروى ايضاً في بعض النسخ « لنطة » بدلاً من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافي العرب غير هؤلاء . ولا عجب فان العرب قلماً كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تأليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحة من العرب ولعلهم ضربوا عنه صفحاً . وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارة صريحة حيث قال : « ويجري قرب صور نهر » بيد أنه لم يُفدنا عن اسمه شيئاً . وان استطلعت بقية المؤلفين

(١) Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, 1 partie, p. 174

(٢) راجع طبعة غلامبستر ص ١٢

كسكيلاكس وبمبونوس ميلا وپلينيوس وبطليموس لا ترى لهم كلمة عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيدا.

قلنا ان كتبة اليونان لم يذكروا الليطاني . أجل لكن بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος ποταμός) فلم لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لما نقل الى العربية . نجيب اننا لم نكن لتزد في تصويب هذا القول لولا ان بطليموس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيدا وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى . وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبه هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نسب اليها هذا النهر فهم يقولون انه كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوبوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيدا جنوبي نهر الدامور . وهو رأي اسطرابون الجغرافي . أما پلينيوس فيزعم ان موقع لاونتوبوليس بين بيروت ونهر الكلب . وفي جغرافية سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيدا . وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان أما لاونتوبوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهية لم تنوّه باسم الليطاني مع انه كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدسة (١) . فترى ممّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمه وتاريخه القديم لمن المعضلات التي استغلقت بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفك هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلنا اذا رقينا في سلم الادهار وقمنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تريد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انه قد ورد في الكتابات المصرية الهيرغليفية اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو » و « رتينو » موقعه شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيه يجري الليطاني . ثم ان الراء في اللغة المصرية من الحروف الذائق التي كثيراً ما تبدل

باللام فتكون « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلدي واحد ١٦ . ومن ثم فليس بعشيرة أن يكون اسم الليطاني إشارة لهذا القطر ومعناه « النهر الجاري في بلد لطنو » فقليل اختصاراً « ليطاني » كما نقول نهر بيروت ونهر عكاك دلالة على البلد الذي يجري فيه هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم أما اسمه اليوناني فلا سبيل الى توفيقه على ما كتبه اليونان بخصوص نهر لاوتوس . والله اعلم

٤

سكنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العلية بالسكان فان معدل اهلبيه يبلغ ٦١ نفساً في كل كيلومتر مربع . وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزه الا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل كيلومتر مربع أما ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلومتر . الا انه لا يجوز المقابلة بينهما وبين لبنان لان ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العلية وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكاناً فيزداد بعدد اهلها معدل اهل الولاية التي هي داخلة فيها . وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . أما لبنان فعباره عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانع وقرى متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصح القول انه لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكانه على سكان لبنان

على ان الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فان لبنان طالما كان قفراً مقفراً لا يأوي اليه الاكواسر الوحوش وابيان ذلك هانحن نبحت في هذا الشأن لئلا كيف احتل لبنان سكانه او لا قبل عهد النصرانية ثم ثانياً في زمن الرومان واخيراً منذ

(١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي، 1902، (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثاً حسناً في ما نحن بصددہ للدكتور شندنا نزيل كلیتنا سابقاً

دخول الموانئ فيه وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فتمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انه ممّا لا يختلف فيه اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكان ولا غرو فان وضع هذا الجبل وهيبته واحواله الطبيعية والجغرافية ممّا يمنع عن توارد السكان اليه . فان مشاركة العليا صرود لا يمكن سكناها لبردها ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضاً في بقية السنة . وهي المنطقة التي تعلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . فان القسم الذي يعلو هذا الحط يعرف بالجرود لان ارضه جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الا ضاويًا وبعد عناء ومشقة . ونزيد على ذلك ان لبنان كله لم يقيم قط بمعاش اهله لا سيما في عهدنا مع تراحم السكان فيه . وليس هذا ناجماً عن تغافل اللبنانيين وتكاسلهم لان كل الكتبة لسان واحد على همة قطان هذا الجبل وملازماتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة . وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنية يمكنهم الارتفاق بمراققتها تعويضاً عما ينقصهم من الغلات . وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يعباؤها لان الطرق التجارية لا تخترقه فتغنيه قوافل المتاجرين . بل الاخرى ان يقال ان جباله كسد قائم في وجه الامم الواقعة على عطفيه فتري بينهما فرقاً كبيراً من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان . واذا استقرت التاريخ وجدت سياسة شعوبها متباينة يعيش كل شعب على حدة معتزلاً عن الآخر مع كونهم ياتمون كلهم الى عنصر واحد

وممّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جباله سوى مسالك حرجة وشعاب ضيقة لا تقطع الا بالجهد الجهيد . اما السبل التجارية اللاحقة التي كانت القوافل تسلكها فانها كانت تمر شمالي لبنان وجنوبيه فنمط في وادي النهر الكبير او تجاري سير نهر الليطاني والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم اما الثانية فكانت مجلبة لثروة صور العظمى . وبعبس ذلك لم تُصب بيروت مقاماً كبيراً في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخلية سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ ثم أنشئت

السكّة الحديدية. فانتصر الانسان بكّد جبينه على ما اقامته الطبيعة في وجهه من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفّحنا أقدم ما سطره المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل بغابات كثيفة ثريّة . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسرار المقدّسة واقدام الآثار الاشوريّة . وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مرارًا في مطاوي كلامنا عن الارز (ج ١ ص ١٣٤) وفي مقابلتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١ [١٨٩٨] : ٧٢١) . ومن عجيب الامور انّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتّة شيئاً من قرى لبنان وانما يعدّون فقط المدن الفينيقيّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انّ بعض المستشرقين استشفوا من وراء اسم « أميا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » ألا انّ الامر ليس بمقرّر فضلاً عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيّب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنيّة في اساطير المؤرخين انما جاء في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمان قليل بعد ان فتح بُمبيوس بلاد الشام ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للصوص تدعى جيفرتا وسنان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر . ومما يستدلّ من ميجرد ذكر هذه الحصون انّ سكنى الجبل كانت محفوفة بالخطار لا يتوطّنه الا قليل من السكّان . وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قوم من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبني

أما الكتابات القديمة فهي عزيزة جداً في لبنان وكلّ ما وُجد منها لا يتجاوز قدامه اوائل التاريخ للمسيحيّ وقد اكتُشف معظمها قريباً من الساحل ليس بعيداً من جبيل ويبروت وهذا دليل واضح على قلّة سكّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضاً على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخرة القديمة في لبنان فانك قلّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلها من عهد الرومان اللهمّ الا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها
ومع كلّ هذه الشواهد اننا نرجّح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآلهة

كان موقعها في وسط الجبل اتخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١) . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للخطّابين كانوا يعدّون فيها الحشّب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنه كان الفيلقيون يعمرون سفنهم واساطيلهم (٢) . ولعلّ بعض القري التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشّراي ابتدأت على هذه الصورة فكانت أوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيره من الاشجار الجبلية العظمى . وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانية وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدل على ان تلك القرية سبقت عهد النصرانية . أمّا بشّراي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبه دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القري التي نرجح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقي . ولا غرو فان موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقرها وُجدت صفيحتان فيها كتابات اشورية قديمة تشير اليها قريباً ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كناسك دينية منها اليمونة وفقرا ودير القلعة ومشقة . فان هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايام الرومان فان اصلها فينيقي محض لا محالة وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معدّاً للسكن . فان الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلاً قريباً من المدن الساحلية وفوق ربّي لا يتجاوز علوّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثمّ اخذ لبنان يُجرّد من احراج الكثيفة الدغلة لتجارة الاهلين بنحشها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجسّسوه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم وغوا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سورية من المنافع الجمة

(١) وممّا زرع فيها الجفنة فان هوشع النبي ذكر في كتابه (١٤: ٨) نحر لبنان واطراه

(٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الاول في هذا المخصوص

(راجع الجزء الاول ص ٢٠) فان تملكهم رفع بها الى اعلى مقامات العمران والتقدم . فهم الذين قضاوا اجنحة الفتن ومسدوا اروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصنوا في لبنان فذكروا معاقلمهم واعادوا الأمن الى السكّان (ج ١ ص ١٤٦) .

فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحلية محطاً للقوافل ومركزاً للمعاملات لاسيما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها . ومما زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من التقني لجلب مياه لبنان من عيونها فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مدن الساحل . ومنها ايضاً السكك الرومانية التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضه سائرةً الى جنوب العقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩: ٣١٤٤]) . ولما كان لبنان لم يزل بعدُ مزداناً بغاباتٍ سمى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوءة حكمة اشرفنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأينا لبنان في أيام الدولة الرومانية تغيرت احواله وترقت شؤونه والى ذلك العهد تنتمي عدة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياح او بالاحرى مزارع ودساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات انها لا تحتوي علماً لمكان واقع في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمنه اعلام شخصية فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقية الصغرى بهياكل فنيضة يتولأها عدد غفير من السدنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارن تلك الامكنة لسكنائهم فأنشئت عدة قرى حول هذه المقامات الدينية . وكان لهذه الهياكل اذواقها وغاباتها المقدسة واوقافها وكرومها . ومعلوم انه لا بُدحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلاحين يستثمرونها (١) . فلا غرو ان ضيعاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخص منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يجيئ الى هيكليها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعية وادوات

(١) راجع قاموس الماديات اليونانية والرومانية لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحي الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢: ١٠٧]) والشواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلفين بغرس الكروم فبعثوا همة الاهلين على فلاحتها فما عتمت صنوف الحجر اللبنانية ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالحدود البيرونية (راجع پلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلة الزراعة انك ترى بين السيونة وبعبك كتابات عديدة تحذ الاملاك وتفوز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينية ومنها يونانية يُستفاد منها تعدد السكان وتوفر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محل بمفرده فلترجع . ولدينا غيرها ايضا سنثبتها ان شاء الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنطف الشرقي من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعبك وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيها وجديتسا . ومما يجدر بنا ذكره ان كل هذه الكتابات والعاديات لا تتجاوز القسم المتوسط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يُتخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكالمة كما في القرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانية ففتحت ظهورها باباً جديداً للتمدن والحضارة في لبنان . فان المستعمرات الرهبانية التي ذكرناها سابقاً (ج ١ ص ١٠٩) اتخذت لبنان منزلاً لاعمالها النسكية وقد اختارت لذلك اقمر مسا وجدته من الاودية فصار الناسك يُجِيلون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز اضياع عديدة كما جرى في اوربة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اول امرها ديورة للرهبان اوى اليها القوم فصارت مع قادي الايام بلاداً واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا اي اندهال وهو قلّة الآثار النصرانية في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبته الى النصارى بلا ريب مع كثرة العاديات الوثنية الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانية واللاتينية قسماً صالحاً وهي كلها لعبدة الاصنام اللهم الا خمس اوست منها باليونانية . فيا ليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلاً على ما لاقتنه النصرانية في سبلها من العراقيل لما حاولت ان تشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي ناله الدين النصراني في لبنان انما كان على يد قوم من الاراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانية النصرانية الا النذر القليل

فان تحطينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد بظهور المردة والموارنة الذين لعبوا دوراً مهماً في طوارئه المختلفة . وكان قبلهم لم يفلح منه الا ساحله ووسطه بعد تجردها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منه فانه لم يزل قفراً خالياً من السكان حتى اوى اليه الموارنة فاضحي معمروراً حافلاً بالطين كبقية نواحي لبنان . وسنبين ان شاء الله قريباً كيف تركبت الامة المارونية الا اننا نقدم على هذا البحث فصلاً آخر في شعوب لبنان القديمة وسكانه الاولين

٥ الامم البائدة في لبنان

ان بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديته شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلفوا لهم ذكراً كبنى كنعان والفينيقيين والاراميين فاحتلوا ربوعه وتوالوا في سكناه فصارت سلالتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكان لبنان الحاليين . وليس في خاطرن ان ندون هنا اساطير هذه الامم فان ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عما تحريته من الخطأ في الكتابة وانما نبحت فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهتئنا ذكرهم ممن قهقروا على لبنان فاستوطنوه كله او قسماً منه ردحاً من الزمان ثم درسوا اما بالمهاجرة الى غيره من الاقطار حراً بما يفتوح الفتاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرأونا علماً باختلاط القبائل والامم الشتي التي يتركب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا نتبع آثار شعب فشعب على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثيون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدسة . فان ابراهيم الخليل عقد معهم عهداً ذكره سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ - ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حث (تك ٣٦ : ٢) ومن نسلهم كان اورياً الحثي زوج بقشابع احد قواد جيوش داود . هذا الى اشارات أخرى عديدة يلمح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليه الحثيون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتياح في صحتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انه ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحة ما ورد في كتبه المتراة وهالك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديات منذ اوائل القرن التاسع عشر ان في مدينة حماة صفايح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفية المصرية وهي تختلف عنها . ولم يتسن لآحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلما تفرغوا لدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل مأخذ اذ تحقّقوا ان الكتابات المذكورة للحثيين وان هي الا الآثار الاولى التي تنبئ عن دولتهم العظمى التي أمسى ذكرها (١) . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الأمة و يبحثون عن دلائل أخرى توقعهم على اسرارهم فما كذبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدّة آثار ازال كل الشبهة فوجدوا العاديات الحثية متعددة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفة الفرات وفي جهات أخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديات اما كتابات منفردة واما كتابات مع بقايا ابنية فخيمة او قناثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك مما أطلع اصحاب النقد على تمدن واسع قائم بذاته . فذ ذلك الحين دخل الحثيون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشك في وجودهم

ثم واصل العلماء بجائهم فاطقوا رائد النظر في الكتابات المصرية القديمة والكتابات

(١) راجع كتاب العلامة ريت W. Wright : *The Empire of the Hittites*
ثم الكتاب *The City and the Land*

الاشورية اعلمهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول . فما كذب ظنهم بل اطلعوا على افادات عديدة تبينوا منها اموراً لا تخصي بخصوص الحثيين ودواتهم . ولخضرة الاب دي كارا اليسوعي فيهم مقالات مهمة نشرها تباعاً في مجلة الآباء اليسوعيين الايطالية التمدن الكاثوليكي . احزت له ذكرًا مستفيضاً بين المستشرقين . ومع كل ما كتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسيبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظ احداً من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثية التي لا تزال مجهولة . ولا نظن احداً يقوى على قراءتها حتى يجد كتابة بلغتين حثية وغيرها تكون كمفتاح لها كما جرى لشمبوليون عند ما فك اسرار اللغة المصرية بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان ياترى هؤلاء الحثيون ما اصلهم ما فصلهم ؟ نجيب ان الحثيين ليسوا من اهل الشام وانما قدموا الى سورية من جهات الشمال . امّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١) . ومما ثبت من امرهم انهم كانوا تولوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سورية بين نهري عفرين والفرات . ثم تقدموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الحليل وبنوه من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سورية مدينة قدس التي يظن العلماء ان موقعها كان في المحل المعروف اليوم باسم تل نبي مند عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢) ولا يزيد هنا ان نبسط الكلام في الحثيين ولما غايتنا ان نذكر ما كان لهم من العلائق مع لبنان

(١) راجع ما كتبه في هذا الشأن العلامة مسيبرو في تاريخه القديم (٢ : ٢٥٣) ثم دي لنتشير (De Lantsheere) في كتابه عن اصل الحثيين وانتم ثم جنس في كتابه من الحثيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنية
(٢) راجع مقالتي المعنونة Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 46



صورة احد غزاة الحثيين (عن اثر قديم)

وان سألت هل احتلّ الحثيون هذا الجبل ؟ أجبنا انه ليس لدينا اثر صريح
يضيء بهذا الامر ولا غرو لا نه كما قلنا سابقاً لا نعلم الا اللز القليل من تاريخهم واتساع
دولتهم . ونرجح كونهم ضبطوا على الاقل جهات لبنان الشماليّة ولعمري كيف يقبل
العقل ان امة قويّة رجالها مغاوير حروب اتخذت لها عاصمة مدينة قدس لم تمدّ ظلّ
سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما الا قاب قوسين اعني سهلاً ضيقاً فقط . ولو
اقترضا ان لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفة هل اهمل الحثيون امره
وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارز الفاخر ويستخدموه لمبانيهم الكبرى
وعماثرهم (١)

(١) راجع مقالتنا في ارز لبنان (ج ١ . ص ١٣٤)

وعلاوة على ما تقدّم لا يمكننا ان نسلّم بان الحثّيين تغاضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيرية وهم يعلمون ان هذا الوادي طريق الامم الفاتحة . وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ ان ديمسبس الثاني لما اتى لمقاتلة الحثّيين سار الى محاربتهم ماراً بهذه الطريق

فلا بُدّ اذن من القول ان الحثّيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضاً عطف لبنان الشرقي والمسالك التي تنضي الى لبنان الغربي . ومما يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائية لا يمكن استيطانها فلزم اذا الحثّيين ان يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدة امكنة في سورية تُدعى « حثّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء ان هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثّيين في بلاد الشام لأن « حثّا » او « حثّا » هو اسم الحثّيين نفسة . فان صدق هذا القول ولعلّ فيه شيئاً من الصحة أفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حثّا » او « كفرحاتا » انها آثار باقية من زمن الحثّيين . بيد ان هذا القول ليس بقاطع لانه يُمكن اشتقاق « حثّا » من لفظة سريانية « سبّا » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك ان قرى لبنانية عديدة تدعى ايضاً « حثّ » و « مُصَيّدة » ونعدّ « حثّا » اقرب الى السريانية من سواها . ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشأن اثبت في المجلّة الكتابية (Revue

Biblque, 1901, p. 587)

ومن الاسماء اللبنانية الكثيرة الورود اسم « شعور » او « شاغور » كهين شاغور في حمّانا وغيرها . وكذلك « جسر الشجر » او « جسر الشعور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن ان شاغور كلمة حثّية الاصل وهي فيها « ساغورة » (١)

هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الا ان امكننا وطيد ان الاكتشافات المستقبلية سوف تطأنا على ما هو اقوى منها حجة وادلّ بياناً والله على كل شيء عليم

(١) راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلّة Mittheil, d. Vorderasiat. Gesell.,

٢ اليونان

انتقض جبل الحثيين في الشام (ولبنان معها) بتغلب الفراغة على سورية . ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيون وخلف الفرس الاشوريين . وكل هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يُعد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين . وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكان للأسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليه لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتراحم السكان وحرارة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمّا كانت اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذلك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان أوّل ما تطالّ اليه عنقه البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها مجنودوه بعد ان غلب اعداءه في سهول قيسية قريباً من مدينة ايسوس فما مرّ عليه بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت له دمشق ولم يقيم في وجهه الا صور فحاصرها مدّة الى ان اخذها عنوةً في تموز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوههم . فسار الاسكندر بقسم من عسكره الى لبنان فلم يلق في وجهه عدواً ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقي فعاد بعد عشرة ايام غانماً ظافراً وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثم سار الى

اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م فصارت سورية من بعده الى احد قواده سلوقس نيقاطور فتحملكها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايام الرومان

وهنا مبحث مهمّ لم نكن لتعرض له لولا ان بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيدوا زعمهم الباطل

ودونك القضية المطلوب يانها هل يا تُرى لمّا استوى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليوناني العنصر الفينيقي او الآرامي بحيث يصح القول ان اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نحيب على هذا القول بالاجمال أننا بيّنا غير مرة انّ العنصر المتغلب على سوريّة في عهد اليونان كان العنصر الآرامي لا اليوناني (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) . فان صدق ذلك عن سوريّة عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلأنّ آراميّة سكّانه في ايام الدولة اليونانيّة اوضح من النهار

وكأنّي بالمعارض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمه مقنعين اولهما اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانيّة في لبنان

نحيب على الاعتراض الاول أننا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لانكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانيّة بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آراميّ محض مع بعض اسماء عربيّة احدث عهداً . وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشفة التي فُتدت اسماءها الآراميّة لا نعرف لها اسماً يونانيّاً . وما لا مرأى به انّ المدن الساحليّة التي صحّف اليونان اسماءها الآراميّة عادت بعد حين الى اسمائها الاصيليّة

امّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانيّة التي وُجدت في لبنان فانه يظهر لاوّل وهلة اقوى حجةً وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناه بعميار الانتقاد وجدناه واهناً كالاقتراض السابق ولا يثبت البتّة زعم المحتجّ

لا ننكر وجود الكتابات اليونانيّة في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثير منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلّات الاوربيّة . لكن مجرد وجود الكتابات اليونانيّة في محلّ ما لا يدلّ على كون اهل هذا المكان من اليونان . نرى اليوم في لبنان عدّة كتابات تركيّة او فرنسيّة على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الخطوط انّ اهل لبنان من العنصر التركي او الفرنسي ؟ وكذلك في لبنان عاديّات وكتابات لاتينيّة كثيرة من عهد الرومان فمن يا تُرى زعم لاجل ذلك انّ اهل لبنان كانوا رومانيين . وغاية ما يُستدلّ من الامر ان الرومان ملكوا لبنان او انّ بعض أسرات منهم احتلّت بعض انحاء الجبل لتزويج النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين . فكذلك الكتابات اليونانيّة انما تدلّ على انّ اللغة الرسميّة كانت في ذلك العهد لغة اليونان وانّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولقّتهم كما يتفرّج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسيّة ولا يكتبون الاّ بها

فدليل الكتابات وحده لا يجدي إذا نفعا ابيان عنصرامة ما اللهم ألا بان
يضاف الى ادلة أخرى تاريخية وضعية تزيل الشبهات . وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا
وهو نلدكه الشهير (١) قال : « انه لا يجوز الاستناد على مجرد وجود كتابات في
احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا » .
مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يلقَ فيها حتى الآن كتابة فينيقية أفسوخ ان نقول
أنها لم تكن فينيقية ؟ كلاً . وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهله كانوا يونان او رومان
لوجود كتابات قديمة فيه من عهد هاتين الدولتين

وعلاوة على ما تقدم أننا نرى الكتابات اليونانية المكتشفة في لبنان مشحونة
بالاغلاط مشوهة بالتصحيفات غير تأمة المعاني وكل ذلك دليل على أن الساسخ والحقارين
كانوا يرسومون الالفاظ رسماً مادياً وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

وان قال قائل أن اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانية اجنبا مع
اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلامة الشهير مومسن (Mommsen) في تاريخه (٢) :
« ان أغلب هذه الاسماء ليست يونانية او ان كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقي
او السامي الذي كان يُعرف به الشخص » . وفي هذا القول بيثة واضحة على أن
اليونانية لم تكن سوى مسحة ظاهرة وزى خارجي تزيا به اهل لبنان حباً بالجاه وتشبهاً
ببتأدي ذلك العصر

ولعلّ المعارض يزيد على ما سبق اعتراضاً ثالثاً بقوله : « ان قيام معبودات اليونان
مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلب اليونان » . اجبنا ان هذا البرهان والحق على
طرفي نقيض . فانه لا يوجد بلد حافظ اهلته على معبوداته القديمة مثل لبنان والشام
فان الدين الآرامي والفينيقي صبر على كل التقلبات السياسية الى ان غلبتها النصرانية .
وكل ما يمكننا ان نسلّم به من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقية برزت على
صورة يونانية في لفظها . وكذلك اطلق الكتبة اليونان واصحاب الامر على هذه

(١) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ١٨٨٥، p. 333 ZDMG,

(٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453



تمثال المشتري (بعل) الملبكي في دير القلعة

الالهة اسما غريبة فدعوا هذا
 « جوبتير » وذاك « ابولون »
 اما الاهلون فحافظوا على
 اسما آلهتهم بكل حرص حتى
 ان المؤرخ مُنسين السالف
 ذكره بين في تاريخه (ج ٢ ص
 ٤٥٢) ان اهل سورية لم
 يختلطوا باليونان الا اختلاطاً
 سطحياً واثبت ذلك بانهم
 حافظوا على اديانهم الخصوصية
 في حلب واقاميه وحمص
 وتدمر . وكذا قل عن دير
 القلعة حيث شاعت عبادة بعل
 مرقد . وهذا البعل كان
 مشهوراً وقد ورد اسمه في
 الكتابات اللاتينية على لفظ
 « جوبتير » لا لكونه الها
 رومانياً بل مراعاة للدولة
 واستجلاً لحاظ اليونان
 والرومان واستنداراً لعطاياهم
 اذ كانوا يحجون اليه . ولعل
 سدنة بعل مرقد سموه ايضاً
 بهذا الاسم دلالة على
 امانتهم للسلطة الرومانية
 واعتصامهم بجبلها . ولذلك

ترى بعل بعلبك وبعل دير القلعة ملقَّبَيْن في الكتابات بالقاب جوبتير رومية العظمى المعروف « بجوبتير كايتولان » فيُدعيان مثله بالاله الصالح الاعظم (Jupiter optimus maximus) وكذلك ترى إلهة سامية ملقَّبة باسم إلهة الرومان « جونون الملكة (١) » (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جوبتير بعلبك الذي اكتشفه حضرة الاب رتزال في دير القلعة لتري كم يختلف الإله الفينيقي عن الإله الروماني في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

واذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقية مستترة برداء الإلهة الزهرة اليونانية وان كانت كل واحدة مختلفة عن الاخرى . وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

ومما قلناه عن العنصر الآرامي في لبنان يصح أيضاً عن لغتهم الدارجة فأنها كانت الآرامية . وهو رأي المؤرخ الشهير مُنسن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظن ان اللغة الآرامية كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قيصرية رومية » . وان نسب احد هذا الكاتب الى الغلو والمبالغة ورأى انه بخس حقوق اليونانية في الشام تصدى له احد ائمة العلماء المبرزين وهو نلدك الالماني الذي ليس فقط يوافق وطنيته مُنسن بل وجد انه مقصر في حقوق الآرامية وقد اتى مصداقاً لقوله بجحجج تثبت شيوع الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢)

ثم ولوسلمنا بان اللغة اليونانية طمست في لبنان آثار اللغة الآرامية فلا ينتج من ذلك ان اصل اللبنانيين يوناني . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وإنما ذلك دليل يقتضي تأييده بدلائل أخرى تجلي الحقيقة وتوضحها . فان التاريخ يني بوجود امم عديدة تكلمت بلغة غير لغتها الاصلية . فان اللاتينية مثلاً درجت بين شعوب شتى لم يكن بينها ادنى علاقة . وقس عليها العربية وغيرها

وخلاصة القول ان العنصر اليوناني كان دائماً في لبنان عنصراً زهيداً لا يُعبأ به . ونستطيع التاري عذراً على اننا اطلنا القول في هذه القضية التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العاديات

٣ الايطوريون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) ان الرومان لما فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عثشوا في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطوريون

وليس هؤلاء القوم من لبنان ولما اصلهم من اللجأ ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتخذوا خيراتهم كطعمة ثم تشرفوا الى لبنان فاستولوا عليه قبل زمن الدولة الرومانية بقليل

والايطوريون احدى القبائل العربية او الارامية (١) التي كانت منذ ذلك العهد مدت سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبي دمشق وشرقيها . وكان شيخ القبيلة اوانشدر يدعى بطلميوس ابن منايوس من اعظم اهل سورية ثروة وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصلي (٢) ويتولى الجبل الشرقي وجهات البقاع الشمالية مع مدينتي بعلبك وكنيسيس (Chalcis) وكان له عسكر من الفرسان يبلغ عدده ٨٠٠٠ فارس

ولما زحف پمپيوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي (٣) في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منايوس يدعى ديونيسيوس . فاضطر الرومان لتوطيد دعائم سلطتهم ان يجاروا هؤلاء الدخلاء حرباً عواناً كانت نتيجةها وبألا على اهل ايطورية فاسر پمپيوس قائدهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسه ثم توغل في لبنان فاخرب حصون جيفرتا وسنان وبوروما (٤) وكان غزاة الايطوريين يقيمون من هذه المقامات المنيعه على المدن الساحلية فيوسعون اهلها نهباً وقتلاً . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبين مواقع هذه الحصون فلترجع

(١) كل الاعلام الايطورية الاصل الواردة في الكتابات القديمة اما عربية وآما آرامية . راجع مجموع الكتابات اللاتينية (CIL, III, n° 4371 etc.) راجع ايضاً تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدس (Vigouroux : Dict. de la Bible, art. Iturée) (٢) ايطورية الاصلية توافق بلاد اللجأ وجيدور الحالية . وقد ورد ذكر ايطورية في انجيل لوقا (١ : ٣) (٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل (٤) ان صح قولنا عن وقوع سنان وبوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المعاملة ايضاً

وقد حارب بيبسوس مدينة كلسيس الايطورية فدمرها . وكلسيس على الرأي
الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اُخرُبُها في سهل البقاع . امّا قول البعض أنّها هي
زحلة فلا نصيب له من الصحة كما سنبيّنه في كلامنا عن هذه البلدة
وخلاصة القول أنّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من
لبنان الشمالي . ولما انتصر الرومان عليهم وفتحوا معاقلمهم تملّص ظلهم وباد ذكرهم
من التاريخ ولا ريب أنّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان
ومما يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانية من
الأعلام العربية لاسيّما في رأس الشقعة وانحاء جليل
وليس الايطوريون القليلة العربية الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان . بل
نجد قبائل غيرها توطّنت ذلك الجبل لاسيّما التتوخيين (١) . وهذا الامر مهم لمعرفة
عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالإشارة اليه فقط

٢ الرومانيون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانية قهرت الايطوريين في لبنان
وكسرت شوكتهم . ولساننا ان يسألنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ اليس
وجود الكتابات اللاتينية المتعددة في هذا الجبل دليلاً على سكنائهم فيه ؟ نقول إنّ
جوابنا عن توطّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانية
وحدها لا تدلّ على أنّ اليونان استخاروا لبنان لسكنائهم . فكذا قلّ عن الرومان فان
الكتابات اللاتينية تشير الى تملّكهم على الجبل وتدلّ على أنّ اللغة اللاتينية اُضحت
اللغة الرسمية في بلاد الشام في القرن الأوّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين له
هذا ولا ننكر أنّ بعض الرومان وخصوصاً اصحاب مستعمرتي بيروت وبلبيك
الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملة املاك الايطوريين لكنّ
الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانما كانوا يهدون امرها الى

(١) جاء في كتاب البلدان للياقوتيّ أنّ لبنان المجاور لصيدا كان يسكنه قوم من
قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلّة الألمانية الفلسطينية ٨٧، IV، ZDPV)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم . وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انهم كانوا نفرًا قليلًا . ومن ثمة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانية القديمة

• المردة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لأول مرة قومًا يجمّلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكّام شمالاً الى حدود فلسطين جنوباً وهم يدعونهم مردائيّين ويعرفهم المحدثون باسم المردة . ومن غريب امر هذا الشعب انه لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفاً ضئيلاً بل نراه جاثماً فوق مشارف لبنان ضابطاً مضائقه شاغلاً كل نقطة الحصينة على مدى طوله من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجهه بل كثيراً ما ينقض من مراكزه الخريزة فيغزو المعاملات القريبة منه دون ان يرد احد هجماته . ولم يزل امر هؤلاء المردة في اشتداد حتى صار كل اللهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم ويلوذون بحمايتهم ويزيدونهم عدداً وقوة . ولا غرو انهم لو ثبتوا مدّة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا ان ملوك الروم الذين كان المردة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيه ببضع سنين فاندثر امرهم على فور كما ظهوروا بغتة دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مروهم (١)

فمن ذا نرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأة دون ان يذكر احد وجوده في بلاد الشام ولبنان سابقاً ؟ ألّقى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حلّ عقدها . ونمّا يدلّ على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتى نذكرها هنا دون ان نبدي فيها رأياً تاركين لقراءتنا ان يصوّبوا الرأي الذي يرونه اصحّ وثابت ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتّبة الأولين الذين ذكروا المردة مباشرة لأن اقوالهم من شأنها ان تعرّف هذه الطائفة وتبين خواصها

(١) زعم ريسان في كتاب بعثة فينيقية ان قلعة سمر جبيل من آثار المردة في لبنان وهو قول بلا دليل عودنا على مثله هذا الكاتب الذي يتخذ مخيلته حجة لمزاعمه . وقد بينّا غير مرة انه كثيراً ما يربي الكلام على هواه ولا يسنده الى الادلة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المردة ان لبنان لم يكن مركزهم الاول. قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١) : « ان المردة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن مجيئهم الى لبنان من محل آخر . ثم اردف تاوفانوس قائلاً : « والتجأ اليهم الوطنيون » وفي هذا دليل على ان المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غربا . عنه . اما عددهم فكان وافرأ يبلغ « اثني عشر الف رجل » . شك السلاح دون النساء والاطفال . وما يدل على بطشهم انهم في مدة اقل من نصف قرن ملأوا القلوب رعباً بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المردة دعوهم بلفظة عسكرية وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انهم لم يكونوا شعباً كبقية الشعوب بل كانوا على هيئة عسكرية ونظام حربي يفلحون الارض وقت السلم وهم على أهبة لمباشرة الحرب في أية ساعة كانت . ولنا مثل على هذا التنظيم في أمة الكرواتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبها . وكان للرومان ايضاً فئات عسكرية من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفتات الحدودية (limitanei) اعني انهم يذبون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء . وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة . وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجند المحنكين في آداب الحروب ثم وكلوا ذلك بعدئذ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (٢)

وان سألت عن الدولة التي كان المردة يخدمونها اجبتك انهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدموا اليهم بالمداخلة عن الثغور الشامية وهم الذين صرفوهم عنها واتزلوهم في نواحي آسية الصغرى كما سيأتي فهذه الافادات عن المردة لا ريب يقر بصحتها كل المحدثين لانها وردت في

(١) راجع تاريخه في مجموع الآباء اليونان المجلد ١٠٨ (PG. T. 108, p. 722, 733, 737) والترجمة اللاتينية هنا لا تؤذي المعنى تماماً فقد ترجم « aggressi sunt » اي « هجموا » بدلاً من « ingressi sunt » اي « دخلوا » (٢) راجع معجم العاديات اليونانية والرومانية Saglio et Darenberg : Dict. des antiquités grecques et latines, I, 1374

تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم
 ولكن هنا مسألة أخرى لا يتفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسيّتهم .
 فقد ارتأى بعض الانثّة ومنهم العلامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن غرون والدويهي
 ومن تبعهم من علماء المواردة وبعض الكتبة الاوريين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما انّ
 المردة هم المواردة . واقوى حججهم ابيان ذلك انّ المردة كانوا قومًا من النصارى
 يسكنون لبنان ولا تعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانيّة ويسكن لبنان غير
 المواردة . وان اعترض معترض على اصحاب هذا الرأي بقوله انّ المردة كانوا فرقةً جنديةً
 موفدة من ملوك القسطنطينيّة الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة
 طائفة من الجند لحجروا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فانّ المؤرخين
 يدّكرون انّهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقده يستميان الثاني وانهم لم يكتفوا
 عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصابةً تصرفهم من
 لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (١) . فهذا الاحتجاج لا
 يخلو من القوة وهو يبيّن ما في هذا البحث من المضلات
 امّا اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المردة والمواردة ويسندون رأيهم الى
 كون المردة ليسوا وطنيين كالمواردة بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج كما سبق القول
 ثم استولوا عليه فحصّوه في وجه العدو مدّة الى ان برحوه بعد زمن قليل
 ومثلاً يدعم به هؤلاء رأيهم في اختلاف المردة عن المواردة ان المردة كانوا خاضعين
 لملوك الروم . قال ابن العبري في تاريخه السرياني (ص ١١٥) : « ان المردة جنود
 للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » . وكل هذا لا يوافق
 المواردة الذين خلّعوا عنهم ربة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرفهم مع
 ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني انّ كلام تالوفانوس وقديريوس (Cedrenus)
 وغيرهما ممّا ينفي عن المردة اصلهم اللبناني . والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان
 يقطنون بلاد الارمن وولايات آسيّة الصغرى واليهما رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وقد
 (١) راجع ردود المثلث الرحمت المطران يوسف الدبس على الاب الصعودي قاله (ص ٤)
 ورسالته اليه في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩١٤)

كتب أحد علماء الفرنج اسمه انكيتيل دويارون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطولتين في مجلة الكتابات والفنون ليثبت ان المردة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممر الاجيال ومنهم مردة لبنان ومن ثم ليسوا بالموارنة (١)

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسية المردة . اجابك بعضهم أنهم اصلاً قبيلة ايرانية دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريّة وارمنية (٢) والاب مرتين في كتابه المخطوط « تاريخ لبنان » يقول ان المردة من العرب وهو يشتق اسمهم من « التمرد ». وهذا رأي ضعيف لان المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرجح رأي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثم لم يُفدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع . وان قال القائل ان هولا كانوا من نصارى غسان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الغسانيين لم يخدموا واثنر ملوك القسطنطينية خدمة تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكل ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين . وعلاوة على ذلك ان الغسانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المردة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المردة من قبيلة عربية أخرى لان العرب كانوا في ذلك العهد من أعداء الروم فليس المردة اذن عرباً هذا ومن المقرر الثابت ان ظهور الموارنة كأمة مستقلة قد اتفق مع عهد حروب المردة في لبنان . وان لم يسلم القراء بان الموارنة هم المردة فأنه لا سبيل الى النكران بأنه وجدت بين الفئتين علاقات ودية . ومما يتضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر ان الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم

أما المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . ونرى منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلّ غيرهم بلاد اليونان

(١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes* Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 et seq.
(٢) راجع تاريخ دولة الروم 213 p. Rambaud : *L'Empire Grec au X^e Siècle*

ومودة ونواحيها . ولم يزلوا في كل هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضباط يدعونهم كاتيبانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المردة ومن استراد امكنه ان يراجع ما كتبه عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ ص ١٠٦) للعلامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسمعاني في المكتبة الشرقية ومجلة اصدااء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνική βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراحة

قد رأى القراء ما في مسألة المردة من المضلات التي لم يحلها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على ان هذا المطلب يقودنا الى بحث آخر له معه بعض العلاقة نعي بذلك امّة الجراحة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكة صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجح ان هذه الدولة أنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) خلقتها في ولاية قسم من بلادها في زمن لا يمكن تعريفه بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتد الى تلك الجهات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراحة وارد في الكتابات الاشورية التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلبات التي طرأت عليه . ولا نجد بعد الآثار البابلية ذكراً للجراحة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ - ١٦٣) في مطاري كلامه من فتح العرب لبلاد الشام : « ان الجراحة من مدينة على جبل اللكّام عند معدن الزاج فيما بين بيّاس وبوقا (١) يقال لها الجرجومة * فيظهر من هذا القول ان الجراحة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليه كتابات الاشوريين قبل خمسة عشر قرناً الا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكّام (ألاً داغ) بين مدينة بيّاس الساحلية ونهر قراؤسو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

(١) لم نجد في كتب البلدان الجغرافي العرب ما يعرفنا بموقع بوقا ، الا كوخا من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذري تاريخ الجراجمة على مألوف عاداته في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فتوى في كلامه بعض الابهام لانه يروي في حقهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكبد ذهنه في ثبات صحتها او التوفيق بينها . الا ان الذي يترى في كلامه ويقابل بين هذه الروايات الشئ يأخذه الاندهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمردة من التشابه . فان ما ذكره المؤرخون اليونان عن قدوم المردة من شمالي سورية الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواه البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الاموي عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذري قوله بقوله : « وضوت اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباقي من عبيد المسلمين » . وهو كلام ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المردة كان المؤرخين اليوناني والعربي سندا قولهما الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ تاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الاموي وملك الروم . وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البلاذري (ص ٢٦٠) أن « تفرقت الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم اللكّام » وهي ايضا رواية شبيهة برواية تاوفان عن تفرق المردة ورجوعهم الى وطنهم . اما مدينة جرجومة فخربت بعد ذلك بزمان قليل

وبما روى ايضا البلاذري (ص ١٦١) في تاريخ سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) ان « الوليد بن عبد الملك وجه الى الجراجمة مسلمة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان يزلوا بحيث احبوا من الشام وعلى ان لا يكرهوا على ترك النصرانية ولا يؤخذ منهم جزية . . . اما بطريقهم فنزل في جماعة معه انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم » . وجاء في فتوح البلدان ايضا ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم (١) وما ذلك الا لان موقع بلادهم كان في جبال ومضايق تجري فيها صوائف العرب عند نفوذهم في بلاد الروم . وكل هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذري لا نكاد نجد لها اثرا في كتبة العرب اللهم الا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادة « جرجومة »

وهو ينقل هناك شيئاً مما اثبتهُ البلاذري . ويظهر من كلام ياقوت ان الجراحة في زمانهِ كانوا امتزجوا بغيرهم من الملل وان جرجومة عاصمتهم لم تزل خراباً . وفي تاريخ حمزة الاصفهاني (ص ٣٩) ورد ذكر « من بالشام وفلسطين من الجرامة (١) والجراحة » ولا بُدَّ ان يسألنا القارئ هنا عن رأينا في الجراحة أيكونون من المردة او يتنازون عنهم . (قلنا) انَّ ما يوجد من الاتفاق بين احوال المردة وامور الجراحة من حيث موقع بلاد الفريقين وبساتنها في الحروب وتواريخها يحملنا على ان نطابق بينهما . ولا غرو فانَّ اعظم المستشرقين في المانية وهو العلامة نُلدِك (Noeldeke) يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المردة باسم الجراحة وانَّ كليهما امة واحدة (٢) ونحن ايضا نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي في ما كتب بهذا الصدد وان كنا نجد في اقوال البلاذري بعض الاشكال الا انَّ ذلك من الامور العرضية دون الاصلية

فان صحَّ هذا القول نتجت عنه نتائج في امر المردة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين بل قدموا اليها من شمالي سورية اذ انَّ الجراحة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللُكَّام الذي يختلف عن لبنان . ومما ثبت انَّ هؤلاء الجراحة لم يكونوا آراميين اي من اهل سورية الاصليين انَّ البلاذري يذكر في جملة من انضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدلُّ به كتبة العرب على العنصر الآرامي (٣) . وكذلك اذا فحصنا عن الامر على حسب قوانين علم الجغرافية وعلم اصول الشعوب وجدنا انَّ الجراحة ينتمون الى آسية الصغرى ولذلك زاهم يرحلون بعدئذ الى بلاد الروم ويسكنون قيلية قرب موطنهم

(١) الجرامة قوم من انباط او آراميين العراق وقد ارتأى نُلدِك الالماني الشهير ان كتبة العرب لم يفرقوا بين الجراحة والجرامة والصواب انَّ الجرامة غير الجراحة . وعندنا ان فرقة من الجرامة استوطنوا الشام كما يظهر من تاريخ حمزة (ص ٣٥ و ٣٩) وياقوت (١ : ٢٦) وكلاهما يذكر « جرامة الشام » ولعلَّ « جبلي جرمق » في جنوبي لبنان وبلاد بشارة نُسبا اليهم

(٢) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1875, p. 85 . وقال نُلدِك في ذيل تلك الصفحة « ان العلماء لم يثبتوا حتى الان وحدة المردة والموارنة »

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1871 p. 124-125

منها . وفي فتوح البلدان للبلاذري أنهم احتلوا جبل الحوَّار وهو من اعمال قبايقية كما نَبّه إليه ياقوت في المادة

ومما يستفاد ايضاً من كلام البلاذري امرٌ آخر ذو بال وهو ان قسماً من الجراجمة كانوا ضربوا اطنابهم في لبنان قال في اثناء كلامه عن الجراجمة (ص ١٦٢) : « خرج مجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبدالله بن العباس من قتل مقاتلتهم واقر من بقي منهم على دينهم وردّهم الى تراهم واجلى قوماً من اهل لبنان » . وهذا دليل واضح ان قوماً من الجراجمة كانوا قبل هذا العهد في لبنان وليس هذا حدساً على سبيل التخمين بل امرٌ راهن يثبتهُ المؤلف نفسه في كلامه عن ميسون الرومي المعروف بالجرجماني الذي كان موثقاً لبني امّ الحكم اخت معاوية ابن ابي سفيان قال (ص ١٦٠ و ١٦١) : « وانما نُسب الى الجراجمة لاختلاطهم بهم وخروجه مجبل لبنان معهم » . فكان اذن في لبنان قومٌ من الجراجمة وهذا ما اردنا بيانه

فترى من بحثنا هذا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في ان المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقل بينهم علاقات متينة . وكذا قل عن الجراجمة ولذلك افردنا لهم فصلاً ونظمناهم في سلك الامم التي سكنت لبنان . وسنبين قريباً ان هذه الامم كلها امتزجت بعد قليل امتزاج الماء بالراح

٧ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحد بن ابي يعقوب اليعقوبي (١) ان الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدينتها الساحلية فارغة من السكان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً . وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا . بل خصص بذلك ايضاً بعلبك وعرة في بلاد عكار . فصارت كل النواحي المحيطة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايلات القريبة من المدن المذكورة كما يصرح اليعقوبي بهذا الامر

فقول اليعقوبي السابق ذكره يضطرنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقيت منها فيه بعض بقايا امتزجت باهلها . وشهادة اليعقوبي المذكور لم نجد

لها ما يؤيدها في سائر التواريخ واصاف البلدان (١) ألا انها تستحق الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تأليفه احداثاً قريبة من زمانه وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبي أننا نجد في لبنان قوماً من الشيعة كالمثالة والنصيريين توطّنوا الجبل وبسطوا عليه سطوتهم وخلقوا فيه آثاراً تنبئ بصحة ما سطره المؤرخ الموما اليه . ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يُعرف بها العجم وقد وردت ايضاً في القرن العاشر شهادة اخرى تؤكد قول اليعقوبي وهي في كتاب رحلة احد الاعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابه العلامة شمل شيفر الشهير. ومما قاله صاحب هذا الكتاب (ص ١٠٠) ان « اهل طرابلس كلهم من الشيعة » وكذا قال من صور ولا نشك انه يريد ابناء هؤلاء الاعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكرون العجم وعندنا ان امرهم ضعف بعدئذ لا حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثاني عشر فانتفض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيرية والمثالة الذين ظهروا بعدئذ.

٦

انتشار الأمة المارونية في لبنان

للأمة المارونية في لبنان مقام ممتاز لتوفر عددها فيه ولا بينها وبين هذا الجبل من العلاقات التاريخية المتواصلة حتى جاز لها ان تعتبر لبنان كوطنها الخاص. ومن ثم لا يسمنا ان نصرف عنها النظر في غضون تسريح ابصارنا في آثار لبنان وليس كلامنا في الأمة المارونية تاريخياً اذ لم نتوخ في مقالاتنا تاريخ الجبل بل آثاره ولا سيما ان تاريخ هذه الطائفة قد شاع اليوم فلا حاجة الى اعادة ما يعرفه القراء (٢) وعليه فنقتصر في هذا الباب على ما يختص بنشوء الطائفة وانتشارها في لبنان

(١) الآ ابن رُسته والبلاذري

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوجي الذي نشره الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني

فُنعت بهذه الدروس الخاصّة الموادّ لتاريخ اعمّ واكمل . وفي الفصول السابقة توطئة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين جعلوا قبل الموارنة سكناهم في لبنان . ومنهم من خاف فيه شعباً من عنصره كالمردة والجراجمة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي نخضعه الآن بالبحث

وكان الموارنة في ذلك العهد عبارة عن مجموع زمر آرامية لم يسسها العنصر اليوناني وقدنه تقيم خصوصاً على مقربة من أرامية في جهات دير مار مارون ومنه اتخذوا اسمهم . ومن ثمّ انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرة النعمان وفي شيزر وحماة وحمص كما يظهر من نصّ للمسعودي ورد في كتابه المعنون بالتلييه والاشراف ألعنا اليه غير مرة وإذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبري في تاريخه الكنسي السرياني (١) وابن بطريق (٢) وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات أخرى اقرب الى الشمال كمنبج وقنسرين والناحية المعروفة بالعوام . ومن المحتمل ايضاً انهم كانوا في انطاكية وجوارها لان انطاكية تُعدّ كحاضرة هذه الناحية وفيها تدخل مدينة قورس المتكرّر ذكرها في ترجمة القديس مارون لتاودوريطس اسقف هذه المدينة (٣) . وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهادتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعيّة لا تُنكر . ونحن أوّل من يرضى بمثل هذه الشهادات المؤيّد بالبرهان وان سأل سائل هل يُعرف عدد هذه العشائر المارونيّة المستعمرة في سورّيّة الشماليّة وسوريّة الوسطى . اجبتا انه ليس في وسعنا ان نعيّن ذلك بالتدقيق لكنّه يؤخذ من نبذة سريانيّة تاريخيّة اوردها المشرق في سنته الثانيّة (ص ٢٦٧) نقلاً عن المجلّة الاسيويّة الالمانية (ZDMG, 1875) انّ هذا اللفّ كان ذا عدد وافر اذ حضر بصفة

(١) الجزء الاول منه (ص ٢٧٠ - ٢٧٤)

(٢) راجع تاريخه في مجموع الآباء اليونان (ج ١١١ ص ١٠٧٧ و ١٠٧٨) ومنه في مكتبنا الشرقية نسخة خطيّة قديمة ويزعم ابن بطريق انه دخل بين الموارنة قوم من الروم لعاء يريد الآراميين المتجنسين بالجنسية اليونانية كما كان منهم كثير في سورّيّة . وان صحّ قوله كان له شأن لتقرير العناصر السورّيّة وغيرها

(٣) راجع كتاب البلدان لابن رسته (ص ١٠٧) وفنوح البلدان للبلاذري وكتاب التنييه للمسعودي وغيرهم من كتبة العرب . وقد تبناهم في كتابة اسم قورس بالسين بدلاً من قورش بالشين وفقاً للفظ الآرامي

فرقة دينية امام الخليفة معاوية فجرى بينها وبين اليعاقبة جدال كانت فيه الدولة على اليعاقبة . وكان اصحاب هذه البدعة جبلاً كبيراً في ذلك العهد فلولا ان الموارنة كانوا على نوع ما يعادلونهم عدداً لما حكمهم لهم الخليفة على اخصامهم .
وكان دخول الموارنة الى لبنان على رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي . وكأني هنا بالقاري يتعرض لي فيقول : مالك تذكر مهاجرة الموارنة الى لبنان أليس أصبح ان يقال ان سكان لبنان الاصليين هم الموارنة . فالجواب على ان مبادي تاريخ الموارنة الديني تشير صريحاً الى كون هذه الطائفة كانت اولاً خارجاً عن لبنان . ومن المعلوم انها تنسب الى القديس مارون وقد عاش القديس مارون في شمالي سورية في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورس ثم تراها مواصلة سيرها في وادي العاصي في زمن لم نسمع لها بذكر في لبنان . ثم بعد ذلك بمدة نجد الموارنة يتوغلون في هذا الجبل مهاجرين اليه من الشمال ونواحي سورية المتوسطة . فلا بُدّ اذن من التسليم بتنشّل الامة . وفي تاريخ تاوفانوس كما في فتوحات البلاذري اشارة الى هذه المهاجرة كما سنبين آنفاً

ولكن ترى ماذا حمل الموارنة الى مبارحة وادي العاصي واستبدال مقاماتهم فيه ليسكنوا لبنان نجيب ان الرأي عندنا انهم عدلوا الى لبنان تمّصاً من اضطهادات مجاورهم تخصّ منهم بالذکر اليعاقبة اعداءهم . وكان اليعاقبة في ذلك الوقت اصحاب بطش وسطوة لهم في افامية ونواحيها الكعب الاعلى . وكان لهم قريباً من افامية دير عظيم على اسم ماري بأسوس (١) بلغ عدد رهبانه ٦٣٠٠ . ولما كان الفريقان على طرفي نقیض قُضي على الموارنة المهاجرة

وقد بينّا ما كان بين الأمتين من العداوة . ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهداً ورد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (المجلد الاول ص ٢٧٠-٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات (٢) . فانتزع الاولون من ايدي

(١) راجع مقالة الاب شابو في مار باسوس L'abbé Chabot: La légende de Mar

Bassus et de son couvent à Apamée, p. 55, 60, 63.

(٢) ان في هذه المناظرات بين الموارنة واليعاقبة دليلاً واضحاً على بطلان مزاعم بعض الكتبة الذين نسبوا للموارنة افضال يعقوب البرادعي في طبعي المسيح

اليعاقة كئاسهم برضى ملوك القسطنطينية فحاول اليعاقبة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا بالمرغوب . ولا غرو ان اليعاقبة كانوا يتربصون الفرصة ليزاحموا الموارنة شيئاً فشيئاً ويضطروهم الى ان يخرجوا من اماكنهم فطلب الموارنة لهم ملاجئ حريضة يحصلون فيها على الدعة والسكينة . ولعلّ خواب دير مار مارون حدث في ذلك العهد وكان بعض اليعاقبة سبباً لحرابه

بيد ان هذه المهاجرة لم تكن دفعة واحدة وانما حدثت في ازمئة متوالية فكان المهاجرون ينتقلون الى لبنان زرافات زرافات . وفي عهد المسعودي اي في القرن العاشر نجد منهم بقايا في وادي العاصي خارجاً عن لبنان . اما دخولهم في هذا الجبل فكان في وقت المردة والجراجمة وفيهم يصح خصوصاً قول تاوفانس « ان كثيرين من اهل البلاد احتما في ذراهم (اي المردة) » وقول البلاذري في فتوح البلدان (١) « ان جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط والعبيد الاثاق ضووا الى الروم » اراد بذلك الموارنة فدعاهم باسم الانباط دلالة على اصلهم الآرامي

وكان دخول الموارنة الى لبنان من الشمال اعني انهم تبطنوا وادي الأرنط فاجتازوا اقامية وحماة وحمص الى ان قرّ قرارهم في الجبل . فسكنوا أولاً جهات الشمالية ثم تقدّموا الى اواسطه ثم بلغوا جنوبه . هذا ما يمكن استخلاصه من النصوص التاريخية التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان

وقد بينّا في مقالتنا عن سكنى لبنان في قديم الزمان (راجع الصفحة ٢٣) ان مشارف الجبل والجهات المعروفة بالجرد بقيت الى القرن السابع قليلة السكّان كثيرة الغابات . أمّا « الوسيط » فكانت مأهولة وان كان اهلها اقل عدداً من الارياف والسواحل . فلا مرأ ان الموارنة سكنوا اعالي لبنان خلوتها من السكّان . واحتلوا أولاً اودية الجبّة اعني مقاطعات اهدن وبشري وحدث ولعلهم لقوا هناك بعض الدساكر التي كانت سبقت عهدهم على الاصح كقرية اهدن وقرية بشري (٢) وعندنا

(١) راجع الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب

(٢) راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٢٧ وهناك بينّا ما يختصّ باهدن وبشري . أمّا الحديث فمن اقدم قري لبنان ورد اسمها في ترهة المشتاق للادريسي وتكرّر ذكرها في اخبار اصول الطائفة المارونية

انّ الموارنة تزلوا ايضاً في بعض اماكن من منحدر الجبل قريباً من البترون عند دير كفرحيّ القديم (١٠١) . ولعلّ مدينة البترون نفسها اصبحت من أوّل مساكن الموارنة كلّها او على الأقلّ قسم منها

فيكون اذن أوّل مركز احتلّه الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الجبّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الامة المارونية كما اشرنا اليه غير مرّة

ومن الحوادث التاريخية الاولى التي جرت بعد سكّنى الموارنة في لبنان ما ذكرناه في مقاتلنا عن الجراحة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الامام الشهيد محمّد الاوزاعي متّناً دافعوا عنهم وانتصروا لهم . قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمّد بن سعد عن الواقديّ قال : خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن عليّ بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلتهم واقراً من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان . فحدثني القاسم بن سلام انّ محمّد بن سعد حدثه ان الاوزاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة خُفيظ منها وقد كان من اجلّاء اهل الذمّة من جبل لبنان متّناً لم يكن ممالاً لمن خرج على خروجه : « متّناً قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة حتى يُخرّجوا من ديارهم واموالهم . . . »

ولمّا كثّر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلّوا بلاد جبيل ومثلاً يشهد على سكناهم في معاملتي جبيل والبترون منذ ذلك العهد عدّة كنائس سبق لنا وصفها في مقاتلنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع الجزء ١٠ ص ٧٩) وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اهل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسط . غير انّ عددهم لم يكن متوقفاً . وكان اكثرهم نصاريّ يتكلّمون باللغة الآرامية و يقيمون فيها طقوسهم الدينيّة . وعندنا انّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المردة والجراحة الذين تخفّوا في لبنان . وكانت مهاجرة سكّان وادي الأرنت الى لبنان لا تزال متراصة متتابعة لمزاحمة العاقبة واضطهادهم للموارنة

وكان الملكيون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل كفرشليان وحدتون (١) وبقسميا (٢) ودوما والقرى المجاورة (٣) وكفور (٤) وغرزوز وغيرها . وكان الملكية في لبنان يتبعون أنثى في فرائضهم الدينية طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضها بعد ذلك البطريك ثاودوروس بلسمون (٥) واستبدلها بليتورجية القسطنطينية . وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيون عن بقية الآراميين في اصلهم ولغتهم . وما لا ريب فيه ان الكتابات اليونانية لنصارى لبنان قليلة جداً لا يُعرف منها الا كتابتان او ثلاث كتابات . أما الكتابات التي تُرى على بعض الصور في سيده نايا بكفرشليان مخطوطة باليونانية فليست هي للوطنيين وإنما كتبها مصورون بوزنطيون او مثلهما الوطنيون كما وجدوها في امثلة بوزنطية قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقاً الملكيون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة إما لأن الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيون . وإما لأن الملكيين هاجروها فانتمتوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجهلها

وغلاصة الامر أننا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الامة المارونية ما نجده في تأليف جميع الامم التي تتكبد أصولها من عناصر شتى . وكذلك الامة المارونية اذا اعتبرتها في اواخر القرون الوسطى رأيتها تتألف من اصول مختلفة اولها واعظمها شأناً الموارنة المهاجرون الى لبنان من سورية الشمالية وسورية الوسطى ضوى اليهم قوم من الأتاق والطرءاء الذين لاذوا بحمى المردة والجرافة الباقين في لبنان فضلاً عما كان هنالك من القطين الاصليين . فهذه العناصر كلها تمازجت بعد حين وصارت أمة كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر معها دققوا في البحث ان يفرزوا جنسياتها الاصلية

(١) راجع في الجزء ١ . ص ٨٦ و ٨٧ مقالنا عن هذين المحليين

(٢) تاريخ الدويحي (ص ٢٠٧)

(٣) منها كفرخلدا وقد وجدت فيها آثار ابنة للملكيين

(٤) راجع كتاب خرائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيات (ص

١١٩ إلخ) والمشرق (٥ : ١٠٤ و ١٠٦)

(٥) راجع المشرق (٣ : ٢٧٢)

فاذا حفظنا غوّ الامة المارونية كما تقدّم واعتبرنا انّ عدد المواليد يفوق كثيراً عندهم الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكره غلياحوس الصوري في تاريخ الصليبيين حيث احصى الموارنة اربعين الفا . وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما روي في تواريخ الاعصار المتوسطة عن الموارنة انهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبّة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالباً مع بعض شذوذ كما ستري قريباً عند ذكرنا لقوم من غير المسيحيين سكنوا في ايلات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

وبما ورد ايضاً في التواريخ الصليبية ذكر مقدّم ماروني يدهى سمعان تولى عينتاب في شمالي سورية ١١ ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممّن تخلّفوا في بلاد العواصم . أمّا كونه من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب ونجد قبل هذا العهد قوماً من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجّم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص ٢١٩ و ٢٢٠): « كان رئيس منجمي المهدي . . . وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب تاريخ حسن (٢) ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايلون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة . » وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبغداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكولد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروي ان لها مطراناً يدبرها (٣) . ولعلّ قيساً الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكره المشرق (٣): ٢١٥ و ٣٥٦ ز ٤٥١) كان من تلك الجماعة . وعلى كل لا نرى احداً من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على انّ في تاريخ الامة المارونية اموراً عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل انّ الكتبة سكتوا عن هذا المطران كما سكتوا عن غيره لانّ الاساقفة المارونيين كانوا مدّة الاجيال السالفة

(١) راجع تاريخ مملكة اورشليم - Roehricht: *Geschichte des Koenigreichs Jerusa-*
lem p. 220, note 6. وجدت منه بعض مقاطع مختصرة في تاريخ المنجيّ
الذي نشره الاب ل. شيخو (ص ٢٦٩)

(٣) راجع Quatremère : *Mémoire sur les Nabatéens*, p. 149

كنوَاب للبطرك ومعاونيه دون لزوم كرسي خاص . وانما جُعِلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرني نهوض وترقي في لبنان ، وفي ذلك العهد بُنيت كنائس عديدة على طرز خاص تزيينها الكتابات السريانية وفيها من نقوش الفسيفساء والتصوير المائنة ما سبق وصفه (١) . وفي هذه الابنية دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمتهم . لم يزل يشمو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسم منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيما القدس الشريف وكان لهم فيه عدة كنائس (٢) . وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودس . اما قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر ونزى لهم في هذه الجزيرة دياراً (٣) في تاريخ سنة ١١٢٠ . وقد غموا غموا عظيماً حتى انهم كانوا يسكنون منها ثلاثين ضيعة (٤) وكان يرعاهم مطران من طائفتهم . وكان بعضهم في مدن قبرس الكبرى وخصوصاً الماغوصة (٥) وكانت في ذلك العهد واسعة التجارة . اما دخول الموارنة في رودس فنظمت انه جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسبيتالار (Les Hospitaliers) لما احتلوا تلك الجزيرة فتبهم الموارنة . وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودس الى جزيرة مالطة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن . واهل وجود الموارنة في مالطة مما ساعد على حفظ العربية ونشرها في تلك الجزيرة . ومن المعلوم ان اهل مالطة يتكلمون باللغة العربية مشوبة بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبية

اما حلب فيظهر من نص لتوما الكفرطاي ورد في المشرق (١١٨:٦) ان الموارنة

(١) راجع في الجزء الاول مقالاتنا عن كنائس لبنان القديمة

(٢) المشرق ١ : ٩٣

(٣) راجع سملحة بطارقة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٢٢ الحاشية الاولى)

(٤) راجع تاريخ قبرس ١٦، ١٩، f. L. Machéras: *Chronique de Chypre*, trad.

(٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٢٦ انه وجد الموارنة في

هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم . ولا نفهم ما يعني بذلك ألعلة يريد ان الموارنة كانوا يستعملون اليونانية في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

كانوا فيها منذ زمن قديم لكن أخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مدد جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية) ولنعودن الآن الى الموارنة المستوطنين لبنيان فانهم كانوا في غو واذا ينادون شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة . قال الدويهي : « وبسبب ما اشتهر به لبنيان اوانتذر من الامن والطمانينة قصده الناس من الاماكن البعيدة (١) » لسكنى النواحي التي يهجرونها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسط ومع هذا النمو لا نرى الامة المارونية تتقدم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . أما لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورودس كما سبق وأما لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي الموارنة ما وراء نهر ابراهيم وهذا لا بد من تكرار ما قلناه غير مرة في مقالاتنا (٢) ان كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر . وقد اوردنا نصاً للدريسي ذكر فيه وجود اليعاقبة في جونبة (المشرق ١٠١٨ : ١) . وان سأل القارى ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد . اجبنا ان معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتأولة او من النصيريين . وكان النصيريون قاطنين ايضاً في بعض نواحي لبنيان الشمالية كجبهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة (٣) ولكن عددهم الاوفر انما كان في كسروان . وقد ذكر صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت (٤) الغزوات التي باشرها نواب الشام في أيام السلاطين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمد بن قلاوون فحاربوا النصيرية في جبال كسروان ولم يزالوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقل في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم . هذا وان اموراً كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا الا اننا نعلم بلا ريب ان النصارى لم يحتلوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

(١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)

(٢) راجع المشرق (١ : ٥٦)

(٣) ولنا في النصيرية مقالة افرنسية جمعنا فيها كل ما يختص بانكار النصيريين واحوالهم وسماها باسم « النصيرية في لبنان » ونشرناها في مجلة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢

(٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤ - ٥١)

ولمّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان . وكان انتشارهم فيه سريعاً حتى صارت هذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم . وامتدّ من ثمّ الموارنة الى مقاطعتي المتن والشوف . لكنّنا نقف عند هذا الحدّ لأنّنا ندخل في اخبار قريبة من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطر تاريخ لبنان بل ان نبين بوجه الاجمال كيف انتشرت الامة المارونيّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الان من شأننا وقد مرّ منها كثير في ابحاثنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

لمكالم لا يبحثن عن ملش الطائفة المارونيّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خلّف اسمه للطائفة الموما اليها . غير أنّنا لا نتجاوز الحيز الجغرافي الذي رسمناه فتتكلّم من ثمّ على حياته لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيّما وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنه حتى الآن فبقيت فيه مشاكل كثيرة لا بُدّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها توادوريطوس اسقف قورس (١) وهي تركة جليّة القدر يكفي انتسابها الى هذا المورخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهمية ولولا ايجازها المفرط لما وجدنا فيها مساعاً للانتقاد ونأخذ عليه انه اهمل الوجه الجغرافي اهمالاً تاماً حتى اننا لانج في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انه دون ما

(١) راجع تأليفه المعنون « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء اليونان مج ٨٢ واليه نشير في هذه المقالة

دون لحمل معاصريه على سلوك طريق الفضيلة بإيراد سير الرهّاد والقديسين فلم يخطر له في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض أنّها معروفة عند جميعهم وبناءً عليه نأسف كل الاسف على عدم التفاتة الى هذا الشأن الذي لو اراد الكتابة فيه لكان وفاء حقه من البيان بغاية الضبط والدقة . وهب انه لم تكن له معرفة شخصية بالقديس مارون فقد كانت له صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١) اشهر تلاميذه الذي اطلعه على كل ما يتعلّق بمن يصفه هذا المؤرخ اليوناني تارةً بمارون الكبير وتارةً بمارون « الالهي » (٢) . وكأنّ توادوريطس خشي في كلامه على الابطال المسيحيين الكثيرون العدد من تكرار اخبار الخوارق والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة القديس مارون بنوع أنّ من يطالعها تتبادر الى ذهنه في الحال مسائل كثيرة لا يجد لها حلاً وهي : أين ولد القديس مارون وأين عاش وأين دفن وأين هو الدير الذي تسمّى باسمه . فالتأمماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسرد في الصفحات التابعة كل ما تيسّر لنا جمعه من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحية التي تعطّرت باريح هذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياته متوسمين بوصف البلاد التي صرف فيها أيامه لان ذلك اعون على فهم ترجمته

١

في القسم الشمالي الشرقي من سورّية كانت تمتدّ في ذلك الزمان القديم مقاطعة كوماجينة وهي ناحية منسّعة الاطراف يحدها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق نهر الفرات ومن الغرب قيليقية . وأمّا من الجنوب فيصعب تحديدها ويجوز لنا رسمها بخطّ غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منبج) حتى يتصل بجبل امانوس (الما داغ) ماراً تحت مدينة حلب وشمالاً بحيرة العمق بالقرب من انطاكية هذا هو اعظم اتساع ادركته كوماجينة عندما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة « القورسيّة » (٣) التي دُعيت بهذا الاسم نسبةً الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

(١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلامذة القديس مارون

(٢) Θεσπέσιος

(٣) وفقاً لبعض قدماء المؤرخين

هذه المقاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بُعيد هذا مقدار امتدادها (١) لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبار القديس مارون وحتى يكون للقارى تصور صائب بهذه المقاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتي معمورة العزيز وحلب غير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انه كان يشمل بالتقريب كل متصرفية مرعش ويدخل فيه من متصرفية حلب المركزية اقصية عينتاب وكأس والباب وحارم وجبل سمعان ومنبج . أما من متصرفية اورفة فما كان يحتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءاً من قضائي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه المقاطعة من بادى الامر قبائل الحثيين ومنها امتدوا بعد ذلك الى بقية سورية . يدل على ذلك ما عثر عليه الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هذا الشعب الذي لم يُعرف من اخباره حتى الآن شي كثير (٢) . على ان القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين أسسوا هناك كثيراً من الممالك أخصها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانية مشيدة في موقع تل أرفاد شمالي حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السلوقيين من جهة مقاطعات الملك الذي اسسوه غير انها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها . وبعد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم وأنما ذلك لم يدُم الا سنوات قليلة لانها في السنة الثامنة والثلاثين ردت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكره وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثانية والسبعين ضمت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانية وكانت سبيساط حاضرة لها (راجع ماركارت في نظام المملكة الرومانية .

ميج ٢ من الترجمة الافرنسية ص ٣٤١ و ٣٤٢)

أما سكان المقاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلاً ولغة . نعم ان الآداب اليونانية

(١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) وپلينيوس (ك ٥) الخ

(٢) راجع الصفحة ٢٩

كانت قد دخلت البلاد بدخول الساسانيين واصابت انجاساً جديداً في أيام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نَبّه على ذلك العلامة نُلك لم يتّصل الى درجة امتدّت معها اللغة اليونانية او الآداب اليونانية امتداداً عظيماً بل كانت غاية ما نالوا منه ان سمناع المغرب وطريقة المعاش فيه قد فازت بشيء من التقدم وان بعض عناصر الحضارة الغربية قد تسربت الى افكار القوم المتدنيين ولعنتهم . قال نُلك : « أمّا القول بان اللغة السريانية قد زالت من المراكز المتهدبة فهو من قبيل المبالغة والغلو لان الآرامية كانت لغة قديمة استعمالها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومية وارباضها لا يعرفون في ذاك الوقت حروف الهجاء . وفي أيام ملوك الفرس الذين كان شهرهم قورش الملك اتّخذت الآرامية لغة رسمية في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي . وفي أيام الامبراطرة الاولين الرومانيين نجد الآرامية ايضاً كلغة رسمية لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطية حتى بلاد العربية في الجهة التي تُعرف اليوم اي في ناحية غربية عن منشأ اللغة المذكورة على ان ذلك لم يكن نتيجة لتغلّبها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابت غواً وانتشاراً فيما بعد أيام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحية في سورية وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاثبون

» نعم ان اليونانية كانت من زمان قد حلت محلّها في الاصطلاح الرسمي لكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلمون بالآرامية ولا يصحّ في كل حال تعليق اهمية كبيرة على ما كان يعملّه بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانية على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوّمة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفه (١) « انتهى كلام نُلك فيستدلّ ممّا مرّ بيانه ان مقاطعة كوجاينة كانت كبةية سورية آرامية محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع . أمّا مستخدمو الحكومة وقلياون غيرهم من افراد السكّان فكانوا يفهمون اليونانية ويتكلمون بها لا اكثر وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسّمت سورية تقسيماً ادارياً جديداً

وسنذكر تفصيل هذا الامر واخباره في خلال مقالتنا هذه . أما كوماجينة فتسمت على إثر التقسيم المذكور بسورية الغراتية نسبة الى الفرات وجعلت هيرا بوليس (منبج) قاعدة لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدها الجنوبي فتمدد الى الجنوب ولاسيا في النواحي القريبة من الفرات غير انه سلخت عنها ناحية حلب وألحقت بسورية الاولى وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تدعى « القورسية » ولا بد لنا من توفية الكلام حقاً على هذه الناحية نظراً لما يترتب على تعريفها من الفائدة في المسألة التي نحن بصددھا

وكان لهذه التسمية كما لغيرها من التسميات الجغرافية امتداد يعظم ويقل بحسب الازمنة ففي أيام استرابون كانت تطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج . غير انھا بعد ذلك كأيام القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون مثلاً انحصرت بناحية مدينة قورس فعن هذه الناحية الاخيرة نتكلم الآن وازيد التوضيح ندعوها « القورسية الصغرى » وسنبعث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولى اسقيتها مدة طويلة من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلاً في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعة وثمانمائة متر معظمها كلس . بالغابات . ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محل بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبين ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يحذر البابا المشار اليه انه يعتني بثمانمائة كنيسة (١) . ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعني بها قورس التي باسمها تسمت الناحية كلها . وسنذكر كيف كانت المدينة في أيام القديس مارون غير اننا قبل ذلك يجب ان نعين موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزاً مدنياً وديناً

على مسافة ستين كيلومتراً شمالي حلب تجد مدينة كلس التي هي قصبة قضاء يسمى باسمها واذا توغلت في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومتراً نحو الشمال الغربي تدلّك الحارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفاً لها وحتى اليوم ما زالت خرائبها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسمونها

(١) راجع الرسالة ١١٢ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الخبر الروماني . راجع ايضاً

« قورس » او « كورس » وليس بين ايدينا لسوء الحظ وصف مدقق لهذه الخرائب والبلاد المجاورة لها لأننا لم نرها كما ان السياح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة أبحاثهم عنها . وآخر من زارها من السياح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصلية فرنسية في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير أننا لم نر من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١) تتضمن ثلاثة رسوم شمسية تمثل « اخرة قورس العظيمة » ووجد أيضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدميستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهتم بها البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشأ الطائفة المارونية وتاريخ النصرانية في سورية تستحق أن يقصدها الباحثون وينقبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق . غير أننا استدراكاً لتقصيرهم بذلنا الجهد حتى نجمع من الكتب كل ما له بالقورسية علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنفات توادريطوس ونسخدم إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

إذا تابعنا فورير (٢) وجب القول بأن قورس من اقدم المدن السورية وأنها سبقت دمشق لأن هذه على موجب قوله قد أسستها احدى المستعمرات التي أتت من قورس . غير أن تعليل فورير منقوض لان آية النبي عاموس (٧:٩) التي يعتمد عليها لا تصح له الا اذا ثبت أنها تشير الى مدينة سورية لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣)

وزعم آخرون أنها تأسست اكراماً واجلالاً لقورس العظيم ملك الفرس ولعل هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون *Kúpos* بدلاً من *Kuḗpos* . وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقان رومانيان تتجه أحدهما الى الرها والأخرى الى حماة (٤) ويظهر من التاريخ أنها

(١) Comptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

(٢) Furrer, ZDPV VIII, p. 39

(٣) راجع قاموس الاداب الكنائية لفيكورو في مادة Cyrène

(٤) كتاب المسالك لانتونين (ed. Parthey, 84, 86, 87) Itinerarium Antonini

كانت اذ ذاك مهمة لأنها احوالت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسيّة » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدّل اخيراً بالضيّق كما تقدّمت ايضاً ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحطّ قليلاً عن مقام مجدها غير أنّها كانت في أيام توادوريطوس والقديس مارون موقعاً حصيناً يحمي قلاع ناحية الفرات (١) واستمرّت كذلك حتى الفتح العربي فأُلحقت فيه بناحية العواصم (٢) وفي أيام عبد الملك ضربت فيه سكّة (٣) ممّا يثبت انها كانت اذ ذاك صاحبة شأن ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيّة ومن بعده لم نعاثر لها على ذكر ونظن انه ما طال الامر حتى أهملت وهُجرت غير أنّنا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمه من تاريخ قورس المدني

وفي أيام توادوريطوس التي نهتمّ لها بنوع خاصّ لأنها كانت بالوقت نفسه ايام القديس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « ποντινή » (٤) غير انه يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد يترّلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الخاطر للمؤرخ توادوريطوس الذي اختلف رؤية محاسن انطاكية وطنه وجزيل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذاك ثلاثة حواضر العالم المتمدّن او على الكثير رابعتها . وبناء عليه سترى بعد هذا انه لم ينل عزاء تاماً بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليمية كمدينة قورس التي يشهد باهتيتها الحقيقية ان الحكومة شيّدت فيها شكناً للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانيين

والظاهر انها لم تحوّر غير قليل من الآثار التي وفّرها التمدّن اليوناني الروماني في المدن السورديّة كالاقنية والمناهل والاروقة المنقّطة المستندة الى اعمدة ممّا كان يُبنى في

(١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

(٢) راجع فتح البلدان للبلاذري ص ١٣١ و ١٤٩ وقدامة ص ١٥٣ (طبعة دي غوري) اماً

العواصم فمرّ ذكرها في المشرق (٦: ١٣١) (٣) المجلة الاسيويّة الالمانية, ZMDG,

1889, p. 684 (٤) راجع مجموع آباء اليونان لمن (ج ٨٣ ص ١٣٣١)

الشوارع المهمة ليقى المارة في ايام الصيف من حرّ الشمس وفي ايام الشتاء من الامطار (١) وكل ما احتوته من هذا القبيل قد تمّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سمّيناهُ مؤسسها الثاني

قال توادوريطوس المذكور: « انني شيدتُ في قورس من اوقاف الكنائس اروقةً عموميةً وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحنّامات العمومية ثم انني اتخذت قنّاة واجريت فيها مياه النهر القريب وهكذا متّعت المدينة بالمياه العذبة التي كانت محرومةً منها قبلاً (٢) » وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى توادوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينته الاسقفية (٣) وله غير ذلك ايضاً من الاعمال الدالة على اهتمامه العظيم بالحاجات الزمنية لابناء رعيته

واننا لنأسف عن عدم تمكننا في هذا البحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في مآثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدّ من مشاهير عصره ونوابغ دهره فقد كان منسّع المدارك رفيع الفهم محقّقاً حطام الدنيا وكان مع ميله الى المفاخر والمعالي يقدم على العظامم ويبذل كل مقتناه في سبيل الفقراء والاثار النافعة للجُمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يرنّاح الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنهه وحقيقته . ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقه فيها احد غير فهم الذهب . ومن المنصب الاسقفى في اسمى مراتب المهمة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يُجعل إماماً وقُدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤) ولهذا كان احقّ مؤرخ بشدوين سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلمه لجهلنا ترجمته

ان ما نعلمه من الجغرافية الطبيعية لقضاء كلّس يشرح ويتمهم وصف القورسية

- (١) كانت كل المدن (السورية) المهمة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرش (عجلون) . ومن بقايا الاروقة المذكورة العدد الكثيرة المتراكمة حتى اليوم في ميناء جبيل وشوارعها
- (٢) تاريخ الرهبان (فصل ٢١ والرسالة ٨١)
- (٣) يتكلم توادوريطوس في الرسالتين ١١٤ و ١١٥ من كاهن اسمه بطرس عالى التطيب زماناً طويلاً في قورس . واكتشفوا ايضاً في دياميس رومية حجر ضريح لكاهن من المتاعطين صناعة الطب . غير انّ القوانين التي ترتبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس
- (٤) ان سيرة توادوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحقّ ان يطالها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الاسقفية الثقيل

مثلاً يفهم من الافادات المنشورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الأكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم تزل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١) بحيث تدهش جميع السياح الذين اعتادوا النظر الى تعري بقية سورية من الاشجار . غير انهم اذا بحثوا عن القرى الثمانئة التي كانت في القرن الخامس لا يفتقون لها على اثر

وقد علمت ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرّه الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيدهما هناك . وفي الحقيقة انه ترقى في جوار قورس عدة انهار منها نهر عفرين اخص السواحل الشمالية لنهر العاصي . وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي وأعل مياه نهر صابون القريب من اخربة قورس هي التي جرّها توادوريطوس الى كرسي اسقفية

ومع قرب الانهر المذكورة كانت بقية الناحية القورسية كثيراً ما تصاب بالجناف وقد ذكر توادوريطوس خبر جفاف اصحابها في رسالة وجهها الى اريوبنداس يسأله فيها ترك الديون التي له على المزارعين باراضيه الواسعة في القورسية (الرسالة ١٣) ويذكر ايضاً خبر جفاف آخر في ترجمة بوليخرونيسوس (٢)

هذا ما استطعنا جمعه من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تذكر عن سائر اماكن القورسية لان توادوريطوس لا يشير في ما خلفه من الكتابات الا الى قليل منها مثل اسيكنا ونيونيس وتيليا وثرغالا وراما وسيتا ونيارا ونيموزا (٣) ولم يلحق بهذه الاماكن شيئاً من الاوصاف ما خلا نيارا فانه وصفها بانها مدينة . وقد رأيت ان لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آرامية وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالاً وكما سنثبت بعد هذا في الكلام على القورسية خصوصاً

(١) مما يجب التنبيه اليه هو انه يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مشمرة تنبت من تلقاء نفسها . وهكذا كانت الحال في أيام توادوريطوس لانه ينحرف عن القديس يعقوب الناسك الشهير انه كان يقاتل من ثمار اشجار الغاب (مج ٨٢ ص ١١٠٩)

(٢) راجع مجموع الآباء لمن اليونان (ج ٨٢ ص ١٢٦١)

(٣) في المجلد نفسه ص ١٢٢٩، ١٢٣٣، ١٢٥٤، ١٢٥٧، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل ان اسقّهم كان يضطرّ الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم . وكان في بعض المرات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة يوخرية القديسة وغيرها من كبراء المنصّبين (١) وهي تدلّ من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين بهظتهم الضرائب وثقلت عليهم جداً حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يؤثرون التسوّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢)

وان قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلّمون بها في القورسيّة اجاب الذين يتسرّعون في الاحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها . غير انّ هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجّة لقناعنا لأنّ لدينا من الادلّة الواضحة ما يؤيد العكس (٢)

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ١٠٨٦:٤) ان توادوريطوس مع ان لفته الاصليّة هي اليونانيّة (٣) كان عارفاً ايضاً بالسريانيّة . غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لأنّنا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا (٢١٠ : ١١٠) طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامّة في انطاكية كانوا يتكلّمون الآراميّة واماّ الباقيون فاذا كانوا لا يتكلّمون بها فكانوا على الاقل يفهمونها . ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتاً صريحاً (في المشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السريانيّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها: ان ابوي توادوريطوس كانت لها علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بالتفصيل كيف ان تجرّده لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

(١) راجع رسائله ٤٢ - ٤٥ (٢) اذا كان برهانتنا صحيحاً اثبت خروج الذين يملّون التعليل الآتي من قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم : « ان جملة اساقفة في سورية كتبوا باليونانيّة فاذا سوربة كلها كانت تتكلّم اليونانيّة » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيّة ان نتيجةهم هي اوسع من المقدمات . وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ١٠٨٣:٢) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية . وفي املانا اننا نستطيع اثبات الامر نفسه عن سائر نواحي سورية متى تيسّرت الفرصة (٣) كما قد صرح بذلك راجع مجموع ميخ (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٢)

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردد على متلهم في انطاكية فلما ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغبه ترغيباً شديداً في خدمة الله (١) والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانية (٢) واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجح عندنا انه لم يكن توادوريطوس وحده يفهم السريانية بل ان ابويه ايضاً كانا يفهمانها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانه دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣) ان الشيطان ظهر له ذات ليلة في قورس وهو اسقفها فهدهدته تهديداً مخيفاً مرعباً وكان يخاطبه باللغة السريانية وكان احد رفقاته راقداً معه في غرفته فسمع ايضاً الكلام عينه وسمعه كذلك الحشم الذين في المنزل. فن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية :

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنه توادوريطوس لا يخلو من ان يكون امّا حاملاً مجرداً او رؤيا حقيقية. على ان الظروف التي قارنت الحادث ترجح انه كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأساً اذا عددناه من قبيل الافتراض الأول بل انه ربما جاء من هذه الحيلة أوفى وأنيذ لما نحن بصدد رد عليه اذا قلنا انه كان حليماً مجرداً فجا ان الثامن لا يلجم اصلاً بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلم به إلا نادراً ينتج عن ذلك ضرورة ان توادوريطوس كان يتكلم عادة السريانية او بالاكل انه كان يفهمها بسهولة. واذا قلنا ايضاً انه كان رؤيا حقيقية يصعب ان نبين كيف ان جميع سكان الدار الاسقفية فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانية مألوفة عندهم ويقول توادوريطوس ايضاً (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انه وجد كتباً كثيرة سريانية من تأليف برديسان والراجح انه لقيها ضمن ابرشيته حيث كانت اقامته او في انطاكية التي كان يتردد اليها حيناً بعد آخر كما سترى في اثناء مقالتنا هذه . ولا نجد

(١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٢١٤ و ١٢١٥)

(٢) راجع المشرق (١٠٨٣: ٥) امّا الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كلغة البلاد

(٣) راجع مجموع الاباء (مين ٨٢: ١٢٤٣ و ١٢٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لانه يدلُّ على انتشار الكتب السريانية في مدينة قد طالما صوّروها لنا يونانية محضة

وكان توادوريطوس يرغب في زيادة النساك الكثيرين بابرشيته ويلتذ بمحادثتهم طويلاً وسنرى بعد هذا انه لم يكن احد من هؤلاء النساك يعرف اليونانية . وبما انه لا يأتي في كل ما خلفه من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثته التي كانت تطول في بعض الاحيان اياماً (١) قد كانت تجري بالسريانية وانه كان يعرف هذه اللغة حتى المعرفة ويشكلم فيها بسهولة

ومما يجب التسليم به وينتج ضرورة عما قدّمناه هو ان الاسقف المذكور ما كان وحده يفهم السريانية بل ان جميع عسائه من سكان الدار الاسقفية كانوا يفهمونها ايضاً ولا يبعد انهم كانوا يتكلمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخص معتر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لان كاتب ترجمة توادوريطوس يصرح دون موارد « بان الجميع تقريباً في قورس وفي القورسية كانوا يتكلمون باللغة السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئاً مذكوراً (٢) » ويؤخذ من كلامه ان ذلك كان أخصّ الاسباب التي حملت توادوريطوس على القبول رغماً عن ارادته باسقفية هذه المدينة لانه لمّا كان عالماً بارعاً وخطيباً مفلحاً يضاهي فم الذهب بل يكاد يفوقه ايضاً في مسائل تفسير الكتاب المقدس رضي ولكن مع كره ومشقة نفس بان يدفن كل ما رُزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه المواهب بغائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراته في السبيل الذي يرومه . غير انه ما لبث ان ذلّل هذه العواطف البشرية وانقطع بكليته الى الاهتمام بمنفعة وخير القطيع الذي فوّض الى تديره

وللقارئ ان يعترض لمخطب توادوريطوس ويقول انها كتبت كلها باليونانية فنحن نتلقى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئاً من الصعوبة في ردّه وسبب ذلك ان غالب

(١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب (الناسك) (٢ف)

(٢) الاباء اليونان لمن (مج ٨٤ ص ١٤٣، ١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لأنه كان من محبي الحركة والتنقل وكثيراً ما كان يزائل أبرشيته بدليل أنه لما ثارت الخصومات بسبب بدعة نسطور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت له الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزه فشق عليه هذا المنع كثيراً كما يتبين ذلك من رسائله ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدّة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفاره وكان توادوريطوس يتردد خاصة على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية وبيريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزه والثانية اقرب من هذه المسافة (١)

اما انطاكية فكانت وطنه ولهذا كان يكثر التردد اليها حتى اضطر الى الاعتذار لروّسائه عن طول اقامته بها (٢) . واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهية وقد شهد في رسالته الى البابا انه ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انه في رسالته الخامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حملته على اعزاز اهالي حلب وآخ هذه الاسباب هو انهم « كانوا يسمعون خطبه بلذّة ومسرّة ولهذا كان يبذل جهده في أن يلقي عليهم احسن وافضل ما عنده من هذا الصنف » . ولنا ان نقول بعبارة أخرى انه كان يحب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينه بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبه اليونانية ويقدرّون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انه لا يصح الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانية فقد ذكر نلدك (٣) ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرها ومن المعلوم ان الرها كانت في ذاك العهد ارامية مجتة بل مركز الآداب الآرامية ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت ارامية بسكّانها ولغتها ولكنها لما كانت مدينة كبيرة تجارية لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانية . فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيراً من الالسنّة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

(١) اخبر توادوريطوس انه كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

(٢) اعمال الاباء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٣٥ و ١١٤٦)

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتمسها . وكما اننا اليوم نجد في المِسدن السورّية عدداً غنياً ممّن يفهمون الخطب باللغات الاجنبية هكذا كان الامر في ايام توادوريطوس . ومثلها لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متعلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضاً عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانية في قورس قوماً قليلين فما ظلّك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة الفراتية التي كانت القورسية تابعة لها كانوا يتكلمون السريانية ١)

هذا فضلاً عن ان هيرابوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع لهُ اسقف قورس كانت ايضاً مركزاً مهماً سريانياً . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيليكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جومانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبّون ايضاً على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب ٢) وعلى ذلك لم يبقَ من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سورية محفوفة من كل انحاءها بالبلدان الآرامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحق يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الآرامية التي كان المتأدّبون يضيفون اليها معرفة اللغة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مرافق النصرانية ان الوعّاظ كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الآرامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحّدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلّة متظاهرة على انهم كانوا باسرها تقريباً آراميين يتسمون باسماء سريانية مثل مايسياس واشبسياس ومارون وسلامانس وماريس وزابيناوس وباراداتوس وتاليايوس

١) تاريخ الرهبان (٨٠ ص ٣٢٧ راجع ايضاً المجلّد ٨٣ ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيه يظهر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون المزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

٢) راجع كذلك المشرق (١٠٨٢ : ٦)

ومارانا ١) وقد قال توادوريطوس عن الأول اي مايسيماس قولاً صريحاً « انه كان سريانياً بلقته ٢) » أما الراهب القديس ابراهيم الذي ترقى بعد ذلك الى اسقفية حرّان في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور له مع كل حاشيته ان الموما اليه لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣) . وروى في موضع آخر عند كلامه على الناسك تاليلايوس انه لما زاره تعجب كثيراً « اذ سمعته يجاوبه باليونانية » (٤) لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس فيليقيّ الجلس وكل ذلك يدلّ على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها . ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلها لم تكن تجري بغيرها الا في كنيسة قورس الكاتدرائية . وفي ترجمة الناسك ابراهيم الذي سبقت الاشارة اليه دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زماناً طويلاً في الحياة النسكية وفي الحثام شخص الى اثنان وهدى فيه كثيرين من الوثنيين وعلمهم العبادة الالهية الحقيقية . ولا ريب انه كان يخاطبهم بالسريانية لانه لم يكن يعرف سواها ويقيم لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملة في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو : « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسسوها قد علموها بالضرورة ليتورجية آرامية . وكانت السريانية كما هو معلوم اول لغة ليتورجية مستعملة (٥) وفي ما اوردناه بهذا الشأن كفاية للقارئ حتى يتيسر له

- (١) راجع تاريخ الرهبان
- (٢) راجع مبن (مج ٨٢ ص ١٢١٦)
- (٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨
- (٤) هذا مما يوجب الافتراض ان الاسقف خاطبه اولاً باليونانية
- (٥) راجع في مجمل الاهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٣) مقالة للاب فايله الصعودي الذي نسب اليه بعضهم رأياً مغالطاً لما نحن فيه

الحكم فبقي علينا ان نبحث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا ننتهـم كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام توادوريطوس كما يُفهم ذلك من عدد المائتة كنيسة التي يقول الاسقف المذكور انه كان مكلّفاً بتدبيرها . ويظهر انه كان قد اتخذ بعض اعوان له من الخوارنة الاسقفين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيته وفي رسالته ١١٣ يسمي اثنين من هؤلاء الخوارنة . وبناء عليه يجوز ان نحسب القورسية كلها مسيحية في زمانه اذ لم يكن فيها من الوثنيين الا افراد قلائل (١)

وكان في القورسية جماعة من الهرطقة وعلى الخصوص من المرقيونيين . قال توادوريطوس : « ان ثمانى قرى افسدتا هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتهما الى الطريق القويم (٢) . وكانت هناك ايضا قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونوميين وقرية غيرها اريوسية فتوقفت لاثارة الجميع بالنور الالهى وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثرا للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطاع دون اقتحام اخطار وإراقة دم لأنني كثيراً ما تعرضت لرجم الهرطقة » . ويشهد في موضع آخر (٣) انه عمّد عشرة آلاف من الهرطقة المرقيونيين وإثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر له الشيطان كما سبق الخبر محاولاً توقيفه عن قتال الغواية والضلال

أما دخول النصرانية الى القورسية فلا نعلمه بالتحقيق ولكننا نظن انه كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر اساقفتها مجمع نيقية . وأما خلفاء توادوريطوس فلا نعلم منهم غير اسماء ثلاثة فقط (٤) ولا ريب ان كرسي قورس فقد اهميته من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي . ومع ذلك فقد وجدنا في جريدته لاستفتيات بطريكية انطاكية ترتقي

(١) راجع رسالتيه ٦٧ و ٦٨

(٢) الرسالة ٨١

(٣) تاريخ الرهبان ١٢٤٣ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣

(٤) لوصكيان : الشرق المسيحي (٢ : ١٣٠ الخ)

على ما نظنه الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودة في ذلك العهد من جملة الكراسي المطروبوليتية لكن لم يكن لها اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيد المعظمين قرما وداميانوس قد دُفنا في قورس ولذلك قد تسمى هذه المدينة في بعض الاحيان اكراماً لها بمدينة القديسين . واخبر توادوريطوس نفسه كيف انه في ذات يوم نجي من الحريق الكنيسة المشيدة على ذكر هذين الشهيدين (١) القديسين . وفي موضع آخر يذكر ايضاً في جملة كنائس مدينته الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢) ويخبر كذلك عن دير قائم بجذاء احدى كنائس قورس (٣) وفي رسالتيه ٦٦ و ٦٧ يتكلم على هيكل شيدته هو وكرسه للرسول القديسين (٤) . وكان في قورس ايضاً مصلً على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انه تشيد في حياة الناسك المذكور (٥)

فكل هذه الآثار الدينية تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرة زاهية بأيام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضاً دليل آخر على ازدهار الديانة نأخذه من وفرة عدد المناسك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملائمة لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطارق التجارية وافية بمحاجات قوم يكتبون بالقليل حتى كان يصح ان تدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيراً هذه المهنة الاخيرة من حياة النسك . وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصص منه النصف بتراجم عظماء الرهبان في القورسية قلما يأتي بذكر الاديوار (٦)

(١) مجموع الالباء (مج ٨٤ : ص ٧٨٦ و ٧٨٧)

(٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١

(٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار. تاريخ الرهبان ١٢٢٩

(٤) راجع كذلك المجلد ٨٢ ص ١٢٥٠

(٥) راجع المجلد عينه ص ١١٤٧ و ١١٤٨

(٦) في الرسالة ١١٢ يتكلم عن أليوس ويقول عنه انه « إكسرخوس الرهبان عندنا » وهي عبارة تدل على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعة لها . ويذكر ايضاً ادياراً أخرى في المجلد ٨٢ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ غير ان الاديوار كانت هناك قليلة جداً

بل يذكر المتوحدين الذين كان يحتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم وينهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحب ويكرم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يعطرون ابرشيته بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زيارتهم ومحدثهم وكل ما كتبه عنهم في تاريخ الرهبان قد رآه فيهم او سمعه منهم . على ان الرهبان المذكورين قابلوه بمثل عواطفه واثبتوا له ذلك لما أبعد عن ابرشيته فانه لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يحتقرون هذه الحياة الزائلة متوقعين الحياة الابدية (١) »

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكية فبقي علينا ان نذكر اخص واحد بينهم اعني به القديس مارون وكل ما تقدّم من الكلام جعلناه كترطئة تمهد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيه حياته فاذا لم نتوصل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظن والتقدير فالذنب كل الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشأن . غير ان ما سنسقطه مما يستحق الانتباه واملنا ان يكون محرّضاً لأولي البحث على الجدّ والتتبع لعلهم يتوقفون الى ما لم نتوفى اليه . وفي كل حال ليس من غايتنا ان نازم القارى باتباع آرائنا ولكننا نتوخى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقداً حتى تنجلي المشاكل وتبدد الغياهب . ومما يسرنا جداً هو ان نداءنا للطوائف المسيحية الشرقية حتى تبذل الجدّ اللازم في الابحاث التاريخية (٢) قد لاقى قوماً يسمعون فهبّ بعض الادباء واخذوا ينقبون في توارينخ طوائنهم ونشروا منها اشياء حريّة بالاعتبار واملنا ان يزدادوا حميّة في هذا الشأن لما يُرجى عن عملهم من المنفعة . وفي هذا المقام لا نرى بداً من الشاء على بعض أدباء الطوائف الشرقية لما تحفوا به الدروس التاريخية من التأليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلّة المشرق اجاثاً مهمة في شؤون طوائنهم وآدابها الطقسية وآثارها القديمة

(١) الرسالة ١٣٥

(٢) راجع في مجلّة المشرق (١: ٢٦١) ، مقالنا المعنونة : « هيا الى درس تاريخنا »

٤

اين وُلد القديس مارون؟ هذه مسألة كان في وسع توادوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاب عليها جواباً شافياً غير انه لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئاً في الكلام الوجيز الذي تركه ولهذا وجب علينا ان نسمى بالافصح عما سكنت عنه . على اننا لسنا باوّل من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الحوري ميخائيل غبريل يقول في كتابه تاريخ الكنيسة المارونية (ص ٨٤) ما نصّه : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلاً عن انطاكية في جوار مدينة قورش » ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مأنس التي كتبها القديس ايرونيوس فقال عنها انها بلدة صغيرة (*haud grandis viculus*) على مسافة ثلاثين ميلاً شرقي انطاكية (١) كانت ملكاً لصديقه ايقاغوريوس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقفية انطاكية . وكان القديس ايرونيوس أيام اقامته في انطاكية يتردّد الى القرية المذكورة مع صديقه ايقاغوريوس الموما اليه . وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان يزيد عليه أنها كانت في جوار مدينة قورش اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقل فالى اي شيء اذا يستند قول من يقولون ان القديس مارون وُلد في قرية مارونية؟ لا اعلم لنا بذلك لان توادوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبه الكتّابون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولده وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورش نقلوا عنه واذ كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامه فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الا قيمة كاتبها . نعم أنهم قصدوا قصداً حسناً فرغبوا في ان يوضحوا ما سكنت عنه توادوريطوس غير انه لا غنى للمؤرخ المدقق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور . وزيادة على ذلك ان التقاليدات التي يتناقلها الموارنة ساكنة ايضاً عن مكان ولادة ابيه القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر

(١) وذكر الجغرافي بطليموس ايضاً مكاناً آخر في سورية يدعى « مارونية » لكن يصعب القول انه عن مارونية التي نحن بصدها ونرجح انه يريد بها مركزاً في إقليم قنسرين كما ذهب اليه هرتن ١٤٥, XXIII, ZDPV, راجع كذلك ١٥٦٩, XVII, Ritter,

البطريك اسطفان الدويهي عن ايراده . وعليه فاننا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بسط الكلام اكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قوله عن ولادة القديس مارون في مارونية بقوله « انه درس العلوم في احدى مدارس انطاكية » . وهو ايضاً امر لم يُفدنا عنه توادوريطوس وهذا قد اسنده الكاتب الحديث الى المودة التي زعم انما نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (١) منذ كانا يدرسان معاً في انطاكية . على اننا نقرّ بسذاجة اننا لانفهم قوة هذه الحجة لا بل نطنّ ان القديس مارون كبةيّة تُسالك زمانه في القورسية (٢) كان من اصل آرامي ويجعل اللغة اليونانية ومن ثم انه لم يدرس في مدارس انطاكية . وخلاصة القول ان الاخرى بنا ان نقرّ بجعلنا المكان المعين الذي وُلد فيه القديس مارون

وان طلب منا القاري رأينا في ذلك رجحنا كونه لم يولد في جوار انطاكية . وعلى كل حال لا نرى صواباً في ما اثبتته حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال : « ان البرية التي انحاز اليها القديس مارون قبل انما مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيوس عندما اعتزل اليها . . . وذكرها في جملة كتاباته » . لان البرية التي اعتزل اليها القديس ايرونيوس معروفة محدّدة الارعاء وهي ناحية متسعة الفناء موقعها جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيدية (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنشرين وهي عبارة عن قفرٍ قفرٍ احرقته الشمس يجاور برية الشام لا يسكنه الا بعض عرب البادية (٣) . ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيوس لا يراه موافقاً لما قاله توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسية كما سبق . فالرأي عندنا ان مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياته كما سيأتي نقلاً عن توادوريطوس . ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكأن اختار لزمه احدى البراري

(١) استناداً الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

(٢) وسيأتي بيان ذلك قريباً

(٣) وكانت لغة هذه الناحية (السرانية) . وكان القديس ايرونيوس يفسها (راجع مجلة الشرق المسيحي المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٢ ص ٢٠٣)

العديدة الواقعة على مقربة من هذه الحاضرة والمقدسة بعيشة كثيرين من مشاهير العباد وذلك ما يتضح من التواريخ البيعية المكتوبة في ذلك العصر (١) كذا شاهدنا على قولنا مثال القديس يوحنا فم الذهب الذي ولد في انطاكية ثم انقطع الى النساك في دير قريب من موطنه. وكذلك نظن ان القديس مارون الذي عاش ومات في القورسية ولد ايضاً فيها ما لم يأتنا احد يبرهان جلي على خلاف هذا الرأي اما ان القديس مارون صرف حياته في القورسية وقضى فيها نخبه فالامر واضح وضوحاً تاماً بما ورد في تاريخ الرهبان توادوريطوس. فان هذا الكاتب العظيم بعد ذكره من اشتهر من النساك في انطاكية وجوارها يعلن جهاراً انه يباشر بتراجم المتسكنين في القورسية (٢) ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسياس ويتنصص الى ذكر القديس مارون فبين بذلك ان هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتها. وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامه عن القديس : « انه هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانية) التي ترهوا الآن في القورسية (٣) »

هذا ولا نجعل بان توادوريطوس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي اخطها بترجمة القديس مارون « انه هو ايضاً كان ثمرة نمت في بلاد قورس » ثم اردف قوله بهذه الفقرة قائلاً : « وبها كان مولده » . فلماذا يا ترى ضرب الصفح عن التصريح بموطن القديس مارون ؟ فهل كان ذلك سهواً منه او جهلاً ؟ فهذه معضلات امكن توادوريطوس ان يحلها فلم يفعل . ولكنهُ اكتفى بقوله عن ابراهيم « انه هو ايضاً كان ثمرة نضجت في القورسية » ليشير الى ان اصل القديس مارون الذي سبق ذكره كان كذلك من القورسية فليحكم القراء

هلم بنا الان ننظر في اي مكان من القورسية تألّه قديسنا الجليل . نجيب على ذلك ان غاية ما اعلمنا به توادوريطوس في هذا الصدد انه « تسلق الى قمة جبل كان اقام فيه سابقاً عبدة الاوثان هيكلاً للابالسة » (٤) . والظاهر ان هذا الجبل كان على

(١) راجع كتاب توادوريطوس في تاريخ الرهبان

(٢) راجع التاريخ ذاته في مجموع مين (ص ١٢١٦)

(٣) راجع الصفحة ١٢٣٢ منه

(٤) فيه (الصفحة ١٢٣٤)

بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنه توادوريطوس « انه بعد ما سكن مدة مع معلمه جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غلوة » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (١) . ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون آفي شمال قورس او جنوبها او جهة أخرى والرأي عندنا انه سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقي قورس . ليكون مقام القديس اقرب الى اقامية في اقليم سورية الثانية حيث شيد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما ستري في فصلنا الخامس آنفاً

الآن ان تعريف الجبل بعينه الذي اوى اليه القديس مارون ليس بممكن لما لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس . ومما يساعد على ذلك فحص اخبة الهياكل الواقعة على قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويه اهل تلك النواحي بالتقليد مع البحث الجغرافي عن مواقع تلك الاصطعاع . فلا غرو ان من يتبع هذه الخطّة يأتى ما لم يكن في حسبان من آثار الامكنة الدائرة في سورية . وما ادراك انه لا يجد كتابة قديمة تبيط السر عن عدة امور غامضة (٢)

ولم يُدْفَن القديس مارون في محبسه فان سكّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائره المقدسة حتى فاز بها اهل بلدة قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جعلوها فيه . ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس ان الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس . قال هذا الكاتب الشهيد : « ومع اننا بعيدون عن القديس فان بركته تشملنا وذكره يقوم لدينا مقام ذخائره » . فعنى بهذا بُعد مدنيته قورس عن ذلك المقام . على ان المكان لم يكن خارجاً عن دائرة ابرشيته قورس لان مدفنه كان قريباً من محبسته وقد بينّا في ما سبق ان القديس عاش في القورسية . ومن ثمّ صحّ عندنا ان قبر القديس وهيكله الاولين انما كانا في شمالي سورية جنوبي قورس في نحو نصف المسافة بينها وبين حلب

(١) فيه (الصفحة ١٢٣٦)

(٢) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية وآرامية التي وجدناها في كراد الداسية شمالي فرني حمص على ناووس قديس يدعى توما لم يكنّا حتى الان بيان احواله (راجع المجلة الباعية موزيه (Musée belge, 1901) . وقد نشر حضرة الاب س . رنزال النص الارامي في مجلة الشرق المسيحي (ROC, 1902)

٥

هياً بنا الان نبحت عن امر آخر لا تفوت فائدته كل بصير اعني مقام دير القديس مارون الشهير . قد تكرر ذكر هذا الدير في اخبار سورّية واشتهر رهبانه بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان . ولكن تُرى اين كان موقع الدير المذكور هل أُقيم بجوار هيكل القديس « مارون العظيم » (كذا دعاه توادريرطوس في تاريخ الرهبان ص ١٢٥٤) قريباً من ذخائره المباركة كما تُرجح ذلك التقاليد الشائعة او كان بالاحرى موقعه في غير مكان من سورّية

مهما كان من صحّة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نستصع الآثار القديمة ونستضي بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظله نشأت الطائفة المارونية . ولا شك انّ نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص . وقد عددنا ما كتبه المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من يجعل دير القديس عند انطاكية (١) ومنهم من يرجع كونه في ضواحي حمص (٢) وبين البلدين كما لا يخفى مسافة ثمانية ايام بنيف . وربما رأيت الكاتب الواحد مضطرباً متحيراً يجعل الدير تارة في محل وتارة في موقع آخر حتى أنّنا عددنا لبعض كتبه زماناً خمسة آراء في هذا الشأن

وعندنا انّ درس الجغرافية المدقّق يُفضي بصاحبه الى الراي الصحيح ويُرشده الى الطريق المثلى . ولا بُدّ لنا لبيان هذا الامر من تعريف الاقسام السياسية التي كانت عليها سورّية الشمالية وسورّية الوسطى في عهد القديس مارون اعني في القرنين الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبيننا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا الدير المشهور . ثم نضيف الى هذه الاعلامات العموميّة بعض نصوص جغرافية تزيد ببحثنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد توادريرطوس يدعون باسم سورّية الرومانية كل البلاد المتسعة الارزاء الواقعة في وسط التخوم الطبيعية التي يحدّق بها البحر المتوسط وجبل طورس

(١) راجع الدويحي (ص ٣٩ و ٦١)

(٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع اهداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

وبادية الشام وبرية طور سيناء . وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سورية وفينيقية واقليم العرب وفلسطين . ومن هذه الاعمال لا يهملنا هنا سوى سورية وفينيقية فنقصر كلامنا عليهما

وكان عمل سورية يُقسم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمونها سورّية الاولى او سورّية المجوّفة ثم سورّية الثانية او سورية الطيّبة ثم سورية الثالثة المدعوة ايضاً سورّية الفرائيّة

وكانت قاعدة سورية الاولى المعروفة بالمجوّفة انطاكية العظمى وهي تمتد من جبل امانوس (اللكّام) شمالاً الى مدينتيّ اللاذقية وجبلة جنوباً ويحدها شرقاً سورّية الفرائيّة . فكانت سورية هذه تشمل القسم الغربي من ولاية حلب الحالية ومصرفيّة اللاذقية من ولاية بيروت

وكانت سورّية الثالثة اي الفرائيّة تضم كلّ البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينه (راجع خريطة سورّية) وقد مرّ وضعها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها . وكانت حاضرة سورية المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

أما سورية الثانية (١) المدعوة بالطيّبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيزها ابيفانيا او حماة . وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حصص فيالحق بها اراثوسه ومريين ورفانية التي موقعها على مسافة ثمانى ساعات الى عشر^{١٤} الي غربي حمص . وعليه فتكون هذه الولاية مطابقة لقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي وللقامقمية حماة المركزية في ولاية دمشق . وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سورية الثانية فلا بُدّ للقارئ ان يودعها ذاكرته ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سورية الرومانيّة يتقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحليّة

(١) وعليه فلا نرى وجه التدقيق في تحديد بعض المحدثين لسورّية الثانية حيث قال : « سمّاها الاقدمون سورّية الثانية لتمييزها عن سورّية الاولى التي تعني جميع ما هو من عرّيش مصر الى ضر دجلة »

ففيقينة لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتها حصص على الأقل مباشرة لأنّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق . وكفانا هنا علماً ان فيقينة لبنان كانت جنوبي سورية الثانية الطيبة

فلنعودنّ الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعه . ومما اتفق عليه في هذا الباب لفيف الكتبة ان هذا الدير كان على ضفة نهر العاصي . وكذلك لا خلاف بأنّ موقعه كان في سورية الثانية . وهذا امر يلوّح كالشمس في رائعة النهار لمن طالع العريضة التي وجّهما رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر الكتابات الرسمية التي ورد فيها ذكره فانها كلها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سورية الثانية فان صحّ ذلك بطل زعم الذين يجشوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هذه الولاية . ومن ثمّ فلا صحة لقول من ذهب الى انّ هذا الدير كان بجوار انطاكية (١) او قريباً من حصص لانه لو كان في ضواحي انطاكية لكان من سورية الاولى اي المجوفة ولو جاور حصص لعدّ من فيقينة لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سورية الثانية في جوار نهر العاصي . ولبيان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافية التي شوشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكة مغلفة

فالغلط الاول هو غلط الذين قربوا موقع افامية من حصص فجعلوا المدينتين مجاورتين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسوس نذكره لنفثده قتال صاحبه : « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربة (كذا) من مدينة حصص الكبرى » . وقد شطّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطه انه وضع تاريخه في زمن كانت حصص بلغت فيه مقاماً ساماً فبهرة نور شهرتها . ومن ثمّ فأننا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعلوا موقع دير القديس مارون في جوار حصص بدلاً من

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفة المارونية للدويحي (ص ٣٩) وقد روى هذا العلامة (ص ٦٥) نصاً قديماً في سَروم ورد فيه ما نصّه : « قرية سَروم في جبل السويدية على مسافة متساوية بين انطاكية ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بالسويدية القرية الحالية المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعه بين انطاكية والبحر . وهو زعم مردود

افامية لاسيماً انّ افامية كانت آنشد خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حمص بخرابها عظيماً

ومما يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حمص ونفوذها في تلك الاعصار ان العرب بعد فتح الشام لما قسموا سورية الى اعمال متعدّدة دعوها اجناداً جعلوا حمص جنساً وادخلوا تحت حكمها مدينتي حماة وافامية . وهذا دليل واضح على عظم شأن حمص عند دخول العرب بلاد الشام اذ انها كانت من اكبر مدن سورية في وسطها الشرقي . فلا عجب اذن ان كان البعض اتّخذوا حمص كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعها تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب انّ قوماً خلطوا بين افامية وحماة وجعلوها مدينته واحدة وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وابيفانية (اسم حماة اليوناني) . وهو زعم باطل غوي به كتّبة عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكتّاب دي لاروك في رحلته الى سورية (*Voyage en Syrie*. I, 239) (de la Roque) ولوكيان في الشرق المسيحي وغيرهما كثيرون بعدهما فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتّبة الشرقيين

والصواب في ذلك انّ افامية هي كما قلنا سابقاً قلعة المضيق شمالي شرقي حماة . وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرّة الاولى العلامة بورخردت (Burckhardt) تتبعه العلماء المحقّقون في قوله بعد ذلك بنحو ربع القرن . وعليه فلا تثریب على بعض كتّبة الشرق العلماء ان ضلّوا في ذلك سواء السبيل

ولعلّ سبباً آخر دفع هؤلاء الكتّبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حمص وهو موقع مغارة الراهب . فانّ هذه المغارة او بالحرى هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في الجزء السابق (ص ١١٠ وفي المشرق ٢٦٤:٤) موقعها جنوبي حمص عند راس العاصي . ولما كان بعض العامّة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظنّ قوم انّ المراد بهذا المكان ذلك الدير الأوّل الذي بُني على اسمه قريباً من افامية فكل هذه المزاعم اوهام لا يجوز القول بها . ومن ثم لا نرى ما كتّبه البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون « على تخوم حمص » او « في بلاد

حمص وحماة « او « بين حمص وحماة » (١) او « في حمص » كما ورد في تاريخ ابي الفداء (٢) وقد تبعه الاب ميشال جولييان اليسوعي (٣) او في وسط الطريق بين افامية وحمص على رأي الاب فاله الصعودي (٤)

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُوَيْق هذه الامكنة شمالاً ما وراء حماة . ومثمن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلامة المسعودي من كتبة القرن العاشر للميلاد فانه عين موقعه بقوله في كتاب التنبيه (ص ١٢٣) : ان هذا الدير كان « شرقي شيزر . . بقرب نهر الأرُنْط نهر حمص وحماة » . وشيزر هذه تُعرف في عهدنا باسم سَيْجَر وهي في نصف الطريق بين حماة وافامية اي قلعة المضيق . وقد افادنا الكاتب عينه ان الموارد كانت كثيرة في معاملات شيزر ومعرة النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان . وعندنا ان سبب غزو الموارد ووفرته في تلك الجهات انما كان قربهم من هذا الدير العظيم فتألبوا حوله ومنه قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بينا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك انما جاء في الآثار المارونية التي نشرها الحوري نو (Nau) الافرنسي (Opuscles Maronites, II, 22) وقد ذكر هناك ان دير القديس مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي » . وقد آثرنا قوله على سواه لان كاتب هذا الاثر اقدم من سواه عهداً سبق غيره الى ذكره (٥) وقد عرف موقعه بدقة وضبط . فمن هذا النص مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتضح لنا ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سوربة الثانية بل انه ايضاً كان في نحو مركز هذه الولاية

ومما يؤيد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين . قال كاتب اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩، ١٧٥، ٢٥٧، ٢٦٩)

(٢) راجع تاريخ ابي الفداء (Hist. antisl., ed. Fleischer., p. ١١٢)

(٣) في رحلته الى سوربة وسينا (١٧٨)

(٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٩٠)

(٥) لا يخفى ان هريرة رهبان القديس مارون الى البابا هرمزداس اقدم من كاتب هذه الآثار المارونية الا ان تلك الهريرة لا تفيدنا عن موقع الدير سوى كونه في سوربة الثانية

العمودي اذ هجم عليهم المعتصبون فقتلوههم . فيؤخذ من هذه الرواية انه كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانهما لم يكونا مبتعدين كثيراً الواحد عن الآخر . على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان واقعه في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيها (١) . فلا بُدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضاً من جهة قريبة من افامية كما سبق . وان اعترض علينا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبنا ذلك صحيح لكن الامكنة التي يختارها غيرنا لموقع هذا الدير اذا جعلناه في حصص او حماة تريد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هذه المخبرات بين الديرين لاسيما كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٢) ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا الى الدير الآخر . ومن ثم لا بُدَّ القول ان دير مار مارون كان ارقى شمالاً كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر اجاث العلماء عن دير القديس مارون منذ الان فصاعداً في وادي العاصي قريباً من قلعة المضيق . فينبغي على الاثريين ان يتجولوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ريثما يطأوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتله مثنون من الرهبان الصالحين فقدسوه باعمالهم وبر حياتهم ويشهد على ذلك المسعودي في كتاب التنبية حيث قال (ص ١٩٣) : « ودير مارون بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه آلات من الذهب والفضة والجوهر شي . عظيم فخر به هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » . فلا شك ان بناء عظيم كهذا لم يخرب دون ان يبقى منه شي . من آثاره . وان قيل ان خرابه سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياها . اجبنا ان هذا الدير كان موقعه بعيداً عن البلاد الآهلة بالسكان كما ان قلعة المضيق اصبحت منذ اجيال متعددة معزلة عن الطرق اللاحقة

- (١) وليس كما زعم حضرة الخوري فبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكن ان نسلّم بما جاء في ذيل الصفحة نفسها
- (٢) قلنا ٤٠٠ راهب . ولعلهم كانوا اكثر والثابت المقرر ان عدد القتلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فر منهم كثيرون هاربين . وسيأتي قريباً ذكر دير آخر قريب من دير مار مارون بلغ عدد رهبانه سنة آلاف راهب بنيف

فلم يكثر فيها الحُراب والنهب فلا ريب ان تكون ايضاً آثار هذا الدير الذي عُرف باسم دير البلور باقيةً بجوارها حتى اليوم

٦

اثبتنا في ما سبق انّ القديس مارون عاش وتوفي في القورسيّة . وفيها دُفن ايضاً ليس بعيداً عن مكان وفاته . وذلك واضحٌ لمن اعتبر قول توادوريطوس . وقد أدّى بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبياً من قورس . وكأني بالقاء يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التساقض ويشك في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّا لا تناقض في ما قلنا . وان يكن في الامر مشكل . وانما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص

اعلم انّه لا يُعرف نصٌ واحد يذكر صريحاً انّ جسم القديس مارون دُفن في افامية . بل في قول توادوريطوس ما هو عكس ذلك . وانما يثبت التقليد انّ رأس الناسك القديس بعد خواب دير القريب من افامية نُقل الى لبنان

اما ذخائر القديس فلا نعلم أنُقلت ايضاً بعد وفاته ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتتملاً ولعلّ الباحثين يجدون حلاً لهذا المشكل في التفاصيل التاريخية النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها

وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطوس في رسالته الـ ١١٩ ديراً « موقعه على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيه وهو يسميه ديرهُ كأنه عاش فيه العيشة الرهبانيّة ١)

ونعرف فضلاً عن هذا الدير قرب افامية ديراً آخر شهيراً وهو دير مار بسّوس ٢)

١) انّ توادوريطوس كان راهباً الى سنة كهنوتيه فدخل في جملة اكليرس انطاكية
٢) راجع كتاب العلامة رونس دوغال في الآداب السريانيّة (ص ٣٥٣) والمجلة الشرقيّة الالمانية (ZDMG, XXX 217)

الذي نشر عنه الخوري شابو كتاباً موسعاً (١) ومما ورد في اثنتائه أن عدد رهبانه بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١). ألا أن صاحب هذا الكتاب قد وهم بقوله أن هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة (٢) والصواب أن دير مار بسوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببه ولا نخال أن الكتبة خلطوا بين دير مار بسوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليه أن الديرين اسماً مختلفاً فضلاً عن أن دير مار بسوس اضحى بعد قليل مركزاً للبدعة اليعقوبية (٣)

فوجد عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك المناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حرج بعد ذلك ان نسلم بصحة ما رواه الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنه ومما اخبر به توادريطوس ايضاً أن القديس الناسك مرقيان القورسي ارسل واحداً من تلاميذه اسمه اغاييتس فوكل اليه بان يعتمر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نيقوتتا (Nixepota) وهي بلدة واسعة كثيرة السكان ابنتى فيها اغاييتس معهدين لتعليم الحكمة السموية دُعي الواحد باسمه . وجمع فيها فوق المئتي راهب تجندوا للفضيلة ولازموا التقي (٤) . وقد ورد اسم نيقوتتا هذه في كتابين يونانيتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانية (٥) تحت العددين ١٨٥٥ و١٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانية المصونة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولى رئاسة دير نيقوتتا . أما نيقوتتا المذكورة فليس لدينا نص صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لقلّة ما نعلم من امور تلك الناحية (٦)

- (١) J.-B. Chabot: *La légende de St Bassus et son couvent à Apamée*, راجع 1893
- (٢) قد جاء في مجلّة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (KOC. p. 1902, 611.)
- (٣) راجع ايضاً مقدّمة الخوري شابو (ص ٩٥ و ٩٦)
- (٤) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٣٨)
- (٥) CIG, 9855 et 9877
- (٦) طالع ما كتبه في هذا الصدد الاستاذ هرغان (ZDPV, XXIII, 145)

ولعلّ سائلاً يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغايتوس في جوار افامية ؟ اجبتا انّ هذا لرأي سبقنا اليه حضرة الاب جوليان اليسوعي في كتابه عن جبل سينا وسورية (١) « ولا نرى داعياً لانكاره اذ انّ درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب وله سند في التاريخ لانّ وفاة القديس اغايتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون . على أنّنا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمه بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحمص على ضفة العاصي ليس بعيداً عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٢) »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات منذ زرنا هذه القرية الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شالها الغربي على ضفة العاصي الغربية ووجدنا فيها آثاراً قديمة بيد انّ نظرها لم يُعدل بنا عن رأينا وفي حججنا السابقة ما هو كافٍ لبيان . وعندنا انّ حضرة الاب جوليان خُذع بما كتبه المؤرخ الشهيد صاحب حمة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها . ثم غرّه ايضاً اسم « الدير الكبير » الا انّ سالتامة ولاية سورية روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلّ الصواب « الضهر (الظهر) الكبير » كما سمعناه او فهمناه من اهل القرية وهذا الاسم يوافق المسمّى لان القرية على ظهر ربوة

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان الى رأي آخر نستلفت اليه نظر القاري . قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياته على البحث عن لبنان وتاريخه : « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القس في ناحية افامية الذي وجّه اليه القديس يوحنا فم الذهب رسالة (٣) هو القديس مارون عينه (٤) لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبة اليونان في سورية وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانية فشاع هذا الاسم في الناحية . امّا تلتقيهُ

(١) P. M. Jullien s. j. : *Sinai et Syrie*, p. 178

(٢) في صفحة ١٧٨

(٣) هي الرسالة ٥٢ وهي غير رسالته الى مارون الكاهن

(٤) هذا زعم لا يمكننا التسليم به اذ انّ فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافاً لما نعرفه عن القديس مارون

بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانه تبجيلاً له فاقتدى بهم فهم الذهب
« ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم
القديس سمعان والآخر باسم القديس اغابيتوس (١) وتؤيد هذا الراي المخالف للراي
العمومي رواية توادوريطوس في تاريخه (٢) الذي يفيدنا ان جمهور الرهبان الذين اتوا
من القورسيّة الى بلاد افامية لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك
مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لأن المؤرخ المذكور افادنا انه لم يخرج احد
من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٣) ولا يبعد ان تلاميذ القديس
مارقيان وكان اصلهم من بلاد قورس (٤) دعوا احد الاديرة التي شيّدوها في بلاد
افامية باسم القديس مسارون لا كرامه الا ان كلام توادوريطوس صريح في القديس
مارقيان حيث قال : « ومارقيان الالهى هو الذي انشأ كل اديرة بلاد افامية (٥) »
فلا يمكن اذن ان يُنسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون . . . ومن
ثم لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليه القديس يوحنا فم الذهب برسائيه
كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٦) هو منشى الدير وان عُرف باسمه اولاً
دير القديس مارون . هذا ونقر ان الافادات التاريخية في هذا الخصوص لمخلّة جداً .
ومن المحتمل انهم لم يميزوا بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوباً
في بعض النسخ ماريان (٧) »

هذا ما رواه الاب مرتينوس في تاريخه وهو زعم نوره على علّاته دون ان نحكم
فيه (٨) . وما يزيده بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان
ذائعاً مستفيضاً حتى ان معاصريه شيّدوا بيعة على اسمه قبل وفاته أفيستغرب احد

(١) راجع توادوريطوس في تاريخه المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٢) في المجلد والصفحة عنهما

(٣) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)

(٤) او على الاقل كبارهم الذين شيّدوا الاديرة

(٥) تاريخ الرهبان (ع ٣)

(٦) راجع رسالة القديس يوحنا فم الذهب الى

(٧) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩

(٨) الا زعمه بان ماري ومارون اسم واحد فأننا لا نسلم به

ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى انحاء افامية ان يخلدوا ذكره بابتداء دير على اسمه . وعلى كل حال لو صح هذا الرأي لفضّ المشكل الذي نحن بصدده ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفي في القورسيّة . وما لا شبهة فيه ان في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا ان رهبان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمه الطاهر كله فلا عجب ان يكون التعبد للقديس امتدّ الى كل جهات بلاد الشام

امّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فيفيدنا به ابو الفداء اذ يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) ان الملك مرقيان وسّع في السنة الثانية للملكه اعني سنة ٤٥٢ . ولما تحمل اليعاقبة على ابنته فاخربوها (١) في اوائل القرن السادس اعاد بناءه الملك يوسطنيان الكبير (٢) الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥ وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخه ان هرقل الملك تفقّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لما رحل ظافراً الى سوريّة فوقف عليه اوقافاً عديدة (٣) . وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مفاوضات ذكرها ابن العبري في تاريخه الكنسي وقال ايضاً ان الموارنة اخذوا من اخصاصهم عدّة كنائس أبي هرقل ان تُرد الى اليعاقبة (٤) . ولم يزل هذا الدير زاهراً في سنة ٧١٥ كما ورد في نص سرياني نشره الحوري نو ترجمته بالفرنسيّة (٥)

والمظنون ان خراب هذا الدير تمّ في القرن التاسع فاضطرّ رهبانه ان يأتوا الى لبنان مع سكّان الناحية المجاورة له . وفي قول المسعودي الذي اردناه سابقاً ان دير القديس مارون كانت اغتالته في عهده (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان

(١) وقيل انه خرب بزلازل

(٢) راجع كتاب پركوبيوس في الابنية (ك ٤ ف ٩)

(٣) راجع اعمال آباء اليونان لمسين (PG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ٢٦ من الجزء الثاني من تاريخ ابن بطريق 269 Eutychius, ed. Cheikho, II

Chronicon Eccl. I, 270-274 (٤)

Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier, 1903, p. 346 (٥)

فخرب . ثم لا تعود ترى له من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى ان ياقوت الرومي لم يذكره في معجم البلدان مع انه افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان . وكذلك تصفحنا تأليف جغرافي العرب المتعددة لعلمنا نجد شيئاً عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدًى ولم نقف على ضائقنا مع ان هؤلاء الكتبة كروا مراراً اسماء الاديار الشامية ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيه ذكرها

وهذا لعمرى من الامور الغريبة ان ديراً طار اسمه في البلاد مدّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سورية الديني يصبح بعد مجده نسباً منسياً لاسيما ان دير القديس مارون لم يكن ديراً منقطعاً لا نفوذ له بل كان يدخل تحت حكمه اديار أخرى تعرف له حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سورية الشمالية وسورية الوسطى فان اديرتها الرهبانية كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرئاسته بقية الاديار المجاورة له (١) . وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدت رئاسته على سائر اديار سورية الثانية . غير انه يعزّ علينا ان نبين حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها . فلا نعلم اكانت هذه الرئاسة شرفية محضاً او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقية الاديرة . كما انه يصعب علينا ان نبين اصل هذه السلطة فلا ندري اكانت ناتجة عن تفرع دير من آخر او بارادة منشي الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانية من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصة لا يُستطاع حلها سهلاً

وعلى كل حال ان تقدم دير مار مارون ورئاسته على بقية الاديار لمن الامور الحريّة بالاعتبار فان ذلك يبين لنا كيف امتدت سرياً الطائفة المارونية ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايلات الحارجة عنها ايضاً . وعلى رايانا ان كل دير من هذه الاديار المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدّة مركزاً لقلة من المؤمنين الذين غوا عدداً بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون . وفي مقاتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة

(١) راجع ما مكتبة في ذلك العلامة لذلك (ZDMG, 1875 p. 423, note)

لنمرتهم وازديادهم
فيري القارى ان هذا البحث الجغرافي عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث
السابق اعني اصل الطائفة المارونية وكيفية انتشارها (١) وهذا ما حملنا على التدقيق
في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تعد من
اعظم الامم اللبنانية عطرها هذا الرجل العظيم بعيشته وموته

*

وفي الختام احببنا ان نلخص للقراء ما اتسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى
خلاصتها في ذاكرتهم :

١ لا مراة ان القديس مارون عاش ومات في القورسية
٢ ان الراي الاصبوب في مولده انه وُلد ايضاً في القورسية وليس في جوار
انطاكية

٣ دُفن القديس مارون في حدود القورسية الجنوبية
٤ كان موقع دير القديس مارون مهد الطائفة المارونية بين نهر العاصي
واقامية . وهذا مما لا ريب فيه

٥ اما كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نُقلت اليه ذخائره
فامر ان لا يمكن القطع بهما فتسنى ان يحكم غيرنا فيهما حكماً فصلاً فيصريح الحق
عن محضه

٧

في لغات لبنان القديمة

قد استدلل القارئ من الابحاث السابقة (١) ان لبنان مع ما طرأ عليه من تقلبات الاحوال وتماقّب الامم في سكناه لم يزل مقاماً لشعب اصلي كان سامياً يغلب عليه العنصر الكنعاني والآرامي . ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فان التاريخ والبحث اللغوي يثبتان صريحاً ان اللغة الشائعة في لبنان كانت ابداً لهجة سامية

ولنا في اكتشاف مراسلات تلّ العمارنة التي وصفناها سابقاً (٢) ما يرقّي حجّتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . فان في هذه المكاتبات عدّة تقارير ارسلها ولاية صيدا وجبيل ويروت الذين كان لبنان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكلّها باللغة البابلية التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعملهم اجمعون . وهو لصري امرٌ ذو بال يؤخذ منه ان اللغة الاشورية كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة . فينسوخ اذن القول بانّ اول لغة شهد التاريخ على وجودها في لبنان انما كانت لغة سامية اعني البابلية . وقد حاول المقتطف (١٩٠٣ ص ١٧٥) في وصفه لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال : « ان استعمال اللغة الاشورية في المكاتبات السياسية والتجارية لا يكفي دليلاً . . . على انّ اللسان الاشوري كان شائعاً في ظهراي الامة الفينيقية » الا انّ في قوله لسططاً ولو تحقّق نفوذ الامة البابلية في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لما جحد ذلك (٣) والآثار المثبتة على مكان البابليين وكلمتهم الراجعة في هذه البلاد لعديدة حتى ان كثيرين

(١) راجع الفصل المعنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامة المارونية » الخ

(٢) راجع مقالنا « احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح » (في الجزء الاول

ص ٧١)

(٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هذا الصدد حضرة الاب دي لائر اليسوعي

(P. Delattre : Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien)

من العلماء المبرزين كفنكلر (١) وغيره يزعمون أن مملوك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد العبيد وأن القبائل البابلية التي كانت على ضفة نهري الفرات ودجلة امتدت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسط . وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليين بين اسم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث . وما لا يُنكر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان المواد البنائية التي وجدت في اخربة بابل مما نقل من لبسان كالارز والرخام الابيض والحجارة . أفيسُتَغَرَب بعد ذلك كون اللغة البابلية انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان سيطرة اللغة البابلية في الشام امتدت الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصر في مكاتبات تلّ العارنة وجد فيها الفاظاً وتعابير من اللغة الكنعانية وهذا ناتج عن استيطان قبائل الفينيقيين والكنعانيين قبل ذاك العهد سواحل الشام ولم يلبث الاراميون أن يتعمقوا آثارهم ويجمعوا بهم (٢)

واعلم ان اللغة الكنعانية (التي تشمل العبرانية والفينيقية) واللغة الآرامية متجاورتان حتى تغلبت الآرامية وصار لها السبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل . على ان بعض معاملات لبنان لاسيما ما كان منها مجاوراً للمراكز الفينيقية الكبرى ثبتت مدة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقية

فمن ثم لا نشط اذا قلنا ان اللغة الآرامية ملكت دون منازع في لبنان مدة ثيف والـ ألف سنة . قال المؤرخ مُنْسِن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الروماني « ان لبنان بـ حصر الكلام لم يغير قطّ عنصره (٣) » اعني انه بقي آرامياً جنساً ولغة الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للغة الآرامية وكان ملوكها يتخذون هذه اللغة كاللغة الرسمية ليس فقط في بلادهم لكن ايضاً في

(١) راجع كتابه الاخير، H. Winckler: *Keilinschriften und das alte Testament*,

1903

(٢) راجع كتاب فنكلر Winckler : *Die Voelker Vorderasiens*

(٣) راجع تاريخه (Roem. Gesch., V, 418)

الإقطار الخاضعة لهم كمصر وآسية الصغرى . والاكتشافات الأثرية في مصر تؤيد ذلك فإن العلماء وجدوا عدة كتابات اصدرها ولاية الفرس باللغة الآرامية . وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فإن رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانية (١)

*

أما السلوقيون فإن نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيما من حيث اللغة فإن اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآرامية مزوجةً باللهجة الفينيقية . ومن عجيب الأمور أن انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسية السامية أعني في سورية وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢) الآن اللغة الرسمية بين عمال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانية في كثير من تلك البلاد دون أن تشيع في عامتها (٣)

ثم تولى الايطوريون على لبنان (٤) فلم يغيروا شيئاً من لغته وكان الايطوريون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون . ومع كون المؤرخين لم يصرحوا بأية لغة تكلمت قبائلهم لأنشك في أن العربية أو الآرامية كانت لغتهم الخاصة كما يستدل على ذلك من اسمائهم وهي عربية أو آرامية وان سلمنا انهم تكلموا بالعربية لا نرى بدءاً من القول بأنهم اتخذوا الآرامية كلغة معاملاتهم وذلك لأن الطرق التجارية بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغيين كانت تحولت الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقاً في سورية الشمالية وسورية الوسطى فصار العرب وسطاً لهذه التجارة الواسعة . ولما لم يكن للعرب وقتئذ كتابات خاصة اضطرتهم الامر ان يتخذوا اللغة والكتابة الآرامية الشائعة في حدود بلادهم بين مجاوريهم الآراميين أما النبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فإن لغتهم النبطية لم تكن سوى

(١) راجع مقالة كاترمار عن النبط ١٣٧. Quatremère: *Mém. sur les Nabatéens*, ١٣٧.

(٢) راجع المجلة الاسيوية الألمانية ١٨٨٥ p. ٣٣٣. ZDMG, ١٨٨٥ p. ٣٣٣.

(٣) راجع مقالة الدكتور شندا عن الآراميين ٤, ٢٣ etc. Sanda: *Die Aramaeer*, ٤, ٢٣ etc.

(٤) راجع الصفحة ٣٩

لهجة آرامية . وامتدت اللغة الآرامية في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منه . والادلة على ذلك كثيرة فان الكتابات التي وجدت في كل تلك الانحاء انما هي بالآرامية ليست بالعربية (١) وما قلناه عن الشام وجزيرة العرب يصح أيضاً عن شبه جزيرة طورسينا وفيها كتابات آرامية لا تخص ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فن ثم نصادق تماماً على قول العلامة لذلك وقوله حجة في زماننا عند العلماء : « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانية ثم الآرامية ثم العربية » . وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدم على هذه اللغات اللغة البابلية الا انه لما كتب هذه العبارة لم تكتشف بعد مراسلات تل العمارنة . اما اللغة الفينيقية فان الآرامية محت آثارها في لبنان كما في سورية كلها في قرون النصرانية الاولى (٢) أما اللغات الاخرى غير السامية فانها لم تنزق بالسيطرة في لبنان . واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانية وجدنا ان اللبنانيين لم يتكلموا بها مطلقاً . وقد بينا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانية التي وجدت في لبنان (راجع الصفحة ٣٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامة كما ان وجود الكتابات اللاتينية المتعددة فيه لا يدل على ان اهل لبنان تكلموا بهذه اللغة . وعندنا ان هذه الكتابات لم يفهمها غير العمال الذين آثروا بصنعها . ولا نستثني من هذا الحكم الصناع الذين حفروها فانهم كانوا ينقلونها ثقلاً ويصوروها دون ان يفهموا على فحواها

*

وقد زادت اللغة الآرامية شأناً بدخول الموارنة في لبنان فاضحت في أظهرهم اللغة الوحيدة مدة اجيال متوالية . وتشهد على ذلك اعلام قرى لبنان التي هي في الغالب

(١) راجع مقالة كاترمار في التبط (١٣٣ و ١٣٤) وقال المسعودي في كتاب التنبيه (ص ٧٩) : « وكانت بلاد العرب اليوم وبرها ومدرها اليمن وحماة والحجاز واليامة والعروض والبحرين والشجر وحضرموت وعمان وبرها الذي يلي العراق وبرها الذي يلي الشام . وهذه الجزيرة كلها . . . لساها واحد سرياني » . راجع ايضاً مقالات لذلك ZDMG, 1871, 122 ومقالات فنكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesel*, 1901; 130) وكراسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, p. 9)

(٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p. 430

مشتقة من اصل سرياني كما بيّنا ذلك سابقاً وسيأتي بيانه بنوع اجلي ولما ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربية تنتشر شيئاً فشيئاً في جهات لبنان . وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (الصفحة ٣٩) ثم دخول المتأولة والنصيريين من بعدهم (١) الا ان اللغة الآرامية دافعت عن حقوقها مدافعة جيدة ويؤخذ من كلام يعقوب دي فيتري من كتبة الحروب الصليبية ان العربية امتدت في الجبل اي امتداد (٢) ومع ذلك ان ابا الفرج ابن العبري (٣) كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانية كلغة اهل لبنان الا ان لغة العرب لم تزل في نمو وانتشار حتى غلبت السريانية شقيقتها في القرن الخامس عشر لكن هذه لم تتوار بالتام الا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخلية كبشري وحصرن وجيتريها يتكلمون بها حتى في القرن السابع عشر (٤)

وبقي من آثار السريانية بعد دخولها ان كثيرين اتخذوها كتابة المؤلفات العربية كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكوشوني . هذا فضلاً عن عدة الفاظ وتعايير سريانية باقية في لهجة اللبنانيين (٥) تنبئ بما كان من السيطرة ل لغة الآراميين في لبنان بل قل في اكثر انحاء المعمور القديم . كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشورية التي وجد من آثارها كتابات راقية الى ٤٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسية الغربية واضحت السريانية مدّة اعصار عديدة حتى بعد القرون المتوسطة لغة علماء الشرق كما كانت اللاتينية لغة علماء الغرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٦) . وقد كتب بها الارمن مدّة قبل انتشار الارمنية وحروفها . وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى اقاصي الشرق في الصين شمالاً وفي الاقطار الهندية جنوباً كما انها بلغت جنادل النيل . فلا نظن ان لغة اخرى حتى ولا اليونانية جارت السريانية في اتساعها اللهم الا الانكليزية في عهدنا

(١) راجع مقالتنا الافرنسية عن النصيرية في لبنان (مجلة الشرق المسيحي، 1902، ROC)

(٢) تاريخ القدس . ف . ٧٧

(٣) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)

(٤) راجع مقالتنا «فرا غريفون» في (السنة الاولى من المشرق (ص ٥٧)

(٥) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلة الاسيوية الباريسية (١٨٩٨ ص ٢٨٦)

(٦) فيها (ص ٢٤١)

فترى شطوط القائلين بأن اللغة الآرامية كانت لغةً خاملةً بربرية . وقد فُتد المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانس مثل هذا القول . والارجح ان اوريجانس نفسه كان يعرف هذه اللغة . ويقتبس من انوارها . وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرفوا الشرق بهلومهم كاسابيوس القيصري . وتوادوريطوس ويوحنا الدمشقي والي قرّة . وغيرهم وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانية واتساع نطاقها في العالم

٧

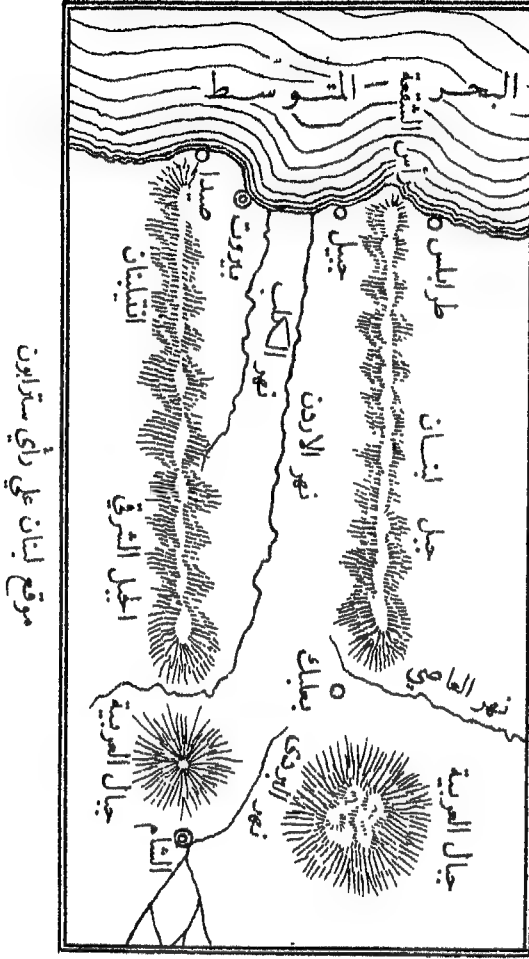
رسم خرائط لبنان

لا يجهل احد فائدة الخرائط في الدروس الجغرافية . فلولاها لضرب المدرسُ الريح وكتب على صفحات الماء . فيكون مثله مثل استاذ الطبيعيات لا يُثبت تعليمه بالعمليّات او مثل مدرّس الرياضيات لا يقيّد علمه بالتمرينات الحسابية ولكن اين هذه الخرائط ؟ فانّ لبنان الذي عليه مدار دروسنا محصور الحدود وليس له خرائط خاصّة به الاّ اللزر القليل . امّا خرائط سورية العامّة فان مقياسها قصير حرج فلا تجد فيها للبنان مكاناً يُذكر مع انك لو اردت درس هذا الجبل لا ندحة لك من خرائط كبرى ذات مقياس واسع ومثل هذه الخرائط عزيزة الوجود

*

اول من وصف لبنان سترابون الجغرافي العظيم الاّ انه اخطأ في هذا الوصف ونخطائه كان سبباً لاوهام الذين اتوا بعده . وقد اثبتنا عند ذكرنا لبنان ووجهة امتداده وحدوده في كور الاجيال (راجع ص ٦) ما ارتأه هذا الكاتب الشهير في حقّ لبنان اذ بدل وجهته فظنّ انّ هذا الجبل والجبل الشرقي يتدّان من الغرب الى الشرق بدلاً من الجنوب الى الشمال . اعني انه كان يجعل احد طرفي هذين الجبلين عند بحر الشام والطرف الآخر عند دمشق كما ترى في الرسم الذي نثبتته في الصفحة التالية فلمعري انّ مثل هذا الوهم كان من شأنه ان يشوّه صورة لبنان كما تُشوّه صورة الانسان لو جعلت قدماه في رأسه ورأسه في قدميه . ومع سوء هذا التصور للبنان نال رأي سترابون الخطوة لدى كثيرين ولم يقدر بلينيوس الطبيعي وغيره من اصابوا الرمي في تعريف موقع لبنان ان يبطلوا هذا المزعّم

ثم جاء العرب
ووصف كتبهم البلدان
وفي حملتها لبنان ولا
تراهم يجورون عن
طريق الصواب في
رسم وجهته إلا أنهم
لم يحسنوا بيان حدوده
فربما ادخلوا في لبنان
جبالاً ليست منه . ثم
أن تأليفهم بقيت مجهولة
في أوربة الى القرن
الثامن عشر فكان
مصطنعو الخرائط
يستندون الى اقوال
سترايون فيرسمون لبنان
كما تخيله هذا الجغرافي .
منهم العلامة بشارت
في كتابه « الجغرافية
المقدسة » وسلاويوس
صاحب « العالم القديم »
وكلاهما من مشاهير



موقع لبنان على رأي سترايون

صورة لبنان على زعم سترايون

الكتاب ازهرا في القرن السابع عشر

ومن أول الذين عاكسوا هذا الوهم الهولندي ادريان ريلاند (Reland) في كتابه
عن فلسطين (١) . وكان أول امره يذهب في ذلك مذهب اسلافه إلا أنه لحسن
حظه وقف على رحلة كتبها الانكليزي هنري موندل (Maundrell) كان وصف فيها

سفرًا بأشده في أواخر القرن السابع عشر من حلب الى اورشليم وأكثر فيه من التفاصيل الجغرافية . فنبه هذا التأليف افكار ريلند واستفاد من خريطة كان رسمها موندزل المذكور ولم ينشرها بعد

فكانت هذه أول خريطة للبنان وهي بالنسبة الى معارفنا اليوم محزنة من وجوه عديدة كأنها عمل تلميذ لا يُحسن الرسم فلا تكاد تجد فيها سوى بعض أسماء الامكنة الواقعة على ساحل البحر دون مراعاة للمسافات التي بين الانهار ومواقع المحلات . أمّا جهات لبنان الداخلية فهي خاوية ليس فيها اسم بلد اللهم الا بحيرة اليثونة . ومع هذا ترى صاحبها قد اصاب في رسم وجهة لبنان والجبل الشرقي وجعل الجبلين موازيين مع الاشارة الى سهل البقاع المنبسط بينهما . وتلك نتائج حسنة بالنسبة الى ذلك الزمان لاسيما ان ريلند كان مهّد بهذا العمل الطريق لمن يأتي بعده وازال العقبات التي كانت تحول دون الترقى الجغرافي في درس لبنان

هكذا نشأت أول خريطة لجبلنا فكانت مع نقصها اساساً بنى عليه كتبة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فحسنوها وكمّأوها . وقد اشتهر بينهم الجغرافي الجرمني كرل ريتير (Ritter) الذي افرد لوصف لبنان قسماً كبيراً من المجلد السابع عشر من تأليفه المعنون « الجغرافية المقابلة » وهو اوسع وصف يُعرف لهذا الجبل لم يقف شيئاً من محاسنه وفوائده بعد نصف قرن من عهد ظهوره

الا ان الخرائط اللبنانية في هذه المدة لم تحط كهذه الخطوات في سبيل التقدم بل بقيت على خللها . وانما كان اصحاب خرائط سورية يقتصرون لبنان بمكان صغير فيثبتون خريطة ريلند السابق وصفها مع شيء من التحسين في الدلالة على مصب الانهار ونتوءات الارض وقياس المسافات وكذلك ترى زيادة في أسماء القرى وذكرها لاقيسة علو الآكام والقمم وقد امتازت بين هذه الخرائط خريطة فلسطين للرسم الالمانى الشهيد هنري كيبرت (H. Kiepert) التي نُشرت في سنة ١٨٥٦ ادرج فيها صورة جبل لبنان ولكن هذه الخريطة كانت على مقياس ١:١٠٠,٠٠٠ فلم يمكن صاحبها لضيق المكان ان يتسع في ذكر هذا الجبل واعماله . ثم اعاد كيبرت رسم خرائط سورية غير مرة دون ان ينال لبنان حظاً اوفى من المرة الاولى وبعد سنتين لظهور خريطة كيبرت ابرز سنة ١٨٥٨ الضابط الهولندي فان دي قلد

(Van de Velde) خريطة حسنة للاراضي المقدسة جعل حدودها الشمالية لبنان الى النهر الكبير . وكان مقياس هذه الخارطة $\frac{1}{10,000}$ اعني انها كانت نحو ضعف خارطة كيبرت فنال لبنان حظاً منها وهي تستحق ذكراً خصوصياً ليس فقط لسمتها لكن ايضاً لسير صاحبها على طريقة علمية . فان راسمي الخرائط السابقة كانوا بنوا رسومهم على اقوال اهل الرحل والمسافرين الذين دونوا ملاحظاتهم بدون آلات رصدية او بلا تدقيق كاف في الرسوم او الحسابات التريغومترية . فاراد فان دي قلد ان يسد هذا الحلل فطاف جهات فلسطين لهذه الغاية امّا لبنان فانه لم يُجر فيه غير رصد قليلة بنفسه لكنّه وجد في بعض زملائه ما اغناه نوعاً عن ذلك فان الاميركي روبنسن وقنصل بروسية في دمشق العلامة ونستين كانا باسرا بعض هذه الرصود . وكذلك كان ضباط البحارة الانكليزية قاسوا سواحل لبنان والجهات المجاورة لها . فانتفع فان دي قلد من هذه المساعي العلمية الجليلة ورسم خارطته وفقاً لها فجاء عمله محكماً وافياً يُعدّ بروزه كنقطة مهمّة في تاريخ خرائط لبنان (١) ثم زار فان دي قلد ثانية جبل لبنان وطبع خريطته بعد مدّة فزاد في تحسينها وتلافى شوائبها

هذا ومع فوائد الخرائط المذكورة لم يتفرغ الى ذلك العهد احد من العلماء لرسم خارطة خاصّة بلبنان دون سواه حتى نهض لهذا العمل الجليل قوم من ضباط البعثة الفرنسية الى سورية فرسموا بعد الرصود واقيسة مواقع الامكنة خارطة للبنان تُعرف باسمهم مقياسها $\frac{1}{10,000}$ طولها ٨٩ سنتيمتراً في عرض ٦٧ اودعوها من اعلام الامكنة ما لم يسبقهم اليه غيرهم وهي تحتوي ليس فقط اسما معاملات لبنان بل تمتد ايضاً الى الجبل الشرقي والبتاع وبلاد بشارة

ومن محسنات هذه الخارطة ان اصحابها كروا اقيسة الارتفاعات التي قام بها سابقاً القنصل برتون الانكليزي مع غيره من العلماء الاميركان والانكليز والالمان وكتلوها . واصلحوا ايضاً اغلاطاً اخرى عديدة كما انهم اتقنوا تصوير لبنان في سلسلته الكبرى وفي الفروع المتشعبة منه مع حسن رسم الجادة ومشارف ومنعطفاته ووجهة اوديته وكل حزونيه وبطونه فضلاً عن طرقه وعقباته . وكانت هذه الفوائد مدوّنة في الخارطة

على احسن هيئة واجود نظر
ولما ظهرت هذه الخارطة الفرنسية في غضون سنة ١٨٦٢ استحسنها فان دي
قُلد لكتنه ودّ لو ألحقها اصحابها بشرح يرشد القراء الى بيان طرائقها والادوات
المستعملة لرسمها ومركز اقيسة مثلثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم
وتحقيق صحتها. وقد انتقد غيره على هذه الخارطة فاخذوا عليها بعض المآخذ منها ان
اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحرية التي كان الانكليز يقومون برسمها آنسدر
تحت نظارة الكومندان منسيل . فمن اين يا ترى هذا الاختلاف واي الفريقين هو
المحقق او المحقق ؟ فانّ الرسّام ريشرد كيبرت بن هنري كيبرت الشهير اعلن ان
اقيسة الضباط الانكليز لا تخلو من الخلل (١) وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا
اطيب الثناء على الخارطة الفرنسية للبنان (٢) التي يوجّه كون اصحابها استفادوا من
اعمال الضابط الفرنسي ديمولين (Desmolins) في اقيسته الساحلية . وزد على ذلك
انّ العلامة النمساوي دينر (Diener) من علماء الجيولوجية قد استصوب عمل
الخارطة نفسها

ومتّحّن لم يستحسنها السيّد ايزابل بروتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣) بيد
انّ رأيها ضعيف في رسوم الخرائط ولعلّها ارادت بهذا الانتقاد ان تبين فضل خارطة
زوجها التي ليست بشيء . على رأي كيبرت . وكذلك الدكتور پوست من اساتذة
الكلية الاميريكية في بيروت فانه « وجد الخارطة الفرنسية قليلة الضبط في تعيين مواقع
الامكنة كثيرة الاغلاط في تدوين الاعلام العربية (٤) » ونحن وان كنّا نسلّم بما فوط
في خارطة الضباط الفرنسيين من الاوهام في تعريف بعض مواقع الامكنة نرى انّ
اغلاط الانكليز والاميركيين في الاعلام العربية اكثر وافظع كما اشار الى ذلك العلماء
الالمان كالعلامة سوسين (٥) فيصحّ فيهم المثل « أيها الطيب اسفر نفسك »

(١) راجع ملاحظات في ملحق رحلة البارون فون اوينيم الى خليج المعجم ج ٢
ص ٣٩٦ و ٤٠٥

(٢) راجع المجلة ٧٥، ١٨٦٥، PEF

(٣) راجع الكتاب ٩٥، ١، Unexplored Syria

(٤) راجع ٢١٩، ١٨٩٢، PEF

(٥) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية ٤٥، XIII، ٢٤٣، V، ٢٤٢، IV، ١٧٩، III، ZDPV

والرأي الأرجح عندنا في خارطة لبنان التي رسمها الضباط الفرنسيون ما قاله فيها ريشرد كيبرت ابن الموما إليه « ان خارطة لبنان حسنة الرسم يروق العين النظر فيها ولكن الوصفين قد بالغوا في وصفها (١) ». فكأنه اراد بذلك ان هذه الخارطة مع ما فيها من المحاسن ليست تامة كاملة . وهو حكم صائب ألا انهما لما كانت الخارطة الوحيدة للبنان انما المرجع اليها في تقويم هذا الجبل . وعندنا ان اصحاب هذه الخارطة لم يطوفوا كل ناحية عكّار . أما جبل اكروم فقد تحقّقنا في رحلتنا اليه سنة ١٨٩٩ ان الضباط الفرنسيين لم يدخاوه مطلقاً (٢) . على ان هذه الملاحظات عرضيّة لا تمس جوهر العمل الذي ادى للعلم ولا يزال خدماً مشكورة . ولا بدّ من الرجوع اليها والاستناد الى معلوماتها الفريدة في بابها حتى يقوم قوم من اهل الضلالة والخبرة فيتداركوا الخلل

ولهذه الخريطة رسم مصغّر الحقّة المسيورينان بكتابه « بعثة فينيقية » مقياسه ١:١٠٠٠٠٠٠ اصطنعه اصحاب الخارطة السابقة انفسهم ألا ان الاعلام فيها قليلة لان المقصود منها انما كان فقط الدلالة على العاديّات في لبنان

هذا وقد ورد آنفاً ذكر خارطة الانكليزيّ منسل البحريّة . وهي مفيدة لتعريف اقيسة عدّة مواقع كما انها تصلح لبيان علو مشارف لبنان الداخليّة . وعلى رأي ريشرد كيبرت لا يُمكن الى تعريفات هذه الخارطة ألا في الخطّ الساحليّ . أما جهات لبنان الداخليّة وتحديد مواقع القرى واسماؤها ووصف الانهار والطرق ومنعطفات الجبل فانّ منسل تصرّف فيها على حسب مخيّلاته (٣) . وقد اثنى الجغرافيّ دينر (٤) على ضبط اقيسة الانكليز في تعريف اعالي لبنان بينما ترى غيره كريشرد كيبرت وبلنكنهورن قد انتقدوا عليها في صحّة ضبطها

*

(١) راجع رحلة اوپنيم السابق ذكرها

(٢) راجع مقالاتنا Notes topographiques sur l'Emésène

(٣) راجع رحلة البارون اوپنيم السابق ذكرها ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥

(٤) راجع كتابه Libanon Grundlinien einer phys. Geogr. von

Mittel-Syrien, 9

وفي سنة ١٨٨٤ نشر الدكتور لورته متقدم المكتب الطبي في ليون كتاباً اسمه «سورية كما هي اليوم» اتقن طبعه وزينه بالتصاوير البديعة وهو يحتوي على فوائد جمة في شأن الجغرافية وخصوصاً تاريخ بلادنا الطبيعي وقد اضاف اليه خريطة فلسطين ولبنان مقياسها استند فيها (على ما جاء في صدر الخارطة) الى اصدق الموارد واحداثها عهداً دون ان يُطلعنا على طريقتيه في اصطنائها غير ان الذي يتصفحها لا يجد فيها شيئاً جديداً والاحرى ان يقال انها دون خارطة البعثة الفرنسية فمن ذلك ان نتوات الجبل ليست بواضحة فضلاً عن كونها غير صحيحة. ثم ان في اسماء الامكنة اغلاطاً عديدة . مثال ذلك انه يدعو بحيرة زينية «الجبية» وكذا دعاه مراراً في الكتاب . اما اقيسة العلو فلا توافق في الغالب اقيسة غيره من الكتبة ممن يوثق بهم . والظاهر من كلام المؤلف انه دون هذه الاقيسة نقلاً عن بعض الادوات الصغرى غير المضبوطة . وخلاصة القول يلوح من درس هذه الخارطة ان صاحبها لم يزد شيئاً على معلوماتنا السابقة وانما نقل ما اتى به الكتبة المتقدمون دون تزوير كافٍ وبلا اجهاد ذهن . وهذه الخارطة مع قلة ضبطها متقنة الطبع تُفيد الذين لا يطلبون الدقة في التفاصيل ويكتفون بنظر عام وهي بالخصوص تساعد على مطالعة كتابه

وهذا الانتقاد والتنبير احق بخارطة الاميركان المطبوعة بالبرية على الحجر سنة ١٨٨٩ . فانها ليست فقط كثيرة الخلل لكنها ايضاً مبهمة لا تقرر لنضارتها العين ولا يأنس بفوائدها العقل . والدليل على قلة ضبطها ان اصحابها لم يذكروا لها مقياساً وانما يقيسون المسافات على مشية الخيل وهي لعمرى دلالة تناسب مجاهل افريقية وما شاكلها من الاقطار اما بلاد متمدنة كسورية فلا ترضى بها

ومن معاييب هذه الخارطة ان نتوات الجبل وسلسلته الوسطى مدلول عليها ببعض الخطوط المخرشبة العمل اما تفرعاته وانجاده ومعاطفه واديتسه فكل ذلك مُهمَل لا ذكر له . وقد أُشير فقط الى مجاري الانهار بعض الاشارة . وعندنا ان هذه الخارطة لا تصلح للمدارس ولعلها تؤدي بالاحداث الى الوهم والغلط . وزد على ذلك ان اسماء امكنة عديدة في هذه الخارطة لم تذكر لضيق المحل . اما صورة الاسماء فهي مضبوطة في الغالب لجبل لبنان لكنها محلة بقبّة انحاء الشام كما لحظ الامر العلامة المستشرق

فإن برّم في المجلّة الاسيويّة (JA, 1895, 490) وأنّا السبب في هذا النقص ان اصحاب هذه الخارطة لم يرسموها رسماً مستقلاً بل اتبعوا فيها الخرائط الانكليزية التي تكثرت فيها مثل هذه الاغلاط ومن اوهامهم انهم جعلوا مديرية هرمل ملاصقة لبنان مع ان موقعها في ولاية سورية وان كانت تخص متصرفية الجبل . وكل هذه الشواهد تنزع عن الخارطة الاميريكية صفتها العلمية ولذلك لا ترى احداً من المستشرقين يرجع اليها في اوصافه . وحكمنا هذا مختص في قسمها اللبناني اما رسم بقية النحاء الشام فقد تعددت فيه الاغلاط وتوفرت اسباب المزلات وتشوّهت الاعلام لكثرتنا نجترى بالاشارة لئلا نخرج عن دائرة موضوعنا

ولا ندحه لنا من ذكر خارطة الدكتور النموسي دينر التي ترى في آخر كتابه عن لبنان المطبوع سنة ١٨٨٦ . والغاية من كليهما جيولوجية لبنان اي تعريف طبقات ارضه ويدخله ايضاً فوائده عديدة جغرافية كوصف ارتفاع الجبال ووجهتها وانعطاف وديانها واقيسة معاليها . الا ان الاستاذ ريشرد كيبرت مرتاب في صحة هذه الاقيسة الاخيرة لعدم وقوفه على اسلوب دينر في تدوينها . وكذلك تراه يذكر بالتخفّظ اقيسة الارتفاع التي اجراها احد معلمي كلية بيروت الاميريكية المعلم روبرت وست ونشرها في مجلة فلسطين الانكليزية (PEF) سنة ١٨٩١ (ص ١٤٧) و ١٨٩٢ (ص ٢١٩) و ١٨٩٦ (ص ١٦٥) . ولا غرو فان هذه الاقيسة لا تراعي درجات الحرارة وذلك امر واجب لضبط قياسات البارومتر . ثم انه اهمل في تدوين هذه الاقيسة رسم خارطة لبنان فينتى القارئ متزعزعا لا يميز النقاط المقيسة من سواها . اما قياسات الدكتور پست الاميريكي فيرتأي ريشرد كيبرت (ص ٤٠٧) انّها ليست ذات شأن . ومجمل القول ان العلماء حتى اليوم لم يضبطوا ضبطاً تاماً اقيسة مشارف لبنان فلا تزال على شك من صحتها هذا ولا يجهل احد من السياح دليل فلسطين وسورية المنسوب الى بيديكرو وهو كتاب كثير الفوائد وضعه عالمان المانيان شهيران سوتسين وبسنينر واصحابه بخريطة للبنان مقياسها ١:١٠٠,٠٠٠ وهي قسمان يحتوي احدهما شمالي لبنان والاخر جنوبه الا انهما شمالاً لا تتجاوز خط طرابلس فلا تتضمن جبل عكار . وهذه الخريطة قد قام بعملها رجل واسع الخبرة في فن رسم الخرائط ألا وهو هنري كيبرت . ومع شهرة هذا العمل وكثرة محاسنه لا يسعنا السكوت عن بعض نقائصه منها ان اعلام القرى اقل

عددًا من الخريطة الفرنسية . ولعلّه اقتصر صاحبها على هذه الاسماء رغبةً في توفير المكان ثم انّ الغاية من رسم هذه الخارطة ليست التعليم المدرسيّ فاكتفى الراسم بذكر الاعلام التي فيها ما تهتمّ المسافرون معرفته . أمّا ضبط الاسماء فيحتاج ايضاً الى اصلاح لئلا تزلّ به قدم المطالعين لاسيّا ان دليل بيديكرو قد اتبع في نقل الاعلام العربية طريقة الحروف المفردة المنقطة الشائعة عند كبار العلماء الاجانب . ولو قصد بيديكرو لا مكنه سدّ هذا الخلل . ولعلّه فعل في طبعة الاخيرة التي لم نطلع عليها . لكن الطبعة الرابعة التي في يدنا تاريخها سنة ١٨٩٧ وهي غير مصلحة ومع هذه النقائص نرى خريطة بيديكرو حسنة يُستفاد من مراجعتها وان لم تُعن عن الخريطة الفرنسية

وفي الدليل عينه خريطة اخرى مقياسها كخريطة البعثة الفرنسية ... وفيها كل ما تتضمن جهات بيروت على مسافة ٢٩ كيلومتراً طوّلًا في ١٩ ك عرضاً فيها كل ما يُوجب اليه من وصف الامكنة . وهي في هذا القسم أغنى من خريطة الضباط الفرنسيين

أما احسن ما وُضع من الخرائط للبنان فهي خريطة حديثة رسمها ريشرد كيبرت الذي تكرر الثناء على براعته في هذا الفن وألحقها بكتاب في جزئين ألفه البارون فون اوپنهيم عنوانه : Vom Mittelmeer zum persischen Golf. Berlin, 1900 . فالخريطة تاريخها ١٨٩٣ غير أنّها لم تتمّ إلا بعد تلك السنة والدليل على قولنا انها تتضمن عدّة فوائد من تاريخ سنة ١٨٩٨ . وهذه الخريطة مقياسها ... وحدودها شمالاً مرعش الى خطّ الناصرة فبُصرى ومن ثم لا ترى فيها لبنان إلا مصغراً . وهي مع ذلك غاية الاتقان ومثال يُقتدى به من حيث رسم الجبل وتعريف عطفاته واوديته ومجاري انهاره وحسن ضبط اعلامه . وخلاصة القول لا نجد في هذه الخارطة غير محاسن اللهمّ إلا اقيسة قمم لبنان فإننا في ريب من صحتها لاختلافها عن الاقيسة المعهودة . مثال ذلك جبل صّين فإن العلماء يحسبون علوّه عادةً ٢٦٠٨ م وقياسه في هذه الخريطة ٢٧٥٠ متراً وكذلك اجمع العلماء سابقاً انّ اعلى قمم لبنان تتراوح بين ٣٠٦٠ متراً الى ٣١٠٠ م والعلامة كيبرت في خريطته يزعم انّ المشارف التي تطلّ على وادي الارز يبلغ بعضها ٣٢١٥ متراً وغيرها

٣٣١٠ م . ولم نعهد احداً من العلماء ذهب الى ذلك الا بُوترن الذي لا يوثق بكلامه من هذا القبيل

على ان العلامة كيبرت يفيدنا في ملحقه انه اخذ هذه الاعداد عن خريطة مخطوطة للخوaja عبدالله طعمه . وعندنا ان العلماء لا يكتفون بهذا السند الوحيد وفي الحتام ان طلب احد رأينا في الخرائط اللبانية اشرفنا اليه ان يقتني خريطة البعثة الفرنسية سنة ١٨٦٠ مع خريطة ريشرد كيبرت وبها غني عن غيرهما الى ان يرسم لنا احد العلماء قريباً ان شاء الله خارطة جديدة تستوفي كل الشروط المرغوبة مستنداً الى الاعمال السابقة مع اصلاح شوائبها

٩

لبنان : بحث في انجاء واغواره

قد اظهرت ابحاثنا السابقة غير مرّة خطر لبنان وعظم شأنه في سورية . فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام « بانها تدرّ لبناً وعسلًا » لا يزال صحيحاً في عهدنا كما صحّ سافراً فليس ذلك الا من فضل الانهر التي تتولّد في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكثّة بالثلوج الغراء في الهواء واحوال الجو . وعليه فانه من الواجب اللازم ان نبين خواص لبنان في وضعه وهيئته وبطونه وحزونه فنشرحه تشریحاً لنقف على دقائمه وخفائمه . وذلك اقوى عامل لبيان مجاري مياهه وتفرّع الانهار على جوانبه كما سيأتي بعيد هذا

*

قال اليزاي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفه للبنان: « اذا ما ألقيت ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطية رأيت من هذا الجبل نظراً مهيباً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشملاً في الشتاء والربيع مجلباب ثلجه الغضبي . واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قمة النازحة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف . وتراه مع عذوبة منظره لا يخلو من سطوة الصلابة والسّم فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم . على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثر هي دون جماله عن بعد . فترى ظهره على طول ١٥٠

كيلومتراً (والاصح ١٨٠ كيلومتراً) اقهب اجد لا تكسوه الخصرة تجد وديانه متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد »

هذا هو الوصف الذي خصه ذاك الجغرافي الشهير بلبنان . وان دققنا من بعده في تعريف هذا الجبل قلنا : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . ومن الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هضبات شتى من آكام وبطون وسهول ورؤى متسلسلة يدخل بعضها في بعض . واذا استثنينا هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة . ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تفرق لها العين في سواه من الجبال وانما البصر يقع على حازر كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قمة العليا تمتاز عن بقية اقسامه

ومن درس جغرافية سررية ورأى تنوّاتها وأفرد لبنان ببصره لا يرى فيه تلك الأطوار العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل فنّو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقريع في جهات انطاكية او الالپ في بروسة فان مثل هذه الجبال تأخذ بمجامع القلب لتحليتها رؤوسها في الجو . أما لبنان فلا اثر فيه لمثل هذه القرون الباسقة التي تنصب ضلوعها المهشمة بالاودية فوق فقراتها الاصلية . وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القن المروسة المدعوة في بعض البلاد الجبلية كبلاد الالپ والبيريناى بالمسلات والابّر والاسنان كما انه خال من القمم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطية . ومجمل القول ان ظهر لبنان ينسبط انبساطاً متساوياً على خط سوي يبلغ معدل علوه ٢١٢٠ متراً تركب فوقه اهاضيب ورواب محدبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصلية

الا ان للبنان خواص اخرى تجعله من الجبال الممتازة ببهاها فمن ذلك تقاطيعه التي ترى في المنعطف الموازي للساحل . فهناك عدد وافر من الاودية والمهاوي والشعاب والأهلاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنها القلاع الحريزة . وذلك ما سهل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة .

وكذلك تعددت فيه الامم المختلفة التي التجأت اليه وتوطنته فاختلفت الانساب وتوفرت المشاكل في تعريف اصولها الشتي

١ اودية لبنان

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تخوط بها المجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنهبطات والبطون هو على خط عمودي بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منه. ولما كان الجبل موازياً للبحر مجارياً لساحله تحدت منه السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق. والمياه قد فتحت لها مسيلاً على خط مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعه الثانوية. ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خط عمودي معترض لثعدت الاسماء. فن ذلك اكثر مجاري السيول كنهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها. واكثر وجود هذه الاودية المعترضة في شمالي لبنان اي في مشارفه العليا حيث تبلغ معظم قوتها

الا ان ظهر الجبل عند بلوغه شمالاً رأس الشقعة يميل ميلاً ظاهراً الى الشرق وتلّسع فروعه الغربية وتنخف منحدراؤه فتري الاودية اللاحقة به تميل معه فتسجّه الى الشمال الغربي وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العمودية الا ان زواياها بالنسبة الى الساحل اقل انفرجاً فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي. واذا بلغت منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت ضلوع الجبل تتسع فيها الوديان على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان ما خلا هذا الاودية العمومية او المعترضة اودية اخرى توازي طول الجبل وتجري معه على خط مستقيم مثال ذلك شمالي لبنان في جبل عكار نهر خالد وما ينصب فيه من الجداول والسيول. ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثير في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فتري مسايل المياه تجاري في سيرها ظهر الجبل في اعاليه حتى اذا بلغت اسافلّه عطفّت بغتة واعوججت على شكل الزاوية المنفرجة. وان اعتبرت اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهات كالليطاني والزهراني والاولي والدامور وجدتها على هذا المثال فانها تجري اولاً من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم تغير على فور وجهتها وتنغذ في مضائق تسيل منها الى البحر على خط عمودي معترض

وليس بين هذه الانهار ما يقطع ظهر لبنان ألا الليطاني وحده فان رأسه على منعطف لبنان الشرقي وهو يصب في البحر منحدرًا الى منعطفه الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينه وبين ضفتي الجبل الذي تحترقه مياهه . ولعل ما ارتأه في هذا الامر العلامة ت . فيشر لا يخلو من الصواب وهو قوله بان الليطاني كان قديماً في اسفل مجراه نهراً متسرباً الى باطن الجبل فلم تزل مياهه تعمل في الصخور التي تخفيه عن النظر الى ان اخترقها وعليه فيكون الجسر الطبيعي الذي يرى حتى الآن في يحجور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيّة من المناظر الصخرية الطبيعية التي جرى تحتها النهر مدة احقاب عديدة

ومما يجدر بنا قوله ان الاودية اللبنانية وتغيرها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعية التي انجزتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطار والمياه الجارية وكلها قد تساطت على صخور الجبل فنقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليه في الامكنة التي ينهبط المسيل بين جدران الجبل المركبة من طبقات صخور نظامية فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبة لبعضها . وكلما ترى في لبنان وادياً ألا وتتنظر آثار المياه على جانبيه فتتعمق علو مجراها سابقاً ثم هبوطها على مدى الاعصار وهذا عمل المياه وجوفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلالية تختلف سعة وعمقاً حُفرت في اواسط الجبل وتتكون من مجموع شعابه ومن انخسافاته وتهوراته . واجمل ما يرى من هذه البطائح بطيحتان الواحدة في لحف صنين والاخرى تُخَيّت المنيطرة . وعند افقا ابطح آخر قليل الاتساع ككثّة غاية في الحسن لما يُجدق به من المناظر البهيّة الآخذة بجماع الابصار

وهي المياه ايضاً حُفرت الألهاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُوتقى . فان السيول بقوتها قد تخلّلت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلابتها ودخلت في قلبها . فمن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيله الاعلى نازلاً عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليه من الاودية كنه صليب . كذلك نهر باروك الاعلى مع ملحقاته ونهر الاولي بقرب جزين . واعظم هذه الالهاب نهر قاديشا فان عمقه لا يقل عن ٥٠٠ متر فيمثل نوعاً مضائق بلاد كولورادو في اميركة فترى فيه المياه تهبط من اعطافه الى اعماقه مزبدة فتسيل متلوية في تلك القناة الطبيعية التي

خرقها رغماً عن صخورها الصماء . وهو لعجري منظر مهيب يزيد روعاً اذا قوبل بما يحفُّ به على جانبي الوادي من الاشجار المتسقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان ولبنان شعاب تصل بين منعطفيه منها المناقب يتوقلها المسافر فيجتاز وسط الجبلين او الربونين متبهماً لمنعرجات الوادي ومنهما الشنايا والعقبات تسير بين الجبلين المنتصبين على متون مرتفعة . مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأقفا التي تُدعى ثنية المنيطرة وتعد من اقدم مسالك لبنان ومنافذه بيد ان مثل هذه الشنايا قليلة في لبنان لاستواء خط قسمه الاوسط في الارتفاع . فان السائر لا يتبطن الغور بل كثيراً ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل . وفي بعض المجازات كمجاز الباروك وصتين وجبل الارز الذي يبلغ علوه ٢٦٠٠ متر ليس فرق يذكر بين الجبل وطريق السابعة

٢ منطقة الثلوج المخددة في لبنان

ان اسم لبنان يشعر ببياض قمه فانه مشتق من اصل سامي " لبن " ومعناه الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخوره الكلسية التي يتركب منها بل لما يتوج رأسه من الثلوج الغراء . فان هذا المنظر في بلاد تنفذ فيها وغرات القيط كان من شأنه ان يؤثر في حيلة الامم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج المخددة . وكذلك المناجج الجليدية المتجمدة فلا اثر لها اليوم . وغاية ما يلقاه المسافر في اعالي جبل الارز مدى احواض في أمن من الشمس تتراكم فيها كميات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف . وهذه المستودعات لا تروى في قمة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في منعطفاته المعتالة عن اشعة الشمس . وكذلك في صتين وفي جبل المنيطرة بعض احواض مستديرة لا تعمل فيها الشمس لا لارتفاع الجبل لكن لكثافة الثلوج المتراكمة . وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا ينقص لبنان الا مئة متر ليلعب علو الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفاً مع شتاء لارتفاعها وقلة حرارتها

ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولوتأمل الناظر من علو الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشفرة لوجده لا يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك ومعظم اتساعه بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك . فيكون لبنان على شكل مربع منفرج عن زاويتي العليوين

٣ وصف قُصَم لبنان

ليس بوسعنا ان نصف كل قمم لبنان المختلفة وتفرعاته المتعددة وانما نذكر منها
اخصها ليكون القراء على بصيرة من امرها

يبتدى لبنان جنوباً عند الوادي العميق الذي فيه يسيل اللباني وعليه تشرف
قلعة الشقيف في علو ٦٧٠ متر من سطح البحر. ثم لا يزال في تصاعد حتى يبلغ ١٠٣٠
متراً عند جبل جرمق ثم يتصل بجبل ريجان الذي به دُعيت احدى مديريات لبنان.
واعلى قممِه هناك ١٦٤٣ متراً. ثم يزيد علواً عند قرنين محدين يدعيان توأمت نيعا
(١٨٥٠ متراً) يراها البحارة عن بعد وكانوا الى القرن الثامن عشر يستدلوا بهما على
موقع صيدا (١)

ثم يرتض الجبل وينضم الى بعضه متواصلاً فيسير قطبه المركزي على خطٍ متساوٍ
كأنه جدار اجد لا نبت عليه فذاك جبل باروك وفي آخره وهدة ظهر البيدر
(١٥٤٢ م) تقطع لبنان الى نصفين وهي نقطة مهمة للمواصلات بين انحاء الشام
وفيها تمر طريقي دمشق والسكة الحديدية التي جعلت لبيروت مقاماً راجحاً في سورية
على انه اذا كان هذا المضيق يقسم لبنان الى قسمين متساويين على التقريب
فان بين القسمين اختلافاً كبيراً في الهيئة فان القسم الشمالي يأخذ في الانبساط وتتسع
انجاده حتى تبلغ عدة اميال. منها نجد جبل الكنيسة (٢٠٣٢ م) ونجد صتين
(٢٦٠٨ م) الذي على شكل مثلث عظيم فيه الشرفات والاغوار والودية يلوح لمن
يرقبه من سهل البقاع كأنه بحر عجّاج. امّا من جهة بيروت فيلتصب هذا الجبل مع
قرنيه الشاهقين فيخلب الابصار بجاسسه ووفرة مناظره

وصتين في علوه ثالث جبال لبنان بعد جبل المنيطرة وجبال الارز. ويبعد عن
هذه الاخيرة ٢٠ كيلومتراً بينهما جبل المنيطرة الممتاز بشعبته المستطيلة (٢٩١١ م)
وفي منتهاها مجاز ظهر القضيبي يربط به السفر من وادي قاديشا الى بعلبك

ثم تبتدى اعلى قمم لبنان ومجموع جبال الارز الذي يلوح للناظر من طرابلس او
من البقاع كأنه سور منيع قائم كالعمود. وهو في الحقيقة نجد واسع مساحته ١٠٠
كيلومتراً مربع وفيه سلسلتان متوازيتان مختلفتان وجهتهما من الشمال الشرقي الى الجنوب

الغربي طولها نحو ١٥ كيلومترًا فيها شعوف ورؤوس متعددة لم يُضبط حتى اليوم قياس علوها كُأُس ظهر القضيبي وجبل المكمل والقرنة السوداء وتيارون فتري الجغرافيين يحددون هذه الشرفات حدسًا فلا يتفقون بالقياسات كما ذكرنا سابقًا في بحثنا عن خرائط لبنان (راجع الصفحة ١٠٦) . وبينًا هناك سبب هذا الاختلاف

كان القائد مُنسل والضباط الانكليزي اقتاسوا علو هذه المشارف بطريقة الرسوم المثبتة . وتبعهم الضباط الفرنسيون سنة ١٨٦٠ في خارطة البعثة الفرنسية دون ان يفيدونا عن طريقة اقيستهم . ثم اورد الجغرافي ر. كيپرت في خارطته قياسات مخالفة للاقيسة الشائعة قبله اخذها عن خارطة الخواجا . طعمه وافادنا عن سبب استناده اليه في رحلة البارون فون اوپنهم (٢: ٤٠٦ و ٤٠٧) قال : « انه فضل هذه الاقيسة لان صاحبها نالها بواسطة ميزان البارومتر الزبقي وهي توافق اضبط الاقيسة دون ان نتحقق ما بينهما من العلاقة » . وهو قول بين المدح والانتقاد يجعلنا في ريب عن صحة هذه الاقيسة واستتلاها . والحق يقال ان في خارطة الميسوكيپرت اوضاعاً غريبة كجعلها مثلاً حماناً فوق عين صوفر . وعليه فأننا نفضل مقاييس المهندسين الانكليز والفرنسيين اذ كانوا مجهزين بالادوات المضبوطة لاتخاذ هذه الاقيسة وهم يُجيدون استعمالها

فدونك بعض امثلة لهذه القياسات لتعرف ما بين الجغرافيين من التباين : ١- تومات نيجا . الحساب الشائع ان علوها ١٨٥٠ مترًا اما دينر فانه يحسب علوها ١٧٨٠ م = ٢- المضيق بين جبل انكنيسة وصتين . تتراوح الاقيسة بين ١٧٥٢ م وهو عندنا الاصح و ١٥٠٠ م = ٣- صتين يجعل برتون علوه ٢٧١٢ م وكيپرت ٢٧٥٠ م . والباقون ٢٦٠٨ م وهو الارجح = ٤- جبل الارز اعلى شرفاته القرنة السوداء ٣٣٦٠ م (عن ر. كيپرت) ثم تيارون ٣٢١٥ (عنه) وهي اقيسة بالغة لم تجد لها في غير خارطة كيپرت . وقد سبق ذكر سنده في روايته اما اصحاب الخرائط الاخرى فأنهم جعلوا ٣٠٦٦ مترًا لقياس أعلى مشارف الارز وهي ايضاً ارفع قمم لبنان . الا ان برتون قد زاد شيئاً على قياس اسلافه وهو مع ذلك لم يبلغ قياس كيپرت وليس لدينا داعٍ يحملنا على نبذ قياسات الاولين . وبعد هذه الملاحظة في اقيسة مشارف لبنان فلنواصل وصف الجبل . فان جبل الارز شمالاً يهبط نحو ٨٠٠ م فتصل به سلسلة جبل عكار (٢١٣٩ م) وطولها ٤٠ كيلومترًا تنتهي شعبها الاخيرة عند وادي النهر الكبير الذي يحده لبنان في شماله كما

يُحدهُ الليطاني في شرقيه وجنوبه والعاصي في شماله الغربي والبحر في غربيه
ولوادي النهر الكبير شأن خطير في التاريخ والاقتصاد . فان الطبيعة نفسها قد
اختطت هذه الطريق فانها الوحيدة من الاسكندرونة الى حيفا حيث يمكن قطع
الجبل بسهولة . لان النهر وبقية العوامل الطبيعية قد بسطت في هذا المكان وادياً
منسماً قليل الانحاء لا يتجاوز اعلاه ٥١٠ امتار . وفي طرفيه سهلان احدهما شرقي وهو
وادي العاصي ينفذ من شمال سورية الى دمشق اوسهل البقاع والآخر غربي ينفذ الى
البحر . ولذلك قد اسرعت الامم فابنت المدن العامرة على طرفي هذه الطريق الطبيعية
فشيّدت شرقاً حصص او مدينة قدس القديمة التي خلقتها لاذقية لبنان . ومن جهة البحر
بُنيت سبيرة التي تعدد ذكرها في مراسلات تل العارنة ثم عرقة وارواد في الجزيرة
المعروفة باسمها واخيراً طرابلس . وقد نالت كل هذه المدن من الحضارة سهماً فائزاً
لان طريق التجارة كانت تمر بها منذ العصور الحالية . وان كانت طرابلس لم تزل حتى
يومنا هذا مدينة معتبرة وتزيد كل يوم ترقياً فان الفضل في ذلك لموتها في طرف هذه
الطريق التجارية واذا ما واصلتها يوماً السكة الحديدية بداخل البلاد وهو امر قريب
المثال كما رأيت اضحت مجارية بيروت تبارنها في تجارتها ونفوذها

*

هذا ومما يستحق اعتباراً في درس هيئة لبنان واحواله الجغرافية صخوره التي
يتوَّكَّب منها . فان هذه الصخور كما سبق القول اغلبها من المركبات الكلسية . والمعلوم
ان الحجارة الكلسية كثيرة التفتت تعمل فيها العوامل الجوية فتحللها ولذلك تراها
منخورة متقطعة ذات نخاريب وثقوب عديدة كأنها الغربال . وبعض هذه الصخور
متراكمة بعضها فوق البعض فيها الشقوق والتخاريم والشرفات يظنها الناظر من بعيد انها
بقايا ابنية قديمة . واذا رقيت اعالي لبنان من علو ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ م وجدت من
هذه الصخور الغريبة ذات التخاريم والشرفات ما يزيدك اندهالاً خصوصاً قرب افقا
وريفون وعجلتون ومزرعة كفرديان وتثودين . وهي قليلة تحت علو ١٠٠٠ م واذا فرمت
الجبل فوق علو ٢٠٠٠ متر لا تجد منها شيئاً لان البرد الذي لا يزال في اكثر السنة
قياسه تحت الصفر لا يحلل الصخر بل ينفذ في قلبها ويشقها شقاً فترى قطعاً تعم كل
قم الجبل حتى انها في بعض الامكنة تتراكم كأن السائر في وسطها يجري في مقطع .

من الحجارة

وكذلك للصاعدة في هذه الثمن فعل لنوارد الانواء في اعالي الجبل . والصاعدة فضلاً عن ضرباتها وسحقها للصخور تحرك الريح والهواء بتدويرها فتدوي لها الاودية وتتأثر منها جروف الجبال فتتخسف او تنساقط . واذا اضفت الى عمل الصواعق فعل الزلازل وفعل المياه في سيلانها فهت كيف يندك الجبل اندكاً ويتقوّض فتتهدّر جنادله الى الاعماق جارفة في مسيرها التربة والنبات

فكل هذه العوامل المخرب تقرب الى الفهم رأي العلامة دندر في تركيب لبنان (١) حيث يقول انّ علو لبنان كان في الاعصار السابعة السابقة لعهد التاريخ اعلى منه اليوم بنحو ٣٠٠ متر فلم تزل دواعي الدمار تسحوه وتجرف تربته الى السهول حتى صار على ما هو اليوم . وهذا امر محتمل فافترض انّ في كل جبل تجرف عوامل الطبيعة خمسة امتار من رأس الجبال فلا يابث ان يصحّ حساب دندر . وان كان هذا القول صواباً ادركنا صحّة قول الأقدمين بان جبلنا كان سابقاً متوجّاً بشارج مخلّدة فدعي لهذا السبب بلبنان اي الجبل الابيض

ومن مفاهيم هذه الجروف المائيّة المغاور والكهوف التي يتأزها لبنان . فانّ الطبقات الكلسيّة الاقنيّة الشكل او المنحرفة انحرافاً خفيفاً كثيرة في الجبل يعترض بينها شقوق او اقسام مختلفة التركيب والصلابة بينها قطع سريعة التفتت وشبكة الانحلال . فاذا جاءت العوامل الخارجية جرفت الاقسام الضعيفة الباطنيّة وتركت الطبقة الكلسيّة العليا فاضحت الصخور على شبه السقف . وهكذا كانت تلك المآوي الاولى التي كان يسكن تحت ظلها السكّان الاقدمون . وبعض هذه المغاور قد احتفرتها عوامل الجو والمياه معاً اذ تسرّت الى باطن الصخور فأثككت قسماً منها وتركت وسطها خلواً على صور اغوار واسعة وكان للبعض منها مداخل طبيعيّة ضيقة فنبعت المياه من داخلها فوسّعتها وجعلت لها دهاليز . كما ترى مغارة انطلياس العليا المعروفة بمغارة البلاني وكمغارتي نهر الكلب اللتين نضبت اليوم مياههما ولا يزال حتى الآن يظهر فيهما اثر الماء

وكثرة هذه المغاور القديمة مكن قبائل عديدة من سكنى لبنان في الاعصار الحالية

كما اثبت ذلك الاب زُموفن في المشرق (١ : ٦٧ و ٣٥٣) . ومن هذه الكهوف الطبيعية ما اصلحه الناس وزادوا في توسيعه أما ليتخذوه مدافن لموتاهم وأما لياؤوا اليه مع قطعانهم او ليسكنوه فهذا كما ترى في مغاور الفرزل وعدلون وهرمل (راجع ج ١ ص ١٠٩) . وربما اضافوا اليه البنايات العظيمة فصارت هذه المغاور كقسم من اديار الرهبان كما ترى في قزحياً وقنوين . ومنها ما زيد في تحصينه فاضحي كالقلاع المنيعه مثل قلعة نيجا الشهيرة في تاريخ القرون المتوسطة باسم شقيف تيرون . وهي عبارة عن صخر قائم عمودياً على علو ٣٠٠ متر . وفي وسطه كانت عدة كهوف وسعها البناؤون فسكنها الجند ولا يبلغ الصاعد هذه المغاور الا بمرق صعب الارتقاء . وفي هذه القلعة تحصن الامير فخر الدين المعني في القرن السابع عشر كما ورد في تاريخ لبنان . وقد وجدنا في هذا المكان كتابة على اسم الملك الظاهر بيبرس بعد ان انتزعه من ايدي الفرنج

وكذلك تُنسب الى جرف المياه الجسور الطبيعية التي في لبنان . فان للمياه المتجمعة سورةً تكسبها من كل الحواجز التي تلقاها في سبيلها ما لم تجد طريقاً اخرى لتجديد عنها . فتتراها تصدم الصخور وتضجها في اقسامها الاقل صلابة فتفتتح لها مجرى يتسع يوماً بعد يوم حتى تجري في مسيل واسع وتبقى الصخور الصلبة فوقها على شبه جسر طبيعي . وطبقات هذه الجسور التحتانية كثيراً ما تسقط لضعف دعائمها التي تعرفها المياه وتسلط العوامل الجوية عليها . وهكذا ذهب الزمان بقسم من تلك المعابر الطبيعية التي كانت تجمع بين معاطف اودية لبنان وتجري فيها السيول الجارفة . وانما بقي منها بعضها الآخر

فن هذه الجسور معبر طبيعي ليس بمعتبر عند العاقورة وهو عبارة عن صخور تثبتها سيول المياه على شبه القبة . واعظم منه شأناً الجسر القريب من نبع اللبن المعروف بجسر الحجر تراه فوق الميل كالقوس العظيمة وهو يأتى على علو ٦٠ متراً وطوله ٣٠ م في عرض خمسة امتار . ومن نظر اليه عدّه طرفه من طرف الدهر قد شادته الطبيعة وجعلته كآية من آياتها التي تسمي القلب بعظمها وحسن صنعها . وفيه من التناسب والاحكام ما حمل بعض الكتبة على ان يزعموا بان ايدي البشر ساعدت على تركيبه . وهو قول بعيد

ثم يوجد جسر طبيعي ثالث على منعطف لبنان الشرقي يمتد فوق وادي الليطاني الزهبي وموقعه على بعد نصف الساعة غرباً من قرية يحجور في وسط الطريق بين جزين وحصيناً . وهو حتى اليوم معبر للسابلة بين القريتين . يدعونه جسر القوة . ونهر الليطاني يسيل تحتة على عمق نحو ١٠٠ قدم وطوله ٢٢ قدماً ومعظم عرضه ٦٨ قدماً ثم يضيق الى تسعة اقدام . وتعلو هذا الجسر طبقة من التربة تلبت فيها الاعشاب والدغل ولنختم هذا الباب بذكر النقطة التي عندها تنتهي المساكن . وهو خط يصعب تحديده لقلّة الاقيسة القانونية الدالة على علو الضياع والقرى . ثم ان هذا الخط يختلف مع اختلاف احوال الجو فان لبعض الامكنة موقعا حسنا يصونها من هبوب الرياح فيمكنها ان تشاد في معالي الجبل ولولا احسن موقعها لما امكن الاهلين سكناها . وفي اوربة قائمة السكّان الذين يبيتون في القرى فوق ١٢٠٠ متر لا تتجاوز ٣٠,٠٠٠ نسمة . امّا لبنان فان القرى التي فوق هذا العلو متعددة كبسكنتا مثلاً (علوها ١٤٣٠ متر) وعين صوفر (١٣٠٠ م) والعاقورة (١٤٠٠ م) . واقل منها الضياع التي فوق ١٥٠٠ م وهي عيناتا (نحو ١٧٥٠ م) واليمنة (نحو ١٥٤٠ م) وعزرتة قرية صغيرة شمالي غربي زحلة (١٥٤٠ م) . وفي الجبّة قرى عديدة علوها قريب من ١٥٠٠ م كاهدن وبشراي والحدث . امّا فوق علو ١٨٠٠ متر فلا تجد الا أكواخاً ومآوي للرعاة وربما اختلفت الكتابة في تعيين العلو لاختلاف مواقع اقيستهم في القرية نفسها . ومن المعلوم ان بعض القرى تشغل في الجبل نحو ١٠٠ م بين اسفل دورها واعلاها امّا النقطة التي ينبت فيها النبات فهي كما لا يخفى اعلى من نقطة المساكن البشرية فان بعض مزارع لبنان موقعها على علو ١٨٠٠ م بل ٢٠٠٠ الا ان هذه المزدروعات الاخيرة لا تكون الا في الاودية والاغوار التي هي بمزل عن الرياح . وتري في هذا الارتفاع شجور البلوط العادي الكبير الاثمار وشجر البطم البري والشوح والخوخ البري . وبعض شجر العرعر ضخّم عظيم وطول باسق . واشهر اشجار لبنان الارز الذي موقعه على علو ١٩٢٥ م

(١) يزعم لورته في كتابه سورية الحالية (ص٦٣٤) انّ علو عيناتا ١٨٠٠ م وعلو اليمنة ١٦٥٠ م لكن هذه اقوال تخمينية لا يستند اليها . ويجعل كيرت علو عيناتا ١٦٨٠ م واليمنة ١٦٤٠ م وهذا دون القياسات المقبولة . (راجع مقالة للاستاذ الايركي وست PEF, l. c., West)

١٠

مياه لبنان ورسم مجاريها

ليس هذه المرة الأولى نبحث عن مجاري المياه في لبنان . فأننا في كلامنا عن عين اقفا (راجع ج ١ ص ٥٠) ألمعنا الى هذا الامر . لكنّ خطر الموضوع يحدو بنا الى ان نخصّص له فصلاً اوسع مهّد اليه العقول رُسُنا لأنجاد لبنان واغواره . وليس بجشنا الحاضر جغرافياً محضاً بل عملياً ايضاً واقتصادياً . فان المياه في البلاد الحارة من اعظم عوامل الاقتصاد كما ستري . ودرُسنا هذا ليتمّ يساعد على بيان النظام العجيب الذي وضعه تعالى في الطبيعة موازنة قواها . ولولا ذلك لظنّ الناس انّ هذه الجبال الشاهقة ربّما كانت كعاجز يعوق المواصلات بين الاهلين او اعتبروا هذه مجاري المياه التي تندفع احياناً كسيول جارفة طامية حدوداً لنشاطهم ودماراً لاعمالهم . ولو تروّوا لأدركوا ان الجبال والمياه معاً أخرى بان تُنظّم بين العوامل المساعدة للحركة اللهم اذا عرف ان يستخدمها لصالحه

وبجشنا هذا يتناول ثلاثة فصول : أولاً رسم عيون لبنان ثم رسم انهاره واخيراً رسم المياه والشواطىء البحرية

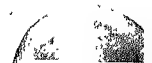
١ رسم عيون لبنان

نقسم هذا الفصل ايضاً الى ثلاثة ابواب فنبين كيف تكوّنت هذه العيون في لبنان ثم نعدّد صنوفها المختلفة ونختتم بذكر الجداول السارية في اسراب الجبل

١

كيف تكوّنت عيون لبنان

تصدر عيون لبنان من مياه السماء التي تجود بها الطبيعة على بلادنا فتغمرها بها امّاً مهبوط الامطار الغزيرة وامّاً بجزائن الثلوج المكتنزة في اعالي الجبل كما سبق . والارض ترتوي من هذه المياه الغائرة في كبدها فتتشرّبها لقابلية ترسّحها ولولا ذلك لانحدرت هذه المياه زاحرة كالسيول الجاحفة في ابّان العواصف والامطار الغائضة ودفعت في مسيرها التربة بل سحقت الحصى واقتلعت الحجارة فقلبت البلاد ظهراً لبطن حتى انها

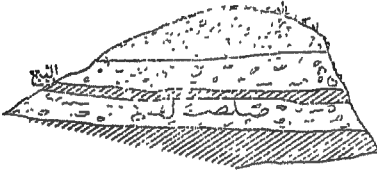


في بعض الاحيان تغير بزمن قليل صورة الامكنة ووضعها الجيولوجي . وليس كذلك والحمد لله عمل المياه الداخلة الى قلب الارض فانها اذا نفذت في باطن التربة صفت وتتأصلت من كل الاجسام الغريبة التي اجتذبتها ثم تروق بالتدريج وتأخذ من الطبقات التي تتجاوزها حارثتها وتحلل ما تجد فيها من الاملاح القابلة التحليل ولا تزال تستحدر وتنضب الى ان تبلغ طبقات الارض التي لا تحرقها المياه فتسبح فوقها حتى اذا وجدت لها منفذاً تبجست منه عيوناً

ونفوذ الامطار في بطن الارض يجري على طرائق شتى على اختلاف طبيعة التربة فاذا كانت الارض نباتية لا يبلغ الماء اعماقها لاسيما اذا سح المطر ونزل شائب وكان وجه الارض مع ذلك مائلاً بحيث يسهل السيولان . ومن عادة التربة الزراعية المتركة من بقايا النبات والحويان ان تمتص كمية عظيمة من المياه لتغذي بها النبات . فترى من ثم عظم شأن التربة الزراعية في الفلاحة . ومما تغور فيه المياه بسهولة الطبقات الرملية المختلطة بالحصى . وليس الحواري والصلصال كذلك فان الماء لا يخرقها لأزرجتها وانضمام اقسامها فيجتمع فوقها امّا في الاسراب او في المستنقعات على وجه الارض ويلحق بالنبات ضرراً لتركه في بعض الامكنة ونقصانه في أخرى

امّا النبات فقد دلّ المسير اليزاي روكلو على عماء بالنسبة الى الندوة . فانه بعد اخذه نصيبه من الماء المنحدر من الغمام يساعد على نفوذ ما فضل عنه الى اعماق الارض . فاوراق الاشجار مثلاً تخفف وطأة سقوطه بان تصبّه نقطة نقطة على الارض فتبتل به وتتسرب شيئاً فشيئاً بينا ينحدر قسم آخر من ماء المطر على ساق الشجرة وجذورها فيدخل تورا في اعماق الارض . وقد لحظ الطبيعيون ان الحلى واصناف النبات التي تنمو فوق الجبال اذا سقطت عليها الامطار او الثلوج رويت ندوة وانتفخت كالاسفنج فخزنت في مطاوي تجعدها ماء كثيراً تنال منه التربة حفظها بعد نزوب طراوتها . وفي بعض جبال اسكوسية وارلندة عدد لا يحصى من هذه النباتات يبلغ الماء المخزون في خلال اوراقها واغصانها آلاف الوف من طنّات الماء (١) . ومن هنا تعلم سوء عتبي رغبة العز في الجبال فانها آفة للنبات وهي ليس فقط تجردّها من خضرتها التي تزينها ولكن تحرمها من الندى والرطوبة التي تحتاج اليها بلادنا الحارة

هذا والصخور عينا تنص كالتربة العادية كميات من الماء تختلف على اختلاف شقوقها وتباعد دقاتها . لا يخرج عن هذا الحكم إلا حجر الصوان المانع وليس منه شيء في لبنان . وجبلنا على عكس ذلك يتركب اجمالاً من حجارة كلسية كثيرة الصخور والثقوب تنفذ فيها الامطار كما في غربال . وتحت هذه الصخور عادة طبقات



من الصلصال لا ينفذ فيها الماء سهلاً فاذا اجاز اليها الماء نض قليلاً ونشأ منه جداول تجري على حسب ميل طبقات الصلصال واختلاف هيتها بعمل المياه الى

ان تجد منفذاً تسيل منه الى الخارج . والمياه التي تنحدر هكذا فوق الصخور الكلسية ومنها الى الاراضي الصلصالية هي اوفر بالاجمال من سواها لطول مسيرها في باطن الارض الذي ربما بلغ مئات من الاميال فتدّرها على مدى سيرها المياه المتحلبة اليها . ومثال هذه الينابيع عين انطلياس وعين نهر الكلب في جمعيتا فان اكثر مياه مديرية القاطع تجري من الاولى كما ان معظم مياه كسروان الاسفل تجري من الثانية . ومن هذا الوجه يصح قول الجيولوجيين عن وفرة هاتين العينين وعن يبوسة المعاملات الواقعة تحتها

٢

اختلاف عيون لبنان

يختلف موقع هذه العيون حسب اختلاف الصخور التي تهبط عليها مياه الامطار . فترى بعضها بعيدة جداً من مهبط الغيوث والبعض الآخر ينبع تحت الامكنة التي تولت فيها هذه المياه . ففي لبنان عيون لا تبعد سوى بضعة امتار من قمة الجبل او نجوده . وهي نورة المياه لقلة المساحة التي تجمع ماءها وقصر مسيلها في بطن الارض اما العيون الغزيرة المياه فانها تلبس خصوصاً في الاودية عند لحف الجبال او في وسط الاباطح الواقعة تحت سلسلة جبلية فتال الاولى عيون الساعي الفاضة في سفح جبل هرمل وعيون نهر بيروت ونهر انطلياس ونهر الكلب السائلة في لحف لبنان اما مثال الثانية التي تنفجر في وسط السلسلة الجبلية عند وطي المشارف الثانوية فالانهار الجارية في اوسط لبنان كنهر قديشا تحت جبل الارز ونهر ابراهيم تحت جبل منيطرة

ونهر دامور تحت عين زحلنا وكهريّ الاولي والزهرانيّ فانّ كل هذه العيون تتبجس في سفوح الجبال اللاحقة بالسلسلة الاصلية التي يرتوي سطحها انكليسي من مياه الثلوج والامطار الشتوية فتضحي كغزّان لا تُنفد منه المياه التي تسيل الى ان تبلغ طبقة من الصخر الرملي الصلب يُدعى بُرقة (grès) لا يمكنها اجتيازها فتفتح لها سبيلاً وتسيح على ظهر الارض (١٠) ومن اعتبر مساحة الجبل الذي يخزن في صخورهِ وارضهِ القاحلة كلّ هذه الكمية من الندوة وهو اشبه بمصفاة واسعة الجوانب بعيدة الغور لا يكاد يتعجّب من وفرة المياه التي تجري بالعيون اللبنانية

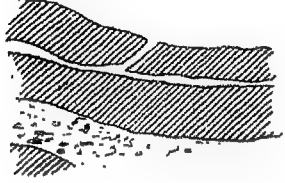
فترى من هذا الوصف صدق ما كرّناه غير مرّة وهو انّ لبنان كحوض يكثر في احشائه تلك الانهار الكبيرة وخصوصاً العاصي التي تحيي مياههُ بلاد سورية وتنفيها بما تجديها من المرافق المتنوعة . ومع صحّة هذا القول تجد انحاء عديدة من لبنان في حاجة ماسة الى المياه كجهات البترون والشوف مثلاً . وخصوصاً بعض المعاملات السفلى التي تقتقر الى الماء لا يشرب اهلها الاّ من الآبار . والعيون في بعض هذه الايلات لا تتجاوز عدد الاصابع كما في جهات البترون والغرب التي لم تحظْ بنصيب صالح منها وان سأل القارئ وما سبب هذا الاختلاف اجبناه انه ناشىء عن تركيب لبنان الاصليّ فانّ بين نواحي ثورين وحصرن وبشريّ واهدن المتركة من الصخور الكلسية وبين بقية القائمة المتركة من الصخور عيناها قطعة مستطيلة من البرقة ذات الصخور الرملية الصلبة التي لا ينفذ فيها الماء فاذا بلغت المجاري فوجدت امامها هذا الحاجز اندحرت الى الجهات التي تعلوها فتنفجر فيها او نفذت في باطن الارض فتجري في اسرارها وتنصب في البحر كما سيأتي . وما نقوله عن هذه الجهات قد تحقّق بالبحث الجيولوجي وتراءى مثبتاً بالمقابلة في نواحي الشوف حيث تجد ايضاً تحت قشرة الارض العليا طبقة من الصلصال والحواري لا تخرقها المياه (٢٠) وهي حالة يصعب اصلاحها ومن ثمّ فعلى اهل تلك النواحي ان لا يصدّقوا بسهولة اقوال بعض القناقن او بالاحرى المشعوذين الذين يدّعون بمعرفة المياه التي تحت الارض

(١) راجع كتاب العلامة دينر (Diener, p. 129) وخارطته الجيولوجية للبنان

(٢) راجع الخارطة الجيولوجية التي رسمها الاب زؤوفن اليسوعي في كتابه المعنون « صفة

لبنان الجيولوجية » (Esquisse géologique du Liban)

واعلم انّ ما يمكن قوله اجمالاً انّ كمية المياه الجارية من العيون تختلف على اختلاف غزارة الامطار . بل ترى بعضها لا يظهر الا في فصول السنين الكثيرة الامطار . أما العيون الثابتة جريها فان كمية مائها ليس بثابت . وكلّ يعلم انّ بعض



هذه العيون منافذ ثانوية (estavelles) متعددة هي فوق المنبع الاصلي بل تبعد عنه احياناً مسافة تُذكر وتفتتح عند تواتر الامطار واذا صار الصيف بقي المنبع الاصلي وحده فتكون هذه المنافذ كمصارع

تخفّف سورة المياه على العين الاصليّة كما ترى ذلك شتاء في وادي نهر انطلياس بين العين الحالية ومغارة البلائي

وما نقوله عن هذه المنافذ يمكن قوله عن بعض المغاور التي كانت المياه تجري فيها سابقاً كمغارة انطلياس مثلاً المعروفة بالبلائي التي موقعها نحو عشر دقائق فوق المنبع الكبير فانّ هذه المغارة راقية الى الطور السابق للتاريخ وآثار المياه فيها ظاهرة على حضيضها وجدرانها وبما يرى في وسطها من الحصى المصقولة باحتكاك المياه . والمرجح ان قسماً من الصخور في باطن المغارة انخسفت فسدّت مؤخر الفوهة القديمة التي كانت تسيل منها المياه . وذلك في اعصار قديمة جداً لانّ هذه المغارة صارت بعدئذٍ مأوى لاهل لبنان الأوّلين كما اثبت ذلك حضرة الاب زهمون في المشرق (١ : ٩٧) . وكذلك مغارة نهر الكلب العلويّين . ولعلّ اجمل هذه الاغوار المائيّة مغارة نهر بيروت وهي على مسافة ساعة من منبع النهر الحالي . وعلو موقعها يصدّ عن التوقّل اليها ولكن ترى عند مدخلها آثار المياه القديمة . والتقليد الشائع عند اهل تلك الجهات انّ هذه قناة او سرب يتّصل بدير القلعة وهو زعمٌ مردود . وكذلك اخيراً مغارة اقفا العليا فانها منفذ ثانوي تسيل منه المياه في وقت الفصول الكثيرة الامطار

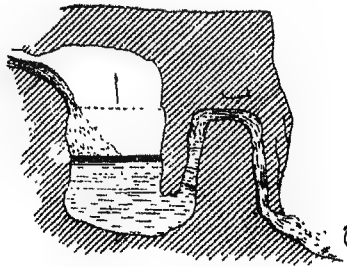
هذا وإنّه ليصعب احياناً بيان العلاقة الموجودة بين العين الاصليّة والمنافذ الثانويّة التي تجري على مسافات تختلف عن بعضها بعداً . كما أنّه لا يسهل ادراك سرّ اتصال عينيين احدهما متواصلة الماء والاخرى متقطّعة

وقد ظهر في ما سبق انّ كمية الماء التي تجري مع عيون لبنان لعظيمة جداً وقد قاس منها الجيولوجي فراس (Fraas) ما يبلغ في الثانية اربعين قدماً مكعباً . فعين

جزين التي يتجاوزها غيرها في غزارتها تصب في الثانية ٣٩٠ ليترًا . ومن الامور المبررة ان بعض ينابيع لبنان كانت سابقاً اغزر منها اليوم . فالتاريخ يخبر عن عين العرعر قرب بعبدا انما في عهد الرومان كانت تغني بحاجات مباني دير القلعة وهيكله ولذلك قد ابتنوا لها قناة ترى آثارها الى زماننا مع انما في الوقت الحاضر نزرة المياه لا تحتاج الى قناة . امّا في القرون الوسطى فلم تزل كثيرة المياه حتى ان الدويهي يدعوها نهراً في تاريخ الطائفة المارونية (ص ٩٨) . وزعم صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٢) انما كانت تجري الى بيروت في قناة . وهو امر لا يمكن اثباته لكنه يبين غزارة هذه العين التي لا تكاد اليوم تحصى في عداد الينابيع اللبنانية

وان سألت الآن عن درجة حرارة العين في لبنان اجبتك ان العلماء لم يبحثوا في ذلك الا قليلاً . وما يقال اجمالاً ان حرارة المياه الجارية فوق علو الف متر هي دون حرارة الهواء المحدث بها (١) . والمياه على قدر طول مجراها تزيد درجة حرارتها الاصلية عند انبجاسها لانها في مسيرها في الاسراب الباطنة الدافئة تأخذ من حرارتها . ولذلك ترى بعض العينون الغزيرة كنبع انطلياس ونبع نهر بيروت قليلة البرودة . فهذه الينابيع وان كانت تتركب من تحلب ثلوج لبنان تنقص برودتها لطول مجريها في بطن الارض تحت سلسلة الجبل الى ان تغذ الى الهواء فوق سطح البحر بقليل فتصب فيه . وهذا عدل درجات الحرارة لبعض عيون لبنان بالنسبة الى المقياس المتوي : نبع جزين ١٣ . وكذلك نهر الكلب ١٣ . نبع الباروك ١٠ . نبع افقا ٨ . نبع اللبن ٤,٥ . نبع العسل ٤

وفي لبنان عيون كثيرة دورية كما مر في وصفنا لافقا وبحيرة الشونة (راجع ج ١ ص ٤٦٩) . ومثلها نبع عرمتا في جبل الريحان ينقطع مراراً في السنة لاسيما في الربيع فتري مياهه تزيد وتنقص كل نصف الساعة وربما انقطع تماماً ثم عاد الى جريه وسبب انقطاع



المياه على هذه الصورة: ان المياه بعد نضوبها واجتيازها في طبقات الجبل تبلغ الى حوض داخلي ينفذ الى الخارج بجري على شكل المص (انظر الصورة ص ١٢٣) فاذا توقفت امتلأ الحوض حتى يساوي سطح مائه الخط (١) ثم يزيد ارتفاعه في المجري المعقّف على حسب قاعدة مساواة المائعات في الوعية المتصلة الى ان يبلغ اعلى نقطة من المص في (ب) فتجري الى (ج) وهو النبع وتسيل حتى تنقص المياه فيسطح سطحها الى فم المص الداخلي وينقطع الماء بئمة ويدوم انقطاعه طول المدة اللازمة لارتفاع سطح الماء في الحوض الى (١) فتعود الى الجري وهلمّ جرّاً

ومن الينابيع ما يفور عند تفجره كالنوفرة فيبلغ علواً مختلفاً في الهواء ونظن ان لبنان لا يخلو من مثل هذه العيون وان لم يحضرنا الآن مثل ذلك . وفي نبع انطلياس تخرج المياه مزبدة بينها شبه فوارات تعلو نحو قدم فوق جملة المياه . وهذا يرى ايضاً في عيون نهر العاصي في لحف جبل هرمل

أما العيون الحارة والمعدنية فان العلماء حتى اليوم لم يفرّدوا للبنان بحثاً فيها . ووجهة ما يُقال ان تركيبه الجيولوجي يدل على انها قليلة اللهم الا بعض العيون الداخل فيها كميات مختلفة من الحديد يمكن تمييزها بتلوين مجاريها لان المياه الحديدية تَسود مسيلها عند سيلانها بدقائق الحديد الداخل في تركيبها . أما الينابيع الكلسية فكثيرة يرسب كلسها حولها او في مسيلها فيتشجر ولا يزال يزيد حجماً حتى انه في بعض الامكنة يسد المجري تماماً

وهو السبب عينه الذي كَوّن في بعض الكهوف والمغاور تلك الرسوبات الحجرية التي تُرى على شبه العمود . فان المياه بتحللها من سقف المغارة تترك بعض دقائقها الكلسية في الصخر فاذا توالى هذه القطرات زمناً مديداً زاد التشجر على شبه اساطين (stalactites) ثم ان قطرات المياه بسقوطها على الحضيض تترك قسماً آخر من كلسها الباقي فيتشجر الكلس ويرتفع على شبه الشموع (stalagmites) وربما بلغ الاسطوان المتحدّر من عل الشموع المرتفعة من اسفل فصار كلاهما كعمد متواصلة (١) . وفي مغارة نهر الكلب من هذه المتحجرات كثير تُرى في الغور الذي يدخله عادة الزوار

الآ أنها ابهى واجمل في قلب الجبل . وقد اخبر المهندسون الانكليز الذين نفذوا الى باطن مغارة جعيتا في ايلول من سنة ١٨٧٣ ثم سنة ١٨٩٦ أنهم عبروا مجازاً حرجاً طوله عشرون متراً فُضي عليهم لضيق المسار ان ينبطحوا على بطونهم ثم اجتازوا في احواضٍ ومجاري متوالية حتى بلغوا شبه غرفة واسعة وجدوا سقفاً مزيناً بهذه الاساطين المتحجرة البديعة المنظر اما الحضيض فكان مرصعاً باشكال العمد الغريبة الصورة

٣

مجاري المياه في الاسراب

تتمتع كلامنا السابق في عيون لبنان نذكر هنا شيئاً عن جداول المياه في اسراب لبنان لما بين الباحثين من العلاقة اذ ان العيون لا تنبجس عادة الا بعد قطعها مسافة في بطن الارض

سبق لنا القول عن وفرة مياه عيون لبنان . فان بعضها اذا برزت من مكانها جرت كأنهار قادرة على حمل القوارب . ويكون تنفجرها غالباً في امكنة قاحلة واودية كثيرة الصخور لا ترى حولها سوى الجنادل العالية والحجارة الصلدة فيؤثر منظر مياهها الرائقة كالزلال في قلب الناظر اذا قابل بين صفائها ووحشة المكان فتراها تنفجر عيوناً كأنها اسير حُطت قيوده فلشط بحركاته وبرز من محبسهِ الى النور مسرعاً الى الشمس ليتجلبب بضيائها . واذا سارت من منبعها اخضبت ضفتيها واحيت ما تمسه من التربة فينبت النبات وينور الزهر وتمتد الاشجار باغصانها النضرة

فهذا رأس النبع في بيروت ومياهه الغزيرة الا ان هذه المياه كما لا يخفى ليست بنات هذه الصخور الجامدة فلا بُدَّ اذاً من البحث عن اصلها في اغوار الجبل الباطنة حيث تنفذ المياه المتجلبة من الاعالي فتجتاز في الطبقات الكلسية كما بيئنا ثم تتجمع في الاحواض جارية . ومن الانهار ما يعد مسيلة في قلب الجبال مسافات بعيدة تبلغ نيفاً و ٢٥ كيلومتراً منها مثلاً نهر سورغ (Sorgues) في فرنسا الذي ينفذ من حوض فوكلوز . وهكذا ايضاً جبل لبنان فان مياهه تسيل في المجاري الداخلية قبل بروزها الى النور كما ترى في نهري افقا والكلب المتفجرتين من كهفهما

وما قلناه عن طول مجرى نهر الكلب يجوز تأويله أيضاً عن مغارة افقا التي منها خاصة يسيل نهر ابراهيم فان مدخلها في حلف صخور يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ او ٧٠٠ متر لها منظر مهيب قل وجود مثله في العالم على قول ريثان والدكتور لورته . وللمغارة شعب عديدة ودهاليز فرعية يصعب عبورها لسعة أحواضها وكثرة مياهها . ولا يبعد يكون اتصال بين هذه المغارة وبحيرة اليثونة وليس بمستحيل وجود سرب طبيعي كهذا طوله اثنا عشر كيلومتراً

ويلحق بقولنا عن المياه الجارية في بطن الجبل مظهر آخر وهو غرور بعض المياه في لبنان دون ان يبقى لها اثر والمرجح ان هذه المياه تتصل بالبحر فتنفذ فيه جارية بجوار باطنة ومنها ما هو على قدر انهار غزيرة . وهذا امر طالما لحظه الجيولوجيون في السواحل البحرية لاسيما التي تتركب من صخور كلسية

ومن تتبع ساحلنا الفينيقي وجد في بعض مواقع عيوناً تنبع على سواحل سطح البحر وقرب بيروت منها عين غريبة موقعها تحت كلية الاميركان لا يكتفي البعض من ان يشربوا من مائها بل يكرمونها ويوقدون فيها الشمع تدنياً وينسبون اليها القوآت العجيبة وهي تدعى عين الرئيسة . ومنها عيون أخرى فوق الجون الصغير المعروف بالمدور حيث تنبع المياه ولا تزال تحفر الركائز التي اقامها المهندسون لسند السكة الحديدية المتصلة بالمرافأ

وبعض هذه العيون ترى آثارها في وسط البحر كمين ارواد الشهيرة التي ترى قريباً من جزيرة ارواد . واهل تلك البلدة اذا صعب عليهم الوصول الى البر استقوا منها لشربهم . ولا ريب ان مياهها جارية اليها من جبل النصيرية . ولو بحثنا لوجدنا غيرها في جوارنا اكثر منها عدداً لان مياه لبنان اغزر من مياه جبل النصيرية . ولدنيا مثال قريب منّا عند محطة المعاملتين نريد العين المدعوة نبع مار يعقوب ترى في البحر على بعد ٢٠٠ او ٣٠٠ متر من الساحل . واذا كان البحر هادياً لاحت فائرة في وسط الغمر وتبقى مياهها مدة دون ان تمتزج بمياه البحر . ولو بحث المهندسون على وجهة هذه المياه لامكنهم ان يفتحوا لها منفذاً في البر فيغفروا بها الساحل ويستقوا بها المزروعات حيث تنقل المياه

ان قولنا السابق عن عيون لبنان ليس بمستوفٍ الا انه يلته التراء . ويستدعي

نظرهم الى البحث في هذا الامر الخطير فيجدون فيه كفهرس لمباحث عديدة جدية بهتهم . وليست هذه الابحاث نظرية فقط بل عملية ايضاً كما رأيت في قولنا عن الينابيع البحرية . ولو تفرغ اصحاب المروءة الى هذا الامر لوجدوا وسائل متعددة تمكنهم من مقاومة عدو بلادنا العظيم اعني جذب الارض والقحولة . فان حياة سورية متوقفة على كثرة مياهها وحسن تقسيمها . وهذا امر غاية في الخطر لثقي الاقطار في اسباب العمران والاقتصاد والثروة . ولو وجد الالهون مياهاً غزيرة لزادت همتهم ونالوا من الغلال ضعف ما يحصلون عليه اليوم

كئنا تنأسف على قلّة العلماء الذين يتفرغون لدرس المياه اللبنانية . ولا ترى في اوربة بلدًا الا وفيه كثير من الجيولوجيين الذين يحرصون المياه بنظرهم . وهذا عذرنا لديهم ان وجدوا كلامنا قصيراً في هذه المادة . وانما املنا ان مقالاتنا تستلفت انظار بعض الخواص فيعيرون بالآ هذا الامر الخطير بدلاً من سعيهم وراء امور اخرى لا طائل تحتها

١١

رسم المجاري النهرية في لبنان

١

افادات عمومية

باي اسم ندعو مجاري المياه في لبنان أندعوها انهاراً او جداول او سيوفاً فقط . ذلك ليس بامر سهل لولا ان العادة قد غلبت على السن القوم فيدعون بالنهر مسيل المياه عموماً فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطلياس مع ان مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك ان العرب لم يعرفوا في جزييتهم الا المياه الجارية في بعض فصول السنة وخصوا اسم النهر بتلك الاودية والمياه الجارية جرياً متواصلاً بلا انقطاع سواء تبلغ البحر او تنصب في نهر آخر (١)

فما يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخو من سند كما اشار الى ذلك

(١) وقد افرز كتيبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليوسوس الصوري يدعو باسم « rivus » كواي المثلين وسمى الانهار كنهر الكلب « fluvius »

اليزاي روكلو في كتابه عن الارض حيث قال (ص ٣٥١) : ان كمية المياه التي تجري في مسيل دون آخر لا مرّ عرضي يختلف في قارة دون أخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائية فلو اعتبرت مثلاً بعض انهار اوربة وعارضتها بانهار اميركة كالامازون وما ينصب فيه من الاودية لما استحقت بان تُدعى جداول . ثم ان كمية المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة . وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على سعة نهر الميسيسي قد صارت بعد التقلبات الطارئة على سيارتنا « انهاراً بلاء » لأن للانهار كما للانسان حياة فتنشأ وتزخر ثم تنقص وتتلاشى . اه ولا ريب في ان الانهار اللبنانية كانت في سالف الاعصار وعلى الاقل في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلاً على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديمة . فانها تاتي صريحاً باقتصار مجاري مياهها . وربما وجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتبجس منها فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحقّق ان كمية المياه كانت اوفر منها اليوم وما يُقال عن نقصان مياه الانهار اللبنانية في الزمن السابق للتاريخ يرجح ايضاً اثباته على رأينا للقرون التاريخية . والشاهد على صحة قولنا ما تراه من الحواجز وسدود الانهار التي تكونت عند مصابها في العهد التاريخي وكذلك السهول المجاورة لهذه المصاب فانها تاريخية العهد . وكانت هذه الانهر قديماً بعد خروجها من الوديان التي منها نبع تباع البحر تواء . وكان لا بد لها لبلوغ البحر من كمية عظيمة من المياه ليمكنها ان تظفر بما تلقاه في وجهها من العوائق كمقاومة الامواج البحرية ومهب الرياح وركام الرمل الذي تنقله السواقي

ولدينا ادلة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائية . ان قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تدل صريحاً على ان اصل هذا النبع كان ثمة في الاعصار الاولى لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كمية المياه التي كانت تجري منها فقدروها بما هو مكعب في الثانية وذلك دون ان يصيب الزدروعات اذى من قلة السقي . اما اليوم فلو استقى البيروتيون كمية كهذه من ذاك النبع لفقدت السهول المجاورة ريفاً وجفت فلا بدّ اذن من القول بان مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديماً كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم أنا أوردنا سابقاً (راجع ص ٩٨) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل
الشرقي ويُنْتَأ. أنَّ هذا الجغرافي الشهير وَهَمَ في تعيينه وَجْهَهُ هذين الجبلين اذ زعم
انهما يسيران من الغرب الى الشرق بدلاً من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع
التي أوصَلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وأدَّى به وهمه
هذا الى ان ظنَّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليه بالمراكب . ولعلَّه يوجد حَجَّة
لندافع بها عن قول اسطرابون وهي ان مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار
اوفر منها في زماننا . وهذا ممَّا يابح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة
بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعالو فوق الطريق الحالية نحو
ثلاثين متراً . ثم جاء الرومان ففتحوا طريقاً اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابلة
يجرون فيها الى زمن ترشير العربات وهي ايضاً فوق سطح البحر بنحو عشرين متراً كما
ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال ان القدماء اختاروا لهم طريقاً في هذا العلو
لينقلوا اليها عُددهم الحربية وامتعهم بعد العناء لولا ان يقال ان مياه النهر كانت
اغزر منها اليوم . وعليه فان كُنَّا لا نوافق اسطرابون في قوله عن خوض نهر الكلب (١)
فلا بأس من القول بانَّ طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميَّتها اوفر .
وزد على ذلك انَّ سطح البحر قد انخفض بتأدي الاجيال كما سترى

وخلاصة الكلام انَّا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانية بالانهار
وان شاء القراء امكنَّا ان نقسمها قسمين الانهار الساحلية والانهار البرية . فالساحلية ما
كانت اوديتها محصورة قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هذا الصنف الا النهر
الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البرية وهما ينبعان في اواسط البلاد ما
وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقَّق لاوَّل وهبه ان هذا الجبل لا
يحتل لسير مياهه مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من علِّ لما
قاس بين ضلع لبنان المركزي وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومتراً وكذلك في
خلف الجبل لا ترى سهولاً فسيحة رحبة الارحاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ
مداها في التعريج والتدريب كما انَّ الادوية اللبنانية وكلها على خطِّ متساوٍ قائمة على

(١) راجع تاريخ الفينيقيين (ص ٥٠) حيث فنَّد هيتشان رأي اسطرابون

قطب الجبل لا تتحمل اتساعاً كبيراً. وفي الواقع أن أكثر انهار لبنان سيول لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينهما نهر واحد يمكن القوارب فضلاً عن المراكب الجري عليه . وذلك لكثرة انحدار مسيلها او لا يتوسطها من الصخور وهذا ما منع الملاحين ان يخوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الالتواء كان الطبيعة اعدتهما ليوصلا بين جهات قاصية (١)

*

ربما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعينوا لكل حوض النهر الاصلي الذي فيه تنصب بقية المجاري المائية كانهار ثانوية . وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لما عرفنا من تركيب هذا الجبل ووجهته . والانهار اللبنانية تشبه اجهزة عصبية قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزية الرطوبة التي تأتياها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها . اما النهر الكبير الذي يسيل في وادي متسع لا في مضيق كغيره من الانهار اللبنانية فله سواعد تنصب فيه اكبرها وادي خالد يكاد يساري النهر الكبير بكثرة مياهه حتى يبقى الناظر في ريب اي منهما هو الشعب الاعظم وعلى كل حال لا يُنكر ان نبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوباً وابعدها من مصب هذا النهر في البحر . وكذلك نهر الليطاني فلأنه يسيل في وادي البقاع المتسع تجد سواعده الجارية اليه فسيحة لمجرها وهي كلها بالنسبة اليه كمجاري ثانوية اذ تنضم اليه في المسيل المركزي . غير ان بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جار كنسج نهر الليطاني . وما لا يُنكر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصب فيها . ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة يجعلهم عين جار كاصل الليطاني لوفرة مياهها بدلاً من النبع الأقصى . فان الانهار لا تُحدد بما يأتيها من السواعد بل ببنائيتها الاصلية القاصية . ولولا ذلك لعد نهر اليرموك كاصل نهر الاردن لغزارة مياهه وهو يصب فيه . وهذا مذهب لا يسلم به احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضاً ان هذا منوط بتركيب

الجليل فإنّ المياه تجري حسب وجهة الاودية وتركيب الصخور . فلما كانت هذه الاودية متساوية ومرجبة من صخور كلسية لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيها على خط مستقيم . واذا وجدت النهر يعرج في سيره فذلك دليل على اختلاف طبقات المكان الجيولوجية كما ترى في اكواع انهار لبنان الجنوبية كالدامور والاولي والزهراني فانها بعد خروجها من بين الصخور الصلبة (grès cenomanien) تبلغ الجهات المرجبة من الصخور الكلسية السهلة الانحلال فتعدل عن الجنوب مائلة الى البحر . وهذا يظهر خصوصاً في نهر الاولى كما سترى

وهنا لا بدّ لنا من الفات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادى اليها تجريد لبنان من غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلاً بالوادي القاحلة المجربة وهو حيّ بان يكون في سوريّة بمنزلة جبال الالب في سويسرة . وذلك ان مياه الامطار والثلوج بدلاً من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعة الى اسافل البلاد وهي تجرف في سيرها ما امكنها من التربة والحجارة والصخور وربما هبطت الى الاودية قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوة السيول والاعاصير . ثم توالى على الجبل آفة أخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذوره ففقد الجبل كل تربته الزراعية وانتصبت صخوره المتجرّدة وانفتحت فيه الوهاد العميقة المحجرة التي صارت مجازاً لسيول جاحقة لم ترّ سابقاً . واضحى الماء آفة للخواب بعد ان كان نعمة يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملح النافعة التي يحملها . وهكذا تعلّل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اقسام الجبل فتفسد المردعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرب في يوم ما يحصل عليه بعد سنين من التعب . وذلك لان اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الشينة بغية في الربح فعاد عليهم طعمهم وبألا

فلما فاة هذه البوائق ليس من وسيلة النجى من نصب الاشجار فانه قد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الا ستة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلاً منظماً . وكذلك من الوسائط المستعملة للملافة اضرار الاعاصير ومياه الفيضان الاحواض والقنوات لسقي الاراضي وتخربك الرعي

والآلات . فيصير بين الطبيعة والاعمال البشرية كتبادل في الحدم . وأنما كل ذلك يذهب سدًى بخواب الغابات والأشجار
وكذلك يجب ان ننسب لتجريد لبنان من شجره اتساع مسيل بعض الانهار
لاسيما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز . فان المياه
عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باتساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم
العشرين منه فلا ترى منها الا جدولا صغيرا يجري بين الصخور المحطمة وركام
الحصى والرمل . وإن ذلك الا ما جرفه النهر من اعالي الجبل في أيام السيول
الشتوية . ولو كان الجبل مغروسا بالغابات لما سحا بهدم التربة ولا زحف امام هذه
الصخور بل لبقى في حدوده

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتتحدّر هذه منها مزبدة فتلك
الجنادل . والظاهر ان هذه الصخور شلالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت
بالاحتكاك . وفي انهار لبنان منها كثير لتحذر الاودية وميلها . اما الشلالات العالية
فقليلة اشهرها شلالة جزين علوها من سبعين الى ثمانين مترا . وتقل مياهها في الصيف
حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلة مائها . وفي نبع اللب شلالة أخرى ومن خواصها
الغريبة ان المياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منه قد تقهقرت نوعا الى نبعها (١) . وعلى
جانب المياه جدران خرقتهما المياه فيمكن بتقدير ارتفاعها قياس عمل المياه وتقهرها
مدة زور الاعصار . وهذا شبه ما جرى لشلالات نياغارا الشهيرة في اميركة

٢

المصاب والسدود النهرية

وان الانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبها تنقص مياهها إما بالتبخر وإما
بتفيضها في قلب الارض فتبلغ البحر وكمية مياهها عنده اقل منها في مسيرها . وهذا
الغالب على انهار لبنان لاسيما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني . وما ينقص مياه نهر
بيروت ما يؤخذ منها لستقي المزروعات في السهل . اما نهر الجوز فانه في الصيف ينقطع
جريه الى البحر

(١) راجع صورته في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe : Palaestina, II, 20)

والانهار اللبنانية كلها اذا صبّت في البحر لا تتسع ضفافها عند مصبها بحيث يتركّب منها خليجان أو جُون بل لا ترى لها اخوآداً صغيرة مستديرة . والسبب لذلك أولاً قلة مياهها ثم خصوصاً خلوّ البحر المتوسط من المدّ والجزر . والجون الواسعة تشكّون بعمل الانهار والبحار معاً وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرّضة لقوّة المدّ والائواء فهي نادرة على سواحل سورية لا تشر إلا عند مهبّ الريح الشمالية . ومعروف ان كلّ مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غرباً فلا تجد الامواج البحرية قوّة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمدّ في توسيع مصبّ الانهار . فان هذه الامواج تأتي من غر البحر منفجرة وتصدّم الساحل على شكل زاوية حادة فتقتلع منه حطامه ثم تنقله الى مصبّ الانهار مع ما تأتي به الامواج من الرمل يسيرها المتوازي للساحل . فالمجرى النهرى يميل بازاء هذه القوّة العجيبة وينعطف شيئاً فشيئاً ثم يتراكم في عرض مسيله حاجز من الرمل مواز للمجرى البحرى . وبعد مدّة تتكوّن عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحرى وفي الجانب الآخر ضفة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارة تمتدّ وتارة تنسحب على حسب اختلاف الارياح والمجاري ومدّ البحر وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي ترى عند مصبّ الانهار اللبنانية . والنيل عند مصبه في البحر ينقل اليه الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربية هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فرجتها . امّا الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعه الامواج من السواحل ثم تشر الريح الغربية التي تهبّ على سواحلنا نحو منتهي يوم في كل سنة فتنتقل هذه المواد الى مصابّ الانهار وتدحرها فيها ولولا ما كسوة قوّة النهر المنحدر من مشارف الجبل لمدّها تماماً . على انّ هذه القوّة الماكسة هي دين قوّة البحر الذي لا يزال يقيم سوره الربلي في وجه النهر ويقويه . وقد لحظ القدماء هذه المظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله

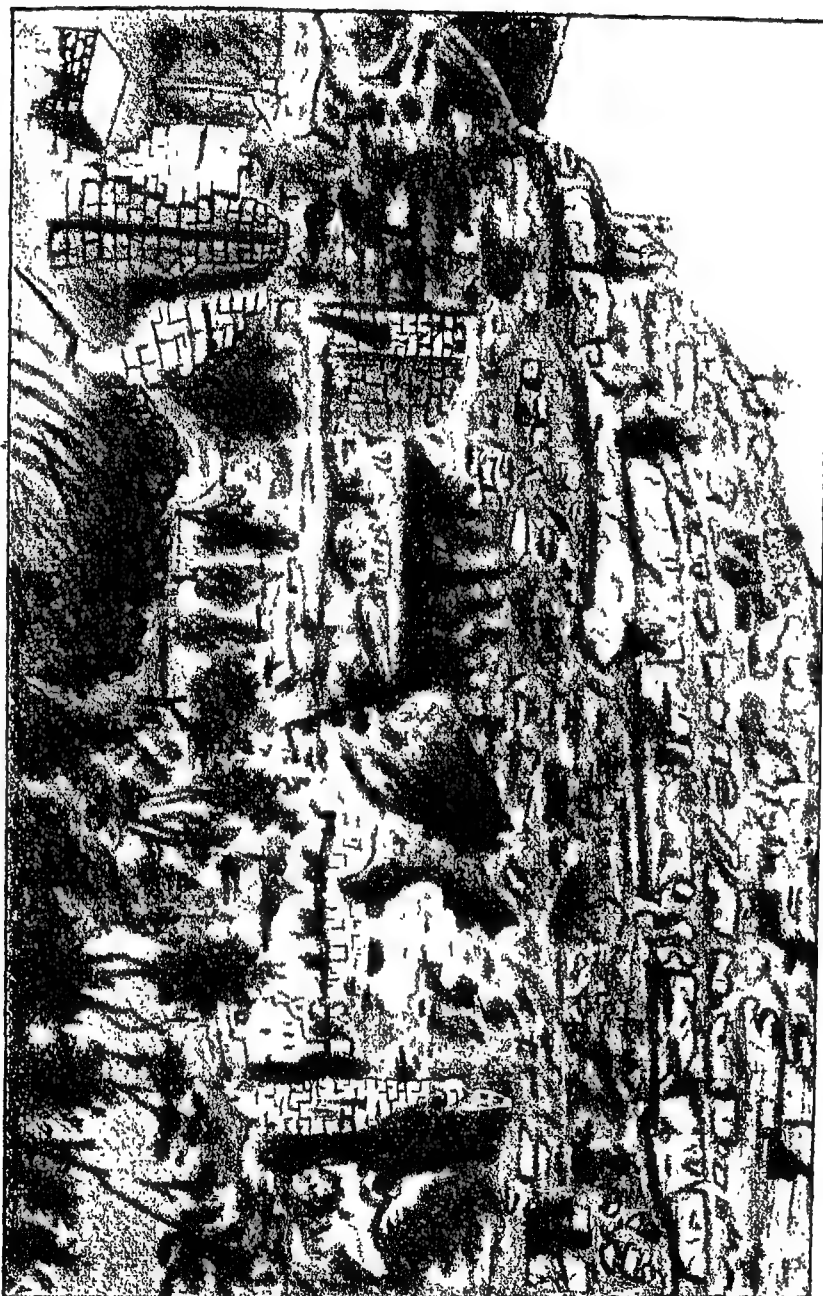
البحر المدعو يوسيدون اذ تراجعاً بالحجارة . ويذهبون الى ان الحصى المتكوم عند مصب النهر هو كمشاهد على هذا القتال المزعوم . وكانوا يجملون خصوصاً موقع هذه الحرب عند مصب نهر الدامور حيث يُرى سدٌ غريب الشكل من صخر الحجارة . وربما ساعد البحر في عمله النهر نفسه بما يجرفه من الجبل من الطين وغيره . نعم ان هذه الحواجز غالباً لينة رخوة قليلة الثبات تغير هيئاتها السيول الشتوية وتقسها الى اقسام متعددة الا ان البحر الذي لا يزال سطحه ثابت العلو يقوي هذه السدود ويرصها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصب الانهار عند نهر ابراهيم . فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رملية عليها بعض نباتات من القصب وشجيرات نحيفة ضاوية تدل على ان الفسحة تريد متانة وثباتاً . ومن اعتبر تركيبها وقف على عمل البحر كما انه يتبين فعل النهر في معاكسته . وعندنا انه لمن المرجح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بني الجسر العربي القديم . وبقيّة السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركب من جرف مجاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا ان مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصب في البحر على خط مستقيم على مقتضى ميلها . اذ ليس ثمة حواجز صخرية او غير ذلك بما يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلها مركبة من رمل وطين يسهل قطعها . الا ان الرياح الغربية حملت هناك كمية وافرة من الرمل أقامتها كربة وعدلت بمياه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف متر . ولعله كان اطال مسيره جنوباً لولا ما يقوم في وجهه من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطره ان يصب في الجون الذي هناك

اماً نهر الدامور فان جرف الرمال البحرية والطين النهري قد تكوّم عند سده الجنوبي وارتفع هذا السد وتمكّن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعم كل الانهار اللبنانية حتى ان نهر الكلب نفسه لا يخلو منها رغماً عن موقعه بين الصخور . وهذا النهر يصب توّاً في البحر عند رأس شمالي . امّا الضفة الاخرى فلا تتسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه . فكان يلغى للنهر ان يبلغ الساحل بكل قوته بعد خروجه من مسيله الحرج فلا يميل يميناً او شمالاً ومع ذلك ترى

آثار التناة الرومانية عند نهر ابراهيم.



عند مصبه سدّاً من الرمل متحدّباً من جهة البحر قائماً تحت الصخور الشماليّة متكبّاً
من رسوب البحر وجوف النهر

٣

الانهار العاملة

انّ ما سبق وصفه عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبه يقودنا الى
الكلام عن « الانهار العاملة » كما سمّاها المؤرّخ هيرودوت متلفظاً . ولا مشاحة
فان للمياه الجارية عملاً متضاعفاً فانّها اذا ما اخربت من جانب عمّرت من جانب
آخروما سحّته من احد الامكنة نقلته الى محلّ غير حيث يرسب ويتراكم بقدر ما
حفر وجرف في مسيره . وانما جرف الانهار ودمارها اظهر للعيان ووقع في القلوب
لانّ قسماً كبيراً من الموادّ الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانيّة من الانهار العاملة فانها استحقّت هذا الاسم بما واصلته من
العمل منذ قرون متعدّدة . كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ لحف الجبال فينطحها
بامواجه المتلاطمة دون ان يتوسّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز
من الرمل . فان تغيّرت هذه الحال فانما ذلك من فعل الانهار فهي هي التي اقتلعت
من اعطاف الجبل ومنحدر الاودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخلجان والاخوار
البحريّة التي كانت تُرى سابقاً عند لحف الرؤوس الجبلية الداخلة في البحر فلم تزل
تنقلها اليها حتى امتلأ قاعها . وكانت الرياح الغربية تهبّ في تلك الاثناء من جهة
البحر فتهبّج امواجه فكانت الامواج تندفع الى السواحل وهي حاملة موادّ ترابيّة وطينيّة
من النيل المصريّ ورملًا فتلقّي احمالها في مدخل هذه الخلجان فاجتمع عمل الانهار
والبحر معاً وتكوّنت بذلك بعد مئات من الاجيال تلك السدود المجدبة والآكام
القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردّت صدماته كما ترى في صورة
نهر ابراهيم (انظر الصورة) الذي سبق عنه الكلام . ومن درس سهله الذي لا يزال
على مرأى منّا يتّسع يوماً بعد يوم ادرك بالنظر ما جرى في سالف الزمان اذ كانت
القوى الطبيعيّة مع العوامل الجويّة اشدّ فعلاً منها اليوم . امّا الانهار فجعلت هذه

السدود كميجن تعمل من ورائه عملاً متواصلًا ساجبةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعية مغنيةً بها السهول . فليت شعري أليس هذا عملاً متوازيًا يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا المنوال تكونت شيئاً فشيئاً تلك المثلثات الساحلية التي نرى عند مصب انهارنا والحقول الخصبة التي تمتد على ضفاف الانهار في جوار البحر . وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جوبيه وصيداء والدامور . والتي في صحنها قامت قديماً المدن الفينيقية العامرة مع ما يحقد بها من البساتين . وعلى الخصوص ساحل بيروت فإنه ثمة الانهار والسيول التي تجتاز في اوديتها كوادي الشويفات ووادي شحرور ونهر الموت ولاسيما نهر بيروت فإنها كلها اجتمعت فأثرت بموادها ووجدت في ضعف عملها ما يساعدها على اتمامه . اما سهل طرابلس فإنه اسعته ورحب جوانبه كان يقتضي عملةً انشط واقدر تراطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخس بالذكر وادي بطرآن ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكار والنهر الكبير وهو اعظمها . وكذلك الصخور حيث اليوم اسكة طرابلس المعروفة بالينا وما حولها من الاراضي فإن هي الا سهل تركب من مجرفات نهر قاديشا وصار لاحقاً بالبر وانما كان في سالف الدهر جزيرةً منفصلة عن سلسلة الجزر البحرية التي تسد اليوم مرفأ البلدة جنوباً (١)

وباجتماع هذه العوامل المائية ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأت هذه الواحة العجيبة المجاورة لطرابلس . ومن اعتبر تركيبها من الصلصال والمواد الكلسية المنحدرة من الجبل ودقق النظر في تربتها السوداء اللزجة وما تغلغ تلك الانحاء من الحبوب مع مزدراعتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انه لا يتعجب مما كتبه في شأنها الكتبة الفرنج في القرون المتوسطة اذا اعتدوها كجنات عدن

(١) راجع وصف لبنان لدينر : *Libanon*, p. 110 Diener ثم مقالة الاستاذ هول Ed. Hull في المجلة الفلسطينية الانكليزية (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضاً H. Prutz of the physical Geology of Palestine, p. 75 وكتاب هـ. برونس : *Aus Phœnicien*, IX

وهي العوامل عينها التي شددت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت . فإن هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيدا . جزيرة صخرية تعوم فوق المياه وكان البحر العجاج يبسط ملكه فوق البر الذي ترى فيه اليوم غابة الصنوبر . فلما تحدّرت السيول اللبنانية وملأت هذا الغور بما سحّته من لبنان وساقط مجاري البحر قسماً من تربة مصر الى سواحلنا امتلأ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتصلت الجزيرة بالبر . ولنا شاهد حسي على فعل البحر اعني التلعات الرملية التي جاءت من القارة الافريقية فنقلت على قول الشاعر لامرئين « الى لفح لبنان قطعة من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعية انما هي نواميس مقررة استلقت اليها الانظار ارباب وصف البلدان منذ زمن مديد . وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقية سوى مثال مصغر لما حدث في الاصقاع المصرية . فان مصر السفلى الى الثلث العظيم المعروف بالدلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايام اذ كان مجرى المتوسط يد مياهاً وسيطرته على اسافل تلك البلاد الى سفح جبل المقطم حيث شيدت بعدئذ القاهرة . ولنا في تركيب شط العرب مثال آخر أقرب عهداً في ازممنتنا التاريخية . فان العلماء بالآثار الاشورية يتفقون على ان اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شط العرب انما هو حدث جرى على الأقل بعد الطور الاول من تاريخ بابل وان النهرين كانا يصبان في بحر العجم كل بمفرده لكن مياهما لم تزل تنقل الرواسب التي تراكمت فالت بسيرها الى ان التقيا في المسير وجريا في مسيل واحد قبل ان ينصبا في البحر (١) . وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بمياهما تحققت ان ساحلها يزداد كيلومترياً اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن . وقد ذكر اليزاي روكو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خاجاناً من الماء المالح صارت سهولاً بعد مدة لا تتجاوز حياة الانسان وكذلك مسايل كان ينبت فيه الطحلب اصبحت غابات فنواء

أجل ان سيول لبنان لا تشبه الا عن البعد انهار افريقية وما بين النهرين لكن عملها ايضاً على قدر قوتها فتوَلّف سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول

بلاد العراق (١) بيد أن العوامل واحدة والعمل واحد مع اختلاف سعته وعظمته بحيث يمكننا تكرار ما سبق قوله بأن لبنان افاد سورياً كما افاد النيل ارض مصر .
ولذلك ترى كتيبة الاسفار المقدسة اذا ذكروا لبنان انطلق اسمهم على مدحه .
قال ريتز (٢) : ان بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وحرمون المكلا بالثلوج الغراء لان منها تأتيها البركة والخصب واذا سمعت الفلاح كما الراعي والقوال كما النبي والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستميرون من هذه الجبال المباركة ابداع ما لديهم من التشابه واجمل ما عندهم من الرموز «

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهار لبنان لا بُدَّ ان نبين بوجيز الكلام ما لبعضها من الخواص بصفة حدود المعاملات والايالات . فان منها وهو النادر ما يكون كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحُدُّ فينيقية ويفصلها عن سورىة بمعناها الحصري اعني بين سورىة بطالسة مصر وسورىة السالوقيين (٣) . ومثله الليطاني الذي يحُدُّ شمالاً بلاد فلسطين ويفصل بين نواحي صور وصيداء .
ولكن أغلب الانهار اللبنانية التي تحُدُّ المعاملات انما هي مجارٍ قليلة المياه وتجري في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة . واحسن مثال على ذلك نهر الكلب فانه لم يكن حراً بان يُجعل من الحدود لقصر مجراه وقلة عرضه الا ان مصبه عند رأس تدافع عنه بسهولة شرذمة من الجند فتزدد جيشاً عرمرماً جعل له خطراً عظيماً في كل الازمنة . وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حدّاً لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوباً يفصلها عن املاك صيداء (٤) . واليوم

(١) راجع ايضاً ما كتبه العلامة كلرمون غانو عن تقدّم نهر الاردن الى الجنوب واتساع مصبه في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280)

(٢) Erdkunde, XV, 16

(٣) اطاب بثمان وهولشر . Palaestina in. Hoelscher ; l. c. 40 ; Pietschmann, der persischen und hellen Zeit, p.8

(٤) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيداء (راجع كتاب راي في المستعمرات الفرنجية ٥٠٩ : Rey : Colonies franques)

ايضاً نهر الكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان . وقد كان على عهد رمسيس الثاني فاصلاً بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثيين . والنصب الذي اقامه هذا الملك عند نهر الكلب انما هو ذكرٌ ودليلٌ معاً على حدود دولته (١) ويوجد مجرى آخر اصغر من الانهار السابقة مسيلاً واقل شأناً يزيد به جدول المعاملتين الذي اتخذه القدماء ايضاً كاحد حدود البلاد . وفي عهد الفرنج كان الفاصل بين ايلة اورشليم وايلة طرابلس ٢١ والسبب ان ضفة الشمالية عند رأس حرج ضيق المجاز لم يمكن السير فيه الا بنقر الصخر لجواز الطريق الساحلية . وهناك اليوم برجٌ قديم دلالة على ما كان له من الاهمية العسكرية . وشمالى هذا الجدول تبتدى بلاد طرابلس امماً جنوبه فيلحق ببيروت او بصيداء على حسب تقلبات الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيداء . ومن هذا اشتق اسم المعاملتين الذي هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك انكبة العرب والرحالون (٣)

ولنا هنا ملاحظة أخرى وهو انك لا ترى على ضفة الانهار اللبنانية لا مدينة ولا قرية مهجة (ZDPV, XXVII, 114) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيداء وبيروت وجبيل والبتون فكان حقيقاً بها ألا تبعد عن هذه الانهار . ولعل السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبها تكثر الامراض الويئة والحميات ويفسد الهواء . ثم ان الفينيقيين كانوا تجاراً لا يُعتنون بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يختاروا لمدنهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضلون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمراعى سفنهم حيث يسهل عليهم في حصونهم البحرية رد هجمات العدو وركوب البحر وتأمين سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسقها بالنبضائع . وكل ذلك اوفى بالرام عند الرؤوس الصخرية . وما يدل على انهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن انها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلبات العديدة وصروف الدهر . بل ترى بعضها تتقدم كل يوم في معارج الفلاح

W. M. Müller, *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler, *Keilin-*

schriften, 184

(٢) راجع المجلة الاسيوية (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٩٧)

(٣) راجع اخبار الاميان (ص ١٨)

١٢

مياه لبنان البحرية

كان يجمل بنا بعد ذكرنا ينابيع لبنان ولنهاره ان نفرد بحثاً ببحيراته . الا ان البحيرات في لبنان غاية في الندرة . وقد سبق لنا وصف ما يرى منها اعني بركة الشؤنة وبركة ثانية اصغر منها وهي بركة الزينية (١) وقد اطلعنا منذ زمن قريب على بركة ثالثة قريبة من الزينية لم نجد لها ذكراً في الخرائط اللبنانية تدعى رام الزينية ولعلها فاتت الجغرافيين لقربها منها او لتشابه اسميها

وان اردت ان تزورها فسير من بركة الزينية متوغلاً في الجبل نحو الجنوب فبعد ثلثي الساعة تبلغ الى وادٍ حرج لا منفذ له الا من شماله تحيط به الجبال العالية فهناك رام الزينية وهي على شكل دائرة اهليجية طولها ١٢٠٠ متر في عرض ٤٠٠ م ومياهها كدرة متوحلة تتكون من ذوبان الثلوج المتوجة للجبال التي تسكنها فلا تسيل منها لعدم وجود منحدر تجري منه لان الجهة الشمالية المفتوحة تملؤ قليلاً عن سطح المياه فتجمعها من السيولان . اما قعر البحيرة فيتركب من حجارة كلسية نخرة كطبقات لبنان العليا ولذلك لا يمسك المياه . فاذا ولى شهر تموز نضبت البحيرة ونشفت تماماً . وليس سمك في هذه المياه وانما ترى فيها الضفادع النافقة وبعض الحيات المائية

*

وتستعمل لدروسنا السابقة في مياه لبنان بقي علينا ان نبحث في مياه البحرية التي تمتد الى لطف هذا الجبل ونقسم كلامنا الى باين مدار الاول على المياه الساحلية وما يغلب عليها من الظواهر الطبيعية اما الثاني فنخصه بالساحل عينه وهيئاته اعلم ان البحار في كرتنا الارضية شأناً عظيماً لا يكاد يفي به الوصف وان

قصرنا النظر على مياه البحر وحدها وجدنا ما لها من الدور المهم في حياة سيّارتنا فإنّ الاوقيانوس كحوضها العظيم وينبوعها الأوّل تتصاعد منه الابخرة فتطرب البرور وتسقيها بمياه تنعشها وتحيا وتجعل سكناها محتملاً بل لذيذاً ناعماً

كذلك سبق لنا وصف العوامل الجوية من انواء ورياح وامطار التي تصدم اطوادنا وقيم جباننا فتحتك بها وتقطع صخورها وتجرف تربتها الى السهول والى مصب الانهار واعماق البحار . فكل ذلك من اعمال البحر ومن نتائج تحولات مياهه بالحرارة . فان السحب اذا تصاعدت من الاوقيانوس انعقدت في اعالي الجو وتساقطت على هيئة ثلوج تجمد فوق مشارف الجبل وفي اوديته وتعمل في صخورها فتخللها ثم تدفع تلك المثالج والصخور الى اسافل البلاد فتسحق الى تربة زراعية . ومن هذه المياه ما ينفذ في قلب الجبل فينخره وتتكوّن بذلك المغاور او تجري المياه فائرة بعد ان اجتذبت بسيرها المواد المعدنية التي كانت مكنونة فتنبجس عيوننا معدنية ذات خواص عجيبة . وما قولنا الان بالانهار التي تستدفق في كل انحاء العالم وتنقل في جسم الارض الحصب والثروة كأنها الشرايين في جسم الانسان تحيي كل اعضائه . أليست هذه من افضال البحار الراجعة الى اصلها بعد دوران عجيب وسقي الارض العطشى

نعم ان ما يرى على الارض من ظواهر الحياة في المواليد النباتية والحيوانية بل في حياة البشر كل ذلك مصدره البحار وحركتها المتواصلة . وكذلك لا يشك احد في ما لتتوه الجبال وارتفاعها من التأثير في احوال الجو الا ان هذا الاختلاف الطارئ عليها بقوة سنن العناية الالهية انما تجريه بجانب عظيم حركات البحر ومظاهره . فان كان الشتاء على وجه الارض ألطف وحرارة الصيف اخف وحالات الجو من طرف الى آخر تجري بتدرج لتلا يهلك الاحياء بتنقلها على فور فما ذلك الا لان المياه البحرية تخزن الحرارة فتندشرها في الشتاء كما انها تلتطف شدة القيظ في فصل الصيف . وكذلك في الاوقيانوس مجار تنقل المياه القطبية الى خط الاستواء ومياه خط الاستواء الى القطبين فتعتدل بذلك احوال الجو ولا ينتقل الهواء من حالة الى اخرى الا تدريجياً . ومثل الهواء فانه لولا البحار لكان ناشقاً لا يمكن استنشاقه وانما ترتبط المياه البحرية التي تشر رطوبتها حتى اقاصي الارض مع الرياح . فالاوقيانوس اذن يدمج الأهوية

ويجعل توازنًا بين انحاء الارض المختلفة ويبعث الحياة على الارض ويحفظها بعد ان غني
بتركيبها اذ يهتّم برّيتها بواسطة المجرتة وعيونها وانهاره.

١

المظاهر البحريّة العموميّة

تحت هذا العنوان نجمع كلّ المظاهر التي تلوح في البحر المجاور لسواحلنا اللبنانية
فندون ما يختصّ به وان كانت هذه الملحوظات قليلة ليست ذات بال . والسبب انّ
بحرنا المتوسط احد الاجر الداخليّة المقلّعة لا يتّصل بالاوقيانوس الا ببوغاص حرج طوله
بضعة اميال يزيد بوغاص جبل طارق . ومن المعلوم انّ البحار الداخليّة لا تشارك
الاوقيانوس الكبير باختلاف مظاهره ووفرة حركاته بل ترى كلّ شيء فيها على نظام
واحد وسداجة عظيمة . وكذلك ليس مجال للكلام عمّا يحدث في البحار القطبيّة من
قُطع الجليد الطافية على وجه الماء لبعد مجرنا عن القطب كما انه ليس من اثر لجاري
المياه الحارّة (Gulf-stream) . أمّا المدّ والجزر فلا يكاد يُشعر بهما

وزد على ذلك انّ العلماء الذين درسوا خواصّ مياه مجرنا المتوسط انما اكتفوا
بمجاهة الغربيّة المجاورة لايطالية وفرنسة امّا الجهات الشرقيّة منه اي الانحاء القريبة
منّا فان ابحاثهم عنها جرت بتسرع فهي لذلك قليلة التدقيق . وهذا هو السبب الذي
يصدنا عن تدوين النتائج المقررة والاعلامات الراهنة بهذا الخصوص . فانّ الاعداد
التي وجدناها من هذا القبيل غير مضبوطة اكثرها مبني على التخمين ورُبما كانت
غير موجودة

*

اعلم انّ اول ما يخطر على ذهن العامّة اذا نظروا الى البحر انه كهواية ليس لها
قعر ولا حدّ يحصرها . ثمّ يعقب التفكير فيؤدّي بصاحبه الى أنّ يجعل لهذا القعر قياساً
على التقريب لكنّ الاسباب المذكورة آنفاً تحول دون هذا التحقيق ولاسيما في جهات
البحر الذي تهتمنا معرفته المجاور لسواحلنا . وانما يجوز القول بالاجمال انّ اقصى اعماق
هذا البحر المتوسط او بالبحري هذه البحيرة الداخليّة ليست هي الانحاء القريبة منّا .
والذين سبّروا القعر في البواحي المصريّة وجدوا فيه اعماقاً تزيد عن ألفي ميتر

والاقيسة المنادرة التي اجراها العلماء في سواحل بلاد الشام بعيدة عن مثل هذا القعر العميق

ثم انّ الاعماق القاصية تكون عادةً عند النقط البحرية المجاورة للصخور العمودية التي تنغمس تواءً في البحر لاسيما عند الرؤوس الساحلية والمشارف الصخرية التي تطل على شج المياه فانّ الرياح الزعازع والانواء تثير الامواج وتعمل بلا انقطاع في اركان الصخور واصولها . اما اذا كانت السواحل تتركّب من الرمال فتري قعر البحر لا يتحدّر الا تدريجاً حتى انّ عمق المياه لا يزيد عن عشرين او خمسة وعشرين متراً على مسافة تختلف بين كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات . وليس السبب خلوّ هذه الاماكن من الرياح والانواء التي تحفر اعماقها . انما يتلى الحفر بما تأتية المجاري والرياح من الرمل اما من السواحل عند مهبّ الريح واما بجروف الانهار من اعالي الجبل

والذين فحصوا عن اعماق الحور المنسوب للخضر بقرب بيروت وجدوا انّ معدّل قعر البحر في الكيلومتر الاول بين ثمانية ابواع الى عشرين باعاً انكليزياً (١) . والباع الانكليزي متر و ٨٢ سنتيمتراً اعني من ١٦ متراً الى ٣٦ م . اما غور جونية فأعمق فانّ قاع البحر على مسافة خمسمائة متر من الساحل يبلغ عشرة ابواع اي نحو ١٨ متراً كما ورد في خارطة الكومندان الانكليزي مونسيل التي سبق تعريفها في مقالتنا عن خرائط لبنان وبازاء هذا الخليج عينه على مسافة نحو ثلاث ساعات من الشاطئ قد وُجد أقصى غور سُبر بالمقياس في الساحل الفينيقي وهو يبلغ ١٠٨٤ متراً . واذا تَقَرَّبَ من الساحل بازاء برج محاش جنوبي جيبيل كانت نتيجة السبر ٤٣٠ باعاً انكليزياً . وكذلك الجهة التي هي بازاء مصبّ نهر الكلب فانها بعيدة القعر . ونذكر اننا قبل بضع سنوات اذ كنّا نتجول على الطراد الافرنسي سنزي لم يكنه ان يرسو هناك لقصر سلاسله التي لم تبلغ القعر . وفي الواقع ترى الخرائط البحرية تجعل عمق هذا المكان ٢٧٠ باعاً انكليزياً . وبخلاف ذلك مينا طرابلس وخورها المتسع فانّ عمقها قليل يتراوح بين ستة وثمانية ابواع . لم تَسِرْ الى بُعد كيلومترين او ثلاثة

(١) راجع خارطة لبنان البحرية والارقام فيها بالابواع الانكليزية وهي تدلّ على اعماق

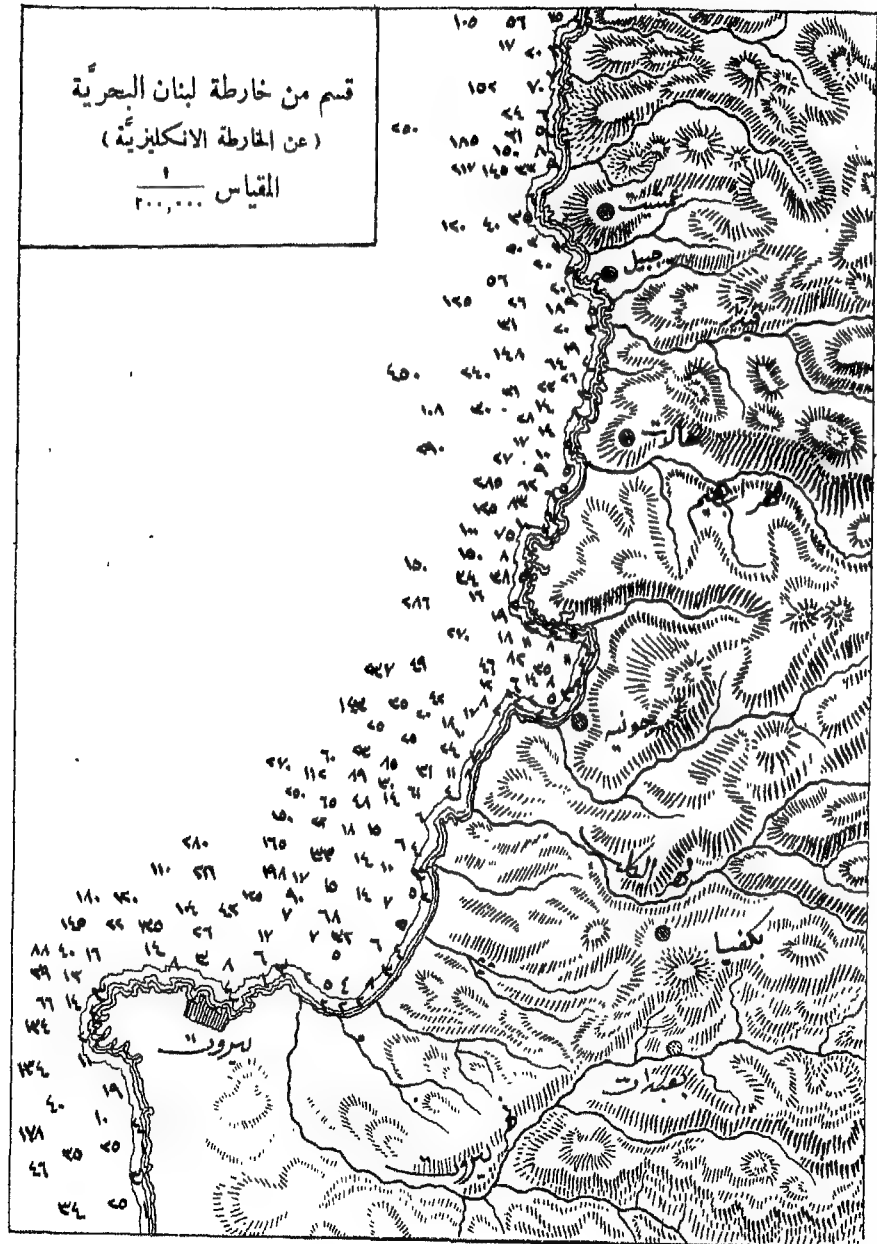
كيلومترات من الساحل وهذا ما يضطر السفن البخارية بان تبعد عن الشاطئ وإذا ما اراد اهل الامر ان يجتفروا مرسى لهذه المدينة فلا بد لهذا المشروع من نفقات طائلة لقلة هذا العمق كما سبق

أما مدخل ميناء بيروت فقاع مياهه ١٥ متراً . وهذا العمق لا يرى وراء السد الكبير إلا على نحو مئة متر منه وان سرت شمالاً الى مسافة كيلومتر وجدت غرر البحر بالغاً ٢٩٠ باعاً بينما العمق في جون الخضر على الخط نفسه وعلى مثل بعده من الساحل لا يزيد على ٢٥ باعاً الى ٣٣ . وفي ذلك تأييد لقولنا عن الاعماق المختلفة التي تروى عند الصخور الساحلية وعند السواحل الرملية

*

واعلم ان تبخر المياه في كل البحر المتوسط سريع جداً . وهو على سواحل فرنسا وساحل جنوة لا يقل عن سنتيمتر كل يوم في فصل الصيف ومجمل ما يتبخر منه في اشهر الصيف الثلاثة ٦٠ سنتيمتراً . أما سواحل الشام فلا وراء بان تبخر مياهها اعظم لارتفاع ميزان حرارتها . وقسم من هذا الماء الذي يفقده بجراً يعاد اليه بالامطار النادرة التي يُجد بها وبالانهار التي تجري اليه وهي بالنسبة الى ما يخسره ثلث كمية . ولولا اتصال مجرنا ببوغاص جبل طارق ومنه بالاقيانوس لقلت مياهه الحلوة وزادت ملوحتة واضحى كبحر لوط في طعمه إلا ان الاوقيانوس يده مياه وهي اقل منه ملوحة ويعوض له خسائره فيتوازن البحران

واعلم ان مياه الاوقيانوس تأتي مجرنا بمجرى عظيم يمتد على وجه البحر المتوسط الى مسافات بعيدة . وكذلك يحدث على طول السواحل مجار اخرى منها المجرى الذي ينقل الى سورية رمل مصر وطين نيلها (١) . وحتى الآن لم يُحسن العلماء معرفة خواص هذا المجرى ووجهته وقوته كما انهم يجهلون اموراً كثيرة منوطة بالمجاري البحرية وعلاقات الاوقيانوس بمجرنا المتوسط . ومما افادنا بعضهم بخصوص المجرى الموازي لساحلنا ان قوته تبلغ في كل ٢٤ ساعة عشرين كيلومتراً سيره من الجنوب الى الشمال . وهي افادة نزيها



على علّاتها اذ لم يمكننا تصحيحها . والمجاري البحرية في البحر المتوسط من الظواهر التي ليست ذات شأن عظيم كما هو الواقع في البحار الواسعة وذلك لحلوله من المد والجزر ومن الانهار الزاخرة والأخوار العميقة المتّصلة بالبواغيس الضيقة (١)

ومن يفحص مياه بحرنا لم يجد فقط ثقلها النوعي اعظم من المياه العذبة بل تحمّلي أيضاً ان ثقلها وهو (١,٠٢٩) فوق ثقل الاوقيانوس (١,٠٢٨) بلمتر . والظاهر ان سبب ذلك حرارة الشمس التي تمتص من مياه بحرنا أكثر مما تأتي به الانهار . فباقي من الماء يزيد ثقلاً لوفرة املاحه التي لا تتبخر . والامر في جهاتنا السورية اوضح لانّ انهيارنا لا تنفي البحر موادها لندرة مياهها . وعليه فاننا نظن انّ ملوحة بحر الشام تتجاوز ٣٨ ممتراً وهو معدل بقيّة البحر المتوسط . وتعليلة قلّة المياه النهرية العذبة كما سبق ثمّ ابتعاد جهاتنا عن بوغاص جبل طارق حيث يأتي من الاوقيانوس مجرى من المياه اقلّ ملوحة . ولعلّ قوّة هذا المجرى لا يظهر اثرها في جهاتنا السورية . ولنا على ذلك بعض التعويض بالكميّات الوفرة من الماء العذب التي يصبها النيل في بحرنا فتأتينا بمجرى ساحلي مع ما يأتي من الرمل

قلنا انّ المد والجزر قليلان لا يكاد يحسّ بهما الناظر . وسعتهما في سواحل الشام تختلف بين ثمانية وعشرة سنتيمترات . ولحظة المد والجزر نتيجة اشراها اليها في مقاتلتنا عن مجاري الانهار في لبنان وهي انسداد هذه الانهار بما يتراكم في مصبها . الرمال فيضطرّ الاهلون بان ينقلوا مراسي مدنها الى مسافة ابعد على الساحل كما ترى في مرسيلية بالنسبة الى نهر الرّون وفي الاسكندرية بالنسبة الى النيل . وهذا بما حدا بالفينيقيين ان يبشوا مدنها على مسافة من الانهار

*

قد قيل انّ الحياة تظهر خصوصاً بالحركة . وليس في الطبيعة كائنٌ احيا من البحر . وحياته هذه تلوح بعمل غير منقطع لاسيّما بتأثيره في البرور التي لا يزال يغير هيئاتها وذلك على نظر منّا ويذكر القارى ما قلناه سابقاً عن اعمال الانهار التي نسبنا

(١) راجع ما كتبه في المجاري الساحلية كلتبرونر - *Manuel du Voyeur* (Kaltbrunner : 438 - 439)

لها خراباً وعمراناً وهذا يصح أيضاً في البحار . ثم تشهد بعض النصوص التاريخية التي أَلَمْنَا إليها على وجود جُزُرٍ صغيرة بأزاء بيروت او على مقربة منها . والدليل على ذلك ما ورد في القرن الخامس للمسيح في قصائد الشاعر نونس المعروفة بالديونيزياك (Dionysiaques) فأنَّهُ وصف بيروت وصفاً يدلُّ على نظر العيان وينعته بالمدينة الجميلة الجزائر (Εὐνησος) . وكذلك جاء في تواريخ الفرنج أنَّ ديراً أُقيم في إحدى جزائر بيروت (ZDPV, X, 310) فوجود بناء كهذا لا يكون إلا إذا اتَّسعت الجزيرة بعض الاتساع . ثمَّ أنَّ خرائط مرسومة في ذلك العهد تشهد أيضاً على وجود جزائر مجاورة لبيروت (ZDPV, XXI, 116) . فكلُّ هذه الأدلة تبين صِحَّة الامر بلا محال . فَنَرَى كيف توارت هذه الجزائر ؟ أَبَانْخَاسَفِر في الارض او زلزلة ؟ هذا ليس بمحال . ولعلَّها خربت فيما خرب في الزلازل الذي ذكره المقرئ في تأريخ الممالك (Ed. Quatremère, I, 1^{re} partie, 145) حيث قال « انَّ سبع جزائر من بلاد الفرنج في الساحل خُسفت وتوارت في غمر البحار » . وقد بقي من هذه الجزائر صخور تعلو سطح البحر اعظمها شأنًا جزائر الحمام في رأس بيروت وآثار المياه فيها ظاهرة وهناك معبر خرقته الامواج في وسط صخورها وهي لا تزال تعمل فيه ريثما يتم بها عمل المياه فتتوارى بقايا هذه الجزيرة في قاع البحر وما يقال في تدمير المياه أظهر للعيان في الرؤوس الصخرية فإنَّ اسافلها عرضةٌ للمجاري المائية التي لا تزال تنخرها . وانما عمل البحر فيها يختلف في السرعة على حسب وجهة الامواج وتركيب الصخور وصلابتها . وبذلك يُعَالُ نَتَوُّ الصخور الساحلية وهيئتها المتقوسة كما ترى في رأس بيروت . وكذلك الاغوار والكهوف والحنايا المستديرة التي تحكم صنعها مياهُ البحر فيُنْضِي بحسنها العجب

٢

أَكْشَبَةُ الرَمْلِ

وممَّا ينوط بدرس المياه الساحلية في لبنان أَكْشَبَةُ الرَمْلِ التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . ونرى هذه الكشبان على سيفٍ يجرنا المتوسط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرته وقلة ما يجري فيه من المدِّ والجُرِّ فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها

من الحركة والانتشار . أمّا تكوّنهما فيحدث عادةً في الشواطئ الرملية القليلة الانحناء فتتسبب الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزاً من صخر او نبات تجعّت حوله ولا تزال تنمو شيئاً فشيئاً الى ان تصبح على شبه ربوة . ثمّ تهبّ الرياح وتلعب السواقي في اعالي هذا الكثيب التي لا تمسّها امواج البحر فتذري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوّن منها تلّ آخر وهلمّ جرّاً . أمّا الامواج فتتأطح سفح الكثيب الأوّل وتنقل اليه رمالاً جديدة تعلو وتتكوّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقاً . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرملية في حركة دائمة تتقدّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادها بأن تجري الى حيث تجد نواتجاً من الارض او عائناً فتتجمّع حوله رُئي جديدة مسندة الى اعطاف الاكشبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولّد آكاماً اخرى فتنتصب على شبه سلسلة من التلال المتحركة يفصل بينها ألخاب واودية ضيقة مستطيلة (١)

على أنّ الآكام الرملية التي تُرى في سواحل بحرنا المُقلّ الحالي من الجُزر والمَد ليست كأكشبة البحار الواسعة . كما انه لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطنية المترتبة من المواد الصلصالية او الصلبة التي لا تحركها الرياح والامواج بسهولة كفعلاها بالرمل وانما تتكوّن فيها سدود من الحصى التي تقلبها الامواج على بعضها الى ان تُصلق بالاحتكاك وربما تكوّمّت اكواماً دون التلال الرملية علواً واتساعاً

وان سرحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقاً على قولنا اذ لا يوجد من هذه النشور الرملية الا في بعض نقطٍ معالومة ترح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كل هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرملية فتتسببها الرياح الغربية المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا ممّا يلوح خصوصاً في نواحي بيروت فتتّ توارّد الرمل الذي يوحف بجبله ورجله وينطلي سهولاً مخصبة تغوص في وسطها بيوت واشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجلات فان الرمال تملوها بحيث لا تعود تصلح للسير

(١) راجع ما كتبه روكو في كيفية تكوّن هذه الاكشبة في كتابه « الارض » (ج ٢

على ان لهذا الداء دواء اذ يمكن ان يُحمل حدث لعمل الرمال بالزراعة ونصب الاشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدو الزاحف فتقوى على ذرائه ودقائمه . ومن العجيب العُجاب ان في هذه الرمال مع يبوستها قوة محصية ومائية كافية لغذاء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحرية المشبعة ملحاً بل تمتد جذورها الى اعماق بالغة لتمتص الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها . فمن ذلك بعض النباتات الزاحفة الطويلة الاغصان على شبه الجبال كاللوب قتراها تمتد على وجه الارض كشبكة تزينها يزورها واوراقها . ومن النباتات الرملية اشجار الميموزا والصيبر وبعض الشجيرات المشوكة وكلها يرد غارات الرمل ويمنعه عن ان يتعدى طوره

لكن هذه الوسائط ربما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت منافعها كما يجري كثير من النسات الغرض الذي يأكله الماعز . فلا بُد من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السواقي وتسد الطريق في وجه الرمال . وهذا ما قامت به الدولة الفرنسية في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للاوقيانوس فان الرياح مع الامواج البحرية كانت تسفي عليها كمية من الرمال كادت تسجها كالكنف بعد ان غمرت قسماً من قراها . فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وحتى تنجزه عملاً قليل فصارت كشبان الرمل في بلاد غسكونية مورداً للثروة بعد ان كانت آفة مثلفة . فان غابات تلك المعاملة الواقعة جنوبي غربي فرنسة تعتبر اليوم كمنى لها لما يُستثمر منها من الخشب وما يُستخلص من الموائع الراتنجية وهي تساوي في السنة مئات الوف من الفرنكات . أما الغابات نفسها فيتمتها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً . ومن الفوائد التي احرزتها تلك الجهات بفضل الغابات اعشاب وافرة ينبت الرمال الرطب وهي تصلح للمواشي . وكذلك قد تلاشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لان جذور الشجر امتصتها شيئاً فشيئاً الى ان يبست وصار الهواء بقائها نقياً طيباً واضحت الغابات على هذا النمط زينة وشفاء معاً

وهنا فليسمح لنا ارباب الامران نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تحصب مدينتنا وتزينها اذا ما اعملوا فيها ايدي الزراعة . واول ما ينبغي فعله ان لا يُرخص للبدوان وللرعيان ان يرعوا فيها مواشيهم . فان رمال بيروت في الربيع تأتي

بشيء من الكلال وببعض الانبثة التي يمكنها ان تنمو وتزكو لولا يتجول فيها هو لاء
الرعاة بقطعانهم فيحولونها الى رمال جرداء تتلاعب بها الرياح وتنشرها على انحاء
المدينة في بعض فصول السنة بدلاً من ان تكون بقعة خضراء غضراء تروق العين
بنضارتها وتخصبها بثروتها

وانفع من ذلك ان تعرض انصاب الصنوبر فان هذا الشجر كما حَقَّقْتُهُ الاختبارات
التواليه شرقاً وغرباً انجع دواء لهذا الداء واكوى عامل على رد غارات الرمال . ومن
ثم لا يؤخذن الانسان غير نفسه ان تغاضى في استعمال هذه الواسطة القريبة المثال
التي من شأنها ان تصلح تهاؤمهُ وهو السبب الاوحد في ما يجري من الخلل في توازن
قوى الطبيعة المنسّمة وفقاً لنظام العناية الصمدانيّة

ويؤيد قولنا ما كتبه في هذا الصدد كل الذين يحشوا عن تكون الأكثبة
الرمليّة فانهم يتفقون في القول بان هذه التلال حديثه النشأة وان في مكانها كانت
سابقاً تمتد الاحراج والغابات فلما قُطعت اشجارها استولت عليها الرمال . وهذا قول
عمومي يصح في السواحل الاوربيّة كما في شواطئ بحرنا . ومن تصفح التواريخ
اليونانيّة او اللاتينيّة لا يجد ذكراً لهذه الرواي الرميّة الى عهد القرون الوسطى بل
تراهم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة مكانها او في عمارتها

ان في نصف الطريق الجارية بين صيدا وبيروت في المحلّ المعروف بني يونس
بناية قديمة تراكمت عليها الرمال فلم ير منها الا قبّتها البيضاء . وهي بناية اسلاميّة بلا
شك تدل هيتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال تواردت عليها حتى كادت تعمرها
بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرت شمالاً الى نهر الفدير على مسافة
نصف ساعة جنوبي خلدة بلغت موضعاً يدعى القصر كان بقربه حلّة تغطيها الرمال في
عهدنا . والمرجح ان ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثاً . وفي نقط
اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدل على عمران سابق وحداثة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة ان اصل بيروت من غابة صنوبرها وان معنى اسمها
الصنوبر . وهو قول ضعيف والرأي الأسد ان اشتقاق اسمها من البر ومعناها مدينة
الآبار . لكن في هذا الزعم نفسه دليلاً على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك
مقالة مستقلة (راجع المشرق ١ [١٨٩٨]: ٩٣٩-٩٤١) حيث اوردنا عدة شواهد على قولنا

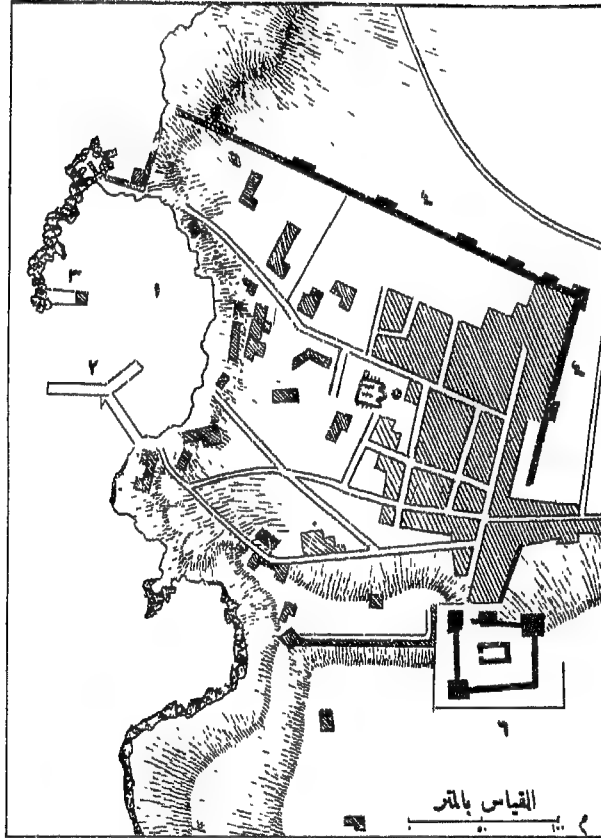
فلترأجع فانها تثبت انّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزداناً بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسيّ اذ قال ان « غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلاً في التكسير تتصل الى تحت لبنان » وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كما تُرى اليوم ما لم يُقل انّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات . وهو قول بعيد لانّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيما لدينا من سجلّات وتواريخ القرون المتوسطة . ويكفي لردّ هذا المزعم ان القناة الرومانية المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتخذ غالباً الا لستقي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة . وبقيت غابة بيروت زاهرة غيباء بعد الادريسيّ فان صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر ما كانت عليه سهول بيروت من الخصب والريّ بل يروي انّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارة لمحاربة اسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرفة : « قيل انه لم يُعهد قط عمارة مثلها عظماً وسرعة وكثرة صنّاع وقوّة عزم » . ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفذ الغابة لانّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعها السابق . وعندنا انّ الرمال اخذت منذ ذلك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدّى طورها . لانّ ما قُطع من الصنوبر لم يُعوّض عنه بغرس اشجار غيرها وربّما قطعوا منها غيرها بعد ذلك كما فعل محمّد الجزّار (١) . ومن ثمّ لم تجد الرمال ما يتعرّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدها المعروف في زماننا وهو امرٌ يؤسف له ونتمنّى ان اصحاب المروّة يتلافون الامر وقد بينّا لهم ما وراء هذا الاصلاح من القوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منه من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣

ارتفاع الساحل البحري

انّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طور العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة

المعروفة بالتاريخية . وهذه نتيجة اجاث جيولوجية مقررة اثبتتها حضرة الاب زموون في كتابه رسم لبنان الجيولوجي (١) نلخص هنا ادلته مع اضافة معلوماتنا الشخصية قد اتسعننا في مقالتنا عن مجاري لبنان النهرية في وصف السدود التي ترى في مصب كل انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معاً . وهنا لا نرى بداً



رسم جبيل نقلاً عن المسو راى

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنا ٦ القلعة

من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو اندحار المياه البحرية عند ارتفاع

(١) راجع 52-57 Zumoffen : *Esquisse géologique du Liban*,

الساحل الذي يتوالي الاعصار تتأ تدريجاً وتساعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحرية طفوفاً يختلف تحديد ارتفاعه وهذه الصخور في اعلاها مسطحة دلالة على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصة في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كميات من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على ذسور لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فوقها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصعبه من تدهور المياه

وزد على هذه البينات العمومية دلائل اخرى تُستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانية . فن ذلك ان الصخور التي بُنيت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يرى مثلها امام صور وطرابلس وكلها حديثة العهد متركبة من الرمل المتلاصق المتصلب والمعجون بالاصداف البحرية وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلما تحدرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدة فوق سطح البحر

وانا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقية فان ما يرى فيها اليوم من الصخور ثم من تراكم الرمال انما سببه الاول ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقوله ان السفن الفينيقية القديمة لم تكن تحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطحة كذهبيات مصر التي يمكنها ان تصعد النيل الى حدود الاقصر . اجبتا بأن الامر معلوم ولكن هيات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمراسي الفينيقية القديمة وهم يبالغون في ذكر رحبها وأمنها للسفن انما اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجارية كما انها لا تقي المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلتجئ اليها فقط بعض السفن الشراعية الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لما أمكن تعديل هذا الامر وان قيل ان هذه المراسي ملئت بالصخور والاطلال على عهد الامير فيخر الدين المعني . قلنا ان هذا الواقع قد تناقله قوم من الكتبة المحدثين ولم يسندوه الى مؤرخ ثقة . فلو صح لما سكنت عنه كتبة زمانه او احد القناصل والتجار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهد . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعي ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثم لا نرى سنداً لما تروييه العامة عن فيخر الدين انه غمر مرسى صيداء بالاطلال والصخور

هذا وقد اشرنا غير مرة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغامرة جزيرة تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الخضر بوادي شحور .
امّا اليوم فبين هذين الطرفين سهول مخضبة ليس لوجودها تعليل آخر الا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وُجدت في امكنة شتّى صُبْرٌ من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند المطعم المعروف بلوكندة المطران ومثلها على منعطف الاسرفيسة عند مار ديتري وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ متراً فوق سطح البحر فلا شك ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على ان المياه كانت تنحدر تلك المجلات ثم تحدّرت بارتفاع تلك المواقع

وبما سبق لنا قوله في مقالتنا عن مجاري لبنان النهرية ان سطح المياه عند مصب نهر الكلب كان سابقاً اعلى منه اليوم وأيدنا رأينا بأثار السكك المصرية والاشورية والرومانية وكلها ترى في نقط تعلق الطريق الحالية . ولا نظن ان الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا انها كانت مضطرة الى ذلك بما وجدته من العوائق الطبيعية في سيرها ولا سيما ارتفاع المياه البحرية والنهرية معاً . وهكذا يجوز شرح نص اسطرابون حيث قال ان نهر الكلب يمكن خوضه بالسفن وقد مرّ . وزد على ذلك ان في الطريق الرومانية التي هالك بقايا اصداغ بحرية وحصى مدلوكة ملتصمة ببعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشوز في الازمنة السابقة للتاريخ . وعليه فتتفق الأدلة على الطورين معاً . امّا كون الطريقة المصرية فوق الطريق الرومانية والطريق الرومانية اعلى من الحالية ففي ذلك دليل ظاهر على ان تحدر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجياً بمرور الدهور

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبتون جُتًى من الاصداغ البحرية على علو عشرة امتار من سطح البحر حالياً . وذلك مما يُثبت ايضاً قولنا عن ارتفاع الساحل

ثم اتنا في مطاوي كلامنا عن أنفة (راجع الجزء الاول ص ١٤٦) ذكرنا لها خندقين عظيمين نُقرا في رأسها الذي بقربه موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس أنفة عن البحر وجدته يابساً لا تتصل اليه البحر . وعندنا ان الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهذا العمل

العظيم ونحتوا الخندقين ليملاهما ماء البحر ويردّوا بهما غارات العدو من الجهة الشرقية عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً فان يبوستها اليوم تدلّ على أنّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحريّة تتصل بهذين الخندقين وكلّ هذه الأدلّة والآثار التي ذكرناها قد جمعناها من امكنة شتّى على الساحل الفينيقيّ مباشرة من مصبّ نهر القاسميّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على أنّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدّر . وفي كل ذلك تتحقّق السنّة التي وضعها الحقائق عزّ وجلّ فانّ البحر لما كان يطغى ويبغي فيدمر بمياهه الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بأن ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصمدانيّة التي جعلت للطبيعة سنّة توازن القوى لا تتعدّها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسنن التي فيها نظام الخليقة كلها

١٣

السواحل اللبنانية

ألعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانية الى السواحل الفينيقيّة فقلنا انّ من خواصّها وحدة سياقيها وجريها على خطّ مواز لجبل لبنان اللهمّ الا رؤوس قليلة كراس بيروت ورأس الشقعة التي تشدّ نوعاً عن هذه الخطّة العموميّة . وهذا فصل نفردّه لدرس تلك السواحل مباشرة بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقعة وجدناه بالمقابلة أنّه يخالف بقيّة الساحل في خطّه المتساوي . وما ذلك الا لسبب اختلاف يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليه الاشارة في بحثنا عزّ رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصغور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند ميناء طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكّار . ولا غرو انّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل

النصيرية ولبنان لولا أنّ مياه النهر الكبير مع نهر عكار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفته من التربة التي ملأت تلك البطحاء فلما لم تجد هذه العوامل القويّة كفواً يتصدّى لها كبعض المجاري البحرية او مدّ البحر وجزّره فعلت فعلها وكومت جروفها في تلك الوهاد التي كانت جديرة بان تكون خليجاً ذات شأن اثير وفوائد اقتصادية جيّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يتدّ الى داخل سورية ويصير لها بمثابة قناة بحريّة او كخليج قورنتس يُقرب البلاد الداخلية لاسيّاً وادي العاصي المخصب الى المعاملات التجارية . وما أدراك انّ هذا الخليج لو وجد لم يؤثر في تجارة بلاد آسية الغربية (١) فيحول الى طرابلس كل الحركة التجارية وينزع عن صيداء وصور سيطرتها البحرية

وجنوبيّ هذا الجون بين ميناء طرابلس وسفح الجبل سهولٌ خصبة تكونت بما جوفه اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جاريّاً بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبفعله اتصلت بالبرّ الصخور التي بُنيت فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالاً واوفر كميةً

وان سرت جنوبي هذه شبه الجزيرة رأيت الساحل يقترب من الجبل مستديراً على شكل جون آخر يحده جنوباً رأس الناطور . والدائرة الساحلية كلّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليه رأس أنفة وهو دون رأس الناطور ككبراً لكنّه اغرب منه صورة . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق نقره في الصخر الاصم على ما يظهر قدماء الفينيقيين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيه لنقابتهم البحرية اعني مرفأين تلتجى اليهما جنوباً وشمالاً سفنهم فتأمن من الانواء مع قربهما من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدؤه عند رأس أنفة منتهياً الى رأس الشقعة

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوَّنت من جوف الانهار لا يقل عرضها عن كيلومترين إلا أن المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجده في مصبها من الرمال المتراكمة خارجة بينها وبين البحر . وأما ترقى الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها ولعلَّه يبيدها ويلاشيها لأن الزراعة تجدد في تلك التربة المتركة من المواد الصلصالية والكلسية ما يصلح لنسوتها ووفرة مآثيها . وعلى ظننا ان ناحية شكَّا سوف تُضحي من اخصب جهات لبنان وقد فُتحت لها حديثاً طريق مسلوكة تصلها بناحية البترون والقائميات الجنوبية ربما تبلغها السكك الحديدية ويحدهُ هذا السهل في جنوبه ذاك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل يزيد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلو ٢٠٠ متر ونيّف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهته الشمالية اخذه الاندھال من غرابة صورته فيحسبه كدارعة عظيمة راسية في المرفأ مجهزة في مقدمها بمها ضخمة كانهما على وشك الخروج لتسخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدارعة الغربية من جهة نهر الجوز سهل حتّوش يفصلها عن البحر بمسافة لا يتجاوز عرضها نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا ان قلة الماء لا تسمح بتوفير مزروعاتها كسهل شكَّا . أما من جهة الجنوب فإن رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصله عن هضاب لبنان الشرقية الا اخاديد عميقة خُدت في تربة متركة من الحواري وقطع الصوان شأن الجبال التي تتوسط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعد من اصعب مسالك لبنان واشدها خطراً لانه كثير التراب تغوص الرجل في ارضه الوعثة صيفاً وتزليج في طينه اللزج شتاءً

فترى ممّا تقدّم ان رأس الشقعة كمكعب مرتفع معتزل من كل جهاته قريب من الشكل المربع المستطيل طوله مسير ساعة وعرضه نصف ساعة ومعدل علوه ٢٥٠ متراً تُرى في قمته قرية حامات البالغة ٣٠٠ م . ومساحتها في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفاً من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدره من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمة ينابيع ماء والتربة قليلة

الخصب كثيرة الحجارة اللهم إلا بعض البطائح قريباً من دير النورية حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيه من اوراق الشجر وبقايا النبات

وليس رأس الشقعة متفرداً بما خُصَّ به من الهيئة الغريبة فقط بل به تنوط مسألة أخرى تاريخية يُقتضى حلُّ مشكلها نريد تعيين الطريق الرومانية التي كانت تمرُّ هناك وتتصل بطرابلس . وهي طريق لاشك في وجودها وقد وجدنا منها آثاراً باقية فوق حُوش على رأس الشقعة . فترى من اي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكاً ؟ ومخاً لا يُنكر ان منعطف هذا الرأس من جهتيه الشمالية والجنوبية لا يحتمل طرقات مسلوكة لوعورتها . أما عتبة المُسلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاءً وصعبة المسلك في بقية فصول السنة . فهل يأتري قد درست آثار الطريق القديمة بطوازي الحدثن لاسيا بفعل الزلزلة التي حدثت على عهد يوستنيانوس فذلك . رأي نرتيه ولا نعلم ما فيه من الصحة . وانما عرضناه لنظر العلماء دون بت الحكم فيه

أما اسم رأس الشقعة عند الاقدمين فهو كما أُلغنا اليه سابقاً « ثيوبروسيون » ومعناه باليونانية وجه الله . ودعي ايضاً « ليشوپروسيون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على المرحح اشارة الى اسم الاله الفينيقي القديم . وفي جنوبه الغربي قرية صغيرة تدعى حتى الان وجه الحجر وناهيك به اشارة الى اسمها السابق . والحجارة كما لا يُخفى كانت من معبودات الاقدمين . ولنا في صور مثال على ذلك لأن معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضاً من آلهة السوريين (١) وما هو اصرح من ذلك ان عرب الجاهلية كانوا يعبدون الها باسم الحجر . فيكون مدلول ثيوبروسيون وlishoprosيون ووجه الحجر اعني الاله الحجري . وقد كنّا في ما مرَّ ارتأينا ان هذا الرأس هو ما دعاهُ الاشوريون « بعل الرأس » أما فُنكار فقد زعم ان بعل الرأس هو مضيق نهر الكلب ولا نعلم على اي سند يؤيد زعمه . وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لاكزنج في كتابه عن الديانات السامية ان بعل الرأس هو رأس الدامور . والوطنيون يدعونه رأس الشقعة وكان بجارة الفرنج يعرفونه باسم « رأس وجه » فصنّفوه ودعوه كابوج (Capoue) وكابوني (Capponie) وكابُ ننج

(١) راجع كتاب فُنكلر في الكتابات الاشورية ص ٣٥٨ و ٤٧٧

(Cap ponge) وكاب روج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وزعم رينان انه دُعي باسم كاب مادون (Cap-Madonne) . فيكون في هذا الاسم اشارة الى ديرة سيّدة النوريّة . وكان المسلّاحون يهابون هذا الجبل يتخوفون الرياح التي تهب في جواره . ولذلك ترى في ديرة النوريّة نذوراً للملاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اخترنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبتنا البخاريّة نفسها تشعر بفعلها فاذا ما اقتربت منها تحركت بحركة غير مألوفة

*

وجهة الساحل من مصبّ نهر الجوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربيّ تابعة في سيرها وجهة قطب الجبل الاصليّ بكلّ دقّة كما يتحصّل من مجرد النظر الى خارطة جبل لبنان . أمّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقطّيع الرملية المختلفة السعة

واذا جاوز الساحل مدينة جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركزه عند نهر ابراهيم ونهاية استدارته عند رأس المعاملتين (١) وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصليّ وتقعيره عند جبل المنيطرة وذلك بمقتضى قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فإنّ استدارته توازي ما حصل لقطب الجبل من الانزواء بين المنيطرة وصنين شرقاً . وصيّين يبرز هناك على صورة مثث له على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلاً الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى به ان يُعدّ كدعامّة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر . وان اعتبرته في جهته الغربيّة من جهة البحر وفي جهته الشماليّة من صوب النهر وجدته منتصباً كجدار قطع عمودياً والامواج تلاطم اسفله . وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة النخاريب متقطعة منخورة مقعرة وذلك بلا شك من عمل

(١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بطفة السلام والصواب ططفة سلان

البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلو سطحه فوقها . ولما هبطت المياه وصارت الصخور بارزة عملت فيها العوامل الجوية مواصلة لعمل المياه . ثم كان لا بد من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساحل ، فتمت طرق متعددة . منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر وفويقها السكة اللبنانية الحديدية تجري على خط مواز لطريق العجلات . واذا رقيت الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانية متقورة في الصخر على عهد مرقس اوريليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتى يومنا عند الجسر الحديث وهذه الطريق يوصل اليها بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات الجبل . وفي ذروة هذه الصخور اقدم الطرقات الساحلية وهي التي سلكها الاسوريون والمصريون مجنودهم تدل عليها أنصاب عديدة فيها كتابات مسمارية وهيرغلينية . وقد مر ذكرها

ثم تجد في لبنان وادياً منسماً بين جبلي صنين والكنيسة يوازيه خليج مار جرجس او خور الحضر . ويبعد هذا الوادي حدة مستديرة شرقاً يجاريها اكبر الرؤوس الفينيقية وارجحها اعني رأس بيروت . وقياس جهة هذا الرأس الشمالية مباشرة بالصخور القائمة فوقها المسلخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقل عن ستة كيلومترات وثلاث هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتية . فيكون مقام هذا الرأس ممّا يجدي خصوصاً بيروتنا حسناً ويجعل وضعها من ابداع مواقع المدن الساحلية . وطبقات هذا الرأس السفلى تتدكّب من صنف من الطباشير كثير التفتت يجمع اقسامها ملاط من الظّرآن . وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور وانشكلت اوساطها وتركزت سقوفها بلا دعائم تسندها . ولذلك ربّما تداعت هذه الصخور وهبطت وانخسفت بفعل تلك العوامل الخسافاً لا يكاد يصدق به من لم يعاينه . ومما يشهد على ذلك صخور ترى في وسط البحر وليست هي الأبقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل . ولنا شاهد حسي على قولنا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت . وهناك ايضاً كهفان شهيران تكوّنوا على هذا النمط عينه . ولا شك ان سقفها يسقط عمّا قليل كما جرى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر على صورة جسور طبيعية الى غير ذلك من الهيئات الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبي غربي هذا الرأس تمتد رمال بيروت التي يباع معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف . وقد بيّنا في ما مرّ تركيبها واصلها البحري وهي ترحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلّها تنعمر بفاراتها حدائق المدينة لولا أنّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبي شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته المملّة لا يخالفها سوى بعض ركام الصخور لتتصب من مسافة الى اخرى اخضها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدره في وسط الطريق بين نهري الدامور والاولي ثم رأس الرميّة بمقربة من الاولي وهذه الرؤوس الثلاثة جرن تجاورها وفي اثرها اخيراً رأس صرند بين صيداء واليطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحل الخطّ المستوي الى نهر القاسميّة

*

قد لحظ قراءنا في ما سبق لما من وصف الساحل الفينيقي أنّنا لم نأتِ بذلك الجزر وعدم وجودها ثمّ يزيد في وحدة اتساق هذا الساحل . على انه في مرفأ طرابلس من جهتها الجنوبية الغربية عدّة جزر تدعى اكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بلّيف وقد فكرت الحكومة السنيّة غير مرّة بنقل الجزر الصحي والبضائع المبوّاة اليها ومع قلّة الجزر في سواحلنا قد توفرت الصخور البحرية وهي كانت سابقاً . متصلة بالساحل لاسيّاً بالرؤوس البحرية . وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحيها وخصوصاً اذا جرت قريباً من الرؤوس المذكورة

ومما سبق يلوح جهاراً بأنّ السواحل الفينيقيّة لم تعدّها الطبيعة لتجارة السلاط ولسكنى قوم من البحّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأً صالحاً كما انه ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضه . هذا فضلاً الى استقامة خطها الساحلي الذي تكثّر فيه الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلّف اليها انظار البحّارين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم . أفليست مناقضة بين هذين الامرين ؟ لا لعمري لانّ فينيقية موقعاً خصّت

به دون غيرها وذلك لتوسطها بين جهات الممالك الشاهانية ووقوعها في طرف آسية غرباً فتجمع بين الشرق والغرب . وان قيل ان جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونها اجبتا ان لهذا الجبل في شماليه وادياً عميقاً وهو وادي النهر الكبير يمكن القوافل ان تسير في بطائحه فلم ينسُ الفينيقيون عن طريقه مع ما طُبعوا عليه من التفنن في ترويح الصنائع التجارية . فان اهل فينيقية ادركوا ما خص الله به من حسن الموقع موطنهم فكبدوا وجدوا لتحسين شؤونها والتعويض عما ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعية وفتحوا لها مرافئ صناعية كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيّة وتبحر في وضعها السابق استدلت على ان اصحابها كانوا من مهرة البحّارين كما نعرف قوة اجنحة الطائر بعاو طيرانه وسرعة جريه . وما لاريب فيه ان البحر كان موطن الفينيقي وكان لا يرى في البر الا مقاماً مؤقتاً يبني فيه كالمطائر عشه لتأوي اليه حيناً فراخه ثم يعود ذاك البحار فيخوض مجاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستغيروا لسكناتهم الالسنه والرووس الداخلة في البحر وان قل ماؤها الشروب او بعدت عن مصب الانهار اللهم الا بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفرت المياه في آبارها فاشتتت منها اسمها . واستوطنوا بعض جزر كصور وصيداء اللتين كانتا سابقاً في جزيرتين . اما الغالب على المدن الفينيقيّة فبنّاوها على الرووس البحرية وذلك لسبيين يهمان البحارة عادة الاول ان السفن تكون وراء هذه الرووس في مأمن من ترام الرمال الذي يحصل قريباً من مصب الانهار والثاني ان المياه تكون ثمة ابعد غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع ان مقام المدن الساحلية لم يتغير منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشئ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقتهم اليها الفينيقيون وان كان بعض المدن القديمة قد انحط شأنها انحطاطاً كبيراً

*

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر له علاقة مع وصفنا السابق لسواحل

لبنان . نريد الكلام عن المرفأ الذي تفتتح للمدن الساحلية مسالك تجارية مع باطن البلاد وتقرّب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الالهين وان اعتبرنا أول مدينة من فينيقية الشمالية اعني طرابلس الشام وجدناها خالية من المرفأ مع ان الطبيعة قد خصت طرابلس بما يجعلها من أمهات المدن . فان موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سورية لاسيا قريباً من وادي العاصي واتصالها بالبقاع وانحاء دمشق لما يمتد بينهما من السهول الجامعة بين اقصيها فان بُني لها مرفأً واتصلت بها اسلاك السكك الحديدية اوضحت احدي حواضر بلاد الشام بل جاز ان تكون مرفأً لحلب وهي اخرى بذلك من بيروت والحائل الكبير دون ابتناء ذلك المرفأ في طرابلس لا لكون الامر مستحيلاً بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . ومما لا ينكر ان الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفأ من الريح الغربية التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالاً حاجز يقوم في وجه الامواج الشمالية . لولا ان ابتناءه يقتضي مبالغ عظيمة لبعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين متراً ثم ان شاطئ البحر على طول كيلومتر بنيف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفأ اعماقاً تربية مهمة . وقد فكرت الحكومة السنية غير مرة باصلاح مرفأ طرابلس . فمن ذلك ان صاحب الدولة فحسي حسن باشا وزير الخارجية وضع للحكومة السنية تقريراً بين فيه ضرورة ابتناء مرفأ طرابلس وقدر النفقات لهذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدي الشركات الوطنية الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبجست عنه وعن السكة الحديدية بين طرابلس وحمص لما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انه يلزم لذلك ١٤ مليوناً من الفرنكات ولعل ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب وان نظرنا الى البترون وجدنا ان وضعها الجغرافي لا يناسب فتح مرفأ فيها لوقوعها قريباً من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك ان شاطئها كثير الصخور . وان صح قول المؤرخ مالالا ان الزلزلة التي حدثت على عهد يستيان أجدت البترون مرفأً فذلك قول لا يمكن بيان صحته اذ لا نجد اليوم له اثرأ بل تستحيل الدلالة على مكانه

ولجبل مرفأ صغير طوله مئتا متر في عرض مئة متر (١) وليس من حاجة الى توسيع نطاقه لقلّة الحركة التجارية فيه ولعدم اتصاله بالاراضي الداخلية
امّا جونية فقد مرّ الكلام عنها سابقاً فلا نعود اليه . وكذلك نضرب الصفح
عن بيروت ولها المرفأ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحالية . فلم يبق
لنا لتأم هذا الفصل سوى البحث عن مرفأ لصيداء

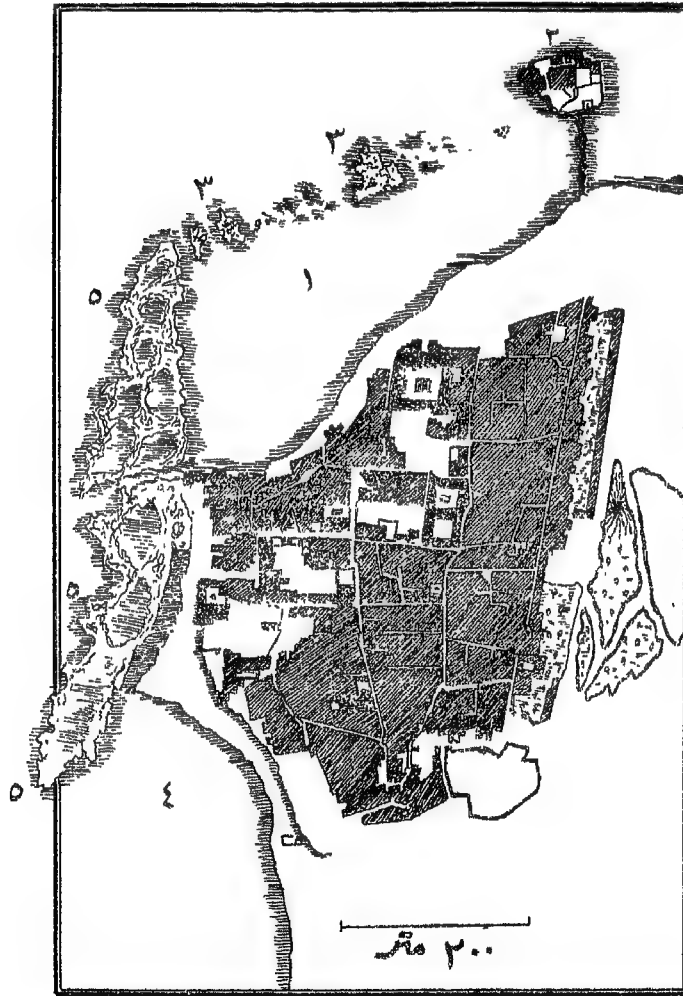
يلوح انّ مدينة صيداء القديمة كانت جزيرة كما كانت صور رصيفتها وكان لها
مرفأان احدهما في جنوبها والآخر في شمالها . وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد
تراكمت فيه الرمال التي سقّتها الرياح الجنوبية الغربية من جرف النيل فانسدّ بحيث لا
يمكن استعماله . امّا المرفأ الشمالي فاحسن وضعاً تصونه صيانة كافية الصخور التي تمتدّ
حوله . الا انه صغير طوله ٦٠٠ متر وعرضه مئتان ولا تدخله الا المراكب الشراعية
ولما عاد الى صيداء قسم من حياتها التجارية في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو
شمالاً هذا المرفأ في نوع من الميناء مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور
التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي
تهبّ من الجنوب الغربي الا انها كانت معرضة للرياح الشمالية وليست هي دونها
خطراً . والرسو في هذا المكان صعب جداً لانّ قعر البحر هناك صخري لا تنشب
فيه المراسي فضلاً عن انّ القلوس كانت تنفي بالاحتكاك . الا انّ هذا المرفأ كانت
تحميهِ قلعة مبنية على صخر بحري بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدّد
القناطر (٢) . امّا اليوم فليس هذا المرفأ بكافٍ للسفن البخارية لقلّة عمقه ولذلك
ترسو بعيداً من الشاطئ

وبقي هذا المرفأ مع خله الى غاية القرن الثامن عشر مورداً تتقاطر اليه السفن
التجارية . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليه . ثم بطل بفعل الزمان وعندنا ان هذا
المرفأ قد سدّته العوامل الطبيعية . وان قيل انّ لصيداء مرفأ داخلياً يمكن اصلاحه

(١) راجع رسمه ص ١٥١

(٢) راجع كتاب المسير ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية

اجبتنا ان الامر ليس بسهل مهما قاله المسير لورته في كتابه عن سورية (ص ٩٨) .
 اما المرفأ الشمالي السابق وصفه والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد اخذ
 اصلاحه عجز عن ذلك ان لم يضع حجرية موازية للشاطئ يبلغ عرضها ٦٠٠ متر ليكون



صورة مرفأ صيدا

١ المرفأ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأ الجنوبي ٥ جزر صخرية

ثمة عرق المياه ستة امتار ثم يقتضي ابتناء سد يستند الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضة للرياح الشمالية . وعليه فأننا نرى مع الانكليزي لوفت كامرون (Lovett Cameron) ان هذا المرفأ لا يكون موافقاً للتجارة ما لم تُنفق عليه النفقات الطائلة (١) . اما البلاد الداخلية المتصلة بصيداء فقليلة الحصب . ولا أمل في جعل هذا المرفأ فرضة لدمشق اذ ان بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق وبيروت . وعندنا ان هذه النفقات لو صرفت على طرابلس لكان الربح اوسع والنفع اعم والله اعلم

١٤

لمحة اقتصادية

في مجاري المياه اللبنانية

قد ذكرنا غير مرة في ما سبق من كتابنا ان لمجاري المياه في لبنان عوائد جمة ودوراً مهماً في اقتصاد الاهلين . الا ان كلامنا هذا كان منبثاً في مطاوي الجائنا السابقة واهله لم يستلفت اليه انظار القراء فرأينا العود الى هذا الموضوع احمد لعظم شأنه ولذلك افردنا له فصلاً مفرداً نبين فيه ما تحويه هذه المياه من الكنوز الدفينة التي جعلتها العناية الالهية في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحت اولاً عن المبادئ العمومية التي يستند اليها هذا البحث ثم نتبع مجاري المياه فرداً فرداً لنرى ما يستفاد من كل منها وذلك خصوصاً على ثلاثة وجوه : إماً بالري لتسقي المزدروعات التي تيسر دون الماء . وإماً بتحريك ادوات المعامل بدلاً من إنحهم واصناف الوقود . وإماً بنقل الماء الشروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكان

١

المبادئ العمومية

قد اتاح الله لبلاد سورية قوى طبيعية عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربح لا تفتى لولا ان هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصح القول انه ليست الطبيعة تقصر عن خدمة الانسان وانما الانسان هو المقصر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب منالها . والحق يقال ان مجاري المياه اللبنانية كافية لان تحول بلادنا الى بقع زاهية بسعي شركات زراعية او تغنيها بالمعامل الصناعية فيقتات من ارباحها الوف من السكان الا انها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الوبشة لا يُستثنى من هذا الحكم الا نهر او نهران يستنزف اللبنانيون مياههما لري المزدروعات . اما نتيجة هذا التهامل فبنست النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرّة بالزراعة وبالصحّة العمومية معاً وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تبيس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشاً مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجمل ضرورتها احد . بيد ان قليلين يدركون علّة ذلك وباي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصّة على وجهين مختلفين : الاول ببرودته والثاني بتركيبه الكيميوي . وذلك ان الماء اذا نفذ في الارض لطب حراتها وابطأ نمو النبات ولولا السقي لركا قبل اوانه ويبس دون ان ينال من الغذاء ما هو ضروري لنموه القانوني . ويصيبه ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السن الطبيعي فربما اذاه نموه الى ان يمته . فكذلك النبات لا يأتي بشمره او يكون ثمرة قليلاً تافهاً . وقد ادرك العامة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط « طويل بلا غلة » لعلمهم بان الزكاء الظاهر ليس بدليل على كثرة الاثمار

اما كون الماء يفيد النبات بتركيبه الكيميوي وجوهره فذلك لانه يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيبه منها اجزاء الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنية من الارض بما يجديده للنبات من الرطوبة . ولعل فعلة اشد اقوى بما يجرفه في

سيده من التربة ويسحب من بقايا النبات والاحرام المختلفة. وهذه المواد المجروفة تحتوي عناصر مخصبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد وربما بلغت كمية هذه التربة التي تجرفها الانهار الوف الوف من الطنات. قال اليزاي وركلو في جغرافيته (ج ٢ ص ٦٧٨): ان نهر دورنس احد انهار فرنسا الجنوبية يجري في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعباً جهاته ٢٢٠ متراً رسبت على سطح متساو في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار. وهذه التربة المجروفة معدة احسن اعداد لنمو النبات تستخلص جذوره منها كمية من الازوت المغذي اكثر من كمية ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد الغوانو المعروف بخصبه. فلا غرو اذا كررنا مع الطبيعي الشير طوريشلي: « ان الطين الذي تجرفه المياه اثن من رمل الذهب ». ولعل ذلك ما دعا قدماء السوريين بان يسموا « نهر الذهب » (Xpucoððoxe) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنهر بردى في دمشق ونهر جرش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُجدد موقعها حتى اليوم) فليت شعري من يمكنه ان يثمن ما اتت به كل هذه المياه من الكنوز الزراعية منذ مئتين من السنين. أفليست هي حقيقة اثن من معادن الذهب التي تنفي كنوزها بعد مدة قليلة؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فان هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينيف عن الف الف كيلومتر من المواد النطرونية ويصبها في البحر وهو مع ذلك يخصب في طريقه مسافات قدرها ملايين من الفدادين. ومع اننا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيماوي ما تحتويه المياه السورية من الثروة المعدنية الا انه لا مر مقرر انها غنية بها وكفاك دليلاً ما يُستفاد بالمقابلة. فان الاختبارات الجيولوجية في اوربة بينت ان معدل ما يدخل من نترات البوتاس في متر مكعب من مياه العيون والانهار الجارية في الجبال المركبة من الطباشير يباغ ١٣ غراماً اما النسبة فتختلف بين ستة غرامات الى ستين غراماً ومعلوم ان عنصر الطباشير هو الغالب على جبالنا فلا بد ان تكون نسبة نترات البوتاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا فترى من ذلك ما تكسبه السهول المركبة عادة من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطباشيرية لان الصلصال

أما تخصب العناصر الكلسية التي تحللها المياه . ومن ثم ينبغي على الاهلين ألا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدعوها تستنقع في البطائح او تنصب في البحر دون فائدة هذا واننا نعلم ان كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لأن ذلك منوط بتركيبها ألا انها كلها تلطف الحرارة بطراوتها وتفيدها نداوة وتريدها خفة وتسهل فلاحتها للناس والبهائم ثم تحلل العناصر المخصبة فتنفذها في بطن الارض وتقسّمها اقساماً متساوية وتزيد مرافقتها وغلاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتى ان التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلتين متواليتين بدلاً من غلة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عما يطرأ على الهواء من التقلبات الجوية . فهذا لعمرى نفع جليل لا يوازيه آخر فكم رأينا من الزروع المفقودة أما لقلة الامطار او لتأخر وقوعها بعد ان امتصت حرارة الصيف نداوة الثرى . وخلاصة القول ان السقي المنظم هو الذي يُزي المزدروعات ويبرد لظى القيط بطراوة مناسبة لكل قطر ويُغني التربة بالسماد مجّاناً ويخلط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلاتها بلا تعب ويأتي اخيراً بالثروة والراحة (١)

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفع آخر لم نحصل نحن عليه وهو خوض هذه الانهار وركوبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجارية . وقد حُرّمنا ذلك لاسباب منها قلة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كميتها في فصول السنة . اجل ان بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في يثايعها ورووس عيونها ألا انها تجري في المضائق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تحوّل الى مجاري مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شبهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢) لشدة جريها واندفاع مياهها فبعد هذه المقدمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدلّ بوضعه عن القوائد التي يمكن نوالها من مياهه من حيث الوجوه الثلاثة التي سبق ذكرها اعني الري وتحويل الماء للمعامل وترويض المدن بالمياه

(١) راجع كتاب الاديب وديع مدور المعنون سورية الزراعية (La Syrie agricole, P. 74, 84-85)

(٢) دعا الاقدمون نهر الكلب باسم نهر الذئب (λύκος) والليطاني نهر الاسد (λέωντος) (πρόταμος) راجع كلانا السابق (ص ٢١)

كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية

فلنباشرن بالانهار الجنوبية واولها (الليطاني) وبما ان هذا النهر يجري باديء
 بده في السهل فلنبحثن عن جريه في البقاع وخصوصاً عن ضفته الغربية لان الضفة
 الشرقية لاحقة بالجبل الشرقي ثم ننبه الى مصبه في البحر
 ليس نهر الليطاني قبل بلوغه المعلقة الا مسيلاً قليل المياه بطيء السير لا يفيد
 الزراعة افادة تذكر فيستتفع في السهل وانما يضحى مجراه حيثما ما وراء معلقة زحلة
 حيث ينصب فيه البردوني والبردوني نهر غزير لا تنقطع مياهه صيفاً وشتاء تمده الثلوج
 الغراء المتجمعة في قم صتين وهو كافر ليس فقط لان يحرك الطواحين التي ترى اليوم



منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

في طريقه ولكن يمكنه اذا بُنيت له قناة حسنة ان يزود بالماء الشروب كل مدينة زحلة ومعلقتها اعني ٢٥,٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يستعمل الا كمجري لاساخ المدينة فتري مياهه الزلالية عند معينها تنصب متعكزة سرداء في الليطاني . فيا ليت شعري أهكذا تُفقد كنوز هذا النهر الذي لا يقل طول مسيره عن ٢٤ كيلومتراً ؟

واذا سرت ونهر الليطاني جنوباً وجدته يزداد ويقوى بما يجري اليه على ضفتيه من السواعد كشتورا وهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنية بالمواد الكاسية . وهذه المياه لو اتخذت اسقي سهل البقاع لنفعت تربته الصلصالية واصلحته لولا ان هذا النهر يبلغ حينئذ في طرف السهل الجنوبي الغربي مضيقاً بعيد الغور مرتفع الضفتين بحيث لا يمكن الاستفادة منه لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوة عظيمة وهو عند مخرجه يدعى بالقاسية ثم لا يزال جارياً حتى ينفذ في البحر ولو سعى بعض اهل الهمة لأمكنهم ان يستفيدوا من مجراه فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصب هذا النهر فيكسبوا الزراعة مساحة تبلغ ستة كيلومترات طولاً في عرض كيلومتر بنيف ويجولوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة او ستة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضاً استعمال هذه المياه للمعامل الصناعية بان تُحصر وتُجعل على شبه شلالات متحدرة

*

(الزهراني) هو من اطول الانهار اللبنانية مسيلاً ومياهه قليلة لاسيما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى اذار نحو ثلاثين طاحوناً وسقى بعض الحقول . لكن كثيراً من مياهه لا تأتي بفائدة فلو استعملت لسقي السهل المنبسط عند مصبه لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلاً من الارض البوار التي ترى هنالك قاحلة يابسة لا يزكو فيها زرع اللهم الا بقعاً قليلة السعة تأتي بغلات ضاوية واعلم ان مسيل الزهراني عند اقترابه من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عول

الاهلون على استخدام مياهه ينبغي لهم ان يبتنوا لها قناة في علو الوادي فيستمنونها على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة . وحري بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاولى ألا تترك سدّي ولا تُهمل فتتجمّع في مستنقعات وبيئة . وكان الرومان قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهراي قناة عند عينه تراها منقورة في الصخر وهي تتصل بقناة أخرى مبنية بالحجارة المملطة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلة بصياده . ومن المرجح ان اهل صياده قديماً كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيضاهونها على مياه الاولى ولذلك لم يأنفوا من كثرة النفقات لجلها من معينها (١)

(الاولي) من الانهار التي يقدر نفعها الاهلون . كيف لا وهو غزير المياه يستأفت اليه الانظار بوفرة مادته . وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ له قناة جعلها عند نبعه الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثم بين القرى المجاورة فاحالها الى جئات غناء تشبه غور دمشق الشهير بنخصبها . وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صياده فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكّان . ثم تنفذ في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيادون لخدمة نحو ٨٠ بناية عمومية من مساجد وكنائس وحمّامات وتقيم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة . واذا اضفت الى ذلك عدّة طواحين تديرها المياه عرفت غاية ما يناله الاهلون من الاولى . ألا ان هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الا من ثلث مياهه فيضيع منه ثلثان في البحر . ولو شاء الصيادون لأمكنهم ان يرجحوا من هذا النهر فوائد جمة بنفقات قليلة فيستخذوا المياه المفقودة لمعامل شتى وتوسيع نطاق بساتينهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامر) يصح فيه قولنا عن الاولى . فان هذا النهر كثير المياه غير ان معظم مياهه تنصب في البحر بلا نفع . وان امكن النظر في الخدم التي يؤديها وجدها قليلة بالنسبة الى وفرة مادته فانه في سيره الاعلى وعلى مقربة من مصبه يدير عدداً من الطواحين . أما بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانه يسير في وادٍ

عميق ضيق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان الامير بشير عمر الشهابي ابنتي قنّاة من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءه الى بيت الدين فانتفع به اهلها واهل دير القمر . وهذه القنّاة لا تزال حتى اليوم تواصل خدّمتها لسكّان تلك الناحية . ثم ان مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلّقة وتجعل أرباضها كرياض فيحاء وحدائق غناء يندمر مثلها في بلاد الشام . على انّ كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يُمكن تحصيله من هذا النهر فاوُسّعت قنّواته لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولدوا من تحدّر مياهه قوّة كهربائية كافية لتدوير دولابهم وان يستقوا السهل الرحبة التي بين المعلّقة وخُلدة . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نجّرت طريق العجلات بين بيروت وصيدا فاخذ عدد السكّان ينمو وهم يحاولون الارتاق بالزراعة الا انّ مساعيهم سوف تجبّط اذا لم تتوفر كمّيّة المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالمنافع المنتظرة منه فانه يحرك الطواحين العديدة ويسقي السهل كلّ ولذالك ترى مسيله يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بنّاه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منه شيء فذلك من فضلات القني بعد سقي المزروعات وهذه القنّوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنسبط في سهل بيروت وانطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تلبث منها الجراثيم الوبيئة المسببة للحمّيات المalarية . ولو بُليت هذه القني بميلة كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر انّ المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتّسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحمّيات نوعاً . وآملنا انّ الزارعين يفرغون المجهود ويضاعفون العناية في اصلاح ما بقي من الحقل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطر على الصحة العموميّة

وفي القسم الاول من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨ - ٢٩) وصفنا القنّاة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفاهم فضلاً انّ مياههم كانت تجري الى بيروت بقنّاة مغطّاة بصفائح الحجارة فتأتيها صافية باردة يتهنأ بشربها السكان دون خطر من الجراثيم المعدية

(نهر انطلياس) استفاد منه مدّة احد افاضل الوطنيين لانشاء معمل ورق اضطرّته الظروف الى تركه ومياهه تدير بعض الطواحين الا انّ تسعة اعشارها لا

تجدي نفعاً فتذهب سدّي وتنصبّ في البحر بعد قطعها مسافة قليلة

*

(نهر الكلب) ان مياه هذا النهر تؤدي خدماً عديدة كسقي المزرعات وتدوير الطواحين . ألا انّ فائدتها العظمى دي بيروت وتزويد اهلها بالمياه الطيبة بفضل شركة المياه المعروفة التي ذكرناها غير مرّة في مطاوي ابحاثنا السابقة . ومياه نهر الكلب تُخزّن ليس بعيداً من منبعها فتجري في قناة مكشوفة فتتبع تعرج الوادي وتريبه حتى تقرب الى نحو عشر دقائق من مصبّ النهر في البحر فتتدفق في القلّة التي يعلوها دير مار يوسف البرج وتجري المياه في سرب يؤدي بها الى الضيعة . وقد جعلت من مسافة اخرى كُوي نُقوت في عطف الجبل لرحض القناة اذا دعت اليه الحاجة ومن الضيعة ترى القناة مكشوفة حتى تبلغ اخيراً معمل الشركة حيث ادواتها الدافعة ومصافيها قريباً من محطة الضيعة وفي المعمل رُفاس مائي يدفع الماء في القساطل التي تجلبه الى بيروت . واذا قلّت المياه في فصل الصيف اتخذوا آلة بخارية جهّزوها منذ بضع سنوات لوقت الحاجة . ولهذا المياه احواض عديدة في تلّ مار متري تتجمّع قبل ان تُقسم على احياء المدينة . وامتياز هذه الشركة كانت الدولة العليّة منحة للمهندس الفرنسي المسيو تفتين الذي نال ايضاً من تعطّفات امتياز ابنية الرفا سنة ١٨٨٢ ثمّ تشكّلت شركة المياه كما هي اليوم سنة ١٨٧٦ وأنجزت بعد مدّة الاعمال التي بوشر بها قبل ذلك العهد بسنة وعُرفت منذ ذاك بشركة مياه بيروت - Beyrouth Water works Company limited ولما انتهى حديثاً زمن الامتياز الممنوح لهذه الشركة جدّدته على شروط اشترطتها عليها الحكومة السنيّة منها ان تخفض اجورها وان تمنح مجاناً كل يوم ٢٥٠ متراً مكعباً من الماء وان تنقص قسط البلدية الى ١٥٠٠٠ فرنك واذا استهلكت ديونها مع دفع الفائدة يكون ثلث الارباح لبلدية بيروت هذا وان الاطلاع على احوال هذه الشركة لأمرٌ صعب جداً فلا يمكننا ان نعلم عن مدخولاتها ومصاريها الا شيئاً قليلاً استفدناه من تقرير بعض الانكليز . من ذاك انّ الشركة كانت ربحية في سنة ١٨٨٤ ١٤٣٢٨٧ فرنكاً وان عدد المشتركين كان ١٥٦٣ وليس لدينا تفاصيل لما قبل هذه السنة . ودونك جدولاً اخذناه ايضاً من مصادر انكليزيّة يبيّن اجمالاً حالة اعمال الشركة من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٦

| السنة | المدخول | المصروف | الربح الخالص | الاشتراكات | اشتراكات السقي |
|-------|-----------|-----------|--------------|------------|----------------|
| ١٨٩٠ | ٣٠٢,٦١٥ ف | ٠٧٨,٦٧٤ ف | ٢٢٤,٠١٧ ف | ١٩٨٢ | ١٣٧ |
| ١٨٩١ | ٣١٢,٤١١ | ٠٨١,٧٥١ | ٢٣٠,٦٩٠ | ٢١٣٠ | ١٢٥ |
| ١٨٩٢ | ٣١٤,٨٦١ | ٠٨٧,٨٠٤ | ٢٢٧,٠٥٧ | ٢١٤٦ | ١٤٣ |
| ١٨٩٣ | ٣٢٢,١٦١ | ٠٩٦,٥٥٤ | ٢٢٥,٦٢٦ | ٢٣٢٣ | ١٤٢ |
| ١٨٩٤ | ٣٤٣,٠٦٣ | ٠٩٦,٢٩٣ | ٢٤٢,٨٦٩ | ٢٤٨٠ | ١٥٠ |
| ١٨٩٥ | ٣٥٣,٣٤٧ | ١٢١,٥٦٤ | ٢٣٠,٨٨٢ | ٢٨١١ | ١٣٧ |
| ١٨٩٦ | ٣٥٠,٢٨٠ | ١٢٠,٩٦٠ | ٢٢٩,٣٢٠ | ٢٨٩٦ | ١٥١ |

والشركة رأس مال قدره ١٤٤٠٠ ليرة انكليزية ويظهر من ترقى اعمالها وزيادة عدد مشتركيتها واسراعها في تجديد الامتياز الممنوح لها ان امورها على قدم من النجاح هذا فضلاً عن ارتفاع اسعار الاقساط . على ان الشركة قد تحمّلت نفقات في جلب المياه خصوصاً لاجرة العملة التي حُسبت في اليوم كما تُحسب للعامل في لندن (٦ شلينات) ولثمن السرب في تل دير مار يوسف البرج الذي بلغ الاربعين في المئة من مجموع النفقات . وزد على ذلك ما صرفته في عدة دعاوي

والشركة تستطيع ان تسلم في بيروت متراً مكعباً من الماء في الثانية والاشتراكات تتزايد يوماً فيوماً الا ان كثيراً منها لا تتجاوز ربع المتر المكعب فليس من ورائها ربح يُذكر . وفي بيروت الان ثلاثة احواض قريباً من تل مار متري اقدمها الحوض الاسفل محتواه ٢٨٠٠ متر مكعب وقد بُني حوض آخر قريباً منه مضمونه ٣٠٠٠ متر مكعب والحوض الثالث هو الاعلى مسموله ٢١٠٠ متر والشركة تفكر في ابتناء حوض رابع فيكون للشركة عند قطع المياه ما يكفي لتأمين البلد مدة ٤٨ ساعة . واعلم ان الآلة البخارية التي جُهزت في الضيعة وكثرت نفقاتها يبلغ معدل شغلها في السنة نحو ٢٠ يوماً فقط عند نقص المياه

وفي الضيعة ثلاثة ارباع الماء الذي يحرك الرُفاس تنصب في البحر . اما الماء المستعمل لري السهول المجاورة فريجه لا يُعبأ به لان الزراعة هناك ليست بخصبة وذلك ان الريح البحرية لا توافق زراعة التوت والليمون فلا يبقى الا قصب السكر والبقول . واعلم ان المياه في الضيعة تسقط من علو ١٨ متراً فتقوتها كافية لتحريك الآلات اللازمة لتزويد بيروت بالكهرباء

ومجمل القول ان مياه نهر الكلاب تنفع خصوصاً اهل بيروت وهي ايضاً تُدير طواحين عديدة وتسقي بقنيتها البساتين الواقعة شمالي النهر . ومع ذلك ينصب منها في البحر نحو نصفها فتذهب فائدتُهُ

*

(نهر ابراهيم) هو نهر غزير المياه ومع ذلك ما كنّا نراه يفيد شيئاً الا انه يُدير بعض الطواحين ويسقي بعض الحقول . ومن ثمّ اتجهت الافكار الى عقد شركة لاستخدام هذه القوة الضائعة . وقصدها ان تسقي البقع الواقعة شمالي النهر وجنوبه وان تجلب الماء الشروب لجبل وعشيت وما يليهما والمأمول انها تنجز العمل قريباً . وكان في حسابها اتخاذ القناة القديمة التي كان الرومان يجلبون بها مياه النهر الى جبل . الا ان هذه القناة التي تُعدّ من اعمال الهندسة الخطيرة كقناة بيروت قد استولت عليها يدُ الخراب بحيث يصعب الانتفاع منها

ويؤخذ من بحث سابق للمشروع المارّ ذكره ان مياه النهر في معظم فصل القيظ لا تملّ عن ٢٤,٠٠٠ متر مكعب في اليوم اعني مترين واربعه سنتيمترات في الثانية . وبما تقصده الشركة فتح قناة كافية لجلب ٢١٥,٠٠٠ متر مكعب كل يوم لتسقي بها ما بيانه :

المجموع

- ١ ٦٠٠ هكتار من التوت يفتضي لكل هكتار في اليوم ٤٨ مترًا مكعبًا من الماء ٠٢٨,٨٠٠
- ٢ ١٥٠ هكتارًا اخرى لسقي حقول من التوت ومزروعات يلزمها في اليوم لكل هكتار ٩٠ مترًا مكعبًا ٠١٣,٥٠٠
- ٣ ١٠٠ ه. لسقي مزروعات البقول والخضرة تحتاج في كل يوم لكل هكتار ١٢٢ مترًا مكعبًا ٠١٤,٥٢٠
- ٤ ٤٠ ه. من مزروعات قصب السكر ينبغي لها لكل هكتار ١٨٠ م مكعبًا ٠٠٧,٢٠٠
- ٥ تموين جبل وعشيت بالماء وقطعات آخر ٠٠٥,٩٨٠
- ٦ استخدام كمية من الماء لتوليد القوة المحركة عند مصب النهر ١٤٥,٠٠٠

وصاحب البحث الذي اخذنا عنه هذا الحساب يرى ان مدخول السقي في السنة يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرنك . ومأموله ان يكون مهبط المياه عند مصب النهر من علو ستين مترًا فتنشأ قوة كافية لدفع ١٤٥,٠٠٠ متر مكعب من الماء كل يوم وهي قوة

توازي الف حصان بخاري . وزد على ذلك شللاً آخر غير متواصل يُستعمل في اوان السقي تكون قوّة المحداه ٢٥٠ حصاناً بخارياً . فاذا بيع محصول كل حصان بخاري متداوم بمبلغ ١٥٠ فرنكاً ومحصول الحصان البخاري غير المتواصل بشمن ٧٥ فرنكاً اناف الربح على ١٥٠,٠٠٠ ف . ومن ثمّ يزيد مدخول هذا المشروع اجمالاً على ٤٥٠,٠٠٠ ف وذلك فضلاً عن مدخول الماء المجلوب لجبيل وعمشيت وهو مبلغ زهيد لا يُعبأ به

اما نفقات هذا العمل فيشتملها المثلثون نحواً من ١,٧٠٠,٠٠٠ فرنك ولعلّها تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ اذا حُسبت المصاريف الطارئة . اما النفقات السنويّة لاستثمار هذا العمل فتكون بالتقريب ٥٠,٠٠٠ ف في السنة . فلو افترضنا ان الربح لا يتجاوز نصف المؤمل اعني ٢٠٠,٠٠٠ فقط بدلاً من ٤٥٠,٠٠٠ فيكون الربح الخالص عشرة في المئة (١) لكنّ هذا التقرير نظري . افتراه ينطبق مع الواقع ؟ لا نظنّ وذلك لاسباب اولها ما سبق الاشارة اليه ان جلب المياه الى جبيل وعمشيت ليس من ورائه ربح يُذكر لقلّة سكّان تلك النواحي . فيبقى سقي المزروعات المصاحبة لمصبّ النهر . فان صاحب التقرير المذكور آنفاً يحسب نحو الف هكتار من التربة الجيدة المقصود سقيها فلمعري هذه مساحة كبيرة لا نعلم اين رآها . فاذا ابتعدت قليلاً عن ضفتي النهر وجدت الاراضي لا تصلح للزراعة وهي محجرة متقطّعة بالادوية وليس ثمة بقعة منبسطة ولا سهل ذو تربة زراعيّة وانما تُلقى فقط قطعاً منها متفرقة قليلة السعة . فاذا أنشئت قناة في تلك الجهات ذات الحزون والبطون بلغت النفقات مبالغ جسيمة . وعلاوة على ذلك ان كثيراً من ارباب الفلاحة يابون الاشتراك ويستقلون مصروفه . وعندنا ان الاولى ان تُتخذ القني البسيطة القليلة النفقات فتجلب المياه الى البقع اليابسة الواقعة جنوبيّ النهر . وقد بلغنا ان الشركة الجديدة المعقودة بهيئة حثّا افندي البويري وامين افندي عبد النور مهندس لبنان جرت على هذه الطريقة فانشأت قناة عرضها متر واحد في عمق ٥٠ سنشمتراً وقد نُجز منها الى جهة بيروت ٨٠٠ متر

ولا ننكر ان القوّة المحركة البالغة ٢٥٠ حصاناً بخارياً ذات بال جديرة بالاعتبار

(١) راجع تقريراً في استخدام خر ابراهيم تاريخه ١٢ ك ١ سنة ١٨٩٢ وضمه المهندس

ألا أنها لسوء الطالع لا تأتي بفائدة كبيرة بعد مقامها ولو كانت هذه القوة على جوار مدينة كبيرة مثل بيروت لأمكن استخدامها للتزوير الكهربائي . وكذلك تصلح هذه القوة لتسيير عجلات الترامواي اللبناني بالكهرباء . الآن شركة الترامواي لم تفكر في هذا الامر حتى الآن ولعلها ان تفعل قبل سنين طويلة . وخلاصة القول يصعب الان الاستفادة من نهر ابراهيم لما يحول دون ذلك من العقبات

وقد اتسعنا قليلاً في البحث عن نهري الكلب و ابراهيم لنبين بمثل الاول ما فازت به المهم وبمثل الثاني ما يمكن فعله قلماً يكون للانهار التي هي احسن موقعاً من نهر ابراهيم فان للمياه شروطه جغرافية لا بد ان تستوفى لفائدة الانتفاع بها ولذلك ترى عيوناً غزيرة في لبنان تجري دون عائدة لوقوعها في وسط الجبال وبعيداً عن المراكز المأهولة . وهذا ما عّلل الاضراب عن ذكرها في هذه العجالة عن مجاري لبنان (نهر الحوز) هذا النهر ربّما نضبت مياهه صيفاً عند مصبه . وعليه فلا نظن

انه يمكن استعماله في غير سقي البساتين وتحريك الطواحين كما يفعل به اليوم وليس الامر كذلك في نهر قاديشا (ابو علي) فانه كاف ليس لسقي سهول طرابلس فقط بل لتشغيل عدّة معامل صناعية لو اراد ذلك ارباب الصناعة . وبما يسهّل هذا المشروع قرب النهر من مدينة كبيرة غنية بالمحاصيل الأولية ولديها الوسائط الكافية بتصرف بضائعها ومحصولاتها

ثم يأتي بعد نهر قاديشا (نهر البارد) و (نهر عكار) ولا يُبنى عليها امل كبير وذلك لقلة مياه الاول ولوقوع الثاني في مسيل عميق ضيق . امّا النهر (الكبير) فانه خطير الشأن كما رأينا . فان تحققت امانتنا وعاد لواديه مكانه من الاقتصاد ازدهرت تلك السهول المخصصة واغنى السكان بارباحه الطائلة

واعلم ان السواحل الفينيقيّة لم تكن فقط في القرون الغابرة مراكز لتجارة العالم بل ايضاً مواقع مهمّة لمرافق الزراعة واعمال الصناعة . فنال القدماء بهذه الموارد الثلاثة ارباحاً طائلة . وعندنا ان هذه الثروة لا تعود الى ايدي ابناءهم اذا حاولوا احياء الزراعة والفنون الا بشرط استخدام القوى الطبيعية التي قسمها الخالق على بلادهم لاسيّاً انكنوز المائيّة المخزونة في جبالهم . ويا حبّذا لو استطعنا بهذه السطور ان نستلقت الحواطر الى هذه الامور النافعة او حرّكنا المهتم لمباشرة بعض هذه الاعمال الشريفة

الاحوال الجوية في لبنان

هذا بحث يصعب الخوض في غماره على طريقة علمية بالضبط والتدقيق وسببه انه ليس لدينا أرصاد تفصيلية بالمرام . اجل اننا لعالمون بان ميازين الحرارة ومقاييس ثقل الهواء صارت شائعة في بعض انحاء لبنان لكن اصحابها يكتفون في الغالب بالنظر اليها عند الحاجة وليس من احد يفكر في تدوين درجات الترمومتر او البارومتر واذا باشر احد في ذلك لم يُعَنَ بضبط العمل او يهمله بعد حين بحيث تضيع الفائدة العلمية . وغاية ما لدينا من ذلك قوائم رصدية ذوّنت في بعض الاماكن وهي لا تتجاوز السنتين او الثلاث سنوات وكلها مقصورة على رصد واحد في اليوم بدلاً من ثلاثة رصد فضلًا عن انها لا تدلّ على معظم درجات الحرارة او اقصى درجات هبوط الميزان (١) فينتج من ذلك انه لمستحيل تعريف معدل الحركات الجوية وبيان درجاتها مضبوطة

وعلاوة على ذلك ان احوال الهواء في لبنان تختلف اختلافًا عظيمًا لئلا في تركيبه وموقعه من التباين . فانه من حيث العلوّ يُقسم الى ثلاثة اقسام الساحل والوسط والجرد . فالساحل يشبه في آثاره الجوية البلاد الحارة . وهواء الوسط معتدل . اما الجرد فاشبه بجبال الالب وبرده كبردها . ويُقسم لبنان من حيث وجهته الى منعطف شرقيّ يتحدّر الى البقاع والى منعطف غربي يوازي بحر الشام فانّ هواء المنعطف البحريّ ثابت في الغالب معتدل نوعاً . اما الوجهة الشرقية فعلى خلاف ذلك فانها في تقلبات هوانها من حرارة ورطوبة اقرب الى داخلية البلاد في آسية المتقدمة .

(١) لو اراد احد قرأنا ان يدّ هذا الخلل ويدوّن على طريقة نظامية رصد حركات الجوّ لخدم العلم بذلك خدمة طيبة . ونحن نوّكد له ان « المشرق » ينشر قوائمه شاكراً وأكثر ما تفيد هذه الارصاد في شرّاي مثلاً لبلاد الجرد وفي بكفياً لمنطقة لبنان الوسطى وفي رحلة لمنطقتي الشرقي . ولا بدّ هنا ان نذكر بالشكر مرصّد ديرنا في البقاع المنشأ في كسار منذ سبع سنين فننشر لملاحظاته الجوية شهراً بعد شهر بكل تدقيق في مطبعتنا . اما ساحل لبنان فلا تختلف درجات حرارته عن يبروت حيث تُدوّن هذه الملاحظات

ترى من ثمَّ صحَّة قول القائل بان المسافر الذي يرتقي في سورِّية من ساحل البحر الى غابات الارز في مشارف لبنان يلقي في يوم واحد من اختلاف حالات الجوِّ ما لقاؤه مسافر آخر يرحل من ضفَّة النيل الى شواطئ البحر الشمالي المعروف بالابيض واذا ستثنينا حمارة قيط بلاد خط الاستواء وصبارة اقاصي الانحاء الشماليَّة وجدنا في جهاتنا ما يتوسَّط بين هذين الطرفين من المظاهر الجوية وعليه ليس بامر سهل مع هذا التفاوت البعيد ان تحصَّص الوجوه التي تشمل كل جهات لبنان فحسبنا ان ثبت هنا بعض ماحفوظات عموميَّة موجلين التفاصيل الى فرصة اخرى عند ما نبحث عن احوال الجوِّ في سورِّية فنضيف اليها ما يختصُّ بلبنان

*

سواء تعتبر طبقات لبنان الثلاث او منعطفيَّة الشرقي والغربي لا تكاد تجد له في حصر المعنى الا فصلين وهما الشتاء والصيف او قل بالحري فصل الامطار وفصل اليبوسة . ولعلَّ الراقي الى مشارف الجبل يشعر بالفصلين الاوسطين اعني الخريف والربيع شعورًا اوفر على قدر توقُّله في الطبقات العليا وذلك لتخلف زمن الحرارة وتأخر غوِّ الزرع . الا ان هذه الاختلافات ليست بكافية لتمنع لبنان ذينك الفصلين المعروفين بالربيع والخريف . وعليه يمكننا القول اجمالاً بانَّ احوال لبنان فيما يخص فصول السنة متساوية متشابهة في كل طبقاته

اما اذا صرفت النظر الى الامطار فتجد اختلافًا يُذكر بين اقسام الجبل من حيث طول الشتاء فانَّ الوجه البحري يُجاد قبل المنعطف الشرقي الذي تتأخر فيه الامطار وهو في ذلك اشبه بجهات سورِّية الداخليَّة فيبتدئ زمن امطاره بعد المنعطف البحري وينتهي قبله . ولكن هل تكون مياه المطر اوفر في الجبل منها في السواحل ذلك امرٌ ذهب اليه البعض ولا يبعد قولهم من الصواب فانَّ السماء ربما امطرت لبنان دون ان تخصَّ الساحل بقطرة من سحجها . وقد يجري الامر على عكس ذلك الا انه اندر وقوعاً . اما معدَّل المطر فاننا لا نظنَّ انه يختلف كثيرًا بين لبنان والساحل ولعلَّ هذا الفرق لا يتجاوز عشرة سنتيمترات الى خمسة عشر س . وما قولنا الا على الحدس والتخمين اذ ليست لدينا قائمة نستند اليها

ومتما ثبت بالامتحان ان الامطار تتقسم بين شهور السنة على قدر ابتعاد البلدان عن خط الاستواء فيتقارب فصلا اليوسنة والرطوبة . فان معدل الامطار من ايار الى ايلول (وهو فصل اليوسنة في سورّية) يبلغ :

| | | |
|------------|----|-------------------------------------|
| في رومية | ٢٥ | في المئة بالنسبة الى مجمل مطر السنة |
| في برلين | ٥٢ | “ |
| في بطرسبرج | ٦٧ | “ |

وهو امر مقرر ايضاً في نواحي الشام . ففي اسكندرونه مثلاً حيث الحرارة اشد من بيروت بكثير ليست الامطار فادرة في شهري تموز وآب . وكذلك بلاد قيليقية المجاورة اسكندرونه فان حرارتها فوق حرارة سواحل الشام ومع ذلك تهطل في صيفها الامطار بمعدل ستة في المئة فان قابلت ذلك بالشام وفلسطين وجدت من هذا القليل فرقاً عظيماً اذ لا يبلغ معدل المطر الصيفي عندنا الا سدس المئة فقط . وكذلك قد لحظ الاهلون في شمالي غربي الشام من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٩٠٠ ثلاثة اطوار فقط من اليوسنة دام كل منها مئة يوم . امّا لبنان فاي طبقة رقيت منه تجد انقطاع المياه في صيفه يدوم اربعة اشهر بل خمسة وكذا قل عن بقية بلاد الشام وفلسطين

وكذلك اذا اعتبرنا جبل لبنان بين اللباني جنوباً ونهر الكبير شمالاً وهو طول يبلغ ١٨٠ كيلومتراً نجد فرقاً بين امطار الجهة الشماليّة والجهة الجنوبيّة صيفاً . والمياه المنهمة في جبال عكّار ووادي النهر الكبير من ايار الى ايلول تقل عن مطر بلاد الشقيف وعلى ضفتي القاسميّة (١) . فيمكن اذن القول عموماً بان كمية الامطار في المنعطف البحري على طول متساوية كما ان الزمن الفاصل بين اشهر القحولة واشهر المطر لا يكاد يختلف

وليس الامر كذلك في الضباب فانه في لبنان اوفر جداً منه في الساحل وهذا يصح ايضاً في البرد . امّا تعليل كثرة الضباب فن طبيعة الجبل اذ ان لبنان كجدار صخري عظيم يقوم كحاجز في وجه الانجزة المتصاعدة في البحر مدفوعة الى داخل البلاد

بقوة الرياح الغربية . وعند هذا الجدار تتكاثف الغيوم التي تُرى في اعالي الجبل بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ م علواً . وفي بعض جهات لبنان يتكاثر الضباب حتى انه يتصاعد اليها كل يوم مدة ثمانية اشهر من السنة وليس سببه علوها فقط بل موقعها ايضاً بالنسبة الى الجبل والى الاودية المحيطة بها فان كل ذلك لمّا يساعد على تراكم الضباب ولا نرى هنا داعياً للكلام عن حرارة لبنان فانه غني عن القول بان الحرارة تختلف مع اختلاف علو الامكنة ثم اننا ذكرنا سابقاً ما يختص بالثلوج اللبنانية (١) امّا نقاوة الهواء وصلاحيته للصحة في لبنان فذلك امر مشهور لا يحتاج الى وصف فان كل هذا الجبل قد خص بهواء جيد منعش للقوى اللهم الا الامكنة الواقعة بجوار مصب الانهار وفيها الحميات . وكذلك لبعض القرى سمعة سيئة من هذا القبيل وهو امر مستغرب لاسيما ان اكثرها واقع في بلاد يابسة لا تستنقع فيها المياه . فنطلب الى اطباء الذين في تلك الجهات ان يفيّدونا عن سبب تفشي الامراض في الامكنة المذكورة . امّا بقاء لبنان فان صفاء جوه وجودة مياهه يقويان هيكل الجسم ويجعلان سكانه اشداء . واللبنانيون في الغالب متوسطو القامة مقتولو الاعصاب محكمو البنية والفضل في ذلك لعيشتهم في الهواء الطيب ولعدم ارتقايم بالصناعات المضنكة ولهذا ايضاً لا تجد بينهم الا امراضاً بسيطة . واذا علوت المشارف ربّما وجدت منهم من هو ناصع اللون ابيضه . وقد مرّ لنا كلام في ما يخص الشعوب اللبنانية واختلافها في الصورة والهيئة الى غير ذلك ممّا لا فائدة في تكراره

١٦

الفلاحة والاحراج اللبنانية

لا يستطيع اهل لبنان ان يرتقوا بالصناعة وحدها فهذا حكم راهن ابرزناه غير مرّة في اجائنا السابقة والسبب ظاهر لان الصناعة تحتاج الى المعادن ولا سيما الى مناجم الفحم وكل ذلك نزر قليل في لبنان . ومن ثمّ ينبغي لاهل لبنان ان يسعوا في فلاحة الجبل وزراعتيه وعليهما يتوقف مستقبل لبنان لنفي غلّاته بمعاشهم . وممّا

يضطرونهم الى السعي وراء ذلك وفرة السكّان ونموهم سنة بعد سنة فانهم يجدون في ارضهم موارد رزق اوفر ممّا يظنون . وها نحن ذائنين لهم ذلك في الاسطر التالية وليست غايتنا ان نكتب كتاباً مسهباً في احوال الزراعة اللبنانية وانّا ندون فقط ما يثبتنا به تاريخ الجبل فان الماضي عبرة للمستقبل . ونقسم كلامنا في هذا الباب الى قسمين نخصّ القسم الاول بالغابات والثاني بانواع المزدروعات التي يمكن اللبنانيين ان يستدروا منها ارباحاً جزيلة

١

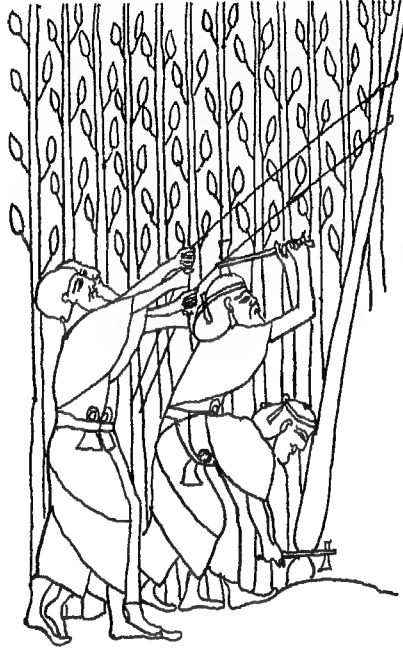
الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً

قد اطرا الكتبة لبنان وأفاضوا في مدح غاباته الباسقة منذ الاجيال الغابرة العريقة في القدم . كما اثبتنا الامر في مقالتنا المعنونة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٢٢١) وشفعنا ذلك بمقالة ثانية (١) عن ارز لبنان فروينا ما كان لغاباته من الشأن الخطير حتى ان كل الشعوب القديمة في الشرق لاسيّما البابليين والفراعنة كانوا يجدون فيها حاجتهم من الخشب لابنيتهم الفاخرة . ومن الآثار الهيرغليفية ادلة واضحة على ان المصريين كانوا يعتبرون جبل لبنان كغابة منسعة كثيرة الاشجار متكاثفة الاغصان لا يري السائر فيها اديم السماء لظلمتها الوارف (٢) وكان الغرباء لا يتجولون في هذه الاحراج لأنهم يتوجسون منها خوفاً لما يروى فيها من ضواري الوحوش كالاسود والنمورة والدببة . وكان الاهلون قليلين وهم يرتزقون بما يقطعونه من الاخشاب كما ترى في صورتنا المنقولة عن بعض الآثار المصرية القديمة . أمّا الاشوريون والبابليون فلم يشاؤوا ان تبقى هذه الكنوز في ايدي اخصاصهم المصريين فلذلك ننظر اصحاب العاديات البابلية يفتخرون بما جلبوه من اخشاب لبنان لمبانيهم العظيمة كما ان نقوشهم المنقورة في الصخور تنطق

(١) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

(٢) اطلب : Chabas : Voyage d'un Egyptien en Syrie, p. 312 — W M. Müller.

Asien und Europa, p. 197-198 — Joret : Les Plantes dans l'antiquité.



قدماء اللبانيين يقطعون الشجر

بماثرهم في صيد كواسر لبنان. مثال ذلك صورة توقفنا باكتشافها في جبل اكروم شمالي هرمل فوصفناها في بعض تأليفنا (١)

أما قدماء اليونان فلم يجسروا ان يتوغلوا في هذه الغابات التي كان البابليون والفراعنة نالوا من اطرافها فقط حتى قام الرومان تحت امرة پومپيوس فتعقبوا فيها المتلصعين من الايطوريين (٢) وضربوا على ايديهم ومنذ ذلك العهد ساد الامن واتخذ السكّان لهم منازل ثابتة فجعلوا يقطعون تلك الاحراج لحاجتهم الى المزدريات (٣) وصار عدد القرى ينمو شيئاً فشيئاً وغرس الاهلون الكروم واهتموا بزراعة الزيتون فتوقفت وانتشرت وتخوف اصحاب الامر من ان تتلف الغابات فوضعوا الرسوم لقطعها

(١) راجع ٥٠ p. Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène,

(٢) راجع (ص ٤٩) والمشرق (٥ : ٨٣٥)

(٣) راجع (ص ٢٥)

واستثنوا منها بعضها . غير أنّ لبنان لم يُيسر جبلاً حافظاً بالسكّان إلا عند انتشار الموارنة كما اثبتنا ذلك سابقاً (١) فكانت الغابات تنقص على قدر ما كان ينمو عدد القطّين . وفي ذلك العهد احتاج الخليفة معاوية الى عمارة فيجهر سفنها من خشب لبنان في عكّا وصور وطرابلس كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٥٣) وفي تاريخ توافانوس وتاريخ البطريك ميخائيل الكبير (ed. Chabot. II, 445) . وكانت هذه الاساطيل تتركّب من عدد وافر من السفن بلغ مجموع بعضها ١٧٠٠ سفينة شراعية . وكان اذا ذهبت الانواء بقمم منها اسرع فيجهر غيرها بدلاً منها لانه لم يشاء ان يكون اسطولُه اقلّ من ٥٠٠ مركب . وهو لعمري عدد بالغ يشهد بلسان حاله على غنى لبنان بالأحراج والغابات كما انه دليل واضح على ما فقده بتوالي الاعصار من هذه الكنوز الخشبية . ودونك اسباباً اخرى قد سوّأت انتقاص هذه الغابات ما عدا توفر السكّان الذي سبق ذكرهم

سيأتي الكلام في فصل آخر عن معادن لبنان في القرون الوسطى . وهناك ترى ان استخراج الحديد كان شائعاً في لبنان وكانوا يمدّنون هذا المعدن على الطريقة المنسوبة للكتيلان وهي طريقة تقتضي احراق الخشب الكثير . وكذلك استحضار الكلس فقد اتسع نطاقه في لبنان لكثرة حجارتِه الكلسية والكلس لا يتهيأ الا بايقاد نار شديدة فذهب بذلك قسمٌ من غابات الجبل ثم انتشرت في لبنان تربية القز فشغلت اشجار التوت قسماً من مكان الغابات . وزد على ذلك رعية المعزى واصطشاع الفحم الخشبي وقلة اكثراث الاهلين لنصب اغراس جديدة فكانت هذه الاسباب كلها داعية الى تلف الغابات فاصبح الجبل اليوم اجرد اصابع لا تقرّ لناظره عين بما كان يزينه سابقاً من خضرة احراجِه وارزه الشهيد الذي انشدت في محاسنِه الاسفار الالهية

وان قيل أنّ اهل لبنان اصابوا بدلاً من هذه الغابات مرافق اخرى استعاضوا بها اجبنّا أنّ هذه الخيرات التي حظي بها القوم انما كانت مقصورة على منافع وقية ولو فطنوا وادركوا كنه الامور لامكنهم ان ينالوا هذه الخيور دون ان يخسروا هذه

الحسائر الجسيمة . ومن المعلوم ان اعمال الحشَب تترقّى يوماً بعد يوم مع ترقّي المدنيّة فتتعدّد منافعه لغايات لا يضبطها احصاء وكأها فوائد جلية . لانّ منه يتّخذ الاثاث وامتعة البيت وادواته المختلفة ومنه يُستحضر اليوم ورق الكتابة وثمنه يتصاعد كل يوم . حتى ان بعض المتولين اعمال السكك الحديدية يرون ان الحديد ارخص منه في عوارض هذه السكك . وكذلك ترى الكهرباء بترقيها وانتشار استعمالها تقوم اليوم بمقام الفحم كما ان غاز البترول ينوب ايضاً عنه في اعمال صناعية عديدة فيُستخدَم في تحريك الآلات في المعامل والمراكب والسكك الحديدية بل في طبخ الاطعمة .

وبينما ترى بقيّة المواد تنقص قيمتها او يتهاود سعرها تجد الحشَب بخلاف ذلك يرقّ سأم الصناعات ولا يُستغنى عنه بحيث يمكن القول ان حرفة الحطّاب كحرفة الفسّاح اقدم ما عُني به المرء في بداية كونه وستبقى الى آخر انكون . فترى من ثمّ جهل الذين عبثوا بهذه الثروة فضحّوها مع انّ قسماً من لبنان لا يصلح في الغالب لما سوى ذلك . وقد جرّ خراب هذه الغابات آفات اخرى نشأت عن قطعها . فمن ذلك فقد قسم كبير من التربة الزراعية التي تجرفها كلّ عام امطار الشتاء . ومنها نضوب عيون معينة انقطع مياها او قلّت . وكذلك تافت الحواجز التي كانت كسدود في وجوه الانهار عند طغيانها واستنقعت المياه في البطائح فانبعثت منها الجراثيم الويئة وذلك بدلاً من الروائح العطرة التي تنفوح من اشجار الارز والصنوبر والشربين . فانّ الخالق كان اقام لبنان ليجهله كجيارستان للمرضى وكمستشفى يمالج به اهل العاهات اسقامهم ويجددون فيه كما في جبال سويسرة صحّتهم بعد ان انهكتها الالاعاب او تناقلت عليها اعباء القبط فينعمشوا قواهم بصفاء جوّه وطيب هوائه وشذا عطوره وازهاره . ولا غرو انّ الزوار كانوا يتواردون اليه تترى ليسرّحوا انظارهم في مشاهد الفئانة وآثاره الفريدة المجملّة بمناظر الطبيعة كما انّ المرضى منهم كانوا يستطيعون ان يتعالجوا بالمعالجات الطبيعية التي اختبر نفعها اطباء زماننا كالعلاج بالهواء والاستحمام بالماء والنور والتطبيب باللبن والعنب وترويض الجسم بالرياضات المقتوية . ففي لبنان صلاحية لكل هذه الاسباب الصحيّة التي لا يناها الاوربيون في جبال سويسرة مع كثرة ضبابها وكدورة سماءها الا بان يتعرضوا لامراض شتّى كوجع المفاصل والصداع . وكان امكن اهل لبنان مع هذه الخيرات العسيمة ان يوسعوا مصادر ارتقايم ببناء الفنادق

للعرباء وانشاء الشركات لتقل المسافرين وغير ذلك مما يجلب اسويسرة ارباحاً فاحشة .
وقد فُقدت هذه العوائد كلها وخسر لبنان كل هذه المكاسب منذ جرد الاهلون قممهُ
عن غاباته بل قل عن موارد سعادتهم

✱

اعلم ان تجارة الحشب قد صارت اليوم في ايدي اهل اوربة فيكسبون منها
مبالغ طائلة . مع ان تربة تلك البلاد لا تصلح كثرة لبنان انمو الشجر وذلك ان
شجرة من الصنوبر مثلاً لا تبلغ في بلاد اسوج وزوج عشرين متراً طولاً في دائرة متر
ونصف الا بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة أما في جنوبي فرنسة فان نمو هذه الاشجار
اسرع من ذلك باربعة اضعاف ولا نشك انها في لبنان تنمو بزمن اقل من ذلك
بسته اضعاف لحسن موقع هذا الجبل واعتدال هوائه . فترى من ثم ان اللبنانيين
او ارادوا امكنهم ان يزاحوا اهل شمالي اوربة في هذه التجارة الواجبة بدلاً من ان
يدفعوا لهم ما لهم جلب اخشابهم

وهذا وان تغافل السكّان والحمد لله لم يفن تماماً هذه الغابات فان لبنان حتى
الان امكنة تظلها الاحراج وتشهد على غناها القديم . وقد تكلمنا في خلال بحثنا
عن ارز لبنان في المراكز الثلاثة التي تزدهر فيها غابات هذا الشجر الشمين واستلفتنا
انظار اللبنانيين الى ما يتهدد غابة الباروك من عوامل الفساد

أما بقية الاشجار غير الارز فان طلبنا لها غابات كبيرة ليس غياضاً صغيرة لا نكاد
نجد منها الا في بعض الامكنة السجية كجبل اكروم شمالي شرقي لبنان وهذا الجبل من
مناحقات جبل عكار تراه موازياً لبحيرة حمص وهو قبايل السكّان وفيه غابة واسعة من
السنديان الباسق الافنان . بيد ان اهل تلك الانحاء يقطعونها منها الفحم فلا تلبث
بعد مدة ان تتناف كما تواف اخواتها في لبنان . وياليت هؤلاء الخطابين يكتفون بقطعها
فيبقى امل لان تعود تنمو بعد سنين الا انهم تخفياً للعمل يلقون النار في اصول اكبر
اشجارها فتجف مائيتها وتناف دون ان يرجى لها اخضرار فيضحي مثل هؤلاء كمثل
المرأة التي لم تمنع بيضة من ذهب كانت تبنيها لها كل يوم دجاجتها فلما طعمت بما
هو اوفر فقدت رزقها . وكان قدما اللبنانيين اوفر عملاً كما ترى في الصورة التي اثبتناها
آنفاً (ص ١٨٣) فانهم كانوا يلتفون بخشب غاباتهم دون ان يستأصلوا شأفتها

وكذلك مقاطعة الهرمل فانها كثيرة الاحراج ينمو فيها خصوصاً ناعم الشجر وذلك على مساحة نحو ٢٥٠٠٠ هكتار . ومع كثرة النبات ترى ايضاً امكنة عديدة خالية منه . واشجار معاملة الهرمل دون جبل اكروم في بسوقها وحسنها وهذا مما يبغض شيئاً من قدرها . والفحّامون يعيشون ايضاً في هذه الاحراج كميث رصفانهم في احراج اكروم غير انهم لا يحرقون الشجر من اصله كما يفعل اولئك

وترى في مقاطعة الضنية وفي منعطف لبنان الشرقي بين الهرمل وعيناثا بعض الغابات الحسنة واشجارها في الغالب متوسطة الكبر ليست متواصلة . ومن اشجارها الحاصّة بها الشوح (*abies cilicia*) وهو شجر جبلي نادر الوجود في الاصقاع الشامية لا يُعرف في غير جبال اسكندرونة ومديرية الضنية ويستحقّ ان يُغرس في نواحي لبنان لحسنه فانه ينمو الى علو ١٥ متراً وينبت في مشارف الجبال بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر وفي غير هذه المحال لا تجد الغابات الا في بعض الاودية المعتلة او على جوانب بعض السيول ومنحدرات الغياض يمتاز بينها الصوبر والسرو . اما غابات السنديان التي كانت تزين منعطف جبال جزين عند تومات نيعا فانها صارت اثرأ بعد عين . وترى بدلاً منها بقعاً سوداء تشهد على مساوي الفحّامين . ونذكر هنا بعض الغياض لا لاتساعها بل تناسيلها لمن غرسها واستلغاتها لنظر الاهلين منها احراج بيت مري وعين زحلثا وبكاسين وبكفياً . فياليت اللبنانيين يأتسون بهذه الامثال فيعيدون لجلهم زينته السابقة

ومما يجدر بنا ذكره مزارع الزيتون . وهي كثيرة في بعض الجهات حتى ان الذي يراها يحسبها آجماً وغابات . منها مزارع الكورة التي تمتد على طول خمسة كيلومترات في عرض الف متر . واوسع منها مغارس المختارة وعمّا طور الا ان بينها صنوفاً اخرى كالتوت والاشجار المشمرة وقد استوقفنا ابصار قرآننا على تلك الغياض البديعة المنظر التي تجاري في خصبها غوطة دمشق واجمل مواقع سورية . الا ان السهم الافوز بين مزارع الزيتون هو للشويفات فان صحراءها تبلغ سبعة كيلومترات طولاً في عرض يختلف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات وهي دون اغراس المختارة طولاً لكنها مرصوصة متواصلة لا يدخل فيها صنف آخر من الاشجار . ومن نظر اليها من علّ خالها بحيرة كبيرة من الخضرة لتلاحم اشجارها وكلها في علو واحد نُصب اكثرها

قبل ستين سنة . وكذلك مزارع قصبة زغرتا العامرة فانها واسعة جميلة وان تكن اصغر من المغارس السابق ذكرها وتختلط بما سوى الزيتون ويهيم اللبنانيين ان يوسعوا نطاق هذه المزارع لما وراءها من الارباح التي تبلغ اربعة اضعاف ربح الغلات . لأن معدل ما يُستغل من زيتونة واحدة يساوي في السنة بين ١٥ الى ٢٠ فرنكاً ولوبيع الزيت في الخارج لاتي بمكاسب طيبة لحاجة كثير من البلاد الاجنبية اليه فان فرنسا مثلاً تحتاج الى ٢٥,٠٠٠ طن من الزيت فضلاً عما تجده في مقاطعاتها . فيأتيها من مستعمراتها ٨٠٠٠ طن لسد هذا النقص فيبقى ١٧,٠٠٠ طن يمكن اللبنانيين ان يزودوها بها . وانما ذلك على شرط واحد وهو ان يتخذ الزارعون الطرائق المستجدة لعصر الزيتون فان الزيت الطيب المستحب لا يُنال الا بالادوات الخصوصية التي شاعت اليوم في اوربة (١)

٢

مزروعات شتّى

نكرّر هنا ما سبق لنا قوله ان الغاية من بحثنا الحاضر ليست تأليفاً في الفلاحة او في ضروب الثبات التي تزين لبنان . والماليد النباتية متوفرة فيه لما خص به هذا الجبل من الدوائر المنطقية والطبقات المتباينة واختلاف التركيب الجيولوجي والمواقع من قمم وادوية وغير ذلك (٢) . والقصد من هذه النبذة ان ندور، بعض الملحوظات المفيدة نسندھا الى تعاليم التاريخ والى نتائج علم الجغرافية اننا لا ننكر ما اصاب لبنان من الخسائر بتجرده عن غاباته القديمة الا انه لا يجوز القول بان الجبل فقد خصبه وثرته الارضية بدعوى ان الزراعة اليوم لا تأتي بالارباح المأمولة . والحق يقال ان بعض العيون قد نضبت وان السيول وغيرها من دواعي الحراب سحبت بقسم كبير من التربة الزراعية وبرزت صخوراً جرداء لا يمكن فلاحتها .

(١) اطلب كتاب الفاضل ودبع افندي مدور في الفلاحة السورية (Syrie agricole, pp.

206, 212)

(٢) فليراجع كتاب المسيو جوره في النباتات القديمة وله فصل في نبات بلاد الشام عموماً

ونبات لبنان خصوصاً (ص ٢٢٤-٢٢٦)

لكنّ الجبل في ما سوى هذه الامكنة لا يزال طيب الثرى صالحاً للزراعة . ألا ترى مثلاً ما يناله لبنان من حاصلات الكرم والتوت والتبغ الذي تعود على اهله بالمكاسب الطائلة وقد كانت مدة من مرافق الجبل الخاصّة به . وان كانت هذه موارد الثروة قد خفّت فلا تثير على الارض اللبنانية وأنما تغيّرت فقط احوال سوقها التجارية ولعلّ ارباب الزراعة في لبنان لم يصرفوا نظرهم الى تحسين طرق زراعتها على الاساليب المستحدثة . مثال ذلك زراعة الكرم فإنّ لبنان يوافقها اي موافقة وترى اليوم اصحاب الشركات الاسرائيليّة والالمانيّة في جهات فلسطين قد سبقت اللبنانيين في استثمارها

ولا غرو فانّ عصرنا هذا عصر التقدّم وقد اصاب الفلاحة من ذلك نصيب كبير فلا بدّ اذن من استعمال الاساليب التي اختبر العلماء منافعها لنلا يذهب شغلنا سدّي بزاحمة النير . فما قولك مثلاً في جند اليابان لو نزلوا ميدان الوغى وفي ايديهم القوس والنبّاب لمحاربة الروس المتسلحين بالبنادق وهم يطلقون عليهم المدافع . فكذلك الفلاحة فإنّ لها اليوم ادوات تسهل طرائقها وتوفّر غلاتها اضعاافاً كثيرة ومع هذا ترى الاهلين لا يسعون في اتخاذها ويجرون على آثار اجدادهم في اساليبهم المخلّة التي شاعت بينهم قبل الفين او ثلاثة الاف سنة . مثال ذلك عصر الزيت فإنّ اللبنانيين يستخرجونها في معاصرهم كما فعل الفينيقيون . أليس هذا شططاً وكيف يستطيع الاهلون بعد ذلك ان يلوموا الزراعة ويشكوا قلّة أرباحها

هذا ويؤخذ من دروسنا السابقة انّ لبنان منذ الطور التاريخي لم يختلف في هوائه اختلافاً يذكر وان امطاره لم تكن اذ ذاك باوفر منها في عهدنا مهما زعم الزاعم ليثبت خلاف ذلك

وغاية ما يمكن التسليم به انّ الامطار مع اتساع الاحراج قديماً كانت مقسمة على كل انحاء لبنان تقسيمًا نظامياً يعمّ فصول السنة فيدوم زمانها اكثر دون ان تتوفر بذلك كمية مياهها . وهذا ايضاً ضرب من الحسد لا يمكن ان نحكم بصحته قطعياً وعليه يسوغ القول بان النبات اللبناني هو اليوم كما كان سابقاً الا اجناساً قليلة . فمن ذلك البردي (papyrus) الذي ينبت بوفرة حتى اليوم على مقربة من بحيرة الحولة . وعلى رأينا انه كان ينبت في الاجيال الغابرة في اودية الجبل الحارة الكثيرة

المياه وعلى ضفاف الانهار ومصباتها وذلك لما كانت غابات لبنان باسقة تسرح فيها سباع الحيوان كالأسود والفيلة وتروح في انهارها التامسيح كما سيأتي (١) ومن النباتات المنسوبة الى لبنان شجرة اللبان او الكندر وهذا الرأي تراه مكرراً في اسفار الكتبة من اهل القرون الوسطى لكنه بلا سند وإنما هو مبني على وهم لغوي فزعموا ان لبنان معناه اللبان لتوافق اسمها في اليونانية (Δίβανος) كلاً لم ينبت لبنان قط شجيرة اللبان التي هي من خواص اليمن وضواحيه . على ان هذا الجبل غني بغروس أخرى وأشجار نقلت اليه فصائلها بعد تاريخ الميلاد على ما نظن . منها الشمس المعروف بالبرقوق (٢) والبرتقال وقصب السكر . وما جاءنا من امركة التبغ والصبي . وقد دخل أيضاً لبنان نباتات حديثة العهد مختلفة الاجناس الا ان كثيراً منها بعد برهة من الدسر تضعف وتفقد خواصها الاصلية لاختلاف التربة عاينها او بالحري لجهل الالهين بزيئها . وما يصح قوله اجمالاً ان لبنان يصلح لنمو اكثر النباتات والاشجار بحيث يضيحي كحدائق غناء وبساتين فيحاء جامعة لشتات نبات المعمور . والسبب في ذلك اختلاف طبقات الجبل وتباين مواقعها . وهذه لعمرى منحة فريدة تكرم بها الخالق على لبنان فلو انتفع بها الاهلون لأغنتهم عن شكواهم من عقم الجبل وضوالة غلاته

*

وقد ذكرنا آنفاً الصبي او التين الشوكي . وغاية ما ينتفع به الناس انهم يتخذونه كسياج ليوثهم او ياكلون ثمره التففه . ولو دروا لامكنهم ان يستعملوه لقوائد أخرى اعظم واجل . وما نقوله عن هذه الشجرة يصح في كثير غيرها . فمن ذلك انه يؤخذ على الفلاحة اللبنانية قلة اهتمام اصحابها بتربية المواشي ومن المعلوم ان الجبال انسب الى ذلك من سواها لاسيما انه يلحق برعية المواشي اعمال اخرى يرتقون بها كبيع اللحم واصطناع الجبن والحليب والزبدة واللبن . وما السبب في قلة تهامل اهل لبنان لتربية المواشي الا قلة المراعي والاعشاب فان بعض

(١) راجع الكتاب السابق ذكره (ص ٣٩٠)

(٢) ويدل على ذلك اشتقاقه من اللاتينية

الامكنة قاحلة جداً لا تجد فيها الطرش لما ظلاً طول السنة وفي غيرها تمحل التربة في فصل القيظ وتيبس المراعي . فلاي سبب لا يُزرع الصبير الذي ينبت في اي تربة كانت وهو يثبت على اشتداد الحر

ولكي يمكن الانتفاع بهذا الثبات لا بُدَّ من نزع شوكة عنه . والاولى ان يُغرس ضرب آخر منه لا شوكة له . واعلم ان ثمره ولاسيا اوراقه (الواحه) الضخمة المكتنزة من احسن ما يُعلف به الحيوان . وبعض الزراعين يرونها شبيهة بالجزر بل افضل . منه لقوت المواشي . والجزر كما لا يخفى يُتخذ في اوربة كعلوفة الانعام . والصبير اذا غرس وطلع يقصَّب في سائبه الثالثة او في الرابعة وهو انسب . فاذا آتى على غرسه ست سنوات اتى بشمره وبقي نامياً الى السنة الاربعين فيجئئ تشدب ساقه فيعود وينمو جديداً . وجموع ما يُستغل منه كل سنتين بين ٣٠,٠٠٠ الى ٣٥,٠٠٠ كيلوغرام من العلف في كل هكتار

وليس الرأي هنا ان تزرع الاراضي الطيبة باتين الشوكي بل الاراضي البور فقط التي لا تصلح لغير ذلك من المزرعات وان يُغرس منه ثلاثة او اربعة صفوف حول البساتين والاملاك الواسعة بدلاً من اكوام الحجارة التي تقوم في وجه السابلة واذا احتاج الناس الى علف الماشية في بعض السنين التجأوا الى هذه المؤونة القريبة المائل (١)

ويوجد غير ذلك من الاشجار التي تؤدي لاصحابها خدماً مشكورة منها شجرة الخروب الذي ينبت من نفسه في لبنان (٢) وكان هذا الشجر كثيراً في لبنان حتى ان اقليم الخروب دعي به (٣) امّا اليوم فلا يرى منه في لبنان الا اشجار متفرقة قليلة البسوق مع انه شجر كثير المنافع في تلك الجهات . وما يقال عن اقليم الخروب يصح في بقية اقاليم لبنان فان مديرية البترون كما يشهد على ذلك المعمرون من الشيوخ كانت غنيّة بهذا الشجر قبل نصف القرن واكثره اليوم قد قطع وتلف فلم يسع الاهلين ان يستبدلوا تلك الاراضي البائرة باغراس غيره . وهذا المشل يبين للقراء ان الفلاحة

(١) راجع كتاب الاديب ودع مدور في فلاحة سورية (ص ٢٦٤)

(٢) كتاب جوره (ص ٢٥١)

(٣) وهو اسم قديم ورد ذكره في كتاب شمس الدين الدمشقي (ص ٢٠٠) وفي تاريخ

بيروت لصالح بن يحيى (ص ٨٨)

اللبنانية اذا ما قصرت في بعض الاحيان عن الترقى والتجسين ربما سهت ايضا عن امثال الاقدمين وعدلت عن آثارهم المحموده . وكان اجدادنا يعرفون فضل الخرنوب ويقدرونه قدره كما يؤخذ من هذا النص الذي سطره الشريف الادريسي في كتابه عن الناعمة التي هي اليوم قرية حقيرة قال (١) :

« والناعمة مدينة حسنة وأكثر نبات ارضها الخرنوب الذي لا يعرف في معمر الارض مثله قدراً ولا طيباً ومنها يُجهز به الى الشام والى ديار مصر والىها يُنسب الخرنوب الشامي امّا وان كان في الشام كثير أوطياً فهو بالناعمة أكثر واطب »

فهذا الكلام شاهد لامع على ان الخرنوب كان متوفراً في الاقليم الذي دعي باسمه وان زراعته كانت معدودة كاحد مرافق لبنان الجنوبي . فيا رعاك الله ماذا ينفع من ان يعود الاهلون الى توفير اغراسه لاسيما انه يأتي عفواً في كل الامكنة القاحلة ولا يحتاج الى عناية خاصة كما ان قلة الامطار او كثرتها لا تؤثر فيه واللبنانيون بفرس هذا الشجر لا يعمدون فقط لجلبهم بعض نضارته بل يرتقون ايضاً بمحاصيله كما كان الامر في عهد الادريسي

ومما يزيد الخرنوب نفعا ان ثمره سكري وقد اثبت الذين يعمدون بنظارة المواشي ان العلف انفع للانعام اذا دخل فيه السكر . وقد عرف قدماء العبرانيين منفعة فاطعموه الخنازير (راجع انجيل القديس لوقا ١٥ : ٦ وكتاب التلمود) وغيرها من الرعاية . وبه ايضاً علف اليونان والرومان مواشيتهم . واليوم يدخل فرنسا في كل سنة ١٩,٠٠٠ طن من الخرنوب لحاجتها وهذه الكمية تنسوقه فرنسا من بلاد شتى ولا تفيدها الجزائر منه سوى الف الى الف طن . ومحمول الخرنوب يختلف على حسب عمر الشجرة وحسنها ومداراتها فيجني من الشجرة سنوياً بين ٢٥٠ كيلوغراماً الى ١٠٠٠ ك من الشجر يساوي ثمنها من ١٠ فرنكات الى ٤٠ ف . وفي هذه الاعداد دليل ظاهر على فوائد غرس هذه الشجرة التي لا تطلب عناء كبيراً . وان لم يقصد الاهلون منها الربح يبيع ثمرها الا انهم يجدون فيها منافع غيرها كرعية المواشي . وثمرها كما سبق افضل علف الدواب يقوم مقام غيره من التّجوع الذي يندر في بعض المواطن . وقد لحظ الاجانب فضله فصاروا

يقبلون عليه اقبالاً يزيد مع الاعوام وهم يستعملونه في الصباغة وفي عمل السكر ويملفون به انعامهم . والبعض منهم يحمّصون حبوبه فيجعلونها بدلاً من القهوة (١) . وكذلك خشبه صلب مسط يصبر على الزمان دهرًا طويلاً فيُرب فيه لذلك . وغاية ما يؤخذ على الخرنوب انه كالزيتون لا يأتي بشمره قبل سنته العاشرة . لكن هذه الصعوبة ليس من شأنها ان تمنع من غرسه . ومن نظر الى الربح العاجل فقدّ المكساب الطائفة الآجلة (٢)

ويوجد غير ذلك من النباتات التي تصلح للاراضي اليابسة نذكر منها شجر التين واللوز . ومن المعلوم ان ١٠٠ كيلو من التين اليابس ربما يمت بائة فرنك اللهم اذا كان التين من الجنس الحسن وجعل في علب مكبوساً كما يصنع اهل ازمبر وهو من اكبر موارد الرزق لديهم (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٠) فلو صرفنا النظر الى اثارنا لتحسين اجناسها وتهيئتها لزادت الرغبة فيها وأجدت باعها نقماً عظيماً

اماً اللوز فهو من الاشجار الوطنية (٣) التي لا يُنكر فضلها . وزراعتها اسهل من سواها في لبنان لأن شجر اللوز كالزيتون واكثر منه ينمو في الاراضي القاحلة والتربة الكلسية ومعظم لبنان تركيبي من هذا الصنف . ثم ان الشجر لا يقتضي عناية خصوصية وثمره يباع في الشجرة من ١٥ كيلوغراماً الى ١٠٠ ك ويُباع بأسعار حسنة فان مئة كيلو منه يُدفع فيها من ٤٠ الى ١٢٠ فرنكاً على حسب اختلاف الاجناس فيكون معدّل محصول الشجرة بين ستة فرنكات وستين فرنكاً . وهذا ما ساق الشركات الاسرائيلية في سواحل يافا الى ان تُكثر من اذخاب اللوز فيقوم منه غابات في بعض حدائقها . ومن خواص ثمر اللوز ان تهيشته لا تستدعي شغلاً لنقله وهو يبقى زمناً طويلاً

وليس الامر كذلك في زراعة اشجار غيرها التي تسارع بعض الاهلين الى غرسها كالليمون مثلاً (٤) فكل يعرف فضل ليمون صيداء على البرتقال الياقوي وكثرة مائتيه

(١) راجع مجمع التوراة للاب فيكورو على لفظه « خرنوب » (ج ٢ ص ٢٠٨)
(٢) ومن اراد غير ذلك في هذا الصدد فليد بكتاب الاديب ودع مدور (ص ٢١٣ و ٢٦٥ و ٤٢٢)

(٣) طالع كتاب جوريه (ص ٢٩٥)

(٤) راجع في المشرق (٦ : ٢٨٩) مقالة الاديب توما افندي كيال في برتقال صيداء

وطيب طعمه إلا أن برتقال يافا اروج سوقاً عند الانكليز . والسبب أن ثمر يافا اغلظ قشرة فيبلغ انكاثرة وهو على حسن حالته بخلاف الليمون الصيداوي الذي يفسد في الطريق فيذهب رونقه . ولعل لهذا الداء دواء وهو ان يخصص الصيداويون قسماً من جنتهم الغناء للشكل اليافوي فيصُدرون هذا الصنف للبلاد الاجنبية . أما البلاد المجاورة او المتصلة بخطوط نظامية كمصر وسواحل الشام والاستانة العليّة وجنوبي روسية فيزودونها باسكالهم الوطنية . الطيبة لاسيما ان تربة صيداء تصلح لكل ضروب البرتقال ولاجناسه المختلفة . والمهم أن لايجري الاهلون على مألوف عاداتهم المخلة لان ملازمة الطريقة الواحدة تؤدي بهم الى خسائر جسيمة . ألا ترى مثلاً ان بعض المراكب قطعت سيرها الى صيداء وكانت قبل اربع سنوات في فصل الثمار تمر بها لنقل محصولاتها . فلما رأت كساد سوق ليمونها كفت عن المجيء اليها

ومن الزراعات النافعة الخطيرة الشأن شجر الشمس واشهر اصنافه صنفان معتبران هما الشمس الكلالي تكون نواته مرة والشمس اللوزي حلو النواة . وهذا الصنف هو الافخر والالذ والفرق بينهما من حيث الثمن بعيد جداً إلا ان رغبة الفلاحين في الصنف الاول اعظم . وما هو ياترى سبب ذلك ؟ قلّة انتشار الشمس اللوزي . ولو اراد الزراع لامكنهم توفير الجنس الفاخر بعملية صغيرة سهلة جداً

*

ومحمل القول ان الفلاحة اللبنانية لم تنهض حتى الآن من خمولها . وكثيراً ما نحمل الشكاوى على الطبيعة او تركيب التربة او العناية الصمدانية ولو كنّا من ذوي الانصاف لشكونا سهوفاً وغفلتنا . نعم انه لا يمكن استئصال الحبوب والبزور من اراض محجرة او ماحلة . ولكن ما لنا لا نوجه همّنا الى اصناف شتى . ترى أكثر اهل لبنان لا يهتمون إلا بالتوت ويكتفون بغرسه فقط كأنهم لا يجدون في سواه من الاشجار ما يقوم بحاجاتهم او لا يُربحهم ارباحاً مثله واوفر منه لاسيما ان بعضها لا يقتضي كالتوت فلاحه كبيرة ولا ابقاء سافات وسطوح تراب فاذا كان لدى الاهلين اصناف محتلفة زادت ايضاً مآتيهم وآمالهم . وعلى فرض أن صنفاً منها في بعض السنين لم يأت بالارباح المأولة استعاضوا عنها بما يجدونه في غيره . وعلى هذه الصورة يقسم الفلاحون شغلهم على كل فصول السنة ولا يدعون قطعة من ارزاقهم دون فائدة

هذا وان قولنا السابق مبني كُله على العلوم التاريخية والجغرافية والاقتصادية وذلك لا يمنع صرف النظر الى خبرة ارباب الزراعة ومراجعة الكتب الخاصة التي صنّفها العلماء في هذا الشأن مكرّرين الشناء خصوصاً على التأليف الذي وضعه الكاتب الضليع وديع افندي مدور وقد استفدنا منه لتسطير هذا النظر في الفلاحة السورية . ونتمنى ان يعرّب قريباً لفوائده

١٧

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق انّ البلاد السورية غنيّة باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوريّ مع قلّة اتساعه من سباع الحيوان والمواشي والدوابّ ما تجده متفرّقاً في اقطار عديدة ومناطق مختلفة من العلوّ . وهذا اعمرى من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهمّ الا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور . وانّا نجد تعليلاً لهذا الامر في موقع سورية وتركيبها الجغرافي فانك اذا استئنيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعماية متر (وذلك اورد فريد ليس لمثله ثان في الارض) ثم نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكرت ما سبق لنا بيانه من ان هذا الجبل جامع لخواص بلدان شتى متباينة كلّ تباين ومن ثمّ يصلح لان يكون مأوى لمواليده الحيوان المختلفة

على انّ غايتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانه ما يغنيننا عن ذكر بقية البلاد الشامية . لاسيّاً اذا اعتبرنا لبنان في ايامه القديمة اذ كانت ترين قمته غاباً ثمّ الكشف قبل ان تُقطع اشجاره وتُستبدل بالمزارع . فرأينا من ثمّ ان نبسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانية التي خلا منها الجبل مستندين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

*

الاسد ملك السباع فله سبق وبه نفتتح كلامنا . لم ينكر احد وجوده في بلاد

الشام وأما ادعى المسيو ستايفر في كتابه المعنون «فلسطين في زمن المسيح» (ص ٢٢٥) انه لم يبقَ له من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور هـ . پروتس (H. Prutz) قد زعم ان روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الاسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١) ويوافقه في هذا رأي الرحالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228) فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالاً عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢) بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣)

أما لبنان الذي يهتأ الآن اعتباره فان الشواهد على وجود الاسد فيه عديدة على اختلاف اطوار تاريخه . لا بل قد وجدت قبل طور التاريخ في آثار هياكل اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤) . ومن شواهد الازمان التاريخية ما ورد ذكره في سفر نشيد الاناشيد حيث أشير الى أسد لبنان عموماً وحمون خصوصاً قال (٨ : ٤) : « انظري من رأس امانة من رأس ستير وحمون من مرايض الاسود من جبال النمر » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفيّة قبل ذلك العهد ذكر « لنبانا » وهو جبل لبنان فان كاتبها يثله كجبل ذي احراج متكاثفة لم تمتن بالتقطع تتجول فيها الضباع والدبة والاسود . وكان الفراغة اذا خرجوا الى مضاد سباع البهائم والاسد قصدوا لبنان او لحفه في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيدون الفيلة كما ستري

وكذلك ملوك بابل واشور فانهم بعد الفراغة بقرون كانوا يحاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نصب اكتشفناه قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرعة من لبنان يفصل بينها وادي خالد واسم الجبل أكروم . والنصب في وادي حرج حيث يسيل جدول ماء

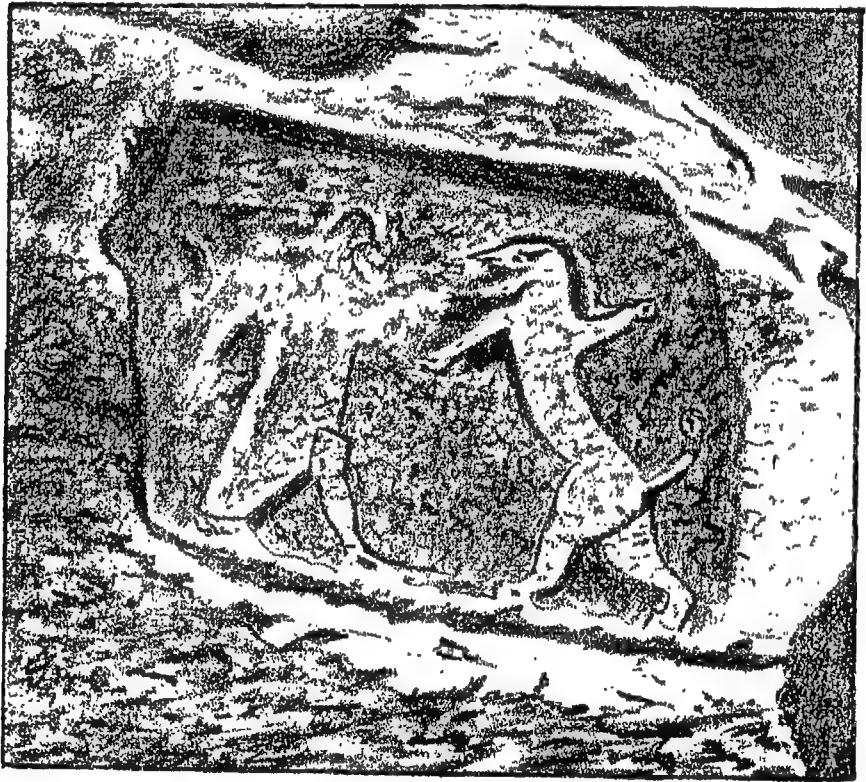
(١) راجع كتابه Kulturgeschichte der Kreuzzuge, p. 332

(٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 - وكذلك ورد في كتاب صبح الاعشى للفاشندي ان الاسد كان موجوداً في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزانة كتبنا الشرقية (ص ١١٢٣)

(٣) راجع مجلة المالمين 1897, p. 403, 11 Juillet Revue des 2 Mondes,

(٤) راجع كتاب الاب زوفن اليسوي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

يُدعى نهر السبع شكله مربع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبه مترين ونصف ترى فيه صورة اسد يصارع رجل (انظر الصورة) والمصارع . ينتصب حافي الرجلين تراه يقبض بيده شديدة فك الأسد الواسع المفتر بينما هذا ينصب قائمته ليهجم عليه . وصورة الرجل مهشمة ولا يرى السلاح الذي كان في يده والمرجح انه كان يسكه باليمنى ومع خلوه هذا الاثر من كتابة لا شك في انه من مآثر الاشوريين (١)



صورة نصب أكروم

وقد اكتشف ليس بعيداً من هذا النصب اثر آخر يبين معناه والواقف عليه

(١) راجع كتابنا الذي عنوانه Notes épigraph. et topogr. sur l'Emésène, p. 49 etc. وللاب س. رتزال بحث في هذا الاثر الجليل نشره في المجلة الكتابية (R. B., 1903, p. 600-604)

هو المسمو يونيون قنصل فرنسة سابقاً في حلب وجده منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . وهذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصر الثاني وعليهما كتابات مسمارية وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكروم تمثل هراع رجل واسد . وليس الرجل سوى ملك اشور بعينه كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك ان نبوكدنصر سكن برهة من الدهر في ربة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثلة لبعض وقائع الصيد التي تولأها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكره . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبعنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصر لا نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب ان الكتبة اليرثان والرومان لم يرووا عن لبنان الا التزر القليل فلا غرو ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا يتقصدنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها فمن ذلك اسم «البوة» وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربية لبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لبوت (بيت ذباو) في فلسطين (١) وناهيك بهذا الاسم شاهداً على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوبوليس (Leontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λεόντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبين العلماء بضبط نقطة موقعها . ولا بأس اذا قيل بان في اسميهما دليلاً على وجود الاسد بجوارهما في لبنان

وزد على ذلك نصوصاً وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريباً من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار ان اسامة ابن مئذ كان يصيد الاسود في نواحي شير . ومن غريب الشواهد ما اثبتته فرسان الهيكل في قانونهم انه لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراکز عديدة في لبنان (٢)

وما لا يترك شبهة في الامر خبر رواء صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت عن

(١) راجع معجم الكتاب المقدم في باب الاسد

(٢) راجع G. Schnürrer: Die ursprüngliche Templerrögel, p. ١46, n° 46

بعض امراء العرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية عرمون الداخلة اليوم في مديرية الغرب الاقصى من عمل الشوف. قال ما حرقه (ص ١١٣ من طبعتنا) :
« ومن جملة مكابدهم معه (١) ان احدهم رأى اسداً قد تطرّق ارب بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال له ان دُباً مجاوراً للمكان الفلاني (يريد مكان الاسد . وكان توجّه بالدب عن الاسد غروراً بزین الدين وطعماً ان يحدث له الاسد حادثاً) فتوجّه زين الدين ليلاً الى المكان الذي قيل له منه ولم يصحب معه احداً ومعه قوسه فكمن هناك فلما مرّ به الاسد علم انه مغرور بالقول الذي قيل له ورى الاسد بسهم واحد معتمداً على بيت القلب فصات الاسد منه . وعاد زين الدين الى منزله وعند الصبح ارسل الى من اخبره انه دب يقول له : اذهب واثتر بالدب الذي قلت عنه فانه مقتول بالمكان الذي ذكرته . قال ذلك متعكّماً »

وهذه بيّنة واضحة تدلّ على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقلّ بعض الافراد منها . وانما توارت الليوث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير
امّا الاسد السوري فكان جنسه قائماً بذاته وكان اصغر قامة من اسد افريقية واصله منه قوّة وكانت لبدته صهباء يخالطها شعر ارم (٢) وهو كالنوع الفارسي (leo persicus)

✱

قال حضرة الاب زموفن (٣) : ليس لفيلينية انهار وسهول كافية لمراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (pachydermes) ومن ثم لا يُتَنظَر وجود هياكل حيوانات خروطيّة قديمة . لكنّ الكتّاب عينه قد اردف هذه الاسطر بقوله انه وجدت في الكهوف السابقة اطوار التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدن (rhinocéros) الذي يجانس نوعاً آخر قديماً يدعى تيكورينوس (tichorhinus) كان يرافق جبار الحيوانات المعروف بالتموث
وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع ص ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٨) اثبتنا

(١) يريد بني ابي الجيش الممادين لزين الدين بن علي امير العرب
(٢) طالع , *Hebraeische Archeologie*, 78 ; *Dictionnaire de la Bible*, art. Lion
(٣) راجع كتابه , *Esquisse géologique*, 65

بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدل بها على وفرة المياه الجارية سابقاً من عيون لبنان وانهارها. وكان ينتج عن هذه المياه المجرة تساعداً على نمو المزارع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها

وجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحت ريب تُقرّر صحته الدروس الشرقية. روى المسيو مسيرو في تاريخ الشعوب الشرقية القديمة (ك ٢ ص ٢٦٥) ان الفروعون نحوتمس الثالث لما عاد ظافراً من ضفة الفرات نزل في نّي (Nii) التي نظنها افامية الموافقة لقلعة للضيق حيث تستمتع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب. وكان هناك فيلة عديدة فاراد الفروعون ان يلتهم بصيدها فوكل الى جنوده بان يحدقوا بالسهل لئلا تغفل الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلاً نقل عاجها الى مصر (١) فكفى بهذا العدد دليلاً على وفرة ذوي الخرطوم في سورية

ثم ان في الآثار الاشورية ما يزيد على هذا دليلاً. قيل ان العاج كان من جملة الجزية التي اداها الملوك نينوى اهل بيت عديني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلدي. اما موقع هذين البلدين فانه كان في شمالي سورية في ما يوافق حالاً ولاية حلب. وكذلك يفتخر المملكان الاشوريان تغلات فلاسر الاول واشور بانيبال بانها قتلا في تلك الجهات عدداً عديداً من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلها الى حاضرة مأكها وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهمة وحشية في بلاد سورية (٢)

اما داخل لبنان فليس لدينا شهادة جلية على كيان الفيلة فيه اللهم الا بعض الاسماء كسن الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضيفة في بلاد الشقيف لكن اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحه على غير طريقة. وعلى كل حال لما كان وادي «ني» اي افامية السابق ذكره ملاصقاً للبنان يمكن القول بان فيلته كانت تصعد الى رأس العاصي في البقاع. فانه لمعلوم ان الفيل الوحشي يقطع المسافات البعيدة انتجاعاً الحراعي. وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد افامية. وكانت السهول المتوسطة بين لبنان والجليل الشرقي يتغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيها

(١) راجع ايضاً تاريخ مسيرو في (الصفحة ١٨) ومعجم الكتاب المقدس في مادة «فيل»

(٢) راجع كتاب حضرة الاب ديلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les

المروج الحصبة . ولا شك أن بعض هذه الحيوانات كانت تتردد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المنبعة قريباً من هرمل فكانت تتوغل في الغابات الكثيفة النامية في منطف لبنان الشرقي لا سيما عندما اخذ عدد السكّان ينمو في وادي العاصي فاضطرت الفيلة ان تهرب وتطلب لها مأوي هادئة امينة

اما منطف لبنان الغربي فلتوفر سكّانه كانت احواله قليلة المناسبة لمعاش هذه الحيوانات المحبة للعزلة الا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقية الكبرى كطرابلس وبيروت وصيدا اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيادين . فلا بأس ان يقال ان الفيلة كانت تطوف وتتنذر غابات لبنان الساحلية قريباً من الاسود والدببة وان بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعت وادي النهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وترح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفق في السهول القريبة من مصبها وتخصبها بمئةعامتها . بيد ان غو السكّان لم يلبث ان يلجئها الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامنة الموفرة في شمالي سورية او بلادها المتوسطة

ثم زادت عليها المخاطر في تلك الاقفار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتس الثالث ومنه يستنتج ان الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام . واذا تصفحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نجد نجد ذكراً للفيلة الوحشية . واعلمها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعده وهناك كان يتصيد ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما أولعوا بصيد اسود لبنان وفقاً للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريس

وتما وُجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تعيده الملك الاشوري تغلات فلاسر الاول في القرن السابق لعهد داود (١) كما ورد في الكتابات المسمارية . ووجوده في لبنان مقرر ثابت . لانه لا احد ينكر وجوده في بقية جهات سورية وعيشته بين احراج لبنان انسب لطباعه

ان وجود حيوانات كبيرة كالاسد والفيل في لبنان كان من شأنه ان يجعل لغاباته

هيئة غير مألوفة ولا مأنوسة ومن ثم نفهم لماذا كان يشمل الرعب عند قطعها قدماء المصريين الذين كان يسوقهم الدهر او طلب الارتاق الى المروء بها . فكان الرجل من وادي النيل أليف الأماكن المنبسطة والمناظر المنكشفة في بلاده اذا قصد الاقطار الشامية يوصي بماله لاهليه لحرفه من السباع (١) فلم تكن سورية في عيئه سوى غابة سوداء اجتمعت بها افواجا وزرافات اصناف الحيوان الضارية كالاسد والنمر والفيل واشباهها

*

ولم يكن مشهد الحيوان في مياه الانهر والبحيرات باضعف حركة منها في الصحراء والجبال فكان يلعب فيها فرس الماء ويعبث التمساح وقد وُصف ذلك في سفر ايوب وصفاً بديعاً فائضاً في الشعر بالغاً في التأثير فنهنا بهموت ولويانان في نص المؤلف الالهي (٢) وقد ارتأى قوم من مفسري الكتاب المقدس ان واضع سفر ايوب اخذ معلوماته عن مصادر مصرية في وصف هذه الحيوانات المشتركة العيشة بين البر والماء . واما نحن فعندنا وجه اسهل لحل هذه المسألة فلم يكن من حاجة لأيوب ان يتعد عن سورية لوصفها اذ كانت هذه الحيوانات موجودة فيها منذ ذلك الحين البعيد العهد

واعلم ان وادي الاردن من غريب ما شوهد على سطح الكرة بوضعه الطبيعي وتركيبه الجغرافي بحيث يتمثل العين انخفاض يبلغ عمقه عند منتهاه (عند بحر لوط) زهاء ٤٠٠ متر دون البحر المتوسط ففي هذا الغور الذي لا مثيل له في الدنيا يسود حر شديد ابتداءه في اوائل ايار فيتراوح وقتئذ ميزان الحرارة في النهار بين ٤٠ و ٥٠ درجة من ميزان ستيفراد وينشأ في تربة ذلك الوادي الحارة نبات اشبه بنبات خط الاستواء في افريقية لا يشبه نبات سورية وفلسطين بشي .

فعلى شواطئ بحيرة الحولة تنمو طاقات البردي الحضره حتى يومنا والبردي نبات كان قديماً زينة مصر ومجدها ولا يرى منه الان في كل وادي النيل اللهم الا في بلاد السودان الجنوبية . واي عجب اذا وجدنا بارض تشبه ارض افريقية بتربتها الحارة

(١) راجع Maspéro : *Histoire ancienne*, II, ١٧

(٢) سفر ايوب (ف ٤٠ و ٤٢)

ونباتها الخاص ما نجده من الحيوان في قارة افريقية . وهذا ما كان بلا ريب في عهد ايوب فتمتخيل عهدئذ بحيرة الحولة تحرك مياهها التماسيح والافراس النهرية وهي ترح بين غياض البردي فايوب حسب التقاليد قطن حوران وتسكن ناحية جولان فلا غرو اذا ما شاهد من اعالي شرفات هذا النجد المطل على الحولة والاردن حيوانات البر والبحر العظيمة ووقف على احوالها دون ان ينحدر الى مصر . على ان فرس الماء في الوقت الحاضر قد خلت منه نواحي الشام ولم يزل فيها التماسح وهالك البرهان :

ذكر بطليموس وبلين واسطرابون مدينة بجانب الكرمل اسمها مدينة التماسح (Crocodilopolis) (١) وقد اتى باين (٢) فوق ذلك على ذكر نهر بهذا الاسم في تلك الحدود وهذا النهر العميق الماء الحامد الحركة يُظن به عموماً انه نهر الزرقاء المجاور قيصرية شمالي هذه المدينة وهناك يتكوّن منه مستنقع غريب المنظر ويدعى حتى اليوم باسم يعبر عن حقيقة حاله اي مستنقع التماسح وعلى حافته تنمو بكثرة غياض البردي وغيره من الشجيرات فاسم المدينة واسم النهر يسوّغان لنا ان نحكم بوجود تلك الزخافات فيهما في غابر الزمن على الاقل فضلاً عما لدينا من الشهادات الجمة قديمة وحديثة تبين نفس الشيء باستفاضة لا تبقي في العقل شكاً . . .

ففي الجبل الحادي عشر ذكر الجوّالة الفارسي نعري خسرو جنوبي الكرمل وادي التماسيح (٣) . وشهد على مثل ذلك في الجبلين الثالث عشر والرابع عشر مارين سانوتو وباك دي فيتري . فالثاني يقول : التماسح موجود في نهر قيصرية وهو يفترس الانسان والحيوان وطوله في الغالب قدر عشرين ذراعاً (٤) ولما تزل ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة عند نهر الزرقاء افترس التماسح اثنين من جنوده (٥) . ويقول برخارد الصهيوني المنتمي الى رهبنة مار عبد الاحد والذي تجوّل في سورية في اواخر الحيل الثالث عشر : ان التماسيح كثيرة في بحيرة قيصرية وانّه لم يفلت هو من شرّها الا باعجوبة

(١) راجع Strabon : Geogr. XVI

(٢) Plin. : Hist. natur. V, XVII

(٣) راجع الترجمة الفرنسية لشيفر (Schefer)

(٤) راجع Gesta Dei per Francos (ص ١١٠٣)

(٥) راجع Hstoire de la guerre sainte (éd. Paris) ص ٥٢٦

وقد قال قوائمه من بعده كثير غيره من زوّار الارض المقدّسة غير أنّنا لا نورد
اسماءهم لانهم رُوّاة يروون ما سمعوا وليسوا شهود عين يحكون ما نظروا اللهمّ ألا
يوكوك الانكليزي سنة ١٧٧٣

*

هذه شواهد الماضي وأما في الحاضر فلدينا اصرح الادلّة واصدق الشهود عن وجود
التمساح في الزرقاء بل وفي غيره من مياه فلسطين
فالاحاديث المقولة والاسانيد المروية عن نهر الزرقاء يبلغ عددها الى ما لا يحصى
ينتهي وأولهم المرسل الاميكني تومسون الذي كتب سنة ١٨٥٧ (١) ثم العلامة
بياروتي (Pierotti) مهندس ولاية القدس وقد عثر في سيره نحو منبع الزرقاء على
بقايا سلخ تمساح اخضها بقايا الرأس (٢) وفي سنة ١٨٧٧ قبض الالمانيون في حيفا
بالموضع نفسه على انثى التمساح (٣) وقد تعدّد مثل هذه الاكتشافات في السنين
الخمس والعشرين الاخيرة. وفي سنة ١٨٩٣ وجدوا فيه هيكل تمساح وست بيضات
فخشي الهيكل بالتين وأرسل الى القدس
وأما البيض فقُسمت واحدة منها وأُرسلت واحدة الى العلامة صموئيل ميريل
قنصل اميركة في اورشليم وُبعث بالأخر الى باريس (٤) فهذه الاكتشافات المتعددة تدلّ
على أنّ التمساح يعيش ويتناسل في بطاح نهر الزرقاء وغدرانهِ إلا انه ليس بكثير
التناسل لأنّ سطح الارض الذي تنغمره الاغدره لا يباغ عشرة هكتارات
وهذه الزخافات موجودة في غير اماكن من فلسطين ففي السهل الكثير الرمل
المدقع ذي الكثبان المتعددة الممتد بين حيفا وعكّا مصب نهر المقطع المعروف عند
الاقدمين باسم قيسون فهذا النهر تغزر مياهه عند آخر حدوده على مسافة ثلاثة الاف

(١) راجع The Land and the Book (ص ٤٩٧) . ثم ZDPV, XIII, 340

(٢) راجع مقالة التماسيح في فلسطين للاب دي سنت انيان (de St Aignan) ص ١٠

(٣) اطلب دليل يذكّر الطبعة الرابعة الالمانية (ص ٢٦٥) ولورته (Syrie d'aujourd'hui) ص ١٧٤

(٤) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية (P E F) سنة ١٨٩٣ (ص ١٨٣ و ٢٦٠)

عن البحر لأنه لا يصادف هناك الحداراً كافياً وتنتصب في وجهه الرمال المتكونة - مصبه فتحول الحواجز بينه وبين البحر فيستنقع السهل وتتسع مستنقعاته وينبت بها النباتات وتنمو فتتشبك سبلها ففي سنة ١٨٦٩ ارتاد الجوّالة الانكليزي مالك ييكور على زورق غدران نهر المقطع ومجره الاوطأ فطلع عليه بغتة من الماء تمساح اذ يقلب الزورق فاذهله ما اتفق له مما لم يكن في الحسبان فرفأ بقاربه الى الشاطئ صر عليه آثار تماسيح متعدّدة - وقد التقي مرة ثانية في تلك النواحي بهذا الحيوان ثل الذي لم يعد من سبيل للارتياح بوجوده في نهر المقطع (١) وحتى اليوم لم تكتشفوا على شيء منه في بحيرة الحولة ولا في بحيرة طبرية وفي حكمنا انه كان مهما قديماً ونزج وجوده في نهر الشريعة اليوم ومما يجعلنا على هذا الترجيح ما جاء في رحل الزوّار الاقدمين من القصص لاختبار عن نكبات بعض السواح معن ذهب بهم التماسح عند استجمامهم في ردن

وبعض حوادث اقرب عهداً تزيدنا في الامر صدقاً والى اليوم ليس من حادث اكتشاف في الاردن كما في الزرقاء والمقطع مما ينزه الحقيقة عن كل ريب وذلك سأتر عن عسر سبر الاردن في مجراه الاسفل (٢) ولعل التماسح موجود في النهر خضر جنوبي قيصارية كما وفي غيره من مياه تلك الناحية . وفي رأي العلامة لورته ي. فحص تمساحاً محشواً (مصبراً) ان تماسح فلسطين يختلف نوعاً عن تماسح يل (٣) ومن المقرر الثابت ان تماسيح فلسطين اصغر جداً ولا يزيد طولها على متر صف ولا بأس منها الا على المواشي فتفتك بها احياناً

*

وانما الصعب في هذا بيان طريق وصول هذه الزحافات الى الاقطار الشامية . ي اصابة ووطنية ام نقلت من خارج . فالرأي الاول قريب من الصحة على ما نرى

- (١) راجع كتاب « ماك كريكور » المعلنون (The Rob Roy on the Jordan, 398)
- (٢) راجع مقالة الاب دي سنت ايان (السابق ذكرها)
- (٣) راجع كتاب الدكتور لورته (Syrie d'aujourd'hui)

وهو رأي العلامة لورته الذي ينسب كون اصلها من مصر . فالواضع التي ثبت بها وجود هذا الحيوان في فلسطين تشبه مصر بنوع نباتها فان كانت الوردات واحوال الجو والهواء واحدة في القطرين فلم لا يتشابهان ايضاً بنوع الحيوان . فلا شيء اذن يحول دون وجود التماسيح بل كل شيء يدعو اليه . على ان بعض العلماء يستصوبون القول بنقل هذا الحيوان الى فلسطين ورأيهم ان المصريين نقلوه اليها . ونحن نعلم ان فلسطين كانت جيلاً طويلاً في حكم الفراعنة فلا يبعد ان يكون من اقام في هذه البلاد من المصريين قد احبوا جوار هذا الحيوان الذي هو من معبوداتهم فاستصوبوه

ومما نعلمه ايضاً ان رعمسيس الثالث بعث بالتلسيح وافراس الماء هدية الى تغلات فلاسر ملك اشور (١) وربما وصل التماسيح الى فلسطين لحادث نظير هذا وهما يكن من امر هذه التأويلات والايصاحات فقد تقرر لدينا وجود هذه الزخافات في كثير من مياه فلسطين الشمالية وكل شيء يحلمانا على التسليم بانها كانت اوفر عدداً في الازمنة العريقة في القدم وسواء كانت اصلية ام منقولة فقد توالدت وانتشرت على وجه القطر

ولا يصعب علينا القول انه في عهد ما كان الفيل محبوب احراج لبنان كان التماسيح يعث في مياه الجبل ومستنقعاته كالميطاني القريب من بحيرة الحولة والاردن وقد كان بلا ريب وافر العدد فيهما قديماً على عهد ايوب البار . انما غو العمران واتساع الزراعة وامتداد المساكن اصبحت بعد ذلك ضربة قاضية على وجودها في تلك النواحي الندية . ولم يكن للفينيقيين حاجة في عبادتها كالمصريين ولا بد انهم بذلوا المجهود في استئصال شافة تلك الجيرة المؤذية او في حملها على المهاجرة الى جهات اعرق في الجنوب حيث نجد منها بقايا في أيامنا

المعادن في لبنان

نقسم كلامنا في المعادن اللبنانية الى قسمين . فالتنا نبعث اولاً عن احوالها
الحاضرة ثم نستقري الشواهد التاريخية

١

حالة المعادن حاضراً

كلامنا في هذا القسم عن ثلاثة امور : اصناف الوقود ثم المناجم المعدنية ثم
الحجارة وانواعها

اولاً الوقود

١ فلنباشرن بالفحم الحجري الذي نال في علم المعادن واعمال الصناعة مقاماً
راجحاً لا يحتاج الى بيان . ان الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها
مجمعون بان سوربة خالية من الفحم الحجري (houille) ولا يخرج لبنان عن هذا
الحكم العمومي . على ان في هذا الجبل طبقات من القصة (grès) تتخزن
مستودعات عديدة من الفحم الحشبي المتحجر (lignite) غير كامل التحم لكنها
بلغت في نموها ما هو كاف لاستثمارها

وهذه الاخشاب المتحجرة على ضربين . فمنها ما تظهر فيه تقاطيع الحشب وهو
الحشب الحجري . ومنها ما استفهم الى ان فقد تماماً أثر النسيج النباتي . وهذا
الصنف الثاني يكون فحمه اسود كالقير لامعاً وقريباً من الفحم الحجري . واغلب
المناجم التي تُرى فيها هذه الاخشاب المنحجرة يتخرج فيها البيريت (pyrites)
الابيض (وهو مزيج الكبريت بالحديد) مع الصلصال ويصعب فصلها عنه وهما
يجملان هذا الوقود غير صالح لاعمال الصناعة . وزد على ذلك ان فحمها اذا تكتف
للوهاء لا يلبث ان يتفتت وتعلوه قشرة من عنصر الشب . ومستودعات هذا

الحشب المتحجر في الجبل هي في الغالب قليلة الاتساع لا يتجاوز عمقها مترين . أما مواقعها في لبنان فدونك ما يستحق منها الذكر مباشرة بنواحي الجبل الشمالية شاع ان في قائمات البترون قريباً من بشرأي منجماً من المستحجرات الحشبية . وليس لدينا شيء من الاعلام الدقيقة في هذا الخصوص فنكتفي بالإشارة . أما جهات لبنان الجنوبية فعندنا من الايضاحات ما هو اوفى بالمرام فان في المقاطعة الكسروانية في قرطبة وميروبا والمنيطرة مناجم متعددة من الحجر الحشبي كان يهتم باستخراجها اصحاب المعامل الحريية ولعلهم يستثمرونها حتى اليوم . أما منجم ميروبا فلولا بعده عن المراكز الكبرى لصلح للحاجات البيئية وناب مناب ضروب الوقود

واشهر طبقات الفحم الحشبي المتحجر في قرنايل من مقاطعة المتن وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ تكن قيمة هذا الفحم كانت ارفع من فحم انكاثرة بعد نقله الى بيروت . وكانت علّة هذه الاسعار الفاحشة قلّة وجود اسباب المواصلات فيحتاج الى الدواب لنقل ما يُستخرج من المناجم . ولولا هذه الصعوبة لاضحى هذا العمل رابحاً لأن اربعين معدناً فقط كانوا يستخرجون من هذا المنجم مئة قطار في اليوم . والفحم جيد رغماً عن انقطاع طبقاته وتجدداتها . وهذا المنجم قليل السعة وسكته لا يتجاوز متراً

وفي المتن الاعلى مناجم فحمية أخرى متعددة يستفيد من بعضها ارباب المعامل الحريية المجاورة . منها منجم مار يوحنا الا ان اختلاط فحمه بالكبريت والحديد يصد عن استعماله . وفي فالوغا منجم آخر يوجد فيه جذور شجر تحولت الى هذه العناصر الغريبة فاذا انكشفت للهواء صارت فتاتاً بعد قليل . وفي بزبدین منجم ثالث ليس بذي شأن

وهذه المناجم الفحمية يصعب استثمارها لقلة اسباب المواصلات ولبعدها عن المراكز الكبيرة فضلاً عن كونها قليلة العمق ضيقة النطاق تكثر فيها المواد الغريبة التي لا يمكن إفرازها الا بعد النفقات الباهظة . فهذه العوائق كلها تقوم في وجه العمل وتزيد في صعوبته وتقلل ارباحه المأمولة

وخلاصة القول ان طبقات الفحم المتحجر السابق وصفها لا يمكن تعدينها وانما

يجوز استخدامها للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيئية بشرط ان يُختار منها
أجودها وتُنقى تنقية حسنة من موادها الغريبة

*

وان اعتبرنا قائماية جزين وجدنا مناجمها الفحمية في حالة اصلح وان عدت
ايضا الوسائل الجامعة بينها وبين المراكز الكبرى حيث يمكن بيعها . نعم ان صيداء
اقرب الى جزين من قرنايل الى بيروت ببعض كيلومترات لكن صيداء مركز قليل
الشان فتكون قطعيتها لهذا الفحم زهيدة

وهاك ما يُعرف من طبقات الفحم الخشبي المتحجر في قائماية جزين :

اذا خرجت من صيداء في وجهة الجبل رأيت بازانك على حدود الافق من جهة
الشرق جبلين تنتصب قتهما على شبه المخروط مع استدارة قليلة كان ارباب البحر
لغرابة شكلهما يستدلون بهما الى موقع صيداء قبل شيوع السفن البخارية . والقمتان
قريبتان لا يفصل بينهما الا مهبط قليل العمق فدعيتا لهذا السبب بتومات نيحا او
بالتومات . وكان الاولى بان تدعى بتومات جزين لوقوع جزين عند سفحها . فان
غلب اسم نيحا فذلك على رأينا دليل على خطر قرية نيحا قديماً . ومن زار هذه
القرية تحققت صحة هذا القول لاسيما اذا رأى على مقربة منها تلك القلعة المنقورة في
الصخر الشهيرة بشقيف طيرون او بقلعة نيحا وقد سبق لنا وصفها (١)

ويتشعب من تومات نيحا غرباً من جهة البحر شعب تُرى فوقها جنوبي جزين
مناجم من مستحجرات الفحم الخشبي زيد هنا وصفها . ولا يخرج من دائرة الجبل
الغربي سوى منجم واحد يُرى على وجه الارض طوله ٥٠٠ متر وارتفاعه ٨٠٠ م بين
قريتي مشعرة ونيحا اعني في منجدر تومات نيحا الشرقي

فان اعتبرنا اذن المنعطف البحري وجدنا موقع اول منجم فحمي على مسافة ١٣
كيلومتراً فقط من صيداء . وفحمه شديد الحلاكة لامع ذو قطع جامدة يكسر كسراً
ولا يتفتت وهو على وجه الارض يعاينه الناظر في وادٍ صغير قرب المراح في علو يختلف
بين ٧٥٠ الى ٨٠٠ م وهو يتصل بعين الثغرا فوق الوادي الى حد ٩٠٠ متر . وان سرت

من ثم إلى جهة الجنوب امكنك ان تتبع آثاره متواصلةً بين قريتي خرنيا وزحلما على طول ١٢٠٠ متر وهناك لا يعود يُرى على وجه الارض غير ان الصاصل المختلط بمواد فحمية وشستية (schiste) يدل على وجوده في مسافة نحو كيلومتر . وفي بعض الانحاء قد استخراج منه الاهاون بعض القناطير ولم يحفروا في عمق يتجاوز سبعة امتار . اما سمك هذه المناجم فيتراوح بين ٥٠ سنتيمتراً و ١,٦٠ . وهذا ممّا يدل على قلتها وعلى مسافة نحو ٣٠٠ متر شمالاً من عين الثغرا حجارة من الشست حصرية تمتد بين طبقتين من الحجارة الكلسية وتحتهما طبقة من الفحم الحشبي المتحجر . سمكها يختلف بين ٢٠ سنتيمتراً الى ثلاثة امتار ونصف وامتدادها يبلغ زهاء الف متر وكذلك قرب الطريق المؤدية من حيطورة الى جزين طبقات أخرى من الشست المزوج بالحمر يراها الراي على طول امتدادها تقريباً ثم تتوارى تحت قرية زحلما وعمقها في بعض المواقع يبلغ من اربعة الى خمسة امتار . ومعدل ثخانتها اربعة امتار واستخراجها لا يستدعي شغلاً كبيراً . وهذا المنجم لا يغطيه سوى غشاء خفيف من التراب ويمكن تعدينه من الخارج دون فتح اسراب . وصلاحيته في الغالب استخراج غاز التنوير منه

من المقرر ان اهم مستودعات الفحم الحشبي المتحجر في قائمقامية جزين واقع جنوبي غربي حيطورة على مسافة عشرين دقيقة منها وصاحب امتياز المنجم سعادة المركز موسى دي فريج ومسافة ارض الامتياز زهاء مائتي هكتار فمن التفاصيل التي نوردتها وابجائنا السابقة تعرف ما يمكن استثماره من مستحجرات لبنان الخشبية . فالمنجم القريب من حيطورة لا تظهر آثاره على وجه الارض الا في بعض الانحاء . ومستودع الفحم محصور فيه عادةً بين طبقتين من صلصال صلب خشن قليل السمك ويختلف سمكه بين ٦٠ سنتيمتراً وثلاثة امتار فيلزم قبل تعدينه إزالة ربع التربة او ثلثها لاحتوائها على مواد غريبة غير صالحة كتقاطيع الشست الاسود الصلصالي المزوج بالحديد والمحتوي على قليل من الفحم

وبعد هذا العمل الاستعدادي يتوصل الى الفحم الحشبي الحقيقي وهذا الفحم يختلف نوع تركيبه فهو سريع العطب في بعض الانحاء فيتفتت بسهولة وفي غيرها حالك لامع كيف وكلا النوعين من الوقود الجيد

أما طبقة الناحية الغربية فانها تتخذ خواص البيريت لقرنها من مستودعات هذا المعدن وفحمها محطط بتقاطيع البيريت الذي يبلغ سمكه بعض مليمترات ولهذا السبب لا بد من تنقيته تنقية حسنة وأطراح كمية وافرة منه مع انه من نوع الوقود الجيد - فكل ما اوردها يستلزم زيادة النفقة في استخراجها

ومما يلزم تلافيه في هذه الناحية تطاير روح الزاج المتكاثر والسبب عن ضغط طبقات الردم المعرضة لحرارة الشمس الا انه يمكن ملافاة الامر ذلك بتشديد الاتاتين في معامل التعدين

على ان مناجم حيطورة بل اكثر مستودعات الفحم الخشبي المتحجر في لبنان تتضمن شيئاً من العنبر المعدني الذي يتولد من صمغ الصنوبر والسرو واشباهها . فهذا العنبر اصفر كالشمس لامع ومكسره زجاجي شفاف واذا تكشفت كسره للهواء تفتتت

أما طرق استثمارها فالطريقة المستعملة الى اليوم في منجم حيطورة هي الحفيرة ولا بد من فتح اسراب معها فهذه الطريقة تمكن مع بعض ضربات في اللغم من البلوغ الى عمق امتار وفي استعمالها ربح لان نفقة الاستخراج لا تتجاوز فرنكاً و ٥٠ س في الطن ولولا ارتفاع اجرة النقل لكانت زيادة التعميق في الحفر تزيد في الربح

غير ان المنجم في الجملة يسهل طرق الاستثمار بواسطة الاسراب او الدهاليز فالمعدن بالاجمال قليل الانحاء فتصب منه المياه اذ ذاك في الدهاليز وهذه تصبها في المسيل المجاور ولا يحتاج لتجديد الهواء وجلبه الى القوآت المحركة وبما ان ليس فيه من الصخور الصماء الصلدة فلا حاجة الى استعمال قوة خارقة كالديناميت . فبعض دفعات من البارود في اللغم تكفي لرفع الطبقة الحزفية الموجود فيها الفحم المطلوب ولا يلزم لهذا الفحم الا استعمال الآلات المعتادة كالحفر والمول فلا يقتضي اذن لهذا العمل نقابون مخصوصون وكل هذا مما يخفف النفقة في استخراجها

*

فبقي علينا ان نبث عن المحصول . فبحساب بسيط يمكننا ان نقدر بالتقريب مقدار المنجم جملة اعني مقدار المحصول الصالح للوقود الممكن الانتفاع منه مباشرة وهذا امر ذو اهمية كبرى وبدونه لا يكون لتفاصيلنا السابقة الا فائدة نظرية . فتحت

موقع المنجم مباشرةً ببعض امتار عن سطح الارض ترى طبقة بسمك ثلاثة امتار ونحن نكتفي بتعديل مترين ونزيد على ذلك بان نطرح مسترّاً آخر وهذا كثير — بسبب الكثيب القيم والفحم المزوج بالمواد الغريبة التي تقلل صلاحيته للاستعمال ومن بعد تنقية المستخرجات الحجرية وطرح العناصر الغريبة اذا قدرنا مساحة المنجم الصالح للمعدن ١٠٠ متر فقط يمكن استخراج حجم من الفحم قدره ١,٠٠٣,٩١٦ مترًا مكعبً والحال قد شوهد في العمل ان المتر المكعب من الفحم الخشبي المتحجر وزنه زهاء الطن فتكون كامل الكمية بوزن ١,٠٠٣,٩١٦ طنًا فلو فرضنا استخلاص ١٠,٠٠٠ طن في السنة فيدوم عمل التعدين ٨٠٠ سنة

فاذا كان الى الان لم يُبذل الجهد في استخراج منجم حيطورة مع وجود الظروف الموافقة فسبب ذلك بلا شك العوائق التي اتينا على ذكرها مراراً والتي تحول زماناً طويلاً دون الانتفاع من كنوز لبنان المعدنية التي على قلّتها لا يسوغ لنا ان نستخف بها وزد على ما ذكرنا المباراة الاجنبية التي يبقى اثرها الى احيال عديدة فيلزم ان نضيف الى مناجم اوربة والعالم الجديد التي كانت دائماً وتبقى زماناً طويلاً في الاستعمال مناجم الفحم الحجري الصينية التي لم تُعدن لحد الآن وهي وحدها تكفي وقوداً للعالم بأسره مدّة الوف من الدهور وفي الممالك المحروسة سيما في برّ الاناضول (١) مناجم حسنة لا بدّ من استثمارها مع اكتشاف غيرها من المستودعات المرجّح وجودها (٢)

فلو فرضنا انّ الفحم اللبناني يعادل بجودته الفحم الانكليزي وفحم هيرقله العثماني فانه يقتصر عنهما بالرواج في السوق السوري . فمناجم هيرقله وبلاد الغال يجديها قربها من البحر فائدة كبرى فانها تُنقل تواءً من المنجم الى مراكز الشحن ولا يجهل احدٌ رخص اجرة النقل في البحر (٣) فمن هيرقله ومن كديف (انكلترة) الى بيروت

(١) قد اكتشفوا في بلحكة على مناجم فحم حجري عظيمة وقد حسب دخلها لالوف من

(السنين ٢) راجع كتاب (Verney et Dallmann) والمشرق ١٩٠٢ ص ٧٧٢

(٣) وحقيقة ذلك تظهر بثل نورد — فطريقة اتصال الخنطة من روسية الى سويسرة على وجهين الاول على طريق مرسلها او جنوا ومنها بالسكة الحديدية والثاني على طريق انقرس او روتردام ومنها بالنهر . فباطريق البحري وهو اطول من طريق البر بثلاثة اضعاف يبلغ الاقتصاد نحو خمسين فرنكاً في كل عجلة من القطار فهاك السنة للتبوعة في التجارة الحاضرة : أكثر ما يمكن على طريق البحر واقل ما يمكن على طريق البر

لا تزيد نفقات النقل على نفقات الفحم المنقول إليها من داخل لبنان على متن البغال والجمال . فتأمل

٢ الحُمر

يُستدلّ عند أول وهلة على أن هذا المعدن كثيرٌ في لبنان . ففي الشرق والجنوب تحيط بالجبل اراضٍ يُشاهد فيها الحُمر بكثرة ففي بلاد بشارة يُرى الحمر في عينبل وحرقة وفي غير مواضع من قائمقامية صور . غير أن أشهر مستودعات الحُمر في قضاء مرجعيون واغناها منجم حاصبيّا الذي هو من املاك الحضرة السلطانية . وكفاه وصفاً أن يُقال أنه قد كان يُستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل منها ١٠٠ كيلو فمع ذلك ليس لبنان على شيء من غنى الاقضية المجاورة له ولا نعرف في الجبل الاً منجماً واحداً وهو منجم مليمخ في قائمقامية جزين غير أنه قليل المائدة . ولذلك عدلوا عنه بعد أن باشروا باستثماره لقلّة دخله لان نفقات الاستخراج باهظة والمحصول طفيف لذلك لا سبيل للمباراة مع منجم حاصبيّا . أمّا في قضاء البترون فآثار الحمر دون ذلك فلا يُعتدّ بها ولا نتيجة لها ترغب باستثمارها . أمّا غير ما ذكر من اصناف الوقود المعدنية كالبترول فلا اثر له في تربة لبنان

*

ثانياً المواد والمناجم المعدنية

ليس للبحث في هذا الموضوع مجالٌ واسع وما نوردّه في هذا الفصل دون ما قدّمناه في فصل الوقود

فلنباشرنّ بالحديد ولولا مخافة الالتباس لسمّيناهُ سيّد المعادن بدلاً من الذهب الذي خُصّ بهذه التسمية على غير حق . نعم ان الحديد من حيث اللمعان الظاهر والقيمة المجردة اقلّ قدرًا من بقية المعادن كالذهب والفضة والنحاس والزئبق وغيرها لكنه أكثر منها انتشاراً في الكون واعظم منها فائدة للإنسانية ولا يضاهيه في ذلك الاً الفحم الحجري الذي يشبهه بسواد لونه وقلة نصارته

ولقد يتبادر الى الذهن ان اغنى البلاد مالا واوسعها تجاراً واقدرها صناعةً هي

البلاد التي توفرت فيها معادن الذهب ومناجم الألماس والصحيح ان اغنى بلاد الله هي ما كثرت فيها معادن الحديد ومناجم الفحم الحجري فالمعادن الثمينة انما ينتفع منها بعض الخاصة المنعم بها عليهم فتفيدهم زهواً وتزيدهم لهواً وان توارت عن وجه المعمور فلا يلتحق بالانسان ضررٌ كبيرٌ بل يتخلص من اكبر مُهَيِّج للاهواء البشرية . امّا فقد الحديد فيحدث في الهيئة الاجتماعية اضطراباً شديداً وفي اعمال الصناعة اختلالاً عظيماً ويكفي لاثبات ذلك ان الزراعة التي هي اهم الحرف واوجب الصناعات لا قيام لها بدونه

فان كان حقُّ التقدّم لمستحقّيه بما يؤدّون من الخدم الجليلة فليس بين المعادن من يستحقُّ التقدّم والسيادة نظير الحديد

ولقد اعتاد شعراء اليونان واللاتين الاقدمين ان يختصروا تاريخ العالم ويقسمونه الى ثلاثة اطوار ملتهين كلٌّ طور باسم معدن فيدعون الاول والاقدم بالعصر الذهبي والثاني بالفضي والثالث بالحديدي فلم يؤيد الاختبار تمام التأييد اعتقاد الشعراء ولا حقّق التاريخ امانئهم لاسترسالهم الى مخيلتهم الساعية وراء الصور اللامعة والتشابه الساطعة غير مبالين بتطبيقها تطبيقاً كاملاً على الحقيقة الراهنة

على اننا لو نظرنا الى استعمال الحديد المتعدّد ونفوّه المتواصل الى حدّ انه كاد يقوم مقام كثير من المواد كالخشب والحجر لتجرّأنا ان نسمي عصرنا العصر الحديدي ومن هذا الوجه يكون قد سبق الشعراء فعرفوا المستقبل وهم لا يدرون . لكنّهم لم يدركوا ان الحديد يعيش مع التمدّن قدماً على قدم ويسير كثفاً لكثف مع النجاح الذي لا يكون بسواه . وما لا يُنكر ان اكثر الاشياء استعمالاً واعظمها نجاحاً الحديد والورق فالورق وهو ارقّ الاشياء والحديد وهو اصلبها كانا العاملين العظيمين المساعدين على التقدّم والنجاح ادبياً ومادياً — نعي النجاح بالنسبة والتقييد لا على الاطلاق نريد النجاح الذي احتجّ عليه الشعراء الاقدمون كما يفعل اليوم اصحاب الفنون الجميلة وطالبو الحسن المعقول . ثمّ ان للحديد شهباً بالعصر العملي الذي بنا به نموّه الغريب اي كثرة الفوائد على قلّة المحاسن . فحيثما اعتدى الحديد على الخشب والحجر وحرّهما حقّهما ما امكنه ان يقوم مقامهما في مقامات الفنون الجميلة فهو الخادم الذي لا بُدّ منه وان قلّت ظرافته بازاء الجاذب الغتّان وهو انما يُحبّ لغائده لا لملاحته

على ان في عصرنا الحاضر لا يحل شيء محل الفائدة . فحب الانتفاع عمل على انتشار الحديد وغو الصناعة والتجارة وهذان الفرعان قد اصبحا من اعظم العوامل في انفاذ الحديد . فن قبل مائة سنة لم تكن المراكب والآلات والسكك الحديدية ولوازم الطوبجية فان كل هذه لم يكن يُعتدُّ بها بالنسبة الى العصر الحاضر ثم اصبحت آخر الزراعة وصناعة البناء من اعظم « أكلة » هذا المعدن . وقصارى الكلام انه ليس علينا ان نعدّد حاجتنا الى الحديد من ان نبين الحد الذي تقف عنده تلك الحاجات . فهذه التفاصيل توضح لنا على الاقل عظم شأنه فترى اننا لم نُعْرِها التفاتنا عبثاً

*

امّا معدن الحديد فهو لحسن الحظ كثير في قَضُص لبنان وأثر بته ويشاهد في طبقات تتركب من حبات متازجة كبيض السمك أو كالحمدس او الحمص المتحجر . وقد يُرى احياناً مختلطاً ومحصوراً في كتل كلسية ملبدة او في مواد معدنية معروفة باسم سپاث (Spath) . وهذه المواد غنية بمعدنها غزيرة (١) لأن كمية الحديد فيها من ٥٠ الى ٦٠ بالمائة ومن هذا الوجه لا يدانيه الا معدن « مقطع الحديد » في جزائر الغرب اذ تصل كمية الحديد فيه الى ٦٥ بالمائة

وهذا المعدن . ينتشر في اكثر انحاء لبنان وعلى سطح الجبال وفي بطن الوديان سيما في اقضية البترون وكسروان والمثن وقد استثمر منذ الازمنة الغريقة في القدم كما ثبته فيما بعد وكما يلوح من عرم الحَبَثِ والفَسالة المنتثرة في كثير من انحاء الجبل . ونخص بالذكر جهات عكار ودوما وبيت شباب والمشغرة والفرزل وادية المجاري النهرية مثل نهر الكلب ونهر ابراهيم . فمن هذه المعادن كانت تؤخذ مواد المسابك والمعامل الحديدية المقامة في تلك الانحاء ولبثت هذه المعامل مستعملة الى اوائل العصر المنصرم وحمّا يزيد اهمية المعادن اللبنانية فضلاً عن غزارتها وغنائها جودة مادتها فانها تعطي اجود الحديد الذي يُتخذ منه افضل الفولاذ واصلحه لادق الاعمال وارقتها كالآلات والمدافع وتصفيح المراكب وقد اشتهر حديد لبنان بلدونته وروثه ولا يبعد ان منه كانت تعمل اسلحة دمشق الطائفة الشهرة كالسيوف الشامية التي طالما

(١) ان معدن الحديد يُعتبر غنياً اذا كانت كمية الحديد فيه تتجاوز ٥٠ في المائة

أُغرم بها العارفون واثني عليها المولعون وقد فُقد اليوم سرّ اصطناعها . ولما دخل الحديد الغريب الى لبنان في الجبل الماضي كانت الافضلية للحديد اللبناني في عمل أنعال الدواب وصناعة المسامير وما شاكل ذلك

على ان معادن لبنان مع غزارة مادّتها وجودتها لا تُجدي نفعاً معتبراً لثقل الذرائع في استثمارها اذ ليس من وقود لتشغيل المسابك وقد مرّ بك آنفاً ان لا وجود للفحم الحجري في لبنان غير أنّه يمكن الاستعاضة عنه بالخشب كما كانوا يصنعون قديماً وذلك كان من اعظم البواعث على اتلاف الاجراج في لبنان وهالك بيمانه :

فقدماً وقبل اكتشاف الفحم الحجري كانت تُعالج معادن الحديد بالخطب في لبنان كما في اوربة . فانهم كانوا يوقدون الخطب في المواقد المعدة لتذويب الحديد وصيه . وبعد الحساب وجدوا انه يلزم مائة كيلو من الخطب للحصول على ١٧ كيلو من فحم الخطب ويجب احراق مائة كيلو من الفحم لسبك ٣٤ كيلو من الحديد وذلك كثايرة عن اتلاف ١٧٠٠ كيلو من الخطب لاستغلال ١٠٠ كيلو من الحديد . وكان المسبك الواحد يستغرق من الخطب ما تَعْلَهُ سنوياً مساحة ٢٠٠٠ هكتار من الاجراج (١) فعلى ذلك لم تكن لتكفي اوسع الاملاك . الا ان حركة المعامل كانت اذ ذاك خفيفة لان الحاجة الى الحديد لم تكن شيئاً بالنسبة الى العصر الحاضر فالكور القديم كان يصبّ من ١٠٠٠ الى ١,٥٠٠ كيلو يومياً امّا الان فانه يُسبك في اليوم زهاء ١٢٥,٠٠٠ كيلو وفي بعض المعامل ثمانية او تسعة اكوار . فاذا اتّضح ذلك ظهر جلياً الضرر الجسيم اللاحق بشجر لبنان والناجم عن مسابك الحديد القديمة وعرفت ان لا سبيل للانتفاع من معادن الجبل الحديدية على كثرتها ووفرة مادّتها

ولا سبيل ايضاً لصبّ هذه المعادن والاعتناء بها بنفقات قليلة الا باستحضار الذرائع الموجودة في اعظم البلاد الصناعية نظير انكلترة وبلجيكا . اعني بوجود مناجم فحم حجري قريباً من معادن الحديد وقد عرفت بما مرّ بك أن لا وجود لهذه المناجم في لبنان ولا يسدّ هذا الخلل استغلال الفحم الحجري من الخارج لما يستلزم من النفقات الباهظة

فعليه لا يستطيع لبنان مباداة البلاد الاجنبية في معادن الحديد مع سهولة استخراجها وجودة صفتها . لذلك نرى مسبك لبنان الوحيد في بيت شباب مضطراً الى استعمال الحديد الاجنبي . ولا مناص من هذا الاضطرار الا باستعمال المياه كقوة محرّكة في معالجة المعادن ولا يمكن ذلك الا حيث المعادن قريبة من مجاري المياه والينابيع القوية كما في وادي نهر الكلب وفي جوار ميروبا فهناك المعادن الجيدة ومما يزيد الاسف أنّ لبنان لا يمكن ان يستعاض عن استثمار الحديد باستخراج غيره من المعادن اذ لا وجود لها . فاننا لانتكلم عن الذهب والفضة اللذين ذكرهما بعض الكتبة من لا يتروون في الامور ولا يتقنون في المباحث فقد اكدوا وجودها في لبنان بجانب غيرهما من المعادن كالتحاس والتوتيا (١)

فلا حاجة لنا بنقض هذه المزاعم التي لا صحة لها ولا سند . ولقد تباهى غيرهم باكتشاف مناجم الزبيق في لبنان (٢) فازريق معدن ثمين (٣) واستثماره يعود على الجبل بفائدة عظيمة الا انّ هنا ايضاً تغلب الوهم على الحقيقة فبُهرت الاعين بدلائل وهمية كاذبة . فازريق المكتشف وُجد بكمية زهيدة في موضعين بجانب السكة الحديدية من بيروت الى الشام اعني في عين صوفر وعين مشرح فقد كان ذلك بلا ريب مرضع العامل القديمة ايام سد السكة وما الزبيق المكتشف الا كيميّات وقعت من آلات المهندسين . ولقد سمعنا باكتشاف معدن نحاس في المتن الاعلى فهذه الاكتشافات لا تستلفت الانظار لعدم كفاءة اصحابها فعليتنا ان ننتظر حكم رجال الخبرة وفحص المساطر . ونحن نتمنى ان يكون ذلك صحيحاً وليتنا نستطيع تكذيب الدكتور لورته (٤) القائل ان ليس في لبنان من المعادن ما يُعوّل عليه

*

ثالثاً الحجارة ولوازم البناء

ان الحجارة كثيرة في لبنان ويمكن استثمارها طويلاً ونقلها الى البلاد الاجنبية

(١) راجع كتاب فضل الله فارس الى حلقه : جغرافية سوريا وفلسطين (ص ٢٢١)

(٢) راجع الرسالة المبعوثة الى البشير (في ٢٣ ايلول سنة ١٩٠١)

(٣) راجع المشرق (٥ : ٨٨٧-٨٩١)

(٤) راجع كتاب - الدول الاجنبية - المقدمة ص ١٩

ولقد تأخذ الدهشة الغريب اذ يطوف لبنان ويسرّح نظره في حجارة ابنتيه فهذه الحجارة الجميلة سواء كانت منحوتة او غير منحوتة تجمل لأبسط المساكن هيئة جليلة لا يألفها السائح الا في قصور وطنه . فباعثنا قليل يستحكم البناء ويحصل له هيئة صلابة ومكانة تزدري بمرور الاجيال . ولحسن الحظ ليست الصلابة بالظاهر فقط بل بالحقيقة ايضا فقلما نرى على سطح المعمر بلداً فيه ما في لبنان من لوازم البناء بكثرتها وحسنها وصلابتها . فلا طاقة للرطوبة ولعوامل الجو الاخرى على إتلافها . فهذه الحجارة الكلاسيكية لها تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ايضاً كامد وقد يتحوّل على مرور الزمان بفعل اشعة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبية أما في منحدرات الجبل السفلى وعلى الشواطىء البحرية فتكثر مقالع الحجارة الرملية وهذا الصنف لونه اصفر وحجره جيد صالح للبنان وكل المحلّات العامرة والاماكن الآهلة بالسكان من صور الى طرابلس مبنية بحجره . ومن خواصه انه سريع التفتت سهل النحت لى خروجه من المقلع فيتصلّب في الهواء ويصلح للملاط اكثر من الحجارة الكلاسيكية الجميلة المقتلعة داخل الجبل

والحجر الرومي مثقوب غالباً بثقب طويلة اسطوانية ضيقة على شكل لولب كانها صنع المخرز وربما كان ذلك من قرض الهوام الحجرية (١) مدّة الاطوار الاولى الجيولوجية . وقد فات هذا الشرح فهم رينان فذهب فيه مذهباً غريباً فان اكثر مدافن جبيل محفورة في هذا الحجر ففيمما كان رينان يفحصها شاهد ثقوباً اسطوانية في قبة القبور القديمة فتوهم تعليلاً لوجودها أن الاقدمين كانوا يلجأون قبل حفر المدافن الى سبر الحجر لقصد امتحانه (٢)

على انه ليس بوسعنا ان نعدّد بالتفاصيل كلّ ما في لبنان من مواد البناء على وفرة اصنافها ولا يسعنا الا ان نذكر انواع الحجارة الجميلة المتنازة بكثافتها وصلابتها فانها تستعمل للاعمدة وللدرج وعتبات الابواب واسكفاتها الى غير ذلك من الاعمال المعتبرة كصيف المرافق اذ ان امتداد طرق العربات في لبنان يسهل نقلها الى البحر . ومن اصناف الحجر الجيد ما يستخرج من المقالع الموجودة في اسفل

(١) راجع Dawson : *Egypt and Syria*, 79

(٢) راجع الجزء الاول ص ٦٥ و ٦٦

قرنة شهوان وبيت مري بالقرب من دير مار روكس وفي غير مواضع وايناسرت من الجبل ترى من الحجارة الصالحة للتبليط والتلبس وحجارة لعمل الكلس والرحى أما البلور فهو كثير في لبنان . وبمعكس ذلك الرخام فهو نادر الوجود في الجبل وليس من الصنف الجيد اللهم اذا استثنينا بلاد الجبّة فإنّ فيها مقالع رخام صالحة للصقل والحلي الحسن ونذكر اننا شاهدنا امثلة منها في بعض بيوت اهدن القديمة وكذلك في الديان في الكرسي البطريركي الجديد . ومما يستحقّ الذكر مقالع الرخام الموجودة في جمهور ودير القلعة فرخامها ذو عروق حمراء (١) وفي دير القلعة ايضاً حجر صلب معتبر وفي تحوم في قضاء البترون وبعض انحاء البقاع مقالع حجرها صلب لونه ابيض يجعله الصقل لامعاً كالرخام ويؤخذ منه البلاط المصقول والاعمدة الصغيرة اللامعة (شععات) . أما الرخام الابيض الجميل من صنف رخام ايطالية والرخام السماقي وحجر الصوان فلا وجود لها في لبنان . وما يشاهد في المدن الفينيقية القديمة من اعمدة الصوان مثل جبيل الخاوية على عدد وافر منها فانها منقولة من مصر

على أنّ حجارة لبنان لم تكن تستعمل الى السنين الاخيرة إلا في محلاتها والمدن المجاورة نظير بيروت وقد راجت السوق فيها دواجاً عظيماً ومن بضعة سنوات باشرت مصر بأخذ لوازم البناء من لبنان لندرة الحجر فيها وقلة صلاحيته كما ان الامر جارٍ في مقالع لبنان القريبة من البحر مثل نهر الكلب والمعاملتين فإنّ المراكب تستطيع ان تصل اليها وتشحنها بأقل نفقة أمّا المقالع البعيدة فالوسيلة لنقل صادراتها ان تكون من الصنف الاعلى كـ مقالع قرنة شهوان ومار روكس ودير القلعة وغيرها فانها تُطلب الى البلاد الاجنبية وما من مانع يحول دون اتساع تجارتها اذ ان امتداد طرقات العربات في لبنان يسهل كثيراً طرائق ايصالها الى البحر . وقد أخذت شركة ترعة السويس على ما نظنّ حجارة من لبنان لتوسيع احواض بورسعيد فكان العمل مرضياً والاقتصاد حسناً

فهذا كله يدعو الى التنشيط ويحمل على مواصلة العمل للاتفاح من حجارة

(١) فمن مقلع دير القلعة اعمدة الكاتدرائية المارونية وكنيسة كليتنا

لبنان ولا يخامرنا ريب أنَّ مقالع لبنان لم تُكتشف جميعها سيما مقالع الحجر الحسني والرخام العادي فإذا اتسع نطاق هذه الصنعة عادت بالفائدة على الكثيرين من الفعالة كعملة المقالع والنحاتين فتسد مسدّ المعادن المفقودة من لبنان

٢

معادن لبنان القديمة

لقد انجزنا الكلام عن غنى لبنان المعدني والحقُّ اولى ان يُقال ليس لبنان من هذا الوجه ذا ثروة طائلة وغنى وافر . فلوازم البناء متوفرة فيه إلّا أنها ليست من اعلى درجة في الجودة . ومعادن الحديد كثيرة الانتشار في الجبل إلّا أنها قليلة لعدم وجود الوقود لتشغيل المسابك والمعامل . وكذلك الفحم الخشبي المتحجر فإن في لبنان منه شيئاً . فإذا شئنا ان نعرف ما لهذا الوقود من الشأن والاعتبار في نفس مركزه يكفي ان نرّدد في ذهننا ان اصحاب المعامل الحريّة المجاورة لمستودعاته عدت عنه تباعاً الى الفحم الاجنبي . فوالحالة هذه ليس لاهل لبنان ان يبنوا الآمال على استحضار المعادن ولا يُتمنوا النفس بتحسين مستقبل البلاد بسببها

لكن هنا يجئ آخر ترى هل كانت هذه الحال حال لبنان القديمة ؟ ألم يتفق للبنان ما اتفق لاراض كثيرة كانت مخصبة غنيّة ففرغت على توالي الاجيال واصبحت عقيمة ؟ أو لم تنزع من اعماق لبنان كنوزه المعدنية القديمة ؟ فلهذا السؤال محلّ ومجال لأن ارباب البحث والاقتصاديين منذ الان قد وجدوا بعد الحساب ان اغنى مناجم الفحم الحجري في اوربة لا بدّ ان تنفذ يوماً ولا يمرّ على بعضها جيلان او ثلاثة حتى تكون قد نفذت فلم لا يصحّ ذلك في لبنان وقد ظهرت فيه آثار العمران وحركة الاشغال من نحو ٤٠٠٠ سنة والادلة على ذلك صحيحة راهنة فهذه المدّة الطويلة تكفي كل الكفاءة لتعليل ما حدث في حال معادنها من التغيير والانقلاب

ومأ يزيد في ارجحية هذا الرأي كون لبنان قسماً من فينيقية والحال ان بلاد

فينيقية كانت من اقدم الازمان كنقطة للاشغال المعدنية وكمحور للاعمال الصناعية (١) فقد وجدوا الرفاً من آثار هذه الصناعة القديمة وضروبها المتنوعة كآنية فضة ونحاس وقلز وحلي من كل الاصناف واشكال الاسلحة وادوات زجاجية وغيرها . فهذه التحف ملأت المتاحف التي غصت بها وضاحت عن ان تسعها ومع ذلك لم تُصرف العناية الى جمعها ووضعا في المتاحف إلا من نحو نصف قرن ولم من تحفر غيرها بادت او لم تزل مدفونة في بطون المدن الفينيقية وهي تتوقع يوماً من الدهر لتظهر للعيان

على ان هذه الحال من نمو الصنائع وانتشار الاشغال المعدنية لم تكن خاصة بعهد الفينيقيتين بل بقيت بعدهم اجيالاً عديدة واستمرت الى اواخر العصر المتوسط . ولم تبطل هذه الاشغال في المدن المتحدة على طول الشواطئ البحرية من عكا الى اللاذقية فكانت العمال من نحو خمسة او ستة اجيال منكبّة على العمل وكانت تصنع مصنوعات عظيمة وتصدر صادرات وافرة . ففي اواسط الجيل الرابع للميلاد يذكر يونيور (Junior) الفيلسوف اللاتيني « مدينتي طرابلس وجبيل الصناعيتين ومدن صيدا وصرفند وعكا الزاهرات وخص من بين هذه المدن اللاذقية وجبيل وصور وبيروت بانها ترسل انسجتها الى جميع الارض وتلشر صرفند فوق ذلك ارجوانها » (٢) ولنا في الجيل العاشر شهادة المقدسي الجغرافي العربي وبما انه سوري النشأة فتكون شهادته قوة كبرى فانه يعدد بين صادرات سورية المحمولة الى الخارج عن مرافئ البحر من قيصريّة الى السويدية انسجة الحرير والصابون والمرايا والزجاج والابر والشرج وآنية النحاس والحُرُض او الأسنان والحديد والكبريت والملح والرّخام (٣) وفي العصر التابعة يصف الادريسي والدمشقي وابن بطوطة حركة الاشغال الصناعية

(١) راجع كتاب بيرار 367 ; 307-306 : *Les Phéniciens et l'Odyssée*, I, (Bérard :

376 ; 409, 414, etc. Benzinger : *Hebraeische Archeologie*, 253)

(٢) وهذا نصّه بحرفه : *Tripolis et Byblus, ipsæ civitates industriosæ sunt : iterum optimæ civitates Sidon, Sarepta, Ptolemaïs... Laodicia, Byblus, Tyrus, Beritus omni mundo linteamen emittunt, Sarepta vero purpuram præstat.*

(٣) راجع في تأليفه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وصف سورية (ص ١٥١-١٨١)

في مدن سورية والسيّاح الغربيّون الذين ساحوا في سورية في ذلك العصر يؤدون الشهادة نفسها (١)

*

والحال هل يخطر على بال ان هذه الصناعة وفيها المعادن حظّ صالح تتخذ لوازمها الاولى وموادها الضرورية من الخارج لا غير. أما نحن فلا نخال ذلك لان في مثل هذه الحال لا تأتي المصنوعات بارباح طائلة الى حدّ انها تُحمل الى جميع الجهات. فالاعمال المعدنية في فرنسا مع ما هي عليه من جودة الطروق وكمال الاساليب لا تستطيع مجاراة اشغال البلاد المجاورة لها وعلة ذلك انها مضطرة الى ان تستجلب من الخارج قسماً من معادنها. فنستنتج اذن ان الصناعة الفيليقية وهي اقدم الصنائع كانت تتخذ مواد اشغالها من محليها وجبال بلادها وبغير عبارة تقول انه يلزم التسليم بان مستودعات معادن لبنان كانت قديماً اوفر عدداً واغزر مادةً واكثر نوعاً ممّا هي اليوم. وليت شعري هل يمكن اثبات هذه النتيجة بشواهد تاريخية

أما ايضاح ذلك عن الحديد فايسرشي. عندنا بل لا حاجة الى ذلك وقد اثبتنا وجوده في ايامنا فلماذا لا نفيض في ايراد الشهادات بل نقصر على بعضها. على ان بين هذه الشهادات شهادة هي اعظمها اهمية واشدها اعتباراً تدلّ على ما كان لتجارة الحديد من الشيوخ والشأن في قديم الزمن. ففي الجليل السابع قبل الميلاد كانت العبارة «با ان برت» تستعمل في اللغة المصرية للدلالة على الحديد (٢) ومعنى هذه الكلمة حرفياً «بضاعة بيروت» فيُستنتج اذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت وانه كان مجوار هذه المدينة معادن يُستخرج منها الحديد بكثرة وكما انه من لفظة «بضائع باريس» سوف يستدلّ المؤرخون في المستقبل أن بضائع الزينة والتبرّج كانت تُصنع في باريس. فهكذا قلّ عن الكلمة المصرية التي اوردها فانها تشير الى أن وادي النيل وذلك لا اقل من ٨٠٠ سنة قبل المسيح

(١) راجع كتاب راي (Rey: Colonies franques, 211) واما عن بيروت فراجع هيد (Heyd) تاريخ تجارة المشرق. الترجمة الفرنسية ص ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٣٠ و ٤٨٨ الخ
(٢) راجع المجلة الاسيوية (٦٦ - ١٥٥ - I, 1904. Journal asiatique)

ألف الحديد اللبناني المحمول اليه من مرفأ بيروت الى حد أن اهله لم يميزوا بين اللفظين اعني « الحديد » و « صناعة بيروت » . وكمثل ذلك جرى في اللغة العربية الفصحى للهندي والمشرقي فانها اصبحا مرادفين للسيف وقد كانا في الاصل يدلان على السيف المصنوعة في الهند وفي « مشارف » البلقاء شرقي بحيرة لوط . وقد كان زمام تجارة الادوات البيتية وآنية الحديد والقنار والنجاس في الجيل التاسع قبل المسيح بايدي الفينيقين في سوق مصر عينه (١) . والمقدسي (٢) يأتي على ذكر معادن الحديد في بيروت الموجودة في عصره . وبعدهُ جيلين يقول الشريف الادريسي اثناء كلامه عن بيروت : « وبقرية منها جبل فيه معدن حديد طيب جيد القطع يُستخرج منه الكثير ويُحْمَل الى بلاد الشام (٣) » . وقال ابن بطوطة (٤) : « ان الحديد يُحْمَل من بيروت الى مصر » فهذه الشهادات معتبرة فانها تدلنا على غو صناعة الحديد في لبنان حتى اواخر الجيل الرابع عشر . وأما ما قدّمنا من تفاصيل نقل الحديد وحمله الى الخارج فيدلّ ليس فقط على رواجه في سوق مصر بل يوضح ايضاً على ان اسلحة دمشق كانت تُصنع من معادن لبنان كما اوردا آنفاً

والقد يُشْتَف من وراء هذه الشهادات ما التحق باخراج لبنان من الضرر الجسيم بسبب تلك الصناعة التي نستطيع ان نتبع حركتها مدة الف سنة . فمواقد المسابك كانت بمثابة لجة التهمت غابات الارز العظيمة

*

على انه ليس بعد الحديد معدن شاع ذكره بين صادرات الصناعة الفينيقية القديمة نظير النحاس . والعجب في ذلك ان هذا المعدن لم يبق له اليوم أقل أثر في لبنان كما سبق لنا ذكره ففي هذا سر غامض على المؤرخين ويستلقت انظار الجيولوجيين الذين يحولون ابصارهم عن كل شهادة لا يجدونها مسطرة في بطون الارض فلنباشر بايراد التوراة شهادة اوّل : فانه مذكور في سفر الملوك الثاني (٨ : ٥-٨)

(١) راجع كتاب مولر (W. M. Müller : *Asien und Europa*, 306)

(٢) في كتابه السابق ذكره (ص ١٧٤)

(٣) I. 133, (٢)

طبعة جيلديستر

ان داود اخذ من ملك صوبة نحاساً كثيراً جداً . فاين محلُ صوبة المذكورة ؟ من المرجح أنها كانت قائمة في سهل البقاع وذهب بعض علماء عصرنا على انها نفس المدينة المدعوة « مات نحاسي » في كتابات تلّ العمارنة (١٥٠٠ قبل المسيح) ثم سماها اليونان (١) فيما بعد كلسيس . فما اغرب هذا الاتفاق فلفظة كلسيس معناها في اليوناني نحاس وفي مات نحاسي كل يرى كلمة نحاس . وعليه اذا صحّ ان صوبة وكلسيس ومات نحاسي ما هي الا ثلاثة اسماء لمسمى واحد فيكون المقصود بها المحل المشهور بمعادنه القائم في جوار لبنان

غير ان الآراء متضاربة في تعيين موضع كلسيس فقال بعضهم انها معلّقة — زحلة ورجح غيرهم ونحن من رأيهم (٢) انها عين جار في اسفل الجبل الشرقي المقابل للبنان (٣) — فعلى كل حال ليست المسافة بين الموقعين بعيدةً انما على حلّ هذا المشكل الجغرافي يتوقّف تخصيص معادن النحاس القديمة بلبنان او بالجبل الشرقي الذي يقابله

ثم اننا نرى الكتابات المصرية والكتابات الاشورية قبل التوراة تشير الى وجود كميات عظيمة من النحاس في لبنان او في ما يجاوره ومنها ٨٤,٠٠٠ كيلو من النحاس اخذها رمانيار الثالث ملك الاشوريين من ملك دمشق فهذه الكمية الوافرة الموجودة في محل واحد تدلّ على انها من صادرات المحلّ وليست من الخارج وانما نجد فضلاً عن ذلك في كتابة تحوتمس الثالث ذكر « نحاس اسوي اتي به فرعون مصر من بلاد راتانو بغزّ وانتصار (٤) » وراتانو كما هو الشائع في كتابتها الان هي الناحية التي يسميها الليطاني وقد سبق لنا تفصيل ذلك (٥)

على ان هذا النهر ينبغي ان يُعتبر تابعاً للبنان لانه يجري على شواطئه او يمرّ في اراضيهِ — أمّا العلامة يئسن (Jensen) فانه لا يقف عند هذا الحد بل يزعم ان

(١) راجع كتاب Buhl : *Geogr. des alt. Palaestina*, p. ١١٥

(٢) راجع (الصفحة ٤٠)

(٣) Pauly - Wissowa. *Encyclop.*, III 2091

(٤) Müller : *Asien und Europa*. ١26, ١27 راجع كتاب

(٥) راجع (ص ٢٢ و ٢٣)

رائانو او لاتانو من اسامي لبنان نفسه او لا اقل من ان تدلّ على ناحية الليطاني (١) وفضلاً عن ذلك فالكتابات المصرية تسمي عادة فينيقية باسم « ذاهي » وتجعل بين صادرات هذه البلاد ليس فقط الزيت والعسل والخمر ممّا لا يندهل له انسان بل ايضاً النحاس والرصاص واصناف الحجارة المتنوعة الخ (٢) وفي غير موضع تذكر آنية الحديد والنحاس كصناعة مختصة فينيقية (٣) ومن المعلوم انها كانت ممّلاً منها اسواق اشور وبابل (٤) واسواق بلاد اليونان في اوربة واسية . افلا يسوغ لنا بعد هذا كله ان نستنتج وجود معادن النحاس في جبال فينيقية ؟ رويدك ايها القارئ فلا تجعل باستنتاج النتائج لئلا تبدي حكماً عن غير تروء كافٍ . ومن المحتمل ان الفينيقيين كانوا يستخرجون النحاس من املاكهم في جزيرة قبرس او من « الاسيا » (٥) الشهيرة بمعادنها النحاسية والمظنون موقعها على مصبّ نهر العاصي ولعل اسم النحاس العربي مأخوذ عن اللفظة الاشورية « الاسيا » كما ترى . وزعم غيرهم انها قبرس استناداً على وجود معادن النحاس فيها وعلى رأيهم أنّ منها كان يؤخذ النحاس لتشغيل معامل فينيقية . فليست المسألة اذن جلية كما يُظن . أمّا نحن فنرجح رأياً متوسطاً

فاننا نعلم مع كثير من العلماء الذين اوردنا شهاداتهم وغيرهم نظير كيبيرت (٦) ويئسن وغيرهما (٧) بوجود معادن نحاس في لبنان لكنها قليلة . لذلك اضطرّ الفينيقيون ان يستجلبوا من الخارج ما كان ينقصهم في لبنان . ولهذا السبب نفسه نفدت هذه المعادن وفرغت بجمالتها حتى لم يبق لها اثر على حدّ ما نراه في جزيرة ألبار في البحر المتوسط فمعادنها الحديدية التي لا يكاد يُصدّق غناها الغريب لا يزال

(١) Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 345-346

(٢) راجع موتّر (ص ١٨٢)

(٣) موتّر (ص ٢٠٦)

(٤) Zeitsch. für Assyriologie, 1887, p. 36, 37 ومنها هذه العبارة الواردة مراراً في شعر

هوميروس « صيدا القنية بالنحاس »

(٥) وكانت تسمى ايضاً اصيا 262 Zeitsch. f. Assyriologie, 1895,

(٦) راجع تأليفه H. Kiepert : *Alte Geographie*, 167

(٧) Zeitsch. für Assyriologie, 1895, 363, 365

يُستخرج حديدها منذ الفي عام (١٠٠). أما النحاس الذي كان من اعظم صادرات هذه الجزيرة في اقدم الازمان فان ذكره قد باد منها فيما بعد فعليه إما ان نعد الشهادت المختلفة التي اوردناها اوهاماً محتلفة وأما ان نسلّم بوجود معادن غير الحديد في لبنان ومنها النحاس فلولا هذه المعادن لما كانت وُجدت صنائع الفينة بن المعدنية ولما كانت انتشرت انتشارها الغريب

فهو رائدة مع ما هي عليه من النشاط والاستعداد الفطري للتجارة والملاحة لا تنال الفوز بشغل المعادن نظير انكثارة وذلك لخلوها من المعادن لان نجاح الملة يتوقف على النواميس الطبيعية التي مع كل قوتها تعجز عن مقاومة النفوذ الخارجي. وهذا مما يزيد فضل الجغرافية التاريخية فانها تطلعا على بعض هذه النواميس فاذا اتبعتا درس لبنان وطبقاته الجيولوجية سوف نجد بلا محالة براهين طبيعية وادلة مادية تثبت غنى لبنان الاعظم في قديم الزمان (٢)

أما الحجارة ولوازم البناء فاننا لا نعلم عنها شيئاً الا ان غوديا ملك بابل كان يستجلب لابنيته من لبنان قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ليس فقط اخشاب الارز بل ايضاً الرخام الابيض وغيره من الحجارة وما زالت ملوك اشور تحذوه الى الجبل الثامن قبل الميلاد . على انه لم يذكر شيء عن صنف الحجارة المنقولة مع الرخام ولا عن طبيعتها إلا ان ما يقتضيه نقلها الى البلاد البابلية من المشقة والنقمة لبعده المسافة يسوغ لنا ان نستنتج انها لم تكن من الحجارة العادية بل من اصناف الرخام الجيد وانواع الحجر العالي الثمن . فعلى هذا يتضح ان لبنان كان من هذا القبيل ايضاً غني مما هو اليوم

لكن لا بد من ابداء ملاحظة هنا كما فعلنا اثناء كلامنا عن النحاس : ان الكتابات الاشورية والبابلية البالغة حدّ الإيجاز والمتصلة باقدم الازمان ليست بغاية الضبط والتدقيق بنوع انه لا يتيسر لنا الحكم الفصل فيما اذا كان الكلام عن لبنان

Elisée Reclus : *Europe Méridionale* 432 - 433 (١)

(٢) ففي سنة ١٧٣٦ يوكرد السائح كرانجه الفرنسي وجود معادن نحاس يشوها فايل من الفضة بين عجاثون والعاقورة . . فهذه التعليمات المبهمة تدل على ان السائح نقل ما سمعه ولم يفحص بنفسه . وإلا لكان حدّد موضع هذه المعادن

الشرقي او الغربي وبعبارة اخرى عن لبنان الحقيقي او عن الجبل الذي يقابله .
فبخصوص هذه المباحثة الثانوية فلتراجع التأليف التي اوردنا ذكرها في هذا الصدد .
فيستطيع القارئ ان يتمّ اجازته الشخصية ويقابل بين التعليقات التاريخية التي جمعناها
عن غنى لبنان المعدي في الزمن القديم

١٩

النتائج التاريخية

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

ليس بين المطلعين على اساليب علم التاريخ في عصرنا من مجهل فائدة البحث عن
درس اسماء الاماكن فنتأذن قبل الخوض في الموضوع بتعداد منافعها بما امكن من
الايجاز لنذكر معناه الحقيقي وارتباطه الجوهري بتاريخ لبنان وجغرافيته . فبوصفنا
لهذه الفوائد نستدرك ما لعله يطرأ على بال القارئ من سوء التفاهم . ليس غرضنا
في هذه المقالة لغوياً لكن تاريخياً محضاً وجغرافياً صرفاً اذ لا نقصد البحث عن اسماء
المواقع اللبنانية من حيث تركيبها اللغوي ومعناها الاصلي بل جل ما نتوخاه ان
نستنتج من درس هذه الاسماء ومن سياقها وتقسّمها على سطح الجبل نتائج تؤدي
بنا الى معرفة ماضي لبنان

١

١ اعلم ان درس اصل الاسماء المكانية اعظم ظهير واكبر نصير للتاريخ لان
اعلام المكان ترجع الى اقدم اصول اللغة اذ المتبادر الى الذهن ان الرجل اول ما
يبدأ به تسمية محل اقامته باسم يعرفه ويميّزه . لذلك نرى اعلام المواضع ابقت لنا
ذكر حوادث ومواقع لا نجد لها اثرًا في اعظم التواريخ اسهاباً واكثرها

تفصيلاً (١) . وقد يتفق ان اعلام المكان وحدها تذكرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسية والدينية . فهكذا كل موضع دخل في تركيبه اسم دير وقصر وبرج ومجدل (٢) يدل على انه كان ثمة دير او قلعة ولو كانت غير الدهر قد درست ذلك البناء ولم يُبق له لا طلال ولا رسماً وربما كنا لا ندرى اصل الاماكن اللبانية ولا نعرف قدم عهدا فاذا ما عثرنا على اعلام فينيقية او آرامية استطعنا ان نستدل على ان اصل تلك المواضع يتصل بالعهد الذي كانت فيه تلك اللغة شائعة في لبنان . واذا وجدنا موضعاً مدعواً باسم احد الالهة القديمة كنعانية كانت او بابلية فلنا ان نستنتج انه سبق التاريخ المسيحي وانه وُجد في عهد كان الاهلون يعبدون تلك الالهة . وعليه فدرس اعلام المكان يقوم مقام ما اغفلته الادلة الكتابية ويدعم التقاليد المحلية وبدونه لا نستطيع سبيلاً الى تحقق المنصوصات المبهمة الحالية من الحجة والعارية عن البرهان فضلاً عن انه يجدنا علماء عن اقدم الآثار التاريخية وافضل الاسانيد ويسوغ لنا ان ناسب تلك الدلائل الى قرون سبقت اختراع الكتابة وتحديد اللغات على خط علمي منظم . فمن المعلوم ان الانسان سبق الى تطلق قبل الكتابة واول ما استعمل في كلامه تسمية المواضع التي تكتنفه باسماء النابغة . وقد فقد شيء كثير من تلك الاسماء الاولى وهذا مما يحثنا على بذل الجهد وصرف العناية الى جمع ما بقي من تلك الاعلام والاستفادة منها ما امكن فسواء كانت تلك الاسماء لمسميات دائرة او وضعية فانها تعين على احياء الحوادث الجغرافية التي باد ذكرها

٢ وتساعد اعلام المكان على معرفة آثار الشعوب الذين عبروا البلاد وخلفوا اسماءهم في بعض الاماكن . ومما بينا في ابجائنا المتقدمة عن اصل الامم اللبنانية القديمة ان اللغة التي تسمت بها الامكنة هي اشد دلالة واوضح برهاناً على الاحوال السالفة من الكتابات عينها . فالكتابات باللغة اللاتينية وقس عليها اليونانية انما تدل على ان تلك اللغة التي كانت هي المعول عليها في الاحكام الشرعية وليست اللغة الشائعة

(١) ان بروتز (Prutz : *Kulturgesch. der Kreuzzüge*, 397) يهدي مثل هذه الملاحظة عند الكلام على الالفاظ العربية الداخلة في اللغات الاوروبية اثناء القرون المتوسطة

(٢) مع فروعا « مجدل ومجديون ومجدليا »

بين الشعب. وعلى عكس ذلك اسماء المراضع فان الشعب لا يضعها الا في لغة يفهم معناها. فينتقي في لغته اسماً يطابق المسمى بدلالاته على مميزات ذلك المكان المأهول حديثاً. وقد يتفق ان يخلف شعب شعباً آخر فيغير الاسم القديم باسم احدث يدرك معناه. مثال ذلك جبل قريب من جزين يسمى «جبل طورا» وهو مركب من اسمين عربي فرياني وكلاهما الجبل فمثل هذه التسمية المكررة تدل على وجود شعبين (١)

٣ نظامنا اعلام المكان على نظمات الشعوب وعبادتها وعوائدها القديمة كالاسماء التي تضاف مثلاً الى سوق وجسر. وذلك بعد ان تكون السنون والدهور طوت الحوادث التي دعت الى تلك التسمية مثل «سوق الغرب» في قضاء الشوف وليس الآن هناك سوق

٤ تسوغ لنا ان نقف على حالة الارض السالفة ونطلع على العوارض الجغرافية من مناجم وغابات وغدران بادت حتى لم يبق لها اثر لما طرأ عليها من التقلبات الجيولوجية والاقتصادية والاجتماعية. ولما نرى حاجة الى ايراد امثلة على ذلك

٥ وبما ان جميع الاعلام المكانية إلا ما قل كانت في الاصل اسماء جنس لا اسماء علم فيكون درسها جزءاً مكتملاً لمعجم اللغات القديمة ومساعداً على احيائها فمن هذا القبيل تكون اسماء المواضع احسن طريقة في دراسة اللغات وافضل وسيلة للتوصل الى ابعدها اصولها

٦ تبين لنا ما كان في اقدم الازمان للاحوال الجغرافية والطبيعية من التأثير في عقول اجدادنا (٢) وتكفي وحدها للدلالة على اهمية الينابيع والانهر لا سيما في الشرق حيث الماء من الشروط التي لا بد منها لترقي العمران. فاول ما استوطن البشر مجوار الينابيع وضواحي الانهر واقدم المدن عهداً مدينة نشأت على مجرى المياه. فما مدينتنا بيروت الا مدينة الينابيع والآبار كما يتخذ من مدلول اسمها الفينيقي

٧ تظهر لنا ما كان للجبال من التأثير في الرجال الارلين حتى عبدوها في الاصل

(١) وفي صليبية جبل إتنا (Etna) يدعى احياناً «جبل جبل» (mont Gibel) بـ تكرار اسمين اعجمي فعرابي ومعنى كليهما الجبل

(٢) راجع مجلة الشركة الالمانية في فلسطين (ZDPV, 1904, p. 95)

كآلهة على حد ما حدث في لبنان وجبل حرمون (جبل الشيخ) ورأس الشقة والكرمل والجبل الاقصر كما سبق لنا بيانه
بقي علينا ان نكرر التنبيه بان بحثنا الحالي يكون جغرافياً محضاً اي اننا نقتصر على ان نتخذ من اسماء الاماكن في لبنان أدلة تكشف لنا عن جغرافية لبنان التاريخية في الزمن القديم . واما ما تعاق بالمباحث اللغوية كالتغيرات التي توالى على اسماء الاماكن فاننا نحيل القراء الى الكتاب الذي ألفه الدكتور كيمبير (Kampf) (meyer) في هذا الموضوع وعنوانه « الاسماء القديمة في سورية وفلسطين الحالية » (١) حيث يبحث عن هذه المشاكل بدقة وحذقة وسعة اطلاع كما هو دأبه في كل تأليفه

*

ولكي يمكننا ان نجنى من هذا البحث جميع الثمار التي نستفيد منها ونحصل على جميع الفوائد التي يتضمنها كان لا بد ان نحصل على لوائح كاملة لجميع اسماء الاماكن الموجودة الان في لبنان مع الردوم وتقاسيم المقاطعات والاحراج والينابيع والودية . وفوق ذلك كان ينبغي لنا ان نبين في الكتابات القديمة عن الاسماء المكانية التي فقدت وقصارى الكلام كان يلزم ان يكون لدينا فهرس تتضمن اسماء المواضع فقط كاللائحة التي وردت في مجلة الحفريات الفلسطينية (PEF) (٢) لبلاد فلسطين بل مجموع شامل لوصاف لبنان ورسومه على غط المجموعات الكتابية المؤلفة لجميع الكتابات القديمة (٣) فلا حاجة الى القول انه لا يوجد نظير هذه اللوائح والفهارس للبنان املاً لائحة روبنسون وعالي سميت فلا تخاو من فائدة (٤) الا انها غير محكمة الوضع فضلاً عن انها ناقصة . فالذي يسعى بعمل لائحة تفي بالمطلوب يخدم العلم خدمة جليلة ويمكنه ان يبني جداول على تقسيم قائمات الجبل ومديرياته متبعا التعليمات التي ألغنا اليها قبل الان ثم يجمع التقاليد والاسانيد المجابة التي تتعاق باسماء الاماكن . والمشرق مستعد

(١) راجع المجلة ذاتها (ZDPV, XV et XVI)

(٢) المشروع حسن الا انه غير كامل ولا يمكن ان نعتمد دائماً على روايات المؤلفين الانكليز

(٣) راجع مقالة العلامة جوليان التي عنوانها « الحاجة الى مجموع الاعلام المكانية في العالم

القديم » (Beitraege z. alt. Gesch. 1902, II, p. 1)

(٤) وهي منشورة في (Biblical researches in Palestine, vol. III)

لنشر هذه اللائحة مع الشكر لمن يتفضل عليه بها . وكنا نودّ لو نُشرت سالامة لجبل لبنان تودع فيها اسماء الاعلام المكانية . فيُتخذ لهذه الغاية كمثل « دليل لبنان » المنشور في ادارة جريدة لبنان فانّ فيه لائحة لمجالات الجبل الحالية الا انه ينبغي ان يكتمل ما فيه من النقص مع التمييز والتفريق بين القرى والمزارع واطافة بعض دلائل ونحن لم نقف على كتاب في هذا الموضوع جامع للفوائد نظير تاريخ بيروت الذي نشره في المشرق حضرة الاب لويس شيخو ثم طبعة على حدة . فهذا التأليف الجليل لم يقابلته اذباء الجبل بالمقابلة التي هو حقيق بها لاسيما من يهتمهم تاريخ لبنان وجغرافيته . فانه قد يسدّ خلل اللوائح الوصفية الى حد ما . وأخص فوائد هذا الكتاب بل اهم ما يتضمّنه من الايضاحات قائمة في وفرة اسماء لبنان الجغرافية المذكورة فيه كاسماء القرى والاملاك وايضاحات عن حدود المقاطعات القديمة وغير ذلك ممّا لم يرد ذكره الا في هذا الكتاب . فاننا لا نجد التواريخ الكبيرة تكررت كثيراً للبنان كما اهملته تأليف الجغرافيين الكبار فاذا اتوا على ذكر هذا الجبل فانهم يذكرونه عرضاً دون اسهاب ولا تفصيل . ثم ان كثيراً من المجالات القديمة بادت برمتها ولم يبق من آثارها الا اسمها الذي لم يزل منسوباً الى حقل او خربة لا شأن لها ولا اعتبار . ففي تاريخ بيروت نجد كثيراً من هذه الاسماء المندثرة كاسم « رمطون » مثلاً . وكأنه الصك الاول الشاهد لوجود عدد من قرى لبنان إن لم يجز القول بانّ فيه قد دون تاريخ ميلادها . فيجدر بنا اذ ذلك ان نثني اطيب الثناء على ناشره ولا يسعنا الا ان نحضّ طلاب العلوم التاريخية والجغرافية على الامعان في مطالعته ونحن نتعهد لهم باللذة والفائدة معاً فقد جئنا منه فوائد شتى ولا تزال نواظب على مطالعته استزادة لجدواه

٢

واول ما نجد في بحثنا عن اسماء المواضع في لبنان تغلب اللغتين السريانية والعربية عليها . امّا العربية فانها تدلّ على حداثة عهد المساكن والمنازل لانّ هذه اللغة خلفت اللغة الآرامية من عهد قريب كما اشرنا اليه في بحثنا عن لغات لبنان القديمة (١)

وفي أوّل وهلة تستعجز علينا الدهشة ويشملنا العجب لقلة ما نشاهد من الاسماء الكنعانية أو الفينيقية البحتة مع ان أهمّ الأسماء التي استوطنت لبنان واقدما كانت تنطق بهذه اللغة . وليس الكلام عن أسماء مدن الساحل نظير صيدا وبيروت وجبيل وغيرها اذ لا مشاحة في ان اصلها بالفينيقية وتسميتها كافتة لان تطلعنا على حالة الفينيقيين الاولى (١) وأمّا ما كان منها في داخل لبنان فمثل مجدل وفروعها مجدل ومجدلياً (٢) ثم البيرة (٣) وعرامون (٤) وغيرها ممّا يأتي ذكره

فهذه الاسماء لقدما عهدا عانت مشقة عظيمة في صبرها على صروف الدهر . ولو امكنّا تجريدنا من قشرتها الارامية أو العربية التي تحجب صورتها فتجعلها مجهولة لوجدناها اوفر عدداً واقرب الى المعرفة ومثال ذلك البيرة التي مرّ ذكرها فانها تظهر لأول وهلة انها كلمة عربية لشبهها بالفظ البشر وهكذا قل عن كثير من الاسماء التي أولها عين او بيت او كفر . فهذه الالفاظ لا تختلف بالعبرانية والارامية والفينيقية وقد نقلت كما هي الى العربية (٥) . فلشدة الشبه بين اللغات الثلاث يحصل غالباً القلب والتبديل في صيغ الكلمات فيصعب اذ ذاك معرفة الصيغة الفينيقية الاصلية كما في كفر تبنيث بجانب النبطية حيث نجد اسم تبنيث الطائر الشهيرة في تاريخ فينيقية . وفي شمالي بيروت جدول ماء كان يدعى باسم الاله «موت» وهو اله الجحيم بلوتون (Pluton) عند الفينيقيين . فلما أُلغيت فيما بعد الديانة الفينيقية وأهملت اساطيرها وأغفلت أسماء آلهتها أُبدل موت بموت وأضيف اليها اداة التعريف فقالوا «نهر الموت» وزاد الشعب على ذلك فاختلق حكاية حرب هائلة جرت فيها الدماء مدراراً . فهذه سنة العوام في اشتقاق الكلمات فانهم يفسدون صورها شيئاً فشيئاً ثم يجدون لها معنى في لغتهم فيخدعون انفسهم ويخفقون قصصاً وحكايات لتفسير الوهم الذي توهموه وسوف نورد امثلة جديدة في سياق كلامنا على هذا النحو . لكننا نأسف على ان بعض المؤرخين

(١) راجع تاريخ الفينيقيين (Pietschmann: *Geschichte der Phœnizier*, 129)

(٢) اطلب المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG; 1875, p. 442)

(٣) راجع Kampfmeier, ZDPV, XVI, 20

(٤) راجع كتاب العلامة كلرمون غانو (Recueil d'Arch. Or., VI, 70)

(٥) راجع كتاب الآثار العبرية للعلامة نواك (Nowack)

ينخدعون لهذه الترهات فيقدّمون لنا كادّلة حقيقة اختلاقات الشعب الوهميّة
 اما بقيّة اللغات كاليونانيّة واللاتينيّة فانها قليلة في اسماء المواضع اللبنانية فليس
 في هذا ما يُدهشنا بعد النتائج التي توصّلنا اليها باجائنا عن اشتقاق الالفاظ في لبنان
 ولا يصعب التسليم بهذه الملاحظات اذا سرّحنا الطرف في خريطة لبنان شمالاً ووسطاً
 وجنوباً في المنخفضات البحريّة والمنحدرات الجبلية فيستقرّنا الانذهال لما نرى من كثرة
 الاسماء السريانيّة صرفاً مثل كُفرو وكفور وشير وتصغيرها العربي سُوير بمعنى الصخر
 وغيرها ممّا لا يُحصى عدده مثل نيجا وشقيف وكفوحّا وداريا ورشعين وكل كلمة
 تألّفت من « راس » كناية عن راس ومن « طور » اي الجبل الخ . والاسماء التي
 تنتهي بصيغ اواخر الكلمات السريانيّة مثل آيا (آيا) وآتا (آيا) واوان (اوان)
 علامات الجمع والتصغير . وكفى بهذا المجموع وحده شاهداً على ان لبنان ارض
 ارامية ان لم يشهد بذلك التاريخ . فهذا الموضوع لا يكاد يُبلغ كنهه او يُسرّ
 غوره اذا اردنا التوغل فيه . فهناك بعض امثلة زيادة على ما اوردنا فعين طورا هي
 حَمْلُ (عين الجبل) ورشمايا (راس الماء) ودير قرقفة وهو
 اليوم دير للملكيين هو دير الجمجمة (حَمْلُ) وبيت مري (حَمْلُ)
 بيت السيد وترعون (كَلْحَل) الابواب وجزين (كَلْحَل) انكرز
 وبين هذه الاسماء السريانيّة ما يستلقت نظراً خاصاً وهي الاسماء الكثيرة في
 لبنان المبتدئة بحرف ب (ب) اختصار (حَمْلُ) بيت وهو اختصار قديم مختصّ
 بلغات سورّيّة . وقد ورد نظير هذا الاختصار في اللغة الفينيقيّة وفي التلمود وفي اسماء
 قريباً من الفلسطينية المذكورة في التوراة ومنها بيشان בִּישָׁן = בִּישָׁן التي تُرى
 حتى اليوم قريباً من نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريّة (١)

وذكر كتبة اليونان مدينة في جزيرة العرب قريبة من البحر الاحمر باسم
 Βαλουμπα (وغني عن البيان انها بيت شمس حَمْلُ) ويكتبونها ايضاً (٢)

(١) راجع المجلة الاسويّة الالمانية (ZDMG, 1860, 651 ; 1873, 325) ثم كتاب بعنة
 فينيقيّة (Mission de Phénicie, 853) ومقالة الدكتور كمبفاير (G. Kampffmeyer)
 (ZDPV, XV, 87, 111) ورحلة قنشتين الى حوران (Wetzstein : Reisebericht
 über Hauran, 110) (٢) راجع ZDMG, XXVII, 325

(βαλτασάμφοι) وهذا يؤيد كلامنا. اما امثال ذلك في لبنان فكثيرة نورد منها بكفياً (حَمْدُ حُلُفَا) اي البيت الصخري وهي مركبة من حَمْد و حُلُفَا صخر ومثلها بكيفا في اقليم الحروب وبجدون وبياقوت اي بيت حمدون وبيت ياقوت (١) وقس على ذلك برمانا وبرمار وبتاتر وغيرها مما سوف يرد ذكره

وقد يسوغ لنا ان نحكم على الفور والبديهي ان بلداً نظير لبنان غزير الينابيع ومناخه يقتضي وجود المياه لا بد من ان يكون اعنصر الماء دخل في تركيب اعلامه. وصحة هذا الحكم تظهر بالمشاهدة فقد استمال افكارنا اسم قرية ميومية (وليس « ميه وميه » كما يكتبها دليل لبنان) قريباً من صيداء في اقليم التفاح فاعتقدنا ان الكلمة الفينيقية الدالة على الماء داخلة في تركيب هذا الاسم ويقابلها في العبراني « מים » فحكمنا بقدم عهد القرية وبوجود ينبوع ماء مشهور كان سبب تسميتها بهذا الاسم - غير ان الاعلام كانت في اول الامر سليمة . فلما جلنا متأخرًا في نواحي صيدا لم نعثر على عين ماء في وسط ميومية لكننا شاهدنا في سفح القرية ينبوعاً من اجود ينابيع تلك الاطراف القاحلة واعذبها . ففي حين مرورنا كان جميع الاهلين في قلق واضطراب لان بعض اصحاب المطاعم سعوا بحكر المياه التي يستقي منها الناس والحداثق المجاورة فعند تأملنا تلك المياه الحسنة الخارجة من بطن الارض ادركنا سبب تسمية ميومية بهذا الاسم الفينيقي

ثم في لفظة ميروبا الماء الغزير ورشياً رأس الماء تظهر للعيان كلمة حَمْد السريانية اما الاسماء التي تبدأ بكلمة عين فهي اكثر من ان تُحصر (٢) وهذا دليل آخر على تأثير المياه وفضلها في تعمير المساكن والاماكن . وهنا نبدي نفس الملاحظة التي ابديناها على الباء المختصرة من « بيت » وذلك ان عين تختصر احياناً فتألفظ عَنْ فعين طوراً تُلفظ « عنطورا » وعين دارا « عندارا » واليونان يسمونها اندريس (Andaris) . وهذا بما يدل على أن عادة ابدال عَيْنَ بِعَيْنَ هي قديمة وأما هل ان عندريس من لبنان فراجع الجزء الاول (١١٢) وكذلك قرية عنبال (٣) في ناحية الشوفين فاصلها عين بال .

(١) نسبة الى حمدون وياقوت ولا يُعلمنا التاريخ عن اخبارها شيئاً

(٢) اتنا نصل ذكر الاسماء التي تبدأ بساقية وغدير

(٣) يظهر ان عنبال وعينبل في بلاد بشاره من اصل واحد وفي البشير ١٢ كانون الاول

وقس عليها مواضع اخرى من سورّة نحو «عين جار» في البقاع وعندقت «عين دقت» في عكار وعين دور في فلسطين وهي تُلفظ وتُكتب اليوم «اندور» ١٠. وقد تُدغم النون بالحرف الذي يليه نحو عماطور واصلها «عين ماطور» ٢١.

*

أما الاسماء العربية المحضة فهي كثيرة ومعروفة ولا حاجة الى ايراد امثلة عليها ويكفيها ايراد اسم «الجديدة» لكثرة انتشاره. والاسماء التي تتألف من «راس وظهر ووادي ودير ودوير» واشباهها وكثيراً ما يتفق ان اللغتين تشتركان بالاسماء اللبنانية كما رأينا في الامثلة المتقدمة فتختلطان وتترجان امثال الماء بالراح بحيث تشترك الكلمة العربية بالسريانية او تلتصق صيغة الجمع والتصغير العربية بكلمة من صيغة ارامية ويسهل تحقّق ذلك من الامثلة التي سبق لنا ايرادها. وفي بعض الاسماء كما في «نفه» يتعدّد الفصل بين اللغتين فلا نعرف أسريانية هي ام عربية وقد اقبلت لما اعلام الاماكن آثاراً شتّى تدلّ على مرور العرب والآراميين بلبنان بخلاف بقية الشعوب التي ورد ذكرها في الفصل الذي بحثنا فيه عن سكن لبنان من الامم القديمة فنردّ اليه القراء ليطالعوا خاصة المقالة التي دار الكلام فيها على الحثيين فاننا اتينا فيها على ذكر اسمين جغرافيين يتصل عهدهما بهذا الشعب على ما نظن. أما الفراعنة فع طول عهد استيلائهم على فينيقية لم يهتموا باستعمارها ولم يُعَتُوا باقامة الآثار فيها لكنهم كانوا يعمدون تدبير شؤونها الى عمال وطنيين مكنتين بوضع مراقبين عليها ٣٠. أما جنودهم فيها فكانت قليلة وكانوا من المتطوعين ٤١ فضلاً عن ان قسماً كبيراً من لبنان لم يدخل تحت حكمهم زمناً طويلاً. لاننا نعلم ان املاك الفراعنة في فينيقية ايام رمسيس الثاني كانت تنتهي عند نهر الكلب أما الرومان فلا نستطيع ان نعزو الى لغتهم إلا اسم غوسطا التي عورضت

١٩٠٤ يذكر مراسل من عيبل ان الرسائل المبعوثة الى قرية ترسلها ادارة البريد غالباً الى عيبل

(١) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, ٥٥

(٢) راجع تاريخ بيروت (ص ٨٨) والمجلة الفلسطينية ZDPV, XV, III

(٣) راجع الجزء الاول (ص ٧١) كتابات تلّ العمارنة

(٤) راجع كتاب مكس مولر W. Max Müller, : Die Aegyptier als Eroberer

بأغوستا (Augusta) نسبة إلى أغوستس ونحن نسلم بهذا الاشتقاق لكن باحتراز .
وبين غسطا وميروبا مزرعة صغيرة تُدعى طبرية فهل يأتى تشتق من اسم طيباريوس
نظير طبرية الجليل الشهيرة ؟ وان صحّ هذا التأويل فمن يكون طيباريوس هذا ؟
قد زعم حضرة الخوري غبريل صاحب تاريخ الموارنة (ص ٥٧٦) أنه الامبراطور
طيباريوس البيزنطي لكن هذه الشهادة ليست بكافية اذ لم يذكر ذلك احد من
المؤرخين الاقدمين

ثم اننا لا نعدّ من اصل لاتيني اسم «اسطبل» في اقليم التفاح ولا المحلات العديدة
التي تبدأ بقصر وبرج فان هذه الاسماء وان كانت في الاصل مشتقة من اللاتيني الا
انها قد دخلت في اللغة العربية من عهد بعيد حتى أصبحت كأنها اصلية ومثلها
الكورة اسم احد الاقضية في لبنان فأصلها يوناني «χωρα» اي الناحية . والهري
قريباً من شكاً فلا يبعد من انها تشتق من الكلمة اليونانية «ὄρεον» ومثلها اللاتينية
horreum وكلاهما بمعنى الهري والمخزن ومن الاسماء التي يمكن نسبتها الى اللغة
اليونانية طبرجا وجربتاً (١٠) أما طاميش فلعلها من ارطاميش «Ἀρταμῖς» وهي إلهة
الوثنيين كما ان جونية يُحتمل اشتقاقها من اليوناني «γυνή» اي الزاوية . وأما البترون
والقلمون جنوبي طرابلس فانهما من الاسماء السامية صوّفهما اليونان في لغتهم وجعلوها
منها كما صيروا جبيل «بيبلوس» وكذلك دفته في كسروان يشبه لفظها «δῶρον»
وهي شجرة الغار كما ان ناووس (قريباً من كسبا وشبطين) هي «ναός» . لكن
رنان يتساهل كثيراً فيرى الاصل اليوناني في عدّة اعلام لبنانية نظير دلبتسا وريفون
وعجلتون مع أن أصلها السرياني لا شبهة فيه . وفي رأيي ان كلّ الاسماء اللبنانية
المنتهية في لين وأون وأوش مثل غرفين وريفون وحنوش هي يونانية الاصل (٢) فهذا
الزعم لا يستحق ان نعيده التفاتاً . وبالجملة ليس في لبنان أكثر من عشرة اعلام

(١) راجع الجزء الاول (ص ٥٨ و ٦٩) ما قلناه عن انطلياس فان اشتقاقها من
اليوناني هو من الامور المشككة . وقد ذكر الشريف الادريسي شمالي صيدا بلدة باسم قلمون
لم نعرف من امرها شيئاً ولماها تعريف «علان» القريبة من خمر الاول . وكذلك قلمون
الرسمية على الخريطة الفرنسية شرق البترون هي تصحيف قزنون

(٢) راجع كتابه بعثة فينيقية (Mission de Phénicie 141, 246, 229 238)

مكانية يمكن ردها الى اصل يوناني فهذا العدد اليسير لا يكاد يُعبأ له بالنسبة الى الاعلام اللبنانية المتعددة التي ثبتت ساميتها

اما اكثر الاسماء توغلاً في الاجسام فهو اسم كسروان فمن المعلوم اننا نستخلص منه بلاغاً اسم العلم كسرى ولكن كيف نفسره ؟ ومن هو كسرى هذا ؟ وكيف وقع اسمه على هذه المقاطعة اللبنانية ؟ يقول قائل انه اسم احد متقدمي المردة وليس ذلك جواباً شافياً لأن المردة كما افاد التأريخ نزحوا عن لبنان ولم يخافوا فيه سلاطينهم . وكذلك لا نسلم بالتقليد الذي يرد « قب لياس » (في البقاع) الى قبر لياس . وهو زعيم اخر من زعماء المردة في قولهم . وليس قب لياس في رأينا اشد وضوحاً او بالحري اقل ابهاماً من انطلياس (١) والمسيو غورباتيس في تأليف حديثه (٢) يسلم برأي من يرجع هذه الاسماء الى المردة ويضعهم بانهم اتوا الى لبنان من بلاد الفرس لكن قبل العهد الذي يذكره توفان المؤرخ اليوناني وهم الذين دعوا كسروان باسمه . أتوا به من بلادهم . لكن التأريخ لا يذكر شيئاً من امرهم ما خلا توفان وهذا المؤرخ اليوناني يخاف كل المخالفة رأي غورباتيس في عهد دخولهم لبنان . امّا نحن فلا يسعنا الا ان نشاطر سيادة المطران يوسف دريان رأيه ويأوح لنا انه دحض بسديد براهينه زعم العالم الايطالي دحضاً مفجعاً . وعندنا ان اشتقاق اسم كسروان مشكل لم يحلّه احد الى الان

امّا اللغة الفرنجية فلم يبق منها في لبنان الا ما قلّ ونذر فكانوا يسمّون المنيطرة (Le Monestre) ويطلقون اسم (Franche-garde) على قلعة يُقال لها الان المنطرة وهي بجوار صيدا . ويدعون قلعة نيجا القريبة من جزين (Cavea de Tiron) ويسمّون قلعة الشقيف جنوبي النبطية (Beaufort) . ولم يبق من هذه الاسماء الا الاسم الاول الذي صحّفوه ونقلوه الى اللغة الفرنسية وكذلك اسم دير

(١) قرأنا في ذخائر لبنان لجنا براهيم بك الاسود : « كلمة اخلاص لا تخلو ان تكون منحوتة اما من انطون وايلاص واما من انطس ايلاص واما من ايكونة ايلاص وهذا الاخير هو الارجح » (كذا)

(٢) راجع Gubernatis : *Rassegna Nazionale, Mardaiti e Maroniti*, ١٦ Juillet, ١٩٠٣

البلعمند فهو منقول عن كلمة (Belmont) كما اثبتنا ذلك في موضعه (١) وقد رأى حضرة الاب ابراهيم حفوش في « خربة السويس » تلميحا الى الشعب السويسري (٢) فنحن لا نخال التسليم بهذا التفسير ممكناً لان السويسريين لم يعرفوا في اقطارنا فضلاً عن ان اطلاق اسم السويس على الشعب السويسري كان بعد ذلك العهد . ومن المحتمل ان اسم « روس الفرنج » (في قضاء جزين) و « جرف الفرنج » بجوار تنورين من آثار ذلك العصر غير اننا لا نستطيع ان نبت بهذا المعنى حكماً جازماً

واما اسم جرمق (بناحية جبل الريحان) الذي ورد ذكره اثناء كلامنا عن الجرامة فانه يحل اسم الجرامة وهو شعب ارامي (٣) تذكره كتبة العرب وهم لا يفرقون احياناً بين الجرامة والجرامة فهؤلاء الجرامة ليس لهم اثر في اسماء المواضع اللبنانية وذلك دليل على انهم اجتازوا لبنان اجتيازاً ولم ترسخ فيه اقدمهم ومن الاسماء التركية اسم الزوق وهذا الاسم من الاعلام المكائبة الموجودة معاً في كسروان وفي عكار (٤)

اما النتيجة التي نستمدّها مما قدّمناه في هذا الفصل فهي عجز اللغات غير السامية وقصورها عن التأثير في تسمية الامكنة اللبنانية العجيبة بوحدة نوعها . وهذا مما لا نشاهده الا في بلاد اوريا فانك تجر في اسماء مساكنها اشكالاً والواناً

(١) تسيح الابصار (١: ١٤٩)

(٢) المشرق (٥: ٢٩٨)

(٣) او فرقة من الاشوريين الاقدمين او « هم اهل الموصل في الزمان القديم » (القلشندي ٢٣٠: ١) راجع Chwolson: Die Sabier, II. 697 وياقوت في معجم البلدان (٣: ٦٤) يوس الى وادي جرمق على مقربة من صيدا وهو وادي جبل الريحان . ثم قابل بين نصي ابن الفقيه الهذلي قال الاول (ص ٧٧ سطر ٢٠) : « الروم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية » وقال الثاني (ص ١٢٦ سطر ١٦) وشرح قوله اصعب لان الكلام فيه من روم اروية : « الروم كلهم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية » فمن يتقدم اليها بشرح معنى الجرمقانية يقلدنا فضلاً وجميلاً ومن المقرر انه ليس المراد بها السريانية اذ ان الجرمقانية على قول ابن الفقيه لغة روم اروية الطقسية

Robinson : op. cit. 183 (٤)

*

اننا قد بينا في سياق الكلام عن دخول النصرانية الى لبنان قبل الهجرة بثلاثمائة سنة ما عانت من المكاره ولاقت من المصائب حتى استتب لها الامر وتوطدت دعائها (١) ولم يتم انتصار النصرانية على الوثنية قبل اواخر القرن السادس واولئ السابغ وذلك بفضل الشعب الماروني واسماء المساكن تؤيد هذه النتيجة التي لا سند لها الا الادلة التاريخية

انه لامر شائع في جميع البلاد النصرانية ان تُسمى المساكن باسماء القديسين فشيوع هذه العادة يظهر ما لعبادة القديسين من الشأن والاعتبار عند بني جلدتهم ويبين لنا اهمية الابنية الدينية التي نشأت حولها المدن الحاضرة. فن هذه المدن سانت اتيان في فرنسة وسان لويس في المالك المتحدة وسان باولو في البرازيل. فمما يقضي بالعجب ان الاسماء المكانية التي تنسب الى اسم قديس قليلة جداً في لبنان نعرف منها مار شينا في الزاوية ومار ماما في بلاد البترون اما في بلاد عكار فان روباسن يذكر في لوائحه (٢) مار لياً وهو اليوم خربة. وتزيد عليه اسم مزرعة مار توما (٣)

اما الاسماء التي تتألف من دير ودوير فهي اكثر شيوعاً لكنّها اقل مما ينبغي ان تكون في بلد اغلب سكانه نصارى. وعلة ذلك على ما نظن انحصار الطائفة المارونية زمناً طويلاً في شمال لبنان فانها لم تجاوز حدود نهر ابراهيم كما اثبتنا في جملة راضع الا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ونحن نعلم ان كثيرين يرفضون حتى الان التسليم برأينا. فما علينا الا ان نوضح للمناظر ان تسمية الاعلام الموضعية لا تقضي لهم ولا تتناول رأيهم. فقد ظهر من الابحاث التي نشرها حضرة الاب ابراهيم حوفوش في المشرق عن اديرة كسروان القديمة انها متأخرة عن الجيل الخامس عشر. فاي تفسير لهذا الشذوذ غير تفسيرنا. ثم علينا ان نعتبر ان الاديرة الكبيرة كانت قديماً

(١) تريح الابصار (١٧٠: ١-١١٢)

(٢) راجع تأليفه (ص ١٨٣)

(٣) وهذا الاسم مذكور في لائحة نفعل علينا بها حضرة الخوري بولس طعمه وقال ان اهلا اليوم مسلمون

نادرة في لبنان لأن العيشة الرهبانية فيه كانت في بادئ أمرها تقوم في الخلوة والعزلة شأن النساء والزهاد فأكثر الأديرة الكبيرة سيما جنوبي نهر ابراهيم بُنيت بعد تأسيس الرهبنة البلدية . وهذه بعض الاسماء التي تبدأ بدير : دير القمر ودير قوبل ودير بابا ودير دوريت وقد ورد ذكر جميعها في تواريخ الفرنج في القرون الوسطى (١) وفي تاريخ بيروت (١٩٢-٢٨٢) . فهذه القرى سبقت عهد القرن الحادي عشر وأهلها قامت على انقراض اديرة مبنية قبل الاسلام . وما يحملنا على هذا الاستدلال وجود تلك الاديرة بناحية لم يستوطنها غير الدروز قبل القرن السابع عشر . وقد يعنُّ لنا أن في هذه الناحية موضع الدير الذي اقامه في لبنان القديس ربولا وقد ورد ذكر هذا القديس في كلامنا عن ابتداء النصرانية في الجبل (٢) . وهما نحن نورد بعض اسماء ممَّا يبدأ بدير غير ما ذكرنا . ففي منحى لبنان الشرقي دير الاحمر (شمال غربي بعلبك) ودير طحنيش على منحدر جبل الباروك المشرف على البقاع ودير دالوم ودير جانين في بلاد عكار (٣) ودير الزهراني في وادي النهر المذكور

ولقد تبين لنا من ابحاثنا المتقدمة عن العاديات اللبنانية أن لبنان بلد تأصلت فيه العبادات الوثنية ورسخت اصولها وانتشرت فيها الهياكل والابنية التي تحيي ذكر الديانات السامية . فاسماء الاماكن تدعم شهادة العاديات وتوضحها على منوالها (٤) فبفضلها نُدرِك جلياً امر تلك الانقراض الدارسة وغايتها وبفضلها نكمل نقص التاريخ ولايضاح ذلك نتخذ بعض امثلة ممَّا يحضر الحاضر على سبيل الاتفاق :

فان كنا نجهل انتشار عبادة الإلهة الفينيقية تانيت في لبنان فالاعلام المكانية تُطلعنا عليها فمن تلك الاعلام كفر تانيت الواردة في تاريخ بيروت (٥) وعقبتيت جنوبي

(١) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV, X, 276, 277) اما تفسير اسم دير القمر في كتاب اخبار الاعيان (ص٢٩) فهو الى القرابة اقرب منه الى المكانة والسداد على ما لاح لنا

(٢) راجع الجزء الاول (ص١١٢-١١٤)

(٣) وغيرها في تلك الناحية . راجع روبنسون (١٨٣-١٩٠)

(٤) راجع ابحاث غلدتسير (Goldziher : Mohamm, Studien, II 334 336)

(٥) لصالح بن يحيى (ص ٢٢٦)

النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية ٢٤١

شرقي صيدا ١٦ وعيتيت على منحني لبنان الشرقي على سفح تومات نيجا الى الشرق .
 وليست تانيت وحدها الإلهة السامية التي عاش ذكرها في الجبل
 كُنَّا الى اليوم نشته بوجود إلهة كان الاراميون يؤذون لها اكراما خصوصا
 ويدعونها شيئا . وقد استلفت اليها الانظار بمقالاته حضرة الاب سبستيان رتوال (٢) فقد
 اكتشف بجذقه المعروف اسم هذه الإلهة في « كفرشيا » قريبا من بيروت « وبيت
 شاما » (على طريق زحلة الى بعلبك) « وشامات » في بلاد جبيل ونحن نضيف الى ما
 تقدم اسم « بعلشميه » (في المتن الاعلى) فهذا الاسم الذي يبدأ بعل هو عندنا من
 اغرب الاسماء الاولية والاصيلة في لبنان (٣) . فكل يعلم أَنَّ الآلهة كانت تُعبد في
 الهياكل السامية ازواجاً فكل من الآلهة كان بازائه ما يقابله ذكراً كان أو أنثى وحتى
 اليوم لم يكن مقابل شيئا لها . عروفاً وان كان يسوغ الاستدلال على وجوده بالاستقراء .
 اما الان فقد اكتشفت حديثاً كتابة يونانية شمالي سورية فيها ذكر الاله (Σέμω) (٤)
 فهذا الاله لا نخاله الا زوج شيئا الذكر لأن بعلشميه لا تعني الا بعل شيما اعني
 مُقابلها الذكر لأن لفظ البعل عند الساميين اذا جاء منفرداً كان يدلُّ على كبير الالهة
 ويشير الى اله محلي او خصوصي اذا أُضيفت اليه صفة كما نراه واقعاً
 ثمَّ انَّ قرية درب السين (وعلى الاصح درسين (٥) شرقي صيدا بمقربة منها
 تذكرنا باله آخر هو الاله سين او القمر المكرَّم خاصّة في بلاد بابل ومسا بين النهرين
 وكان له في حرّان هيكل مشهور ومنها امتدت عبادته الى سورية لأنَّ حرّان كانت
 مبنية على طريق القوافل التي كانت تتعاطى الاتجار في تلك الاصقاع
 وفي سورية الشمالية مواضع يدلُّ اسمها على انتشار عبادة القمر . فمن ذلك
 كفر باسين في جبل سمعان (غربي حلب) ويجوار افامية القديمة موضع آخر يدعى بهذا
 الاسم . فلفظة باسين تتركب من با وسين : والتأويل بيت سين اي مسكن او هيكل

- (١) راجع Guérin, Galilée, II, 516 وقد أهملت هذه البادة في الخريطة الفرنسية
 للبنان وهي غير كاملة في الجنوب (٢) راجع المشرق (٧: ٢٢١ - ٢٢٥)
- (٣) وقد ظنَّ بعضهم انه تصحيف « بعل شمين » اي بعل السماوات وهذه التسمية شائعة
 عند بني سام راجع اخبار الاعيان (ص ٢٦)
- (٤) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182
- (٥) ZDPV, VII, 115

الاله سين . وكان العرب في الجاهلية يعبدونه ايضاً (١) واهل هذه العبادة نقلتها عنهم الى لبنان قبياة الايطوريين وهي عشيرة من عشائر العرب سكنت قديماً في لبنان كما سبق لنا اثباته

ونرى ايضاً في لفظة «كفر قاهل» شمالي الكورة اسم قاهل ومعناه القدير وهو من اسماء الجلالة عند العرب الاقدمين (٢)

وما نبهنا اليه في بعشميه ودربسين ينطبق ايضاً على اسم دار بعشتار. فهذه اللفظة كما سبق شرحها في غير موضع (الجزء الاول ص ١٣٧) ما هي الا بيت عشتار اي هيكل عشتروت . وعشتروت هذه من معبودات اللبنانيين الخاصة ولذلك كان اليونان ينسبونهم الى لبنان فدعوا «*Λιβανίτις*» (٣) فالجزء الاول من الكلمة جرى عليه من الإبدال ما جرى في لفظة دربسين التي كانت في الاصل داربسين فحوّلها الشعب الى درب السين (٤) ولم ينتبه الى أنّ الباء الابتدائية هي اختصار بيت ثم قدّم على بعشتار لفظة دار ومدلوها البيت ولا عجب في هذا اذ أنّ في العامة ميلاً فطرياً يحملهم على وضع معنى للالفاظ القديمة التي يفوتهم ادراك سرّها . وبناءً على هذا المبدأ كتب العامة «مجد البعنا» (٥) (ضيعة في الجرد الشمالي) وكان حقها ان تُكتب مجدل بعنا، وهكذا قل عن «مجد المعوش» والصحيح «مجدل معوش» وجرى الشعب على هذه الطريقة لانه لم يكن يعرف ان مجدل هي لفظة كنعانية قديمة ومعناها قلعة فنقلها الى لفظ عربي متشابه

ومن المرجح ان اسم بزيّا المجاورة لدار بعشتار هو ادغام بيت عزيز. وعزيز هذا كان الهاً عند الساميين تتصل عبادته بعبادة الشمس (٦) وكان له مزيد الاكرام في

(١) قابل ايضاً اسم جبل طور-ينا 29-31, Grimme : *Mohammed*,

(٢) راجع Grimme, 39, *op. cit.*

(٣) (راجع الجزء الاول ص ٤٥ وتجد هناك صورة عشتروت ص ٤٦) - Clermont-
Ganneau : *Rec. Archéol. Orient.*, III, 188

(٤) اما رنان (512 Mission de Phénicie) فيريد ان تحذف الباء ويكتب الاسم دير السين. غير انه من الضرورة ابقاء الباء كما يستدل من اسم كفر باسين الشائع في شمال سورية

(٥) وهكذا كتبها صاحب دليل لبنان

(٦) راجع (129-130 p. 1903, Revue Archéol.)

الوها وفي حصص كما يُستدل من الكتابات اليونانية العديدة التي قرأنا فيها اسم « Ἀγέζος » ١)

أما الاعلام المركبة التي اول جزءها « عبد » فثانيها اسم الهي عادةً ولذلك لقبوا هذه الطائفة من الالفاظ بالاسماء الالهية . وعندنا ان عبدلي (من بلاد البترون) تتضمن اسم الله ولعلّه بصيغته اللطيفة ييلو في اللغة البابلية او في العبرانية بدلاً من الصيغة السريانية او العربية المشبعة والمفحمة . ومما يؤيد هذا التأويل هو انها لا تلفظ عبد الله بالتحسين والاشباع بل عبدلي **حجج** بكسر الدال اللطيفة او بالاشمام . واقد اطلعنا كتابات تل العمارنة على شدة نفوذ بلاد بابل في اقطارنا الشامية . فلا عجب اذن ان وجدنا شيئاً من آثار الديانة البابلية في سورية وقد شاهدنا مثلاً على ذلك في ادخال عبادة الاله سين . وقس عليه الاله البابلي نبو (وفي العربي نبا) فاننا نجد اسمه في « قصر نبا » شمالي رحلة على منحني لبنان الشرقي (٢) . ولا بدع ان اوردنا كتدكار بابلي اسم « كفر غرود » في بلاد جبيل وهي خربة وقد ذكرها عدة من علماء الافرنج (٣) ونحن لم نشاهد هذا المحل كما اننا لم نشاهد « قلعة تدمر » . فلذلك نكتفي بالاشارة اليها ولا نزيد على اسميها تأويلاً . على اننا نرى قري كثيرة ومزارع عديدة تسمى باسماء الالهة القديمة فمن هذه القرى بدادون (في الغرب الشمالي) فانها تتركب من ب = يات والصيغة السريانية أون المزيده في اواخر الاسماء . امّا داد فله قديم لبني سام ونجدته في لفظة دده (الكورة الشماليّة) كما نجد في عفسديق (الكورة الوسطى) اسم الاله صدق (٤) . وفي « مراح كيون » في اقليم التفاح يظهر اسم زحل احد معبودات الشعوب السامية وقد كان معروفاً عندهم باسم كيون (٥) . قال ابو العلاء المعري : اذا عظموا كيون عظمت واحداً فكان له كيون اول ساجد

(١) راجع تأليفنا في آثار حصص *Notes sur l'Emèse*, passim

(٢) ومثلها « كفر نبا » في جبل سمعان غربي حلب . وحاء في « ذخائر لبنان » (ص

١٣٥) ان نبا اسم امير عربي . وهو تفسير قصص

(٣) راجع بعثة فيزيقية (ص ٢٠٢)

(٤) راجع *Winckler, op. cit.* 473, 483

(٥) راجع *Winckler, op. cit.* 409

الآن أكثر الالهة شيوعاً عند الكنعانيين والفينيقيين هو البعل فلم يكن ممكناً ان يُغفل اسمه في تسمية الاماكن اللبنانية ولنا دليل في اسم بعلمشيه ومثله شلّبعل في بلاد الشقيف (١) . وكبعل قريباً من الغينة (كسروان) . وكفروبال في وادي فيدار . وسبعل وبسبعل (٢) شبالي قضاء البترون . وعنبال بدلاً من عين بعل (٣) في الشوف . فبهذه الاسماء لا تزال محافظة على اسم زعيم آلهة الفينيقيين
امّا صالبا فلعلها الكلمة الكنعانية « ضلح » وهذه الكلمة ليس معناها صورة وصنم فقط بل هي اسم احد الالهة السامية المسمى صاليم (٤) فيكون اذن معنى بصاليم (في المتن) بيت صاليم اي بيت الصنم او هيكل الاله صاليم
ومن العبادات التي شاعت كثيراً في سورية هي عبادة الشمس والى هذه العبادة ينسب اسم « عين الاسد والشحيس » في اقليم الحروب . وما يزيد هذا الاسم اهمية هو تضمينه لاسم اله آخر وهو الاله الاسد الذي اظهرت وجوده للعيان كتابةً اكتشفت حديثاً في جبل سمعان (٥) يُقرأ منها اسم الاله الاسد باليوناني (Λέων) . وفي بعلبك كان الاله جنايوس « Γενάιος » يُعبد بصورة اسد . وتمثيل الآلهة بصورة اسد كانت عادة شائعة في سورية (٦) . وقد تحدثنا النفس بان نعزو الى تلك العبادة الاسدية (٧) اسم مدينة الاسد (Λεοντόπολις) ونهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على منحدر لبنان الشرقي (٨) بين نهر الليطاني ونهر الكلب لكن مركزهما لم يُعرف تماماً (٩)

(١) راجع V. Guérin, *Gallée*, II, 530, 541

(٢) ولغظها الحالي لا يناقض رأينا في شيء فالعادة جارية في جميع البلدان على الاعلام التي لا يفهم معناها الوضحي بان يحدث تبديل في لفظها أولاً ثم في كتابتها

(٣) راجع اخبار الاعيان (ص ٢١)

(٤) Winckler, 473

(٥) Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

(٦) راجع مجموع الآباء اليونان لمن (Migne, PP. GG., CIII, c. 1292)

(٧) راجع مقالة الاب روتز قال بهذا الخصوص : (١٩٠٥, 48 - 53) *Revue Archéol.*

(٨) وكان اللبنانيون الوثنيون يندرون لأهتهم تقدم صور الاسد (Mission de Phénicie, 397)

(٩) راجع مقالنا عن اسماء انهر لبنان القديمة

واماً ما يتعلّق بعبادة الشمس فقابل « بيت شمس » وهو من الاعلام الكثيرة الشيوع في فلسطين (١)

ومثلها العبادة للاله رمّان (٢) التي شاعت في طَرَفِي العالم الساميّ في بلاد اشور كما في بلاد العرب وفي جميع البلدان المتوسطة بينهما . فمن تلك العبادة دُعيت اماكن عديدة باسماء تدخل في تركيبها لفظة رمّان نحو عين الرّانة وبرمّانا ولعلّها بيت الاله رمّان . ولَمّا أغفل على مدى الزمان اسم هذا الاله حُصِبَت هذه التسمية نسبةً الى شجر الرمان وليس له وجود في تلك القصبة وقد يتفق ان يكون ذلك في بعض الاماكن بشرط ان لا تكون في مواقع باردة لا يعيش فيها الرّمان . وليس لنا ان نهمل اسم « كفرعمي » الغريب وقد يمكن ان يكون اسماً الهياً لان « عم » من صفات الالهة عند بني سام الاقدمين (٣)

فهذه هي الآثار المهمّة التي ابقتها العبادات الوثنيّة في اعلام المساكن اللبنانية وهي كلّها عبادات سامية وهذا طبيعيّ في اراضٍ سكّانها ساميون . واما ما اختصّ بالعبادات اليونانية والرومانية فيدلّ عليها اسماء بلّوني وطاميش ولعلّها مشتقان من اسحي ابولون وارطاميس او ديانة (Diane) . لكنّ هذا الاشتقاق لا يتجاوز حدود التخمين وقد يمكن ان نقابل بطاميش دير ارطاميس (ومنه ابولوس) في حوران وهو مذكور في كتابة سريانيّة من الحليل السادس (٤) . وظنّ البعض انه ورد لابّاون ذكر آخر في لبنان وهو اسم مغارة بالقرب من صيدا يدعونها مغارة « ابّاون » وهذا الاسم مصحّف والصواب « مغارة طبلون » وهو اسم مكانيّ نجهل اصله لكننا لا نظنّه متعلّقاً بعبادة ابّاون اله الرومان . ولقد اوردنا في الجزء الاول (ص ١٤١) اسماً غريباً في بابِه وهو اسم « وجه الله » الذي كانت تسمي به اليونان رأس الشقعة وكذلك اسم ضيعة « وجه الحجر » القائمة على ذلك الرأس فاسم وجه الحجر من آثار عبادة قديمة والمكان يُدعى باليونانية (Θεοπρόσωπον) او (Λιθοπρόσωπον)

(١) راجع معاجم اثورا و Winckler, 369

(٢) راجع كتاب حضرة الاب لاكرانج (Lagrange) في الديانات الساميّة (ص ٩٢-٩٣)

(٣) Winckler, 480

(٤) ZDMG, 1875, 436

وكلاهما ترجمة الاسم العربي فقد كان بين طواغيت العرب صنم اسمه حجر وكان للايطوريين مركز على هذا الرأس من اهم مراكزهم يقال له جيجارتا فلعلهم هم الذين ادخلوا تلك العبادة الى لبنان (١)

وفي بعض كتابات دير القاعة ذكر انه يدعى (Ἀψευθνος) وقد استلقت هذه الكتابة انظار المستشرقين اي استلقت قنساءلوا عما عساه ان يكون ذلك الاله المجهول الى هذا الحين واين هيكله . فاذا حذفنا آخر الكلمة « νος » الدالة في اللغة اليونانية على النسبة بقي « Ἀψευθ » وبهذه الطريقة نحصل على اسم المحل المنسوب اليه هذا الاله . وقد بحثنا عن حقيقة هذا العلم فعن على فكرنا بادى بدء اسم رمطون التي ورد ذكرها مراراً في تاريخ بيروت (٢) لصالح بن يحيى وهي قرية من كفرمتى بينها وبين نهر الدامور . فرمطون هي اليوم خربة ولا ريب انها كانت قديماً ذات بال وشأن كما يستدل من نسبة الرمطوني الذي عرف به كثيرون من امراء الغرب فهذا الاسم يشابه الاسم اليوناني ولا فرق بينهما سوى ان ال التعريف داخله على الاسم اليوناني بخلاف العلم العربي الحالي منه

الآن في الاسماء اللبنانية المكانية اسماً آخر يوافق كل الموافقة حل هذا المشكل وهو اسم القرية عرمتى او عرمتى في ناحية جبل الريحان (٣) وبقرية منها مزار ابي ركاب الذي تبلغ في اكرامه وتاولة الناحية وما هو الا الاله المعبود قديماً في عرمتى والاله (Ἀψευθνος) المذكور في كتابة دير القاعة

فمما مرّ بك من التفاصيل يتبين عظم قدر العبادات الوثنية في لبنان والمصاعب الكثيرة التي ناصبتها النصرانية حتى توصلت الى نصر الحق على الباطل وبها تدرك معنى كثرة الابنية الوثنية في لبنان . فدرس الاعلام المكانية يطلعوننا على ان العبادات الوثنية كانت مع الابنية المختصة بها اوفر عدداً في قديم الزمن وانه لم يبق من اثرها الا اسما بعض المواضع فاذا ما حصلنا على لوائح وصفية وافية بالمطلوب امكننا ان نضيف زيادات كثيرة على ما قدمنا

(١) اطلب بعثة فينيقية لبنان (Mission, 402)

(٢) راجع مثلاً (الصفحات ٧٦ و ٨١ و ١٢٢ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٨٠ و ١٨٥)

(٣) ويوجد موضع آخر يدعى عرمتى في جبل (النصيرية)

*

واعلم انَّ فائدة درس اعلام الاماكن لا تنحصر في معرفة عبادات المشركين فقط فانَّ الجغرافية والتاريخ يجنيان منه اعظم جدوى . فمثال ذلك « خربة صيدون » في قاتقامية جزين تُحبي وتحفظ ذكر صيدون وهي صيدا وتدلّ على انَّ نفوذ ام المدن القينيَّة امتدَّ الى داخل الجبل

وقد نبّه بعضهم الى أنَّ فُرَيْدِس وهي كلمة فارسيَّة شائعة الاستعمال في سورّيَّة تدلّ عموماً على حظائر صيد قديمة للملك الفرس (١) وهي عادةً مواضع تكثر فيها المياه ومن ثمَّ الغابات والطرائد شيان يستلزم احدهما الاخر . وما من موضع احقُّ بهذا الاسم من فريديس الباروك فهناك سهل بهيج تسقيه ينابيع الباروك الغزيرة يشبه في تنظيمه وترصيفه حظيرة صيد كبيرة وعلى اكتافه ارز الباروك (٢) هو بقيّة من الغابات القديمة التي كانت تختلف اليها حيوانات متنوعة

وفي بطرآن من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت نزجج كونها انقراض هيكل اشمون الاله القينيقي (٣) الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطب عند اليونان . وكان النصاري القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خراباً والاهل يكرمونه وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرن بألم في الصدر ان يمسحن موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدس لا يذكرها اسماً ولعلَّ الشرقيين اشتقوا اسمها اشموني من العبرانية שמונה اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابناً غير مرة أنَّ لبنان يمتاز بنباته الراخ وغاباته الملتفة . امّا اليوم فمن يسرح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراه اجد في اكثر اماكنه قليل الاحراج والاشجار نسب

(١) راجع الجزء الاول (ص ١٣٤)

(٢) اطلب المشرق (١ : ٢٧٧)

(٣) راجع المجلة الاسيويَّة الالمانية (ZDMG, 1905, 459 etc.)

الينا التحمّس والمبالغة وارتاب بصدق ما روينا من الأدلة القديمة . غير أنّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسماة « غابة » او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سنديانة وبلوط وصفصافة وجوز وحوور ودلبة ودلبتا وزّعور ورمانة وخرّوب ولوز ولويزة وبُطم ومشش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروقها وتصغيرها وازافتها الخ . فاسم نهر الدامور او كما يدعوه اليونان تاميراس يتضمّن اسم النخل الذي يقال له بالفينيقية تامر (تمر) ويدلّ على قدم هذا الشجر في لبنان (١) . وبعض هذه الاشجار كانت بالنة في الكثرة حتى تسمّت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقليم التفاح واقليم الخروب » كما بيّنا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان

ومما يفتني بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبناينة اسم الارز سيّد الاشجار في لبنان . فعلة ذلك أنّ الاهلين بادروا في أوّل امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابها باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كلّ حدود التزوّي والفتنة كما سبق لنا ايضاحه (٢) فالارباح الفاحشة هي التي عرضت اشجار الارز الى العيث بها وخرابها حتى لم يبقَ منها الا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدي الانسان الا بفضل القمم المنيرة التي نبت عليها مع انّ الارز يؤثّر الموضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعه عن ثمانمائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثرها قائماً في الوسط . على انّ الشرائع الرومانية (٣) المختصة بالاحراج كانت تلاشت او كادت حينما شرع العمران يتأصل حقيقة في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليه وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغاً عظيماً حتى لم تبقَ احراج تستحقّ الاعتبار الا في الصرود العالية . فمجرّد وجود هذه الشرائع والكتابات

(١) راجع غرابطق اللغة الفينيقية للملاية شرودر فنصل عام الدولة الالمانية سابقاً في بيروت (P. Schroeder : *Phœnix. Sprache*, 135) وكتاب جوره Ch. Joret : *Les* (Clermont-Ganneau : *Rec. arch. orient.*, v, 328 ; *Plantes dans l'antiquité*, 369)

(٢) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

(٣) راجع الجزء الاول (٢٢-٢٣)

العديدة المنصوصة فيها وهي تُربي على المائدة لَمَّا يوضح لنا جلياً الحاجة الماسة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما أنَّ هذه الكتابات ليس لها وجود إلا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج أنَّ غايتها افكاكات حماية ارز ذلك الجبل

وهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانية التي تُسمَّى باسماء الاشجار او بما يُرجع اليها من الحرف والهن كمعصرة ومعاصر دليل على أنَّ لبنان كان ارضاً سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشغل المعادن مثلاً . فالاسماء العلمية لها اهمية كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لانكاد نصادف في جميع لبنان اسماً يُلحَق الى تلك الصنائع إلا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و « الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانية معناها مسبك او معمل حديد

وهذه الملاحظة نفسها تتناول الينابيع المعدنية او الحارة فكثيراً ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . اما اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود له البتة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانه يبين لنا ان الطبيعة لم تجد على لبنان بوفرة المعادن كما ضمنت عليه بالينابيع المعدنية والمياه الحمة اذ ليس فيه صخور بركانية

واما ما يدل على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانية . فليس بالواضح الصريح فاعل اسمي « مدينة الاسد » و « نهر الاسد » المار ذكرهما يشيران عند جغرافي اليونان الى وجود الاسد قديماً . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقة من اسم الحيوان إلا اسم بنعرة اي بيت غرة وكفرنيس : اما سن الفيل قريباً من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وُجد قديماً في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلة التي اوردناها في ابحاثنا السابقة (١)

٣

ولعله يخطر على بال كثيرين من القراء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهمية ومن هذا التشريح اللغوي وما المنفعة من هذا الدرس بالمكروسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن الاعمى

(١) راجع مقالنا المنونة : « ما فُقد لبنان من قديم الحيوان »

والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليه الان لآخر مرة

ان كل من تروى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخه وجغرافيته لا بد له من ان يكون لاحظ ما لاحظناه نحن انفسنا وهو اننا نعرف ماضي لبنان بشس المعرفة اذا لم نعتد إلا على الشهادات والادلة الكتابية التي تومى اليه لاسيما اذا كان مدار الكلام على ما تقدم عهده . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلفي الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول الا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المتفرقة على سطح الجبل ؟ فانها عجايب بكما لا تنطق بهت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من « تسريح الابصار » عرف ذلك حق المعرفة

فماذا ندري وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمري ان ذلك يكاد ان لا يكون شيئا . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لا نجد ذكرا للموضع مأهول في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتابا يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجل قصدنا كان اذن ان نعوض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسد بلاحظاتنا المتقدمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفى الى سبده جميعه فلا اقل من ان نسد بعضه وما لا يعلم كله لا يترك جأه فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس له ذكر في كتاب وليس فيه شيء من العاديات حتى ولا لحد منقور في صخر يدل على مرور الانسان فيه . فهذا مما يحضنا على ان نلتبس من اشتقاق اسمه اثرا لماضيهِ وان نستمد من دراسة اصول اللغات الفوائد التي ضن علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العلم يونانيا او لاتينيا فيسوغ لنا ان نستدل من ذلك على ان الموضع الذي يدعى بهذا الاسم يتصل تاريخه لعهد شيوع هاتين اللغتين في سوريّة وان كان الاسم يدل على عبادة وثنية فنرجح أنه

من عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لاسيما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقية او آرامية او اشورية. فتلك نتيجة ابحاثنا وهي على ما نظن من الاهمية بكان اذ تمهد طريقاً لمعرفة تاريخ نشأة المساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقل كثيراً عن الأدلة الكتابية اما اولئك الذين لا يعولون الا على الآثار المكتوبة فيمتحن عليهم ان يستنتجوا انه لم يكن في داخل الجبل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الا ما ندر لان التواريخ لا تذكر قبل الجبل العاشر الا ثلاثة اسماء مسماة صريحاً باسمائها اوردها اسطرابون (١) وهي جبجارتا وبوروما وصنان

فلا ننكر ان العمران لم يبدأ حقيقة في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انه من المعلوم ايضاً انه كان في لبنان اكثر من ثلاث قرى قبل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فيطالع ما كتبناه في مقالاتنا عن كيفية استعمار لبنان وعن سكناه الاقدمين الا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصل حينئذ الى نتائج بعيدة وادلة غير وافية بالمرام. اما الدليل الصريح على ان لبنان لم يكن خالياً من السكان في قديم الزمان كما يوهمه سكوت التاريخ والكتابات فاننا نجد خاصة في اعلام المواضع التي لخصناها وبيننا ان بعضها فينيقية وبالتالي متقدمة على التاريخ المسيحي بزمان طويل

على ان هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتج عناً ان كان من حاجة وتعدرنا فيما اذا كنا توقفنا طويلاً واسهبنا كثيراً في مثل هذا الموضوع الذي مع غفيمته له فضل الحداثة والابتكار فيما يختص بلبنان على الاقل وغاية ما نتمناه ان يستنهض ببحثنا هذا الضعيف المهتم العالية لاجاث حديشة فنهى اذ ذلك نفسنا لاننا باستطاعتنا السابقة ههنا السبيل الى ذلك وفتحنا باباً يطرقة بعدنا من هو اقدر منا

خاتمة الكتاب

فهنّا وعند هذه الامنية نقف بعد استئذان القراء الافاضل الذين بكل لطف
وجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان . على اننا لا ندعي اننا في مقالاتنا
المتقدمة وفينا بالطلوب او استنفدنا المادة واستفردنا الموضوع فاننا نفاذر لبنان ونحن
نعلم ان مسائل كثيرة فالتنا دون ان نتعرض لها ومشاكل شتى تركناها او لم نحلّها
حلاً مرضياً

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منا فيستخذها ويحكم فيها حكماً نهائياً او
يوضحها احسن ممّا اوضحنا - ونحن نتمنى في الختام ان ما بدأناه من الجّد والكد
يرفع طرفاً من النقاب الذي يجب عنّا ماضي لبنان ويحث ذوي الفضل واهل العلم
على ان يحدوا حدونا ويكملوا ما بدأنا به فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير
الذي اذاعت مديحة الكتب المقدسة وهو لا يزال من ابداع محاسن واجمل مشاعد
سورية الحالية .

فهرس

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الجزء الثاني

| صفحة | | |
|------|---------------------------------------|--------------|
| ٣ | اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ | الفصل الاول |
| ٤ | في النورا | |
| ٧ | عند اليونان والرومان | |
| ٨ | كتبة العرب | |
| ١٠ | ما تستفيد سورقة من لبنان | الفصل الثاني |
| ١١ | المنافع الهدروغرافية | |
| ١٢ | في الملك النباني | |
| ١٣ | اعتدال الجو | |
| ١٥ | انهار لبنان : منافعها وامجاوها | الفصل الثالث |
| ١٦ | منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً | |
| ١٩ | اسماء انهار لبنان قديماً وحديثاً | |
| ٢٣ | سكنى لبنان في قديم الزمان | الفصل الرابع |
| ٢٩ | الأمم البائدة في لبنان | الفصل الخامس |
| ٣٠ | الخبثيون | |
| ٣٤ | اليونان | |
| ٣٩ | الايطوريون | |
| ٤٠ | الرومانيون | |
| ٤١ | المردة | |
| ٤٥ | الجراجه | |
| ٤٨ | العجم | |
| ٤٩ | انتشار الامة المارونية في لبنان | الفصل السادس |
| ٥٠ | الموارنة قبل دخولهم لبنان | |

صفحة

| | | |
|-----|---|------------------|
| ٥٢ | ٠ هاجرة الموارد الى لبنان | |
| ٥٧ | الموارد في لبنان بعد الحيل الخامس عشر | |
| ٥٨ | بحث جغرافي في سيرة القديس مارون الناسك | الفصل السابع |
| ٥٩ | وصف مقاطعة كوناخية والقورسية | |
| ٦٣ | مدينة قرس | |
| ٨٠ | دير مارمارون | |
| ٩٣ | في امانات لبنان القديمة | الفصل الثامن |
| ٩٨ | رسم خرائط لبنان | الفصل التاسع |
| ١٠٧ | بحث في أنبياء وأغوار لبنان | الفصل العاشر |
| ١٠٩ | اودية لبنان | |
| ١١١ | منطقة الشاوج المخلدة في لبنان | |
| ١١٢ | ودف قسم لبنان | |
| ١١٥ | الغاور والجسور الطبيعية | |
| ١١٧ | النقطة التي عندها تنتهي المساكن والنبات | |
| ١١٨ | مياه لبنان ورسم مجاريها | الفصل الحادي عشر |
| ١٢٠ | رسم عيون لبنان | |
| ١٢٥ | كيف تكونت عيون لبنان | |
| ١٢٧ | اختلاف عيون لبنان | |
| ١٢٧ | رسم المجاري النهرية في لبنان | الفصل الثاني عشر |
| ١٣٢ | افادات عمومية | |
| ١٣٥ | المصايب والسدود النهرية | |
| ١٣٨ | الانهار العاملة | |
| ١٤٠ | الانهار وحدود المقاطعات | |
| ١٤٢ | مياه لبنان البحرية | الفصل الثالث عشر |
| ١٤٣ | المظاهر البحرية العمومية | |
| ١٤٦ | اعماق البحر في الشواطئ اللبنانية | |
| ١٥٠ | جزر قديمة بازاء بيروت | |
| | اكتبة الرمل | |
| | ارتفاع الساحل البحري | |

صفحة

| | | |
|-----|---|------------------|
| ١٥٤ | السواحل اللبنانية | الفصل الرابع عشر |
| ١٥٧ | سهل شكّا | |
| ١٥٨ | وصف رأس الشقعة | |
| ١٦٠ | رأس نهر الكلب | |
| ١٦٢ | حسن مركز المدن الفينيقية | |
| ١٦٥ | المرايا الفينيقية : طرابلس والبنرون وجبيل وصيدا | |
| ١٦٦ | لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية | الفصل الخامس عشر |
| | المبادئ العمومية | |
| | كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية : اللطاني والزهراني | |
| | والاولي والدامور ونهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم | |
| ١٦٩ | ونهر الجوز وادي عليّ والبارد ونهر عكار والنهر الكبير | |
| ١٧٣ | شركة مياه نهر الكلب | |
| ١٧٥ | مشروع مياه نهر ابراهيم | |
| ١٧٨ | الاحوال الجوية في لبنان | الفصل السادس عشر |
| ١٨١ | الفلاحة ولاحراج اللبنانية | الفصل السابع عشر |
| ١٨٣ | الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً | |
| ١٨٨ | مزروعات شتّى | |
| ١٩٥ | ما فقد في لبنان من قديم الحيوان | الفصل الثامن عشر |
| ١٩٦ | السمج في لبنان | |
| ١٩٩ | الفيل | |
| ٢٠٢ | التمساح | |
| ٢٠٧ | المعادن في لبنان | الفصل التاسع عشر |
| | حالة المعادن حاضراً | |
| | اولاً : الوقود . الفحم الحجري | |
| ٢١٣ | الحُـسـر | |
| | ثانياً : المواد والمناجم المعدنية | |
| | الحديد | |
| ٢١٧ | ثالثاً : الحجارة ولوازم البناء | |
| ٢٢٠ | معادن لبنان القديمة | |
| ٢٢٢ | الحديد | |

| صفحة | |
|------|--|
| ٢٢٣ | النحاس |
| ٢٢٧ | الفصل العشرون النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية |
| ≡ | منافع هذا البحث |
| ٢٣١ | الاعلام السريانية |
| ٢٣٣ | تفسير حرف الباء الداخلة على الاعلام اللبنانية |
| ٢٣٥ | الاعلام العربية |
| ٢٣٦ | ≡ اليونانية واللاتينية |
| ٢٣٧ | ≡ الفرنجية |
| ٢٣٩ | ≡ النصرانية |
| ٢٤٠ | ≡ وشيوع العبادات الوثنية في لبنان |
| ٢٤٧ | ≡ والملك النبطي في لبنان |
| ٢٤٩ | ≡ ≡ المعدني في لبنان |
| ٢٥٢ | خاتمة الكتاب |

فهرس الاعلام والمواد

التي وردت في جزئي كتاب تسريح الابصار على ترتيب حروف المعجم .
فالحروف الرفيعة تدل على صفحات الجزء الاول ما لم يتقدمها عدد ٢ الاسود الدال
على الجزء الثاني مع ما يتبعه من الاعداد الرفيعة

| | |
|--|---|
| اسكندر ساويرس ومآثره في لبنان ١٠٣ | الآراميون في لبنان ٢٩: ٢٨، في القورسية |
| اشجار لبنان ١٨٣: ٢-١٩٥ | ٦٠-٦١، ٦٧-٧١ لغتهم ٢٨، ٩٤-٩٦ |
| الاشوريون وآثارهم في لبنان ١٠-١٢ لغتهم | ١١٥، الاعلام الآرامية في لبنان ٢٢٢- |
| ٧٣-٨١؛ ٩٣-٩٤ | ٢٣٥ |
| الاعلام المكانية في لبنان وفوائدها التاريخية | ابراهيم (نهر) نهر ادونيس ٦-٧؛ ٥٨- |
| ٢: ٢٢٧-٢٥١ الاعلام الآرامية ٢٢٢-٢٣٥ | ٥٩؛ ٣: ١٧٥-١٧٧ |
| العمريية ٢٣٥ اللاتينية واليونانية ٢٢٦-٢٣٥ | اثنودورس القديس في بيروت ١٠٦ |
| الفرنجية ٢٣٧ الاعلام النصرانية ٢٣٩-٢٤٠ | الاجراس والنواقيس في لبنان ٩١ |
| الاعلام الدالة على الوثنية وآلهها ٢٤٠- | الاحراج والغابات اللبنانية ١٨١: ١٩٥- |
| ٢٤٧ | الاحوال الجوية في لبنان ١٧٨: ١٨٣- |
| اغريبا ومآثره في بيروت ٢٥-٢٦ | ادريانوس القيصر وآثاره في لبنان ١٧ |
| أفقا وهيكلها وآثارها ٤٩-٥١، ١٠٨، ١١٣- | ١٠٢، |
| ١١٣؛ ٣: ٣٨ | أده (البثرون) وكنيستها ٨٤ و ٨٨ |
| افيان او أمفان الشهيد احد طلبة بيروت ١٠٧ | أده (جبيل) وآثارها ٦٨-٦٩ و ٨٤ |
| أكولينا شهيدة جبيل ١٠٥ | كنيستها ٩٠ |
| الأمم البائدة في لبنان ٢٩: ٢٩-٤٩ | ادونيس او غوز وعبادته في لبنان ٢٨-٤١، ٤٣ |
| أمونير البيروتي في عهد القراطة ٧٩ | و ٤٩، ٥٥، ٥٨-٥٩، ١١٢ |
| اميا الفينيقية ٧٦؛ ٣: ٥٢ | ارز لبنان ١٣، ١٣٤-١٤٢ |
| امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع وعملها في | إرسس العابد اللبناني ١٠٦، ١٠٩ |
| لبنان ٧٣-٨١ | الاسد في لبنان ٢: ١٩٥-١٩٩ |
| اميون ٧٦ آثارها ١٤٤ | الأسراب اللبنانية ومياها ٢: ١٢٥-١٢٧ |
| انطلياس ٤-٥ نهر انطلياس ٤؛ ٢: ١٧٢ | اسماء الامكنة اللبنانية وفوائدها التاريخية ٢: |
| أنفة ١٥١-١٥٣ | ٢٢٧-٢٥١ |
| اهدن وكنيستها مسار جرجس ٨٣، ٨٥، ٩٣ | |

- كنيسة مار ماما ٩٣، ٩٧ آثارها ١٢٣ - ١٢٣
 الاولي (نهر صيدا) ١٨: ٢، ١٩، ١٧١
 الايطوريون في لبنان ٢٢ - ٢٣ : ٢ : ٤٠ - ٣٩
 ب *
 البابليون وآثارهم في لبنان ١٠-١٢ لغتهم في
 لبنان ٧٤-٧٣ : ٢ : ٩٤-٩٣
 بيلوس (اطلب جليل)
 البترون وآثارها ١٢١-١٢٢
 تجديدات وآثارها ٧٠ كنيسةها ٨٤، ٨٧-٨٨
 البحر : مياه لبنان البحرية ٢ : ١٤٠-١٥٤
 مظاهر البحر العمومية ١٤٢ اكثية الرمل
 البحرية ١٤٦ ارتفاع الساحل البحري
 ١٥٠-١٥٤
 برجا او طبرجا وآثارها ٥٧-٥٨، ١١٩
 برومة او بورومة (القلعة اللبنانية) ٢٣، ٢٤ : ٢ : ٢٥
 البردي في لبنان ٢ : ١٨٩-١٩٠
 بزيرا وآثارها ١٤٣ : ٢ : ٢٤٣
 بسكتنا ١١٧ : ٢
 بشارة (بلاد) وحسرها ٢١٣
 بشراي وكنائسها ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٧ جبسة
 بشراي ١٢١-١٢٣
 بشلي ١٢٦
 بطرس الرسول في بيروت ١٠٣
 البعل وعبادته في لبنان ١٥ - ١٦، ٤٢ - ٤٦
 و ٦٨
 بعلشميه واسمها ٢ : ٢٤١
 البقاع وموقعها ٢ : ٤
 بقر الوحش في لبنان ٢ : ٢٠١
 بقسمية وآثارها ١٢٨
 بكفيا وكنيسة مار جدا ٨٩ اسمها ٢ : ٢٤٣
- بلاط وآثارها ٦٨
 البكمند (دير) وآثاره ١٥٤ - ١٥٦ : ٢ :
 ٢٣٨
 بدونة ١٢، ٢٩
 بجميوس فاتح سورية ولبنان ٢٣، ٢٤ : ٢ :
 ٢٥، ٣٩-٤٠
 بسفيل (البروتي) اسقف قيسارية الشهيد ١٠٧
 بوركنو (الاب اليسوعي) وكتباته عن آثار
 لبنان ٣٨-٣٩
 بيت خشبو ٢٩
 بيت شاما ٢ : ٢٤١
 بيت مري ودير القلعة ١٢ - ٢١
 بيروت : نهرها ٤ بيروت العتيقة ١٤ اسمها
 القديم ١٦-١٧، ٢٦، ٢٧ ترقيها في عهد الرومان
 ومدرستها ٢٦-٢٨، ١٠٦ - ١٠٧ في عهد
 الفراعنة ٧٤ - ٨١ دخول النصرانية فيها
 ١٠١ و ١٠٢، ١١٢، ١٢٠ مشاهيرها ١٠٦ -
 ١٠٧ قناخا ٢٩ - ٣٠ ضواحي بيروت
 وجزائرها قديما ٢ : ١٧-١٨
 ت *
 تاريخ بيروت لصالح بن يحيى وفوائده
 ٢ : ٢٣١
 ثابيت الالهة اللبنانية ٢ : ٢٤٠
 تاودوريطوس مترجم حياة القديس مارون
 ٢ : ٥٨-٥٩ ترجمة حياته واعماله في قورس
 ٦٤-٧٠
 تدأوس الرسول في بيروت ١٠٣
 ترج ١٢٦
 التركمان في لبنان ٢ : ٥٧
 ترياريس (اطلب الله)
 تل المارنة ومعلومات آثارها عن لبنان في
 القرن الرابع عشر قبل المسيح ٣١ : ٧٣-٨١
 التمساح في سورية وفلسطين ٢ : ٢٠٢-٢٠٦

حدتوت وكينستها وآثارها ٨٦ - ٨٧، ٨٩ -
٩٠، ٩٠
حدت الحبيّة وكينستها ٨٤، ١٣٣
الحديد ومناجمه في لبنان ٢ : ٢١٢ - ٢١٧
٢٢٢، ٢٢٣
حرمون (جبل) ٣٤ : ٢ : ٥، ٢٣٠
حصن سليمان ١٥
حماة وآثارها الحثيّة ٣٠ : ٣١ - ٣٠
الحُمر ومناجمه اللبانيّة ٢ : ٢١٣
حنوش ١٤٩ - ١٥٠
حيطورة ومنجم فحمها ٢ : ٢١٠ - ٢١٢
الحيون وما فُقد منه في لبنان ٢ : ١٩٥ -
٢٠٦

✱ خ ✱

خرائط لبنان واتقادهما ٢ : ٩٨ - ١٠٧
الخزروب في لبنان ٢ : ١٩١ - ١٩٣
الخشب المتحجر ومناجم الفحم في لبنان ٢ :
٢٠٧ - ٢١٣

✱ د ✱

دار بعشتار وآثارها ١٤٢ اسمها ٢ : ٢٤٢
داعل وكينستها ٨٤
الدامور ونصرها ٢ : ٢٠، ١٧١ - ١٧٢
درب السين واسمها ٢ : ٢٤١
دفنة ٢٨
دوما وآثارها ١٠٧، ١٢٧ - ١٢٨
دير القلعة وآثاره وهياكله ١٣ - ٢١
دير مار مارون ١١٠ شهداؤه ١١٨ - ١١٩

✱ ر ✱

رأس الشقمة (جبل) ١٤٥ - ١٤٨ : ٢ : ١٥٦ -
١٥٨
رشكيدا وكينستها القديمة ٨٥، ٩١
رشميا واسمها القديم ٢ : ٢٣٤

شُوز (اطلب ادونيس)

توفيل الماروني ٣ : ٥٥

تولا وكينستها ٩٠، ٩١، ٩٢

تومات نيجا وقلعتها ٢ : ٢٠٩، ٢٣٧

✱ ث ✱

الثالوث الوثني في لبنان ٤٥

ثاودوسيوس الكبير ولبنان ١١١، ١١٣

✱ ج ✱

جبة بشرّي ١٣١ : ٤ : ٥٢

الجبل الشرقي او جبل الشيخ وجبل حرمون

٢ : ٥ - ٧، ٢٣٠

جَبيل وآثارها القديمة ٢٨، ٦٠ - ٦٣ مدافنها

٦٣ - ٦٦ نواويسها ٦٦ - ٦٧ بلاد جبيل ٦٧ -

٧٢ جبيل في عهد الفراعنة ٧٤ - ٧٩ دخول

النصرانيّة فيها ١٠١ - ١٠٢، ١٠٥ جبيل

المتيقة او باليبيلوس ٧ - ٨، ١٤

الجراجمة اصلهم وسكنهم في لبنان وحروجم

٢ : ٤٥ - ٤٨

جرّبتا وآثارها ٧٠

جرجس (القدّيس) وكرامته في لبنان ٨

جرمق والجرامقة ٢ : ٢٣٨

جزّين ومناجم فحمها ٢ : ٢١٠

جون عكّار ٢ : ١٥٤ - ١٥٥

جونيّه وصرّبا ٥ - ٨ اقوال العرب في جونيّه ٦

جيّجرتا او جيّجرتا (القلعة اللبانيّة) ٢٣

١٤٩ - ١٥١ : ٢ : ٢٥

✱ ح ✱

حاصبيا وحُمرها ٢ : ٢١٢

الحثيون في لبنان ٢ : ٢٩ - ٣٣

الحجارة اللبانيّة ومقاطعها ٢ : ٢١٧ - ٢٣٠

٢٢٦،

ش

- شامات وذكرها ٢ : ٢٤١
شبطين وكنيستها ٨٨
شط العرب ٢ : ١٣٧
شفور وشاغور ٣ : ٣٣
الشقيق (قلعة) ٢ : ٢٣٧
شكّا ٢ : ١٥٦
الشمس ومبادتها في لبنان ٢ : ٢٤٤

ص

- الصبيّر او التين الشوكي ٣ : ١١٠-١١١
صربا وجونية ٥-٨
صغار وكنيستها ٨٥, ٩٠
الصليبيون وآثارهم في لبنان ١٢, ٩٧, ١٢٣
و ١٢٤, ١٥٢, ١٥٤-١٥٦
صنّين (جبل) ٣٤-٣٥
صور وصيداء في عهد الفراعنة ٧٥-٨١
صُور : مفارة ونبع انطلياس ٤ مدخل مفارة
انطلياس ٦ جسر الماملتين ٨ مدخل مفارة
جميتا ومنبع نهر الكلب ١٠ باطن مفارة
جميتا ١٣ رسم هيكل البعل في دير القلعة
وآثاره ١٦ قناة نهر بيروت ٢٨ قلعة
معراپ ٣٧ اثار غينة والمشنقة ٣٨ الزهرة
اللبنانية ٤٤ قلعة فقرا ٥٤ برج ٥٩
مسكوكات بويئند السابع ١٥٥ صورة احد
غزاة الخشبين ٣ : ٣٣ صورة المشتري
البعلبكي في دير القلعة ٣٧ خارطة اسطرابون
٩٩ رسوم لمجاري المياه ١٣٠-١٣٣ السد
عند مصب نهر ابراهيم ١٣٤ خارطة لبنان
البحرية ١٤٤ رسم جبيل ١٥٠ صورة مرفأ
صيدا ١٦٤ منظر الليطاني قريبا من قرية
برغش ١٦٩ صورة نصب اكروم ١٩٧

- الرهبانية واول ظهورها في لبنان ١٠٩ في
القورسية ٧٤-٧٨
الرومان : سكنتهم الساحية ٥, ٩ آثارهم
في لبنان ١٠, ١٥, ١٨, ٢١-٣٤, ٤٩
٥٦, ٦٥, ١٢٣, ١٤٩ ; ٢ : ٢٦-٢٨
٤٠-٤١
ريب ادّى وابنه ازيرو الفينيقيان في عهد
الفراعنة ٧٥-٧٩

ز

- زبيدة (قناطرها) ٢٩
زغرتا ١٥٠
الزهراني (نهر) ٢ : ١٧٠-١٧١
الزهرة ومبادتها في لبنان (اطلب عشتروت)
هيكل الزهرة في افقا ٥٠-٥١ و ١٠٨
الزيتون ومزارعه في لبنان ٢ : ١٨٧-١٨٨
الزيتونة (بحيرة) ٤٨

س

- ساحل علما ٢٦
ساحل لبنان البحري ٢ : ١٥٠-١٥٤ السواحل
اللبنانية ١٥٤-١٦٥
سنراپ الاله في لبنان ٧١-٧٢
السريانية (اللغة) في لبنان ١١٥ في بلاد قورس
٣ : ٦٧-٧١ ; ٩٤ ٩٨
سلّماتا ١٤٧
السلوقيون وآثارهم في لبنان ١٠, ١٢, ٢٣
٣ : ٣٤, ٦٠
سمّر جبيل وكنيستها ٩١ آثارها ١٢٣-١٣٥
سمعان العمودي القديس ولبنان ١١٦
سنّ القيل ٤ : ٣ : ٣٠٠
سنّان (القلعة اللبنانية) ٢٣, ٣٤ ; ٢ : ٢٥
سنير (جبل) ٣٤-٣٥
سورية : فتح الرومان لها ٢٢-٢٦ ما نستفيد
من لبنان ٢ : ١٠-١٥

الفحم ومناجمه في لبنان ٢ : ٢٠٧-٢١٢
الفرنسيون : خارطة ضباطهم للبنان ٢ :
١٠١-١٠٢
فقرا وقلعتها او هيكلها ٥٢-٥٧
الفلاحة والاحراج اللبنانية ٢ : ١٨١-١٩٥
القيل في لبنان ٢ : ٢٠٠-٢٠١
فينيقية واحوالها في عهد القرائنة ٧٥-٨١
الفيديقيون وآثارهم في لبنان ١٥ لغتهم ٢٥
ديانتهم ٤١-٤٦, ٤٦-٤٦ بحارهم ومتجرهم
٧٦-٧٧ : ٢ : ١٥٠-١٦١
❖ ق ❖
القاسية (نهر) ٩ : ٢ : ٢١
قرايل ومناجم فحمها ٢ : ٢٠٨
قزحياً ورهبانها القدماء ٩٢, ١١١
القطين وكنيستها ٩٢
القلعة (اطلب دير القلعة)
قلعة الحصن ١٢٥-١٢٦
قلمون ١٥٢-١٥٥
قناطر زيدة ٢٩
قنوبين وكنيستها وديرها القديم ٩٢, ١١١
القورسية ووصفها ٢ : ٦٢-٦٣ اهلها ولغتهم
٦٧-٧٠ انتشار النصرانية فيها ٧٣-٧٤
العبشة الرهبانية في القورسية ٧٤-٧٨
قورس قاعدة القورسية ٦٣-٦٦
القياصرة في لبنان ٩, ٢٥, ٢٢
قيس الماروني المؤرخ ٢ : ٥٥
❖ ك ❖
الكركدن في لبنان ٢ : ١٩٩
كمروان وسكانه ٢ : ٥٧ - ٥٨ اسمه
٢٢٧
كفر باسين واسمها ٢ : ٢٤١
كفرتبيت ٢ : ٢٢٢
كفرحانا ٢ : ٢٢٢

❖ ط ❖
طاميش (دير) ١٢ اسمه ٢ : ٢٢٦
طرابلس والنصرانية فيها ١٠٣-١٠٤, ١٠٦
مقامها ٢ : ٢٤ ساحلها واماها ١٣٦
طلييوس الشهيد اللبناني ١٠٤
❖ ع ❖
عاديات نهر الكلب ١٠-١٢
العاقورة وكنيستها مار بطرس ٩٢
مبادات وآثارها ٦٩-٧٠
مبدله وكنيستها ٨٤, ٨٧, ٩١
المعجم في لبنان ٢ : ٤٨-٤٩
العرب في لبنان ٢٣ : ٢ : ٢٥
عزرتة ٢ : ١١٧
عشتمروت او الزهرة الإلهة اللبنانية ١٧, ٢٨
٢٩-٤٤, ٤٥-٥٠, ٥١-٢٩ : ٢ : ٢٩
مكاً في مراسلات تلّ العارنة ٧٥
عشيت ٦٩
عظورا ٢ : ٢٢٣, ٢٢٤
عيناتا ٢ : ١١٧
عين صوفر ٢ : ١١٧
عيون لبنان وتكوّناتها ٢ : ١١٨-١٢٠ اختلافها
في جرجا وكمياتها ودرجات حرارتها
١٢٠-١٢٥
❖ غ ❖
الغابات والاحراج اللبنانية سابقاً وحاضراً ٢ :
١٨١-١٩٥
غريغوريوس العجائي في بيروت ١٠٦
غزير ٢٦
غوسطا ٢٨ اسمها ٢ : ٢٣٥
غينة وآثارها ٢٨-٢٩
❖ ف ❖
فتنقا وقلعتها ٢٦

اخبار لبنان جغرافياً واقتصادياً ١٥-١٩
سكنى لبنان في قديم الزمان ٢٢-٢٩ الامم
البائدة في لبنان ٢٩-٤٩ الحثيون ٢٩
اليونان ٣٤ الايطوريون ٣٩ الرومانيون ٤٠
المردة ٤١ الجراجمة ٤٥ المعجم ٤٨ الموارد
٤٩-٥٨ لغات لبنان القديمة ٩٣-٩٨ رسم
خرايط لبنان ٩٨-١٠٧ بحث في انجاده
واغواره ١٠٧-١١٧ اوديته ١٠٩-١١١
منطقة تلوجه القراء اقمسه واقبسة علوها
١١٢-١١٣ مغاوره ١١٥-١١٦ جسوره
الطبيعية ١١٦-١١٧ مياه لبنان ومجارها
١١٨-١٢٩ مجاري مياه لبنان في الاسراب
١٢٥-١٣٧ مياهه البحرية ١٤٠-١٥٤ لمح
اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ١٦٢
الاحوال الجوية في لبنان ١٧٨-١٨١
الفلاحة والاحراج اللبنانية ١٨١-١٩٥ ما
فقد لبنان من قديم الحيوان ١٩٥-٢٠٦
المعادن في لبنان حاضراً وسابقاً ٢٠٧-
٢٢٦ النتائج التاريخية من درس اعلام
الاماكن اللبنانية ٢٢٧-٢٥١
لغات لبنان القديمة ٩٣-٩٨
لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ٢ :
١٦٥-١٧٧
اللوز اللبناني ١٩٣ : ٢
اوسبوس الشهيد في لبنان ١٠٥-١٠٦
البيطاني (نهر) ٩ : ١٨ : ٣ : ١٩ : ٢١ : ٢٢
١٣٠
الليمون في لبنان ١٩٣ : ٢ : ١٩٤
* م *

ماحوز (عين) ٥٨
مارون (مار) (الناسك) بحث جغرافي في سيرته
٢ : ٥٨ : ٩٣ مولده ونشأته ومكان تنسكه
وموته ٧٦-٧٩ مقام دير الشهيد وما جرى

كفرحي وكنيستها ٨٤ آثارها ومدرستها
١٢٨-١٣١
كفرشليمان وآثارها ٨٨-٨٩، ٩٣، ٩٧،
١١٩
كفرشليمان واسمها ٢ : ٢٤١
الكلب (نهر لوكوس) ٨-١٢، ٥٢ : ٢ :
١٢٨-١٣٩ جسور نهر الكلب وعادياتها
١ : ٨-١٣ رأسها ٢ : ١٥٨-١٥٩، ١٧٣-
١٧٥
كليساكن (جبل لبنان) ٧
كنائس لبنان القديمة وخواتمها الهندسية ٨١-
٩٩ تنظيم الكنائس في لبنان ١١٥
الكنعانيون في فينيقية ٧٤ : ٢ : ٩٤
الكورة وآثارها ١٤٢ اسمها ٢ : ٢٣٦
كوماجينة وموقعها في سورية ٥٩-٦٣
كويرت (هنري ورشرد) : خريطتها
لبنان ١٠٠، ١٠٦، ١١٣

* ل *

اللاتينية (اللغة) في بلاد الشام ٢٤-٢٥، ٢٧
لاونتوبوليس (مدينة فينيقية) ٥
لبنان واحواله في القرن الرابع عشر قبل المسيح
وفقاً لمراسلات تل العارنة ١٢-٨١ كنائس
لبنان القديمة ٨١-٩٩ دخول النصرانية فيه
١٠٠ اول مبشريه ١٠٠ نزاع النصرانية
والوثنية في لبنان ١٠٤ مبادئ العيشة
الرهانية في لبنان ١٠٩ ترقى النصرانية في
القرن الرابع ١١٢ تنظيم الكنائس في لبنان
١١٤ انتصار النصرانية خافياً على الوثنية
في لبنان ١١٦ لبنان وارزقه ١٣، ١٣٤-١٤٢
اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ ٢ : ٣-
١٠ لبنان الشرقي ولبنان الغربي ٥-٧
فوائد لبنان لبلاد الشام ١٠-١٥ منافع

✱ ن ✱

ناوس وهيكلها ١٤٢ اسحها ٣ : ٢٣٥
 (النحاس في لبنان ٢ : ٢٢٣-٢٢٦
 (النصيرية في لبنان ٣ : ٤٨ - ٤٩ ; ٥٧ جبل
 النصيرية (برجيايوس) ٢ : ٨-٩
 النورية (السدة في رأس الشقة) ١٤٥-١٤٦
 نوهر (الشهيد) ١٠٥ - ١٠٦
 نهر - انهار لبنان : نهر بيروت (ماغوراس)
 ٤ و ٥٣ : ٢ و ٢٠ و ١٧٣ نهر انطلياس ٤ : ١
 ١٧٣ نهر الكلب (اطلب الكلب) ٠ نهر
 ادونيس او نهر ابراهيم (اطلب ابراهيم) نهر
 الاسد او الليطاني (اطلب الليطاني) نهر
 القاسمية ٩ : ٣ : ٢١ و ٤١ نهر العاصي ونبعه
 ٥٢ نهر الاوتي (اطلب الاوتي) . منافع انهار
 لبنان جغرافياً واقتصادياً ٢ : ١٥-١٩ رسم
 المجاري النهرية في لبنان ١٢٧ - ١٢٢
 المصائب والسدود النهرية ١٢٢ انهار لبنان
 العاملة ١٣٥-١٤٢ لمحطة اقتصادية في الانهار
 اللبنانية ١٦٥ - ١٧٧ الزهراني ١٧٠ الاوتي
 ١٧١ الدامور ١٧١ نهر بيروت ١٧٢ نهر
 الموت ٢٢٢ نهر انطلياس ١٧٢ نهر الكلب
 ١٧٣ نهر ابراهيم ١٧٥ نهر الجوز ١٧٧ نهر
 قاديشا (ابو علي) ١٧٧
 نيجا وقلعها ٢ : ٢٢٧

✱ ه ✱

الهرمل ٣ : ٢٦
 هيرودس الكبير في بيروت ٢٨
 هيلانة (القديسة) ومآثرها ١٠٨

✱ و ✱

وادي جرمق ٢ : ٢٢٨
 وادي قزحياً ٩٢ و ١١١

فيو ٨٠-٩٢ . نازعات البعاقبة والموارنة ٢ :
 ٥١-٥٢
 ماغوراس (نهر بيروت) ٢ : ٤ و ٢٠ و ١٧٣
 المتاولة في لبنان ٢ : ٤٨ - ٤٩ و ٥٧
 المرافق اللبنانية ٢ : ١٦٣-١٦٥
 المردة في لبنان واصليم ٢ : ٤١-٤٥
 مسرح وكنيستها ٨٩ آثارها ١٢٢
 المسيح (السيد) في لبنان ١٠٠-١٠١
 المسيلة وآثارها ١٤٤
 المشتري (الاله) في لبنان ١٦ و ١٨ و ٧٠
 المشتري البعلبكي في لبنان ٣٧-٣٨
 المشمش في لبنان ٢ : ١٩٠ و ١٩٤
 المشقة وآثارها ٣٩-٤١
 المصائب والسدود النهرية في لبنان ٢ : ١٢٢
 المصريون وآثارهم في لبنان ١١-١٢
 معاد وآثارها ٧١-٧٢ كنيسها ٨٥ و ٨٧
 المعالمتين ٢٨ و ٢٨ : ٣ : ١٣٩
 معراب وقلعتها ٣٧-٣٨
 مغارة الراهب عند العاصي ١١٠-١١١
 المكيتون في لبنان ٢ : ٥٤
 منبج ٢ : ٦٣ و ٧١
 المنيطرة ٢ : ٢٢٧
 الموارنة اصليهم وانتشار امتهم في لبنان ٢ :
 ٤٩-٥٨ مناصبتهم للبعاقبة ٥١-٥٢ الموارنة
 والصلبيين ٥٥-٥٦
 موسى الحبشي ١١٢-١١٣
 المونوليثون في وادي العاصي ١٢٠
 المياه اللبنانية ومجاريها ٥١-٥٣ : ٢ : ١١٨ -
 ١٣٩ منافعها ٨ و ١٥ - ١٩ مياه لبنان
 البحرية ١٤٠ - ١٥٤ لمحطة اقتصادية في
 مجاري المياه اللبنانية ١٦٥-١٧٧
 ميروبا واسحها ٢ : ٢٣٤
 ميه وميه ٢ : ٢٣٤

فهرس الاعلام والمواد

٢٦٤

| | |
|--|---|
| يوحنا قم الذهب ولبنان ١١٥ | وادي عميق ١٤٧ و ١٥٠ |
| بوقيان الملك واثره ١١٢ | وادي النهر الكبير ٢ : ١١٣-١١٤, ١٣٠ |
| بوليوس قيصر في الشام ٢٥ | وجه الحجر وقلعتها ٢٣, ١٤٦ ; ١٥٧: ٢ |
| اليونان وآثارهم في لبنان ١١, ٦٥, ٦٨, ٧١ | ي |
| ١٢٧, ١٤٧ ; ٢ : ٣٤-٣٩ | (المعقوية) البدة في لبنان ١١٧-١١٨ ; ٢ : |
| اليونانية (اللغة) في الشام ٢٤ - ٢٥ ; ٢ : | ٥١ - ٥٢ |
| ١١٥ | اليمتونة بجزرتها وآثارها ٤٦ - ٤٩ ; ٢ : |
| | ١١٧ |



General Organization of the Library of the
Publications of the Ministry of Education

